الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

بلينيو أبوليو ميندوثا

سنوات الهروب

ترجمة: د. صبري التهامي زيدان

مراجعة وتقديم: د. حامد أبو أحمد

• الكاتب:
• بيلينيو أبوليو ميندوثا، روائى كولومبى.
• ولد ميندوثا فى تونخا بكولومبيا عام ١٩٣٢.
• درس الحقوق وهو ينتمى إلى أسرة شهيرة تعمل فى حقل الصحافة.
• عمل ابتداءً من عام ١٩٥٩، مديراً عامًا لوكالة الأنباء الكوبية فى كولومبيا، ثم انتقل ليعيش فى باريس عام ١٩٨٧.
وعندما عاد إلى وطنه أشرف على العديد من البرامج التليفزيونية، وكان يكتب مقالاً ثابتاً فى صحيفة "الوقت" El Tiempo، وشغل العديد من المناصب الدبلوماسية من أهمها اختياره سفيرًا لكولومبيا فى إيطاليا من عام ١٩٩٣ – ١٩٩٥، كما أنه كان رئيسًا لتحرير مجلة "الحر" Libre، التى ضمت أهم الكتاب فى أمريكا اللاتينية.
• من أهم أعماله.. مجموعاته القصصية "الهارب من التجنيد" عام ١٩٧٤، "اللهب والجليد" عام ١٩٨٤، ومن أهم كتبه "الكلمات الأولى" و"رسامو أمريكا اللاتينية فى باريس"، "تحديات السلطة"، "مازالت الشمس مشرقة"، بالإضافة إلى كتابه الأشهر عن "جابرييل جارثيا ماركيز"، "رائحة الجوافة"
• حاز العديد من الجوائز الأدبية من أهمها، "جائزة سيمون بوليفار الوطنية للصحافة" و"جائزة بلازا إى خانيس" عن روايته "سنوات الهروب" عام ١٩٧٩.

الجائزة:
جائزة بلازا إى خانيس.
تمنحها كبرى دور النشر فى إسبانيا "بلازا إى خانيس"، وقد تأسست عام ١٩٥٩، لتكريم الكتاب الكبار وتشجيع مبيعات كتبهم، وقيمتها المالية ٣٦ ألف يورو، أما قيمتها الحقيقية فهى المكانة الأدبية التى يحققها الكاتب فور الفوز بها.

سنوات الهروب

ميندوثا بلينيو أبوليو.
سنوات الهروب/ تأليف: بلينيو أبوليو ميندوثا؛
ترجمة: صبرى التهامى زيدان؛ مراجعة وتقديم:
حامد أبو أحمد . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠١٠.
٦٠٨ ص ٢١؛ سم .
تدمك ٧ ٧٠٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإسبانية.
أ ـ زيدان،صبرى التهامى (مترجم).
ب ـ أبو أحمد، حامد (مراجع ومقدم).
ج ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٢٩٣/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -706 - 7
ديوى ٨٦٣

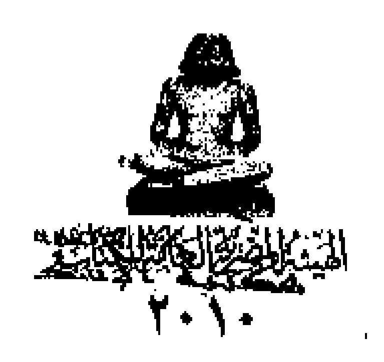
سنوات الهروب

رواية

بلينيو أبوليو ميندوثا

ترجمة: صبرى التهامى زيدان

مراجعة وتقديم: د. حامد أبو أحمد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

• الكتاب: سنوات الهروب

Años de Fuga

• تأليف: بلينيو أبوليو ميندوثا

PLinio Apuleyo Mendoza

• ترجمة: د. صبرى التهامى زيدان

• مراجعة وتقديم : د. حامد أبو أحمد

• الطبعة الأولى ٢٠١٠.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

مقدمة

بلينيو ابوليو ميندوثا والأدب الحديث فى كولومبيا.

«كثيرون يحملون الأسماء، ولكن قليلين جدًا هم الذين يبقون. فحول كل شاعر كبير توجد سحابة من الشعراء الصغار مثل أسراب البعوض التى تطن حول أحد الأسود». هذه الكلمة قالها أحد الشعراء وهو خوسيه ماريا كويتثى ووضعها الشاعر الكولومبى خوان جوستابو كوبو بوردا مدخلاً لكتابه «تاريخ الشعر الكولومبى فى القرن العشرين» الذى صدر فى بوجوتا عام ٢٠٠٨ وتشرفت بإهدائه إلىَّ عندما التقينا فى إحدى الندوات. وقد سمعت مرارًا المرحوم الشاعر العراقى الكبير عبد الوهاب البياتى يقول كلامًا كهذا، وقد سجلته فى كتابنا المشترك «عبد الوهاب البياتى ـ القيثارة والذاكرة». وهذه الكلمة تنطبق على الأفراد فى كل صنوف الأدب والثقافة كما تنطبق على الدول.

فدول أمريكا اللاتينية، ومن بينها دولة كولومبيا، ظلت عالة على الثقافة الأوروبية حتى نهايات القرن التاسع عشر تقريبًا، ولا ينفى هذا بالطبع ظهور بعض الأدباء الكبار هنا أو هناك خلال القرون، التى تلت اكتشاف الأمريكتين عام ١٤٩٢، ولكن نهايات القرن التاسع عشر كانت مؤشرًا لحدوث تحولات كبرى فى ثقافة بلدان أمريكا اللاتينية. فبعد أن كانت هذه البلدان مجرد مستوردة للثقافة الأوروبية أصبحت مصدرة لها، وبعد أن كانت تتلقى التأثير صارت هى المؤثرة. وقد تمثلت البداية فى ظهور شاعر من نيكاراجوا هو روبن داريو (١٨٦٧ ـ ١٩١٦م) هو الذى تزعم حركة تحديث الشعر فى اللغة الإسبانية «الموديرنزم». وكان لصدور ديوانه «أزرق» (*) عام ١٨٨٨ أصداء واسعة سواء فى أمريكا اللاتينية أو فى إسبانيا لدرجة أن أحد الأدباء الكبار فى إسبانيا فى ذلك الوقت وهو خوان باليرانوه بهذا الكتاب فى إحدى الجرائد واعتبره بمثابة فتح جديد فى الشعر المكتوب باللغة الإسبانية. أما ديوانه الثانى «نثريات دنيوية» الصادر عام ١٨٩٦ فقد قال عنه الشاعر الناقد دامسو ألونصو: «إن ديوان نثريات دنيوية» قد نقل إلى إسبانيا روح قرن كامل من الشعر الفرنسى. واعتقد أنه منذ يوم غرناطة الشهير (يقصد لقاء الشاعر خوان بوسكان بقنصل إيطاليا فى غرناطة فى بداية القرن السادس عشر وتأثير ذلك على شعر عصر النهضة الإسبانى) لم توجد لحظة

(*) AZUL صدر عام ١٨٨٨م.

أكثر تفاؤلاً وأكثر امتلاء بأنوار الفجر العذراء من هذه اللحظة» وهكذا أصبح الشاعر روبن داريو القادم من نيكاراجوا فى أمريكا اللاتينية هو زعيم حركة التجديد فى الشعر الإسبانى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وخلال القرن العشرين أخذت بلدان أمريكا اللاتينية تسهم بقوة فى الثقافة المكتوبة باللغة الإسبانية، ثم تجاوزت الحدود لتصبح من أهم الثقافات المؤثرة فى العالم. ولهذا ظهر أدباء كبار فى كل المجالات كان لهم حضور واضح فى كل أنحاء العالم، نذكر من بينهم الشاعر الشيلى بابلو نيرودا أحد رواد أدباء الالتزام فى العالم، وخوسيه مارتى الشاعر صاحب التأثير القوى فى كوبا، وخورخى لويس بورخيس، وجابرييلا ميسترال، وأوكتابيو باث وغيرهم.

وفى الرواية نجد أسماء ذات أصداء عالمية قوية مثل الكاتب الجواتيمالى ميجيل آنخل أستورياس، والكولومبى جابرييل جارثيا ماركيز، والبيروانى ماريو بارجس يوسا وسواهم. ولانريد أن نتوقف كثيراً عند هذه الأسماء أو أسماء أخرى، فجميع المشتغلين بالثقافة ولاسيما الأدب يعرفون الآن أهمية الأدب اللاتينى الأمريكى، وأهمية هؤلاء الكتاب البارزين، ويكفى أن أعمالهم قد ترجم معظمها إلى اللغة العربية فى مصر وسوريا والعراق ولبنان والمغرب ودول الخليج.

بلينيو ميندوثا

عرفت هذا الكاتب منذ فترة مبكرة من حياتى عندما كنت أدرس فى إسبانيا فى أواخر السبعينيات من القرن الماضى. وكان جابرييل جارثيا ماركيز فى ذلك الوقت ملء السمع والبصر سواء فى إسبانيا أو فى العالم العربى، وقد تُوج كل هذا بحصوله على جائزة نوبل فى الأدب وعمره أربعة وخمسون عامًا فقط. ولاشك أنه من الكتاب القليلين الذين حصلوا على هذه الجائزة الرفيعة فى سن أقرب إلى الشباب. ومعروف أننا فى العالم العربى نظل نطلق على الأديب صفة الأديب الشاب حتى وإن بلغ الستين من عمره. ولكن ما صلة هذا الكلام بالأديب بلينيو ميندوثا؟. والواقع أن معرفتى به جاءت عبر بوابة جارثيا ماركيز؛ فقد أخبرنى صديقى الكولومبى داسُو سالديڤار، وكان يقيم فى مدريد (ترجم له الدكتور صبرى محمد التهامى كتاب «رحلة إلى الجذور» عن حياة وأعمال جارثيا ماركيز، وقد راجعت الكتاب ونشر ضمن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة) أن من أهم الكتب التى صدرت عن ماركيز كتاب تحت عنوان «رائحة الجوافة» وهو عبارة عن حوارات أجراها معه صديقه بلينيو ميندوثا. قرأت الكتاب واقتطفت منه فقرات كثيرة فى كل ما كتبت عن جارثيا ماركيز، ومازلت أعود إليه لأرى كيف يأتى الإبداع الحقيقى من واقع الحياة وواقع الناس، وفى ذلك قال جارثيا ماركيز: «إن أفضل صيغة أدبية هى الحقيقة

دائمًا وأبدًا». وقد أوضح ماركيز ذلك فى كلام آخر ردًا على سؤال لميندوثا فقال: «نعم أنا أعتقد أن القصة ماهى إلا تمثيل محسوب للواقع، إنه نوع من اللغز أو الأحجية المتصلة بالعالم. فالواقع الذى يتم تناوله فى قصة مختلفة عن واقع الحياة، وإن كان يقوم عليه، مثلما يحدث فى الأحلام» وهكذا استطاع بلينيو ميندوثا فى هذه الحوارات أن يجعل جارثيا ماركيز ينطق بإبداعات لاتقل بأية حال عن إبداعاته القصصية والروائية.

فمن هو بلينيو ميندوثا؟. ولد هذا الكاتب عام ١٩٣٢ فى مدينة تونخا بكولومبيا، أى أنه أصغر من جارثيا بأربعة أعوام فقط. كان والده محاميًا. وقد درس بلينيو العلوم السياسية فى جامعة السوربون بباريس، ولهذا عمل بعد تخرجه سكرتيرًا أول للسفارة الكولومبية فى فرنسا. وقد ترقى فى السلك الدبلوماسى حتى عُين سفيرًا لكولومبيا فى إيطاليا وفى البرتغال. عاش ميندوثا فى أوروبا ثلاثين عامًا، من بينها بعض الفترات فى إسبانيا، وقد أقام فى جزيرة مايوركا التابعة لإسبانيا لمدة ثلاث سنوات. وعلى الرغم من هذه الإقامة الطويلة خارج وطنه إلا أن نظره ظل دائمًا متوجهًا إليه، وهذا حدث لكثير من كتاب أمريكا اللاتينية إما بسبب العمل فى السلك الدبلوماسى كما نجد عند ميجيل آنخل أستورياس وبلينيو ميندوثا وسواهما، وإما بسبب النفى الإجبارى أو الاختيارى، أو بسبب البحث عن حياة أفضل لاسيما

وأن بلدان أمريكا اللاتينية كانت تعانى من الفقر الشديد فكان كثير من الكتّاب والأدباء يتوجهون للعمل فى أوروبا إما مراسلين للصحف والمجلات كما حدث مع ماركيز أو غير ذلك من مهن وأعمال، بعضهم كان يأتى للدراسة فى أوروبا كما حدث مع ماريو بارجس يوسا الذى حصل على الدكتوراه فى الأدب من جامعة مدريد عام ١٩٥٧، واستطاع أن يمد جسور التواصل مع الثقافة الأوروبية ومن بينها بالطبع ثقافة إسبانيا، وهذا ماذكره لى فى حوار مطول أجريته معه.

بلينيو ميندوثا - إذًا - لا يختلف عن كتاب وأدباء أمريكا اللاتينية؛ فهو يعيش لفترة طويلة فى القارة الأوروبية ويتأثر بما يحدث فى أوروبا وفى العالم، ويصاحب الكتّاب والفنانين، ويتعامل مع الناس فى الشوارع. ولاشك أن رواية «سنوات الهروب» التى نقدمها إلى القارئ تعكس كل هذه الأوضاع التى أشرنا إليها: فالمؤلف أو بطل القصة شديد الالتصاق بوطنه، وهُو واحد من مجموعة من الشباب همها الأول هو مستقبل الوطن، وقد حدث هذا فى فترة كان فيها المد اليسارى فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى يغزو العالم كله بما فى ذلك بلدان أمريكا اللاتينية، وكان الشباب دائمًا يجتمعون حول هدف واحد ومبادئ واحدة يمكن أن يختلفوا حول تطبيقها لكنهم لا يختلفون أبدًا حول أهميتها ودورها فى النهوض ببلدهم ومجتمعاتهم. وفى الجانب المقابل نجد بطل الرواية يعيش حياته الخاصة فى باريس

والقرى المجاورة وبالمادى مايوركا، يرصد الشوارع والأماكن والناس والأحداث، ويقيم علاقات مع عديد من الأشخاص رجالاً ونساءً يختلفون فى أمزجتهم وأفكارهم وعقائدهم، ويتصرفون من واقع اقتناعهم بهذه الفكرة أو تلك، ولذلك سوف نعثر فى هذه الرواية على نماذج وأنماط لاحصر لها من البشر، كما سوف نضع أيدينا على رؤية نافذة لأحد أبناء أمريكا اللاتينية تجاه ما يحدث فى فرنسا خاصة وفى أوروبا عامة. إنها رؤية دبلوماسى، أديب مثقف يعيش فى عالم مختلف عن العالم، الذى جاء منه، ومن ثم يمكن أن نقول عن رواية «سنوات الهروب» إنها رؤية إنسانية تثبِّت عيون الكاميرا على مجتمع مغاير فى وقت كان العالم يشهد فيه تحولات خطيرة على الصعيدين السياسى والاجتماعى. ولا شك أن ترجمة هذه الرواية سوف تتيح لنا الفرصة لكى نقرأ لمنيدوثا إبداعًا آخر يختلف عن إبداعه فى الحوارات المذكورة مع جارثيا ماركيز «رائحة الجوافة».

ولكن كتابات بلينيو ميندوثا كثيرة ومتنوعة، وتدور بين الحوار والرواية، كما رأينا والمقال الصحفى، لاسيما وأنه كان مسئولاً فى فنزويلا عن إدارة مجلتى «النخبة» و«الزمن»، وفى كولومبيا أدار مجلتى «الفعل الليبرالى» و«اللقاء»، وفى فرنسا تحمل مسئولية مجلة «حر» Libre التى كان يكتب فيها كتّاب أمريكا اللاتينية الذين تكوَّن منهم ما سمى بحركة «الانفجار» Boom وهى الحركة الأهم فى تاريخ الرواية فى هذه

القارة، وقد انطلقت عام ١٩٦٢ والتف حولها كل الكتّاب الشباب الذين أصبحوا فيما بعد من كبار كتّاب العالم، ومن أبرزهم ماريو بارجس يوسا. وقدم بلينيو ميندوثا أيضا إبداعات فى القصة القصيرة مثل مجموعة «الهارب من التجنيد» (١٩٧٤)، وله أيضًا «اللهب والجليد» (١٩٨٤). كما كتب ميندوثا عن «رسامى أمريكا اللاتينية فى باريس» عام ١٩٩٠، وجمع مقالاته الصحفية فى كتاب عنوانه «الكلمات الأولى» ومثلما يحدث عادة للكتّاب المتميزين فى أوروبا وأمريكا اللاتينية نجد أن بلينيو ميندوثا قد حصل على عدد من الجوائز مثل جائزة سيمون بوليڤار الوطنية للصحافة، التى فاز بها بالاشتراك مع شقيقاته، وحصل عام ١٩٧٩ على جائزة القصة من دار نشر «بلازا إى خانيس» Plaza y janes عن روايته «سنوات الهروب» ومعروف أن دور النشر فى الغرب تسهم بصورة فعالة فى تقديم الجوائز للأدباء والمفكرين. والدار المذكورة من أهم دور النشر الخاصة فى البلاد المتحدثة باللغة الإسبانية.

ويبقى أن نتوقف عند فكرة وردت فى حوار مع بلينيو ميندوثا. فقد سئل عن رأيه فى تعدد اللغات حاليًا فى إسبانيا. ومعروف أن إسبانيا الآن فيها أكثر من لغة وفقًا لمناطق الحكم الذاتى Autonomiaوهى اللغة القشتالية وهى الإسبانية التى لا يوجد غيرها فى دول أمريكا اللاتينية، واللغة الباسكية فى منطقة الباسك، واللغة القطالونية فى منطقة قطالونيا حيث

مدن برشلونة وترجونة وليردة وغيرها، واللغة الجليقية فى منطقة جاليستا أو كما كان يسميها العرب جليقية، بل إن منطقة بلنسيه هى الأخرى تحاول جاهدة أن تكون لها لغتها الخاصة وقد بدأت تفرضها حاليًا فى شئون التعليم والشئون الأخرى كما يحدث فى مناطق الحكم الذاتى، وتبقى اللغة القشتالية هى اللغة الأم، ولكنها معرضة لأخطار كثيرة فى مناطق الحكم الذاتى، ومن بينها أن أهل هذه المناطق يحاولون أن يستغنوا بلغتهم عن اللغة الأم. وقد أعجبنى رأى ميندوثا فى هذا الشأن، ولعل هذه هى أول مرة أقتنع فيها بأن هذه اللغات المحلية تهدد وحدة الثقافة الإسبانية. وقد بنى ميندوثا رأيه الذى ينطوى على إحساس شديد بالخطورة على ما يلى: أولاً إن هذه اللغات الإقليمية لغات محلية، أما اللغة القشتالية أو الإسبانية فهى لغة عالمية تؤثر بآدابها وثقافتها على كل أنحاء العالم. ثانيًا: إن أمريكا اللاتينية بدولها التى تزيد على العشرين لايمكن أن تكون فيها لغة أخرى غير اللغة القشتالية. ثالثًا: إنه من العبث أن يضطر القادم من أمريكا اللاتينية للتعليم أو العمل فى إحدى مناطق الحكم الذاتى إلى دراسة لغة أخرى محلية لاتتعدى أبعادها أسوار المحليات وليس لها أى أثر ثقافى أو علمى فى الخارج.

ولاشك أن قارئ رواية «سنوات الهروب» التى نقدمها الآن سوف يطلّع من خلالها على كثير من أفكار الشباب فى أمريكا اللاتينية وطرقهم فى

الاحتشاد والتجميع وتنظيم الجهود، وهو أمر يتميز به الشباب فى هذه البلاد. وقد حكى لنا الرئيس الأمريكى باراك أوباما فى سيرته الذاتية، التى نشرت تحت عنوان «أحلام من أبى» كيف استطاع فى شبابه الغض أن ينشئ جمعية لتنمية المجتمع، وأن يقيم تنظيمًا لتشغيل الشباب العاطل عن العمل، وكل هذا قبل أن يلتحق للدراسة بكلية الحقوق / جامعة هارفارد.

وقد كان شباب أمريكا اللاتينية - كما قلنا - مضطرًا للهرب خارج بلاده وبالأخص خلال فترة الاضطرابات الكبرى فى الخمسينيات، لكن عيونه كانت متوجهة دائمًا إلى بلاده للبحث عن الحرية السياسية، ومن خلال ذلك الوصول إلى حياة أفضل، وقد تحقق لهم ذلك على الأقل أثناء العقود الثلاثة الأخيرة، التى شهدت انعتاق معظم هذه البلدان من أسر الدكتاتورية التى تمثل العقبة الأولى أمام نمو الشعوب وتطورها ووصولها إلى الأفضل والأنفع.

د. حامد أبوأحمد

بيدى المحترقة لدى الحق فى أن أكتب كلمات
حول طبيعة النار.

جوستاف فلوبير

الفصل الأول

ـ ١ ـ

في جو شبيه بالظل مليء بالدخان تردد صوت الإسطوانة مرات كثيرة في ذلك العام. أغان وموسيقى من كل الأنواع تنطلق بقوة صاخبة ومدوية بنغم مضطرب وطرب خالص يعلن "إني قادم الآن" وهاهو فرناندو وقد انعكس عليه البريق الأحمر للشاشة الوحيدة المتدلية من السقف حيث جعلت لحيته ذهبية اللون ، كان يرتدي قميصًا أصفر وقد التصق بعظام كتفيه من جراء العرق ، كان حافيًا، سريع الساقين ، يرقص في وسط القاعة بين الشبان الجالسين على الأرض ، يقرنون الموسيقى بأصوات الأكواب والملاعق .وكانت هناك فتاة ترتدي زي رعاة البقر الأزرق ، ذات أرداف نحيفة نحيلة لكنها صلبة ثابتة غير مترهلة ، نهضت لترقص ، وكانت ترقص بإيقاع بربري .

ـ من أين هي ؟ سألت مينينا .

إنَّها من بارَّانكيا، الأ ترين كيف ترقص ؟ ـ ردَّ إيرنستو وهو ما يزال ينظر إلى الفتاة مفتونًا بها .

بحث الجميع عن برودة الليل، وجلسوا إلى جوار النَّافذة بكأس فى أيديهم به مشروبٌ كحوليٌّ. وكانت تأتى من الخارج من بين سياجات النَّافذة نسمةٌ هادئةٌ، نسمة صيف ، وصوب المكان الذى كان يظهر من خلاله نهر السِّين كانت السَّماء تصطبغ بومضات مبهمةٍ وكأنَّها هالةٌ مضيئةٌ تغمر الأسطح بالضّوء. تبدو مثل صفحات المصلّى المقدّس أو أبراج نوتردام المضيئة .

ـ التفت إلى مينينا قائلاً :

ـ مع منْ تعيشين الآن ، يا امرأة ؟

مع الشَّخص الذى أعيش معه دائمًا .

ـ هل هو ذلك النَّباتى الذى يلوّن علب الكبريت ويشكِّل قطع السُّجق ؟

ـ ويحك أيُّها الشَّاب لا تسخر –انتهرته الفتاة .

كان يبتسم وهو ينظر إلى بريق أسنانها النَّاصعة البياض والأهداب المتأنية والعينين الدَّاكنتين الموحيتين اللتين كانت تعرفان الإمعان فى النَّظرة. كان يفكِّر فى أنَّ مينينا مازالت جميلةً. فالآن كان يقابلها من حين لآخر بصورةٍ خاطفةٍ وقد تأكَّد له وهو جالسٌ إلى جوارها وجود نوعٍ من العاطفة الصَّامتة ، كما لو كانت ابنة الابنة التى يراها بالكاد وبسرعةٍ وليست الفتاة التى كان يعيش معها .

ـ ياله من أمرٍ غريبٍ ! تنهّد ـ فأيُّ سبّب يجعل المرء يرتبط بزوجةٍ واحدةٍ مهيبةٍ جدًا ؟

ـ لا أدرى ـ أجابت وهى تهزُّ فى يدها كوبًا به مشروبٌ كحولىّ ـ ربّما لأنّنى اصبت بإرهاق . وبعد ذلك يافتى ، فإنّ الان ليس محبًا للتّملك ـ ثمّ أردفت وهو ينظر إليها بسخريةٍ -إنّه ليس مثلك

ظلّ صامتًا وفكّر مليًا ثم قال :

ـ ياله من شاب مسكينٍ ! لقد فاز بجائزة اليانصيب الكبرى .

ضحكت هى .

ـ وأنت ؟ منْ ترافق الآن ؟

قال : مع أنثى الفهد .

كان فرناندو قد خطا نحوهما دون أنْ يتوقّف عن الرّقص . ثمّ طوى ركبتيه بوثبةٍ بهلوانيةٍ هزلية وكأنّهما من نسيج وسقط على وسادة كانت بجواره وهو يلهث وقميصه مبللٌ بالعرق . ثمّ أعطى لإيرنستو كوبًا كان ممسكًا به طوال الوقت وهو يرقص .

ـ صُب لى جرعةً ياعزيزى ـ وفوق لحيته السّوداء الكثيفة ، كانت عيناه تتحركان مضطربتين حادتى النّظر وقد احمرّتا قليلاً من تأثير الماريجوانا ، لم أقطع حديثكما ؟

- كلاً ، يارجل .

كان ظمآنًا، شرب جرعةً كبيرةً. نظَّف فاه بظهر يده ، واستراح إلى جواره وقد استند على الحائط وبسط ساقيه . كان العرق يتلألأ على جبينه وعلى شعر لحيته . ظلَّ ينظر بوقاحةٍ إلى مينينا التى كان نصف جسدها العلوى واضح المعالم تحت القميص .

ـ يالها من فاتنةٍ ياشقيقى ـ قال لإيرنستو مبتسمًا ـ هل تعرف ما حدث لى معها فى المرَّة الوحيدة التى ...؟

ـ نعم ، نعم ، كنت عاجزًا .

اهتز فرناندو من الضَّحك :

ـ لم تعد هناك أسرار لغرفة النَّوم فى هذا العالم.

ـ وأسوأ ما فى الأمر أنَّنى كانت لدىَّ الرَّغبة ـ تذكَّرت مينينا وهى مضطربةً ـ لقد تحدَّثنا طوال تلك الليلة عن التَّنجيم .

ـ ظل فرناندو يضحك . عجزت عن فعل أىِّ شىء فى تلك الليلة وكنت مغتاظًا ساخطًا .

– إنَّها غريزة الحفاظ على النَّفس –قال إيرنستو
– تبوُّلٌ إرادىٌّ .

– بالتَّأكيد ياشقيقى .

أخرج فرناندو من جيبه كيسًا من الجلد .

ـ هل تُدخِّن قليلاً من الماريجوانا ؟

رفض إيرنستو برأسه .

ـ إنَّ الماريجوانا تجعلنى أنام . فأنا من جيل رقصة البوليرو [1] .

ـ مثل والدى ـ قالت مينينا .

ـ نعم ـ تنهَّد هو ـ إنَّها بعيدة عن البوب ديلان. انظرى، اعطنى زجاجة الرُّوم[2] والثلج. إنَّه موجودٌ فى هذا الوعاء الصِّناعى المخيف على شكل ثمرة أناناس .

ساعدته مينينا على وضع الثَّلج فى الكوب .

- إيرنستو !

اقتربت فتاةٌ بارَّانكيا ومدت له يدها ودعته إلى الرَّقص .

ـ إنَّها موسيقى شيو فيليثيانو ـ قال مشيرًا إلى الاسطوانة التى كانت فى جهاز الاستريو ـ هيَّا بنا للرَّقص .

- لا يافتاة اليوم لن أرقص ، بل أتكلَّم.

- أنت لا تفعل شيئًا سوى الكلام

ـ وأنت ترقصين .

- قالت الفتاةُ ضاحكةُ دون أنْ تتوقَّف عن الحركة وابتعدت وهى ترقص .

تابعها إيرنستو بنظراته .

---

(١) رقصة البوليرو El Bolero هى رقصة إسبانية وتُطلق أيضًا على موسيقاها.

(٢) الرُّوم: مشروب كحولى.

- سألت مينينا هل جئت بها لنفسك ؟

- فأجاب تقصدين ؟ لا ، إنَّها نجلة صديقى. وأنا بمثابة وصى عليها فى باريس .

- وماذا ؟ ألست أعرفك .

- ليس الأمر هكذا يا امرأة، ليس هكذا .

- ماعمر الفتاة التى تخرج معها الآن ؟

- إنَّها فى مثل عمرك تقريبًا . ثلاثةٌ وعشرون أو أربعةٌ وعشرون عامًا . إنَّها فتاة أخرى تعانى من عقدة أوديب .

- من أىّ مكان هى ؟

- إنَّها من تشاينا بايتا .

- من أيْن .

- إنَّها من تشاينا بايتا . أو إن أردت من تشينبيتا .

- من الولايات المتحدة الأمريكية ؟

- لا، من بوياكا، كولومبيا .

كان قد عاد. لم يكن عمره عشرين عامًا مثلما كان فى ذلك الوقت بل سبعًا وثلاثين عامًا، كان كلُّ شىء مختلفًا ولكنَّه كان سعيدًا لوجوده فى باريس، سعيدًا لأنَّ باريس التى كان يتذكَّرها على مدى سنوات طويلة كحلم معتم مطموس فى شبابه، سعيدًا لأنَّه الآن موجودٌ هناك حقيقةً واللونان البنفسجى والأزرق يطلان على الغسق.

كانت الفتيات بملابسهن الخفيفة تسرن في اتجاه معاكس للنسيم، والأنوار مضاءة ، كنا في نهاية الصيف ، وهناك شيء في الجو العام يبعث على الإثارة، إنها سعادة الأجازات ، ليلة القديس تروبيث. لقد تغير الحي . كان برج الأبرشية مازال موجوداً وبعض الآثار مثل دوماجو[1]، وإل فلور[2]، ولابراسيرى[3] ليب ولكن جو القديس جيرمان دي برس كان مختلفاً . فالآن يعمه الرخاء واللامبالاة . لقد ظهر جيلٌ آخر في تلك الأثناء ، جيلٌ آخر كان يسير تحت الأشجار الكثيفة أو يملأ شرفات المقاهى يضحك ويرقص ولا يتذكر الحرب ، بعيد كل البعد عن بوق سيدنى بيثيت أو لقصائد جاك بريفير . وكانت الجريكو الآن في قمة نضوجها وعلى غلاف الاسطوانات وتتصدر أفيشات الأولمب[4] ولم تكن كما في الأوقات السابقة تتضور من الجوع أمام فنجان قهوة وبصوت أجش ومرير تقول: أنا مثلما جئت ، قد صُنعت على هذا النحو، اختفت العطوف، تلك الكهوف الحجرية المظلمة التى كان يمتزج فيها الجنس بالموسيقى والدخان والعرق في غثيانٍ واحدٍ كما اختفى أيضاً الزنوج والفتيات الشعثات الشاحبات اللاتى كن ينتعلن الصنادل ويرقصن في تلك الفترة طوال الصيف حتى الصباح . وأخذنا ننزل أو نصعد

(١) Deux magots. بالفرنسية فى الأصل.
(٢) El Flore، بالفرنسية فى الأصل.
(٣) La Brasserielipp، بالفرنسية فى الأصل.
(٤) Olimpia. بالفرنسية فى الأصل.

شارع القدّيس بينويت ، فى وقتٍ متأخّرٍ جداً لم يعد تسمع الآن، قادمةً من أىّ جانبٍ أصوات متموّجةٍ ضعيفة لأنين آلة السّاكسفون أو لقطعة موسيقية ساكسفونية ملهمة ووحيدة فى دفء الليل. لقد انتهى كلُّ شيءٍ. فباريس التى كان يعيش فيها وهو فى العشرين من عمره يمكن أنّ يقدّم لها وردةً وتنهيدةً الآن بعد أنّ عاد إليها.

إذنْ لقد عاد والآن يذكره خابيير الذى كان يجلس إلى جواره تلك الليلة فى شرفة مقهى دوماجو ينتابه الحنين ولعله كان أيضًا فى حالة إثارة وهو ينظر فى الضّوء البنفسجى والأزرق للغسق من فوق كوب الجعّة إلى الفتيات الخالدات فى شارع القدّيس جيرمان دى برى اللائى لم يعدن الآن شعثات يتضورّن جوعًا مثل أمهاتهن بل أصبحن نضراتٍ متألّقات وقد كستهن شمس الأجازات باللون البرونزى. وكان يمرُّ بين الطّاولات المالك الحتمى الذى يضع ريشةً فى القُبّعة(١) قبل أنّ يُطرد بشكلٍ مهين "هيا هيا، إلى المعسكر"(٢) كان هناك شخصٌ يعزف على القيثارة، لكن خابيير كان يرى الفتيات فقط وبإيماءته تلك التى كانت تخفى الغضب أو الدّهشة التى تثير أىّ استفزاز غير مفهوم كان يلتفت إليه من حين لآخر قائلاً: هل رأيت تلك ؟ إنّها اسكندنافيةٌ شبه عارية لفحتها الشّمس ببطء فى جزيرةٍ بالبحر المتوسّط، إنّها سمراء

(١) France patron، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Allez, Allez, Foutez-Mo, Le Camp، بالفرنسية فى الأصل.

ذات عيون خضراء وشعر أسود، إنّها تشبه أنثى الفهد، إنّها ذات مؤخرة فاضحة، إنّ نصفها العلوى رائعٌ ولها فخدان هائلان يغطّيهما فستانها. هل رأيتها ؟ كان يهزّ رأسه حزينًا مكفهرًا. فبالنّسبة لإيرنستو كان مستغربًا لجلوسه مع خابيير - كما فى الأزمنة القديمة- فى شرفة مقهى ديوماجو .فهناك فى المكان نفسه ، فى ذلك المقهى كانا يلتقيان منذ عشرين سنة مضت عندما كان إيرنستو يدرس فى معهد العلوم السّياسية وخابيير يتابع الدّورات الدّراسية فى اكاديمية جولين . كان خابيير يأتى برفقة جميع أصدقائه. عاد ليراه كما فى ذلك الوقت: مراهقًا ذا ثمانية عشر عامًا وربّما يكونان من نفس السّنّ، كان يرتدى معطفًا فاتحًا وحافظة للرّسم تحت ساعده وتلفيحةً تتدلّى من العنق، حضر فى جو الرّبيع المتألّق بين مجموعة من الفتيان والفتيات الذين كانوا يتحدّثون ويضحكون فى آن. كان خابيير دائمًا محط الاهتمام، كان دائمًا قطب الجاذبية لتلك المجموعة من طلاب الفنون الجميلة ليس لكونه ينعم بالنّشاط والقوة بل على العكس من ذلك: لأنّ جاذبيته ومرحه الرّزين المتحفّظ وكونه داهيةً، وكونه لا يقاوم كان يضاف إلى ذلك مسحةٌ من الحرمان والخذلان، الأمر الذى حدا بالتّفكير فى كونه يتيمًا، فى كونه الأخ المعوز الذى يحبّه الجميع ويحمونه. فالفتيات اللاتى كن يرافقنه كنّ شابات جدًا، كنّ أمهات له، كنّ يدلّلنه

(*) Deux Magtos، بالفرنسية فى الأصل.

ويغطّينه ويجهزن له أقلام الفحم. كنَّ معجبات به أيضًا. لأنَّ خابيير كان يتمتَّع بالذَّكاء . فما كان يرسمه آنذاك (ماكان يرسمه ولم يكن مطمئنًا له كان يمزِّقه) كانت صورًا طويلة على نهج الرَّسام موديجلياني[1] فقد كان يشبهه في الرِّقة والحرمان ولكنه كان يظهر مهارةً منقطعة النَّظير. سيكون رسَّامًا عظيمًا بمرور الوقت ، كان الجميع يقولون إن لديه مهارةً وهو كفءٌ لذلك . لكنَّه لم يفعل شيئًا. ترك السَّنوات تمرُّ وهو يؤجل مرةً تلو الأخرى لحظة الإقدام على الرَّسم بجدِّية عندما عاد إلى كولومبيا. كان قد تزوَّج من امرأة طويلة القامة، مقدامة وثَّابة تتسم بروح الأمومة ومع الوقت بالقرب من صحراء في بوياكا كان لديه بها مزارع للبطاطس وبساتين أشجار الفاكهة ومنزلٌ مريحٌ مليءٌ بالكتب والاسطوانات الفرنسية من تلك الفترة شارل مولودجي وبراسان وترنيه[2] منزلٌ كان يطلُّ على التِّلال التي يغطيها الضَّباب. لكنَّه لم يرسم أبدًا، ولا حتى يكون رسَّامًا في باريس. لم يكن يطلع أحدًا على لوحاته، التي لم تكن لديه، بل يطلع النَّاس على أشجار الأجاص التي كان يزرعها في بستانه . خلاصة الأمر أنَّه لم يقدِّم شيئًا عن حياته. ولا لإيرنستو ولكن هذا لأسباب مختلفة .

---

(١) موديلياني Modigliani (بالفرنسية في الأصل: فنان تشكيلي إيطالي شهير (١٨٨٤ ـ ١٩٢٠) احتل مكانة بارزة في القرن العشرين، له أسلوب متفرد وخاص لاينتمي إلى مدرسة فنية بعينها، وإنما ارتبط هذا الأسلوب باسمه فقط، توفي في السادسة والثلاثين تاركًا وراءه تراثًا فنيًا ضخمًا من الإبداع.

(٢) Charles Mouloudji , Brassens , Trenet بالفرنسية في الأصل.

وهاهما هناك، مثل ذلك النوع من الأشخاص النّاضجين فى فترة وجودهما طالبين، وقد عادا يتمتّعان بقدرٍ كبيرٍ من الاهتمام المهنى وقد علا الشّيب صدغيهما ، عادا إلى مكان أفعالهما الجنونية القديمة فى حى مونتبارياس[1] ذلك أنّ أشباح هؤلاء الأشخاص كانت فى مونتبارياس وكان عالمهم يدور حول كتاب من نوعية هيمنجواى[2] وسكوت فيتزاجيرالد[3] وأشياء أخرى مثل شبحيهما أى شبح خابيير وإيرنستو فى سان جيرمان دى برس . فالتّاريخ يعيد نفسه وسيظلّ يعيد نفسه باستمرار طالما أنّ باريس ستظلّ باريس لم يكن ذلك مهمًا . وبالنّسبة لإيرنستو كان يكفيه أنْ يظلّ هناك من جديد وليرخى الليل سدوله ببطءٍ طالمًا أنّه كان يشرب الجعّة فى شرفة مقهى دوماجو والفتيات يمررن سائرات فى اتجاه معاكس للنّسيم العليل. كان قد اتخذ قرارًا وينتظر إبلاغه إلى خابيير بعد تناوله لكوب آخر من الجعة المثلّجة، ينبغى أنْ يكون سكرانًا إلى حدٍ ما حتى يتحدّث بطريقة ملهَمَة كي يقنعه. ربّما لم يكُن ذلك

(١) Montparnasse، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) هيمنجواى Hemingway أرنست همنجواى (١٨٩٩ ـ ١٩٦١) كاتب أمريكى يعد من أهم الروائيين وكتاب القصة القصيرة فى العالم، من أشهر أعماله ثم تشرق الشمس، وداعا للسلاح، العجوز والبحر التى تمت الإشارة إليها فى تقويم جائزة نوبل التي حازها عام ١٩٥٤.

(٣) سكوت فيتزاجيرالد Scot Fitzgerald (١٨٩٦ ـ ١٩٤٠)، كاتب أمريكى شهير من أشهر أعماله، هذا الجانب من الفردوس، عشق آخر أباطرة المال.

سهلاً. والدّليل أنّهما كانا موجودين هناك وقد استطاع أن ينتزعه من مزارع البطاطس وأشجار الفاكهة المثمرة لكي يأخذه إلى باريس؛ لمدّة شهرٍ واحد، بالتّأكيد، حيث انتهز فرصة رحلة طيران عارضة لشركة [1] الفرنسية فتلك الفكرة للمجيء إلى باريس ، بعد سنوات طويلة ، طرأت على ذهنه هكذا بصورةٍ تلقائيةٍ وهو فى ضيعة خابيير منذ شهرين . كانا يستمعانِ إلى موسيقى مولود [2] ويتذكر (أنّها تُسمع فى هذا المكان البعيد فى بوياكا فى كولومبيا وفى الخارج ، فى اسطبلات الخيول السّوداء كان يهيمن نقيق الضّفادع والبرد القارس والحزن المهيمن على سلسلة الجبال ، كلُّ هذا كان يحدث بينما يطلان من النّوافذ ويتحدّثان ، كما كان يحدث لهما دائمًا عندما يلتقيان بين الحين والآخر يتحدّثان عن باريس ، التى بها أصدقاؤهم ، عن مرحلتهما فى باريس عندما كانا فى العشرين من العمر فى سان جيرمان دى بريس ، عن جان ودومنيك عن فيناس[3] عن كلّ هذه الأمور القديمة جدًا، عندما عنّت لذهنه هذه الفكرة الفظّة؛ لماذا لا يعود منتهزًا فرصة الرّحلة العارضة لشركة طيران الفرنسية ؟ لِمَ لا ؟ كان خابيير يضع يده على رأسه غارقًا فى التّفكير؛ كان متردّدًا، وخائفًا، كانت باريس هى شبابه، كانت مواجهةً ، كانت تجربةً،

(١) Allanza، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Mouloudij، بالفرنسية فى الأصل.

(٣) Viñas، بالفرنسية فى الأصل.

وإيقاظ ذلك كله من حيث كان يريد الإجهاز عليه وسط ضباب الصّحارى ووحدتها ومزارع البطاطس وأشجار الفاكهة المثمرة. لكن الإمكانية والإغراء كانا هناك فى متناول يده فى تلك الرّحلة العارضة زهيدة الثّمن وفى صديقه ذلك (إيرنستو) الذى كان على استعداد لمرافقته. لم يرد إيرنستو أنْ يقول له فى تلك اللحظة كلّ ماالديه من أسباب شخصية لكى يذهب إلى باريس ليس لشهر واحد فقط، بل للبقاء بصفة دائمة هناك. بمعنى أنّه كان فى حالة توهان، وأنّ إيستيلا الفتاة التى كان يعيش معها تركت باريس وأنّه لم يكن يريد الاستمرار نهارًا يعمل فى شركة دعاية كمحرّرٍ للنّصوص ويقضى الليل يسكر فى أىّ مكان، وأنّ كاميلو، والثورة وكلّ هذه الأمور قد انتهت، وأنّ العودة إلى باريس كانت كأيّة طريقة أخرى تعنى شطب الماضى والبدء من جديد، وأنّه يريد أنْ يمنح نفسه فرصةً أخرى قبل فوات الأوان. لم يقل له شيئًا من ذلك لكى لا يخيفه فقط توجد رحلة طيران عارضة شارتر وأنّها زهيدة الثّمن وأنّ باريس ياللعجب هى باريس دائمًا.

هكذا كانا قد وصلا إلى باريس وأصبحا اثنين من السّائحين المشتاقين الولهانين وهما مصمّمان بعد عشرين عامًا على العثور على أثرٍ لأصدقائهما القدامى. لم يجدا إلاّ اثنين فقط . جان كان فى تلك الفترة شابًا فنانًا للرّسوم المتحركة وقد أصبح رجل دعايةٍ مشهورٍ جدًا فى باريس. كانت لديه صلعةٌ

خفيفةٌ ومكتبٌ رائعٌ به سجاجيد بيضاء. لقد استقبلهما بحرارةٍ وقبّلهما فى خدّيهما، ودعاهما لتناول الطّعام فى مطعمٍ فاخرٍ فى شارع جورج الخامس، وفى يوم الأحد التّالى دعاهما لتناول القهوة فى منزله. لكنّه الآن صار متزوّجًا من امرأةٍ شقراء متغطرسةٍ نظرت إليهما بازدراء بعد أن عرفت أنّ ملامح وجهيهما تدل على أنّهما من أمريكا الجنوبية، وبعد نصف ساعةٍ من اللقاء فى هذا المنزل المكسو بالبُسط البيضاء، لم يعد لديهما موضوعات يواصلان الحديث فيها مع جان ، فمابالك بزوجته. أمّا دومنيك وهى صديقةٌ أخرى من ذلك الزّمن القديم، فعلى العكس من ذلك لم تفاجئهما بما هى فيه من رخاء بل بفقرها . كانت ماتزال تعيش فى غرفةٍ متواضعةٍ فى الطّابق السّادس بشارع جرينيل ، مملوكةً لابنة عمٍ لها تتقاضى معاش البطالة، وبعد بضع دقائق من الحديث معها أدركا أنّها لم تفعل شيئًا باستثناء بعض الأعمال الصّغيرة هنا وهناك . ففى مرحلة الدّراسة كانت فتاةً ذات عينين واسعتين جذّابتين ، وكانت ولهانةً دائمًا بخابيير . أمّا الآن فقد تقدّم بها العمر وتحيط التّجاعيد الحزينة بعينيها ، كانت تضحك بصوتٍ عالٍ ورائحة الخمر تفوح منها مثل سكّير. انتاب خابيير الهلع منها وخاصةً بعد ليلةٍ وضعت ساعدها فوق كتفيه ، وأخذته إلى غرفتها. أمّا عن الأصدقاء الآخرين فلم يجدا عنهم سوى بعض الإشارات المبهمة. كانوا قد فقدوا وكأنّهم قد تبخّروا، وتحوّلوا إلى لباب

خبزٍ في المدينة الكبيرة ولعله قد صار لديهم أبناء، تحميهم مظلَّة الضَّمان الاجتماعي، يعيشون في الضَّواحي في بانليو(*) الباريسي وذي المساكن متعدِّدة الأسر التي تمرُّ به القطارات الحزينة.

وبما أنَّهما تخلَّيا عن استدعاء الأشباح فقد اقتصرا على الاستمتاع - بأفضل طريقة ممكنة - بشهر سبتمبر المبهر في باريس حيث الضَّوء الذَّهبي، شبه الخريفي، الذي لا مثيل له : ورائحة أشجار القسطل (أبو فروة) والكتب والفواكه المعروضة في واجهات المحلات ببذخٍ صارخٍ والميادين والعصافير والزَّنجة والجبنِ والأفلام والملاهي وذلك العرض المثير والذي لا يتوقَّف للفتيات اللائي يرتدين تنورات قصيرةً جدًا وهن يتنزَّهن في سانت جيرمان دي بري. وبما أنَّهما لم يكن بوسعهما اصطحاب أي منهن إلى الفراش فيما عدا دومنيك التي لم تكن تغري إلا كلوشار حامل الرِّيشة الزَّرقاء في القُبَّعة لذلك اصطحبا فتاتين من فتيات الهوى من شارع بيجال . لقد ظلاَّ حزينين وكأنَّهما قد ضُربا علقةً (لأنَّ الفتاتين أجبراتهما على سداد الخدمة مقدَّمًا وكانتا مستعجلتين) وقد تساءلا عما إذا كانا قد بلغا السِّن المشئوم حتى يدفعا ثمن متعتهما . خلاصة الأمر أنَّهما أمضيا شهرًا في عزلة بدون مغامرات تذكر ودون اكتشاف شيءٍ ذي بالٍ ، والآن يُعد خابيير العدَّة

(*) Banlieue بالفرنسية في الأصل.

للمودة، كان يشترى بعض الأشياء البسيطة لمنزله. وفى ذلك المساء نفسه كانت قد اندست فى جيبه قائمة أطعمة "بيتى سانت بينوا" (١) قائمة مكتوبة بحبر باهت لونه بنفسجىّ، وبعد ذلك كان أصدقاؤه من بوجوتا ـ المنفيون أيضًا فى باريس التى كانت بالنّسبة لهم حُلمًا مبهمًا وعابرًا ـ كانوا يسيرون وقد أمسك بعضهم بأيدى البعض الآخر، يقودهم الحنين الذى تحوّل فيما بعد إلى تسلية كانوا يقارنون سعر طبق الهندباء (٢) الآن مع سعره فى زمنهم السّابق أو ثمن عجّة لازالت تُسمّى حتى الآن "جاتوه ستانيسلا"(٣).

ويذكر أنّه بعد تناول بعض أكواب الجعّة فى شرفة مقهى دوماجو بينما كان الليل يرخى سدوله تحدّث إلى خابيير. لم يقل له شيئًا، كيف يقول له ذلك؟ إنّ إيرنستو كان فى لحظة يمكنه القيام بأىّ شىء فى حياته بما ذلك انهاءها بعيار نارى إذا لم يجد حلاً أفضل من ذلك فالعودة إلى بوجوتا، إلى لياليها الحزينة الموحشة خاصة وأنّ إيستيلا ليست موجودة، العودة إلى المهن الغذائية، إلى البوهيمية بلا أمل لن يكون لها مغزى، وأنّه لم يعد الوقت متأخرًا أبدًا لكى يُصحّح الإنسان الاتجاه بما فى ذلك الاعلان عن مرحلة شباب ثانية وأنّ أفضل مكان لشخص يريد

(١) Petit Saint-Benoit بالفرنسية فى الأصل.

(٢) الهندباء، نبات عشبى حولى وهو يعرف لدينا باسم السريس أو الشيكوريا وينتمى للفصيلة النجمية.

(٣) Gateau Stanislas، بالفرنسية فى الأصل.

أنْ يرسم أو يكتب هو باريس. لم يقل له شيئًا من ذلك سوى أنه فكّر مليًا وقرّر التّخلى عن تذكرة العودة على رحلة الطيران العارضة لشركة أليانثا الفرنسية. لماذا لا يفعل هو أيضًا الشّيء نفسه؟ هرش خابيير فى رأسه كمن يتأمل مشكلة صغيرة عارضة. قال إنّ المشكلة تكمن فى أنَّ لى زوجة عظيمةً جدًا وينبغى أنْ تكون الآن فى انتظارى بالمطار ومعها عددٌ كبيرٌ من أطفال صغار: هم أولادى. أمعن النّظر، ردّ عليه قائلاً: لو كنت ثريًّا حقيقة لما اقترحت عليك اقتراحات غير مهذّبة لكن تحت هذا المعطف الرّيفى رسّام لا علاقة له على الاطلاق بزراعة البطاطس وأشجار الفاكهة المثمرة. أعطه فرصةً فى الوقت الذى سترعى فيه زوجتك البساتين. فإنّها أفضل منك بكثير فى هذه المهنة . أظلم وجه خابيير فجأة ، فى جفونه المتورّمة، وفى تلك الأجزاء السّوداء المريرة تحت العينين اختفى العشرون عامًا التى كانت تفصل بين المراهق ذى التّلفيحة وحافظة الرّسومات تحت ساعده وبين الرّجل النّاضج حاليًا الذى كان يتأمل مندهشًا كويه من الجمّة. بدأ يتحدّث بلا يقين. كان يقول ربّما كنت على صواب ففى غضون عام أو عامين سيبيع الضّيعة وسيعود إلى باريس أو إلى مايوركا لكى يتفرّغ للرّسم. لقد فكّر فى ذلك دائمًا. تحدّث معه بشكلٍ مبهمٍ عن مخزن للفنون اليدوية الكولومبية الأصلية بوسع زوجته الاشراف عليه فى بالما أو فى باريس. إنّها تجارةٌ عظيمةٌ. كانت تُدرُّ نقودًا وفى الوقت الذى يسوق فيه

المبررات كأنّه لا يريد إقناع إيرنستو بقدر مايريد إقناع نفسه بالتّخلى عن الاقتراح الذى مالبث أنْ اقترحه عليه ، اقتراح طائش ربّما لكنّه قادرٌ على إنقاذه. وأدرك إيرنستو أنّ خابيير لم يعد لديه خيار فى الذّهاب إلى الشّاطئ الآخر، وأنّ السّفينة سوف تبحر ودوّى صوت سرينتها فى الهواء وأنّ الصّديق القديم سيكون حذرًا عندما يزرع بستان أحلامه الفاشلة ويصعد الهضبة الجنائزية المغلّفة بالضّباب ويعود إلى زوجته وأبنائه وإلى اسطوانة البراسينس وهنا قال إيرنستو: حسنًا، إنّنى سأبقى. أخرج من جيبه تذكرة الطّائرة وقال لخابيير: ماذا تعتقد أنّى فاعلٌ بهذه التّذكرة؟ نظر خابيير إلى التّذكرة بمزاحٍ حزين قائلاً له: أحرقها.

كانت تلك فكرةً جميلةً: مثلما فعل إيرنان كورتيس[1] بالسّفن. لكنّه فى الواقع باعها بمائة دولارٍ لقسيسٍ كان موجودًا بالقُنصلية الكولومبية .

وهكذا بدأ وحيدًا مغامرته الثّانية فى باريس .

جذبت رائحة المطبخ مينينا فذهبت إلى هناك وبعد ذلك بقليل خرجت بطبقين من أكلة البهية (٢)

ـ هل تريد نبيذًا ؟

– اشربى أنت إذا أردت . إنّنى سأظلُّ مع شراب الرّوم .

---

(١) هو الفاتح الإسبانى الذي غزا المكسيك في القرن السادس عشر.

(٢) Paella أكلة إسبانية شهيرة قوامها السمك والأرز والجمبري وهي أكلة شهية جدًا.

لم يلبث أنّ ظهر فرناندو ومعه أيضًا طبق بايللا في يده . كان يتصبّب عرقًا .

ـ بالشدّة الحر ! ـ اشتكى فرناندو، وجلس إلى جوارها مسندًا ظهره إلى الحائط –إنّ باريس تذكّرني هذه الليلة بميناء بيريو(*) بدأ يأكل بشهية كبيرة ما رأيك في البايللا.

قالت مينينا : إنّها رائعة

اكتشف إيرنستو لويسا زوجة فرناندو من بين زحام النّاس الذين تجمّعوا أمام المطبخ.

- هل لديكم بايللا؟ صاحت بصوت عالٍ لكي يسمعوها من بين ضوضاء الموسيقى الصّاخبة .

- شكرًا

كانت إسبانيةً صغيرةً نشيطةً ، مازالت شابةً ذات شعرٍ أسود قصيرٌ جدًا. كانت تتحرّك بين الطّلاب، وكانت مهتمةً بأنْ يأكل الجميع، وكأنّها دجاجة بين كتاكيتها . وكان فرناندو بمثابة كتكوتها المفضّل. أمّا إيرنستو فقد أعجبته دائمًا الطّريقة التي بها كانت لويسا تهتم بزوجها، وهي تقلي له العجّة وتُرقّع له جواربه بينما كان هو يجلس دائمًا في ركنٍ بشقّته يتجرّع الخمر زجاجة تلو الأخرى في أيّ ساعةٍ من اليوم ويدخن الماريجوانا حتى تحمّر عيناه جدًا ويبدأ في الهذيان. كان إيرنستو قد تعرّف عليهما منذ بضعة شهور مضت بالصّدفة في محطة ملتقى خطوط المترو

(*) Berrio، بالفرنسية في الأصل.

المسمَّاة شاتيليه(١) . كانا يبيعان قلادات من الخرز الرَّخيص وحبوب الفاصوليا وشنطًا كولومبية. كانا يفردان سلعهما فوق ورق الصُّحف وبالنِّسبة لفرناندو وكولومبيًا فهو نجل تاجرٍ أو رجل صناعة متواضع من أرمينينا. أمَّا لويسا فكانت من اوبييدو(٢).

كان إيرنستو ينظر إلى فرناندو الذى كان مايزال يأكل .

ـ أيْن تعرَّفت على لويسا ؟

فى هامبورج. كانت تعمل نادلةً فى مطعمٍ وكنت أنا أعمل فى تفريغ دقيق السَّمك ـ هزَّ فرناندو رأسه وهو يتذكَّر، دقيق سمك ياشقيقى. كان المرء لا تفارقه الرَّائحة النَّتنة لمدة خمسة عشر يومًا. وكانت لويسا المرأة الوحيدة التى تجاسرت على الاقتراب منِّى على مسافة مترٍ .

– هل كنت فى هامبورج حينما أودعوك السِّجن؟

ـ سألت مينينا .

– فى بريمن. بسبَّب سرقة برتقال. إنَّه الجوع ياأختى، إنَّه الجوع الصَّارخ ـ تمتم فرناندو ـ يالها من أوقاتٍ عصيبة! كنَّا نتجمَّد من البرد فى الطُّرق السَّريعة نحاول ايقاف سيارةٍ .

(١) Chatelet، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) OVIEDO، بالفرنسية فى الأصل.

ظلَّ إيرنستو ينظر إليه . وفى الوجه الواضح الملامح كانت عيناه تتلألآن دائمًا وكأنّه قد انتابته الحمّى .

- لماذا لم تعد إلى أرمينيا ؟

- إلى أرمينينا ؟ ذُهِل فرناندو، أنت لا تعرف كنه ذلك . تجلس فى محلٍ لبيع الجيلاتى يوم أحدٍ وترى الكلاب تمرُّ ، والكلاب كانت يائسةً مثلك .

كان قد أخرج كيسه من الجلد وكان يجهّزُ سيجارةً أخرى من الماريجوانا .

- اقنعنى بشيء يا أخى - قال بعد ذلك - باريس من هنا بسرعةٍ جدًا . إنَّ هذه حفلة وداع بالفعل ولكنّنا أنا والجليقية، يقصد زوجته لويسا، لم نرد الإفصاح عن ذلك. لكنّنا سنرحل . ليس إلى أرمينينا بل إلى قرية قريبةٍ من خليج داريان [1] تُسمّى الميناء الخفى[2] وكل مايوجد هناك بعض المنازل ومقهى به طاولات البلياردو. وساحرٌ. وبعض الثعابين السّامة التى يُقال إنَّ رأسها مثل رأس القفل وتقتل من تلدغه بعد اثنتى عشرة ساعة من لدغه وعندما قلت ذلك للجليقية (زوجتى لويسا) أنه لا يوجد هناك أيّةُ طرقٍ معبّدة، هل تعرفون ماذا قالت لى؟ هذا أفضل، أفضل بكثير.

ظلَّ إيرنستو يفكّر ثم قال فى النّهاية :

---

(١) Darién بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Puerto Escondido بالفرنسية فى الأصل.

- أنا سأختار باريس وفراشيها - وهنا زمّ فرناندو شفتيه باستياء قائلاً :

- أنا لا . لقد رضعت من هذه المدينة يا أخى - حمّامات فى أفنية المنازل ومخلّفات الكلاب فى كلّ مكان - الآن أنا من أنصار البيئة .

أعطى عقب السّيجارة لمينينا .

- هل تريد أن تُدخِّن قليلاً؟ سأله إيرنستو .

- لا، اتركنى مع الرُّوم. الرُّوم ومينينا يكفيانى هذه الليلة .

- يانصّاب -قالت مينينا - إنّك تنتظر امرأةً أخرى . نظر إليهما فرناندو بفضولٍ .

- إنّنى لا افهمكما .

- لماذا ؟ سأل إيرنستو .

- عندما اجد أحدكما دائمًا ما يسألنى عن أخبار الآخر. وعندما تلتقيان وداعًا للاحتفال؛ وتجلسان فى ركنٍ معًا .

- قال إيرنستو: لقد خضنا التّجربة ولم أدر كيف ظللنا على قيد الحياة. أنا على الأقل تلاشت لدى المخاوف.

- ابتسمت مينينا قائلةً : وأنا أيضًا .

إنّ مينينا مشكلةٌ - أوضح ذلك إيرنستو لفرناندو لديها حساباتٌ قديمةٌ وتريد تصفيتها مع جنس

الرّجال، إنَّها قرون من الاضطهاد الرُّجولي، تخيَّل ذلك، إنَّها نموذجٌ للشَّابة الأمريكية اللاتينية المتحرِّرة. هذا يعني أنَّها تُجيد استخدام السِّلاح الأبيض بشكل يثير الإعجاب، بمجرَّد أنْ تنتبه تكون قد طعنتك وأجهزتْ عليك بلطفٍ لا يضارع .

أطلق فرناندو ضحكةً

– انا أعرف ذلك يا أخي.

ردَّت عليه مينينا: أنت لا تعرف شيئًا. هذا الوحش يحب التَّملك فضلاً عن كونه من أنصار هيمنة الرَّجل على المرأة. إنَّه مفعمٌ بالمشاكل، ياله من مسكين ـ قالت ذلك وهي تقترب من إيرنستو لكي تُقبِّله ـ لكنَّنا نُحبُّ بعضنا البعض. أحقيقي ذلك ؟

قال إيرنستو: إلى الأبد .

هرش فرناندو لحيته .

– كيف كانت قصتك معها يا أخي ؟ لقد تعرَّفت عليها وسط طلقات الرُّصاص ..

– طلقات الرُّصاص ؟

– في شيلي ألم يكن كذلك ؟

– لا يارجل، لا، لقد تعرَّفت عليها في باريس وبعد ذلك ذهبت معها ومجموعة من الأصدقاء الفنزويليين إلى شيلي، منذ ... من كم سنة يامينينا ؟ ثلاث أو أربع سنوات .

كان فرناندو متردِّدًا .

– وماذا كنتم تفعلون هناك ؟

– إنَّها قصةٌ طويلة ـ أجاب إيرنستو ـ سأحكيها لك فى يوم آخر. هاهنا حيث ترانا، لدينا جميعًا فى داخلنا شخص متمرِّدٌ نائمٌ... يستيقظ عندما يهزّ شخصٌ ما قماشًا أحمر .

هزَّ فرناندو رأسه .

ورفض قائلاً إنَّ الأقمشة الحمراء لا تثير لدى شيئًا .

– أنت مخطيءٌ ياعزيزى. فأنت لسبّبٍ ما من الهيبز ولست رجل صناعة فى كولومبيا .

– رُبَّما تكون محقًا يا أخى . لقد رأيت رجالاً زنادقةً . فأنا لا أفهم كيف أنَّ والدى الشُّجاع –هزَّ رأسه وهو يتذكَّر – : هناك فى منطقة الكنديو(١) وعلى جانبى نهر سالينتو(٢) نمتلك ضيعةً. كنت مصمِّمًا أيضًا على أنْ أربح مالاً . لكن أهل المنطقة كانوا يتضوَّرون جوعًا. كانوا يقولون لى ياسيد فرناندو ساعدنا بشىء. حسنًا هل تعرف ماذا فعلت؟ علَّمتهم سرقة الأبقار بما فى ذلك أبقار والدى. كنَّا نذبح هذه الأبقار فى الخامسة فجرًا ونبيعها بسعرٍ أقَّل لقصَّاب من أرمينينا . لكن سرعان ما أدركت المنية الأصدقاء الذين كانوا يرافقوننى .

– أدركتهم المنية ؟

(١) Quindio، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Salento، بالفرنسية فى الأصل .

- نعم يا أخى أدركتهم المنية. كانوا يصبحون أمام اسطبل للخيول وفى الرأس طلقة أو رصاصة والطيور الجارحة تحلّق على ارتفاعٍ منخفض. صدرت عن فرناندو إيماءة استياءٍ - انظر يا أخى، أنا لست تشى جيفارا[1]. لقد ذهبت. ذهبت بملابسى فقط. وعلى الأقل انخفض بالمنطقة عدد الأشرار بمعدل شرير - ضحك - لكن النّعرة الثّورية لا تناسبنى. هل أذهب إلى شيلى ؟ هيهات لا يوجد حشيشٌ هناك يوجد نبيذ فقطّ .

- قالت مينينا : ويوجد بيسكو[2] وهو مشروب كحولى.

- ياله من مشروبٍ رائعٍ - أكد على ذلك فرناندو .

- أحقيقيٌ ذلك؟ أنا أعتقدت أنّ الثّوار الحقيقيين لا يشربون ولا يدخّنون ولا يباشرون النّساء .

- هيهات ! وإذا لم يكن كذلك ، فلتخبرك مينينا حيث أفسدت من قادة الوحدة الشّعبية أكثر مما أفسد الجنرال اوجستو بينوتشيت [3].

---

(١) تشى جيفارا (رافائييل جيفارا دلاسيدنا ١٩٢٨م - ١٩٦٧م) كان طبيبًا ثم رفيقًا لـ «فيدل كاسترو» وصار اشهر مناضل في كوبا والعالم واتخذه الشباب نموذجًا للنضال في العالم.

(٢) Pisco مشروب كحولى.

(٣) الجنرال أوجستو بينوتشيت هو طاغية شيلي المستبد الذي أطاح في انقلاب عسكري بالزعيم سلفادور الليندى واستولى على السلطة وحكم البلاد بالحديد والنار (المترجم).

برقت عينا فرناندو من الضّحك .

- هل هذا صحيحٌ يا أختى ؟

- ويحك يافتى لا تصدّق ولا حتى كلمة واحدة ممّا يقوله إيرنستو . إنّه يبالغ دائمًا

صبَّ فرناندو لنفسه كوبًا جديدًا من النّبيذ .

- لكن ماذا كنتما تفعلان فى شيلى؟ سأل بعد أنْ تناول جرعةً ونظّف شفتيه بظهر يده .

- ذهبنا لـ ... لماذا يامينينا ؟

- لكى نعمل من أجل الوحدة الشّعبية -قالت مينينا وكانت لديهم خبرة فى الكفاح المسلّح .

- لا تشرعى فى الحديث عن أشياءٍ مبالغ فيها يامنينيا . التفت إيرنستو إلى فرناندو - فى الحقيقة كنا نتناول كثيرًا من مشروب البيسكو بينما كنّا نتحدّث عمّا ينبغى علينا القيام به إذا حدث انقلابٌ عسكرىّ . وعندما وقع الانقلاب بسرعة نسبيةٍ إلى السّفارات .

احتجت مينينا :

- لم يكن الأمر هكذا، انتبه .

احكيه أنت إذنْ .

قالت مينينا بشكلٍ غامضٍ: حاولنا المقاومة .

كانت تريد إضافة شىءٍ ولكنّها تخلّت عن تقديم إيضاحات جديدة - فلم يكن هناك تنظيمٌ ولا أسلحةٌ...

- كانت هناك شعاراتٌ فقط . حماسٌ شفهيٌ - قال إيرنستو - وساعة الجد ظللنا في شقةٍ في سانتياجو(1) مستلقين على أرضية المطبخ خائفين مذعورين فقد كانت هناك ضوضاءٌ صاخبةٌ مخيفةٌ في كلِّ مكانٍ في انتظار زعيم حزب المابو(2) الذي كان ينبغي عليه إعطاءنا تعليمات دقيقة عندما تحين لحظة الانقلاب. في الواقع لم يأت طلب اللجوء عندما سمع دوي الطلقات الأولى . كان انقلابًا مروّعًا.

ابتسمت مينينا :

يالكثرة أكاذيب ذلك الرَّجل. الحمد لله أنَّنا استطعنا اللجوء أيضًا على أنَّنا صحفيون. لم يكن هناك أمامنا خيارٌ آخر .

- قال إيرنستو: وهكذا انتهت مغامرتنا في شيلي.

- لكنَّنا حاولنا القيام بشيءٍ - تمتمت مينينا .

- حاولنا، نعم - ابتسم إيرنستو.

لم يبد على مينينا أنَّها سعيدةٌ من الايضاح.

قالت : لقد قُتِلَ أحد رجالنا.

- برصاصة طائشة - أكَّد إيرنستو بدقَّة حيث ذكر أنَّ الرَّصاصة اخترقت زُجاج نافذةٍ وقتلت فرانك

(1) سانتياجو: عاصمة شيلي.

(2) Mapu، بالفرنسية في الأصل.

فى تلك الشّقة التى كانت قريبة من الرّبوة. والتى انتظروا فيها مسئول حزب المابو طوال أربع وعشرين ساعة. ظلّت هذه الصّورة فى ذاكرته دائمًا: فرانك قتيلاً على كرسي. ولم تنطق زوجته بكلمةٍ ولا حتى بكت وهى بجواره. كانت قد عَصَبَتْ رأسه بفوطة، وبدأت الفوطة تُبلّلُ تدريجيًا بالدّم، بينما خارج الشّقّة كانت المدينة مظلمةً ومهجورةً تمامًا ومازالت تُسمع طلقاتٌ متفرّقةٌ .

ـ عمومًا كان فرانك ضحيةً ـ قضى نحبه بسرعة ـ فقد كانت معدته مليئةً بالقرح .

وماجدث بعد وصوله إلى باريس يتذكّر قليلاً منه باستثناء أنّ الشّتاء كان قاسيًا، كان هناك جليدٌ، كثيرٌ من الجليد، جليد كان يُرى عبر النّافذة وهو يتساقط بهدوء وقد كسا الأشجار المتجمّدة باللون الأبيض فى شارع كليبر، ثم تحوّل بعد ذلك إلى مطرٍ، خليط من الماء والثّلج. كانت الصّحف تتحدّث عن شتاءٍ قارسٍ لم يكن له مثيل إلا منذ سبعين عامًا، وممّا قيل فى ذلك إنّ المرء لم يشهد فى حياته شبيها لذلك. وكان من المحزن جدًا أنْ يستيقظ الشّخص فى هذه الشّقة الكبيرة الخاوية التى تغلب عليها رائحة طلاء الأرضية ودهانات جدرانها، تلك الشّقّة التى كان قد أعطاها له بينياس بصفةٍ مؤقتة، كان ينظر من النّافذة إلى الجانب الآخر منْ الشّارع ومن خلال أعالى الأشجار التى يكسوها الجليد، إلى صفوف من نوافذ المكاتب حيث كان النّاس يزاولون عملهم فى ضوء مصابيح

النّيون الخافت الرُّوتينى. كان يقضى الوقت متنقّلاً فى المترو ومن مكانٍ إلى آخر (وهو فى هذا واحدٌ من ذلك القطيع الرَّطب المتعب الذى كان يمضى فى ممرَّات مكسوةٍ بالفسيفساء) بحثًا عن أعمال غير ممكنةٍ فى بعض المُصالح ، ومكتبات هاشيت [1] أو مدارس بيرليتس[2] أو مكاتب التّرجمة أو دورات تدريس اللغة الإسبانية : لم يكن هناك عملٌ ثابتٌ بل مجرّد عملٍ مؤقّتٍ ينقشع كالدُّخَّان. كان يتذكّر ليالى الأحد الحزينة، العزف على الكمان وأوركسترا بيتهوفن، وشريطه الوحيد الذى كان يستمع إليه فى الشّقة الواسعة الخاوية والشّارع المهجور القذر الذى كان مليئًا بالوحل والجليد. كان يرى ذلك عبر النّافذة. وعندما كانت تنتابه رغباتٌ ملحّةٌ كان يذهب للتّجوُّل فى أحياء فتيات الهوى فى بيجال أو شارع سانت دينيس. لكن منظر تلك النّسوة ذوات الوجوه القاسية والحزينة وهنَّ ينتظرن فى البرد القارس أمام مداخل المنازل وعلى النّواصى والشّياطين المساكين مثله بمظهرهم الذى يغلب عليه كونهم مهاجرين من شمال أفريقيا وهم يمرُّون أمامهن عدّة مرّات فظيعى الهيئة وصامتين كالقطط، كان كلُّ هذا يعيده حزينًا مكتئبًا إلى الشّقّة الخالية من الأثاث، إلى بيتهوفن، إلى المدفأة التى كان يُسخِّن عليها فنجانًا من الشّاى واحدًا تلو الآخر. كان قد بدأ يشعر بالاشتياق الرّهيب إلى إيستيلا. كانت رسائلها تصل إليه على القنصلية

---

(1) Hachette، بالفرنسية فى الأصل.

(2) Berlitz ، بالفرنسية فى الأصل.

الكولومبية فى مظاريف بنفسجية اللون لا يمكن الخلط بينها وبين غيرها. كان يقرأ هذه الرّسائل فى مقهىً صغيرٍ بشارع أنجلو، وفى كثير من الأحيان فى نهاية العبارات كانت الدموع تترقرق فى عينيه. كان يضيره ـ فى الواقع ـ الحفاظ على هذه العلاقة كما يُقال كأصدقاء، كصديقين ممتازين بعد أنّ عاش ثلاث سنوات مع إيستيلا كان يجد نفسه وحيدًا بالشّقة فى أوقات كثيرة، يفكّر فى تلك الحياة المشتركة مع فتاة انفصلت عن زوجها ولم تحظ على الإطلاق بموافقة شقيقته. تعيش إيستيلا الآن فى جزيرة سان أندريس مع شاعرٍ ملحد. وكانت رسائلها تبعث على الحيرة وتنمّ عن حزن كبير "إنّنى لا أدرى فى نهاية الأمر ماذا أريد". كانت تحزنه كثيرًا. لكن العودة إلى إيستيلا، إلى بوجوتا إلى ليالى الصّرمحة، ونادى السّينما والحفلات الحزينة أيّام السّبت والأعمال التّافهة فى مجال الغذاء، كان ذلك يصيبه بالهلع. لم يكن لديه ما يمكن أنّ يفعله هناك، فالهواء الذى يستنشقه فى بوجوتا كانت رائحته حزينة مثل صالات الجنائز. كان لديه هذا الإحساس على الأقل.

كان ينبغى عليه أنّ يبقى وأنّ يقطع صلته بالماضي الذى عفا عليه الزّمن ويبحث عن عمل وأصدقاء جدد وربّما زوجة، كما ينبغى عليه أنّ يتخلّص من نزعة الانطواء على النّفس وربما لهذا السّبب على نحو ما يتذكر الآن ـ اتصل بلينارد، لم يكن من عادته أنّ

يتّصل هاتفيًا بأستاذ علم طبائع الإنسان (الانثروبولوجيا) الذى لم يكن يعرفه إلاّ من خلال حديث أصدقاء مشتركين لهما، وأخذ منه موعدًا فى المقهى. مقهى كلونى [1] وهكذا يتذكّر مقهى ونسخةً من مجلة نوفل أوبسر فاتير[2] كوسيلة للتّعارف. لم يتخيّل لأوّل وهلةٍ أنّ الرّجل ذا اللحية الكثيفة السّوداء والمنديل الوردى حول عنقه والذى يجلس إلى جوار امرأةٍ ذات شعرٍ أشقر مسترسل كانت قد فتحت صحيفة الاوبزفر على الطّاولة ، لم يتخيّل أنّه لينارد. لقد أصابه هذان الشّخصان بالدّهشة، فهو مرحٌ جرىء طلق اللسان أكبر منها بكثير، وكانت لحيته تتحرّك بسرعة وأريحية فوق المنديل الوردى . أمّا هى فباردةٌ ، قليلة الهندام ، جذابةٌ ، وقد بدا عليها جفاء صارخ تجاه ذلك الشّخص المجهول اللاتينى الأمريكى الذى جلس أمامها . كانت المرأة متضايقة وبدا عليها ذلك واضحًا فى صمتها وفى ردودها المراوغة وفى طريقة نظراتها إلى الأظافر أو عند التّدخين وهى تنفث دُخّان سيجارتها فى هواء المقهى . كان اسمها جراثيلا لكن لينارد كان يُسمّيها أونا . وبعد ذلك عرف أنّها كوستاريكيةٌ وفرنسيةٌ ولكنها كانت تعرف الإسبانية، ولم تستطع أن تفسّر له لماذا كانت لكنتها جنوبية أقصى جنوب قارة أمريكا اللاتينية، أو حسبما

---

(١) Cluny ، بالفرنسية في الأصل.

(٢) Nouvel Observateur، بالفرنسية فى الأصل، وتعنى المراقب الجديد

قالت ليس الجنوب بالضّبط بل من بلفيس(*) لم يستطع التّحقق من هذا فى ذلك المساء بمقهى كلونى لأنّها تحدّثت قليلاً. كانت نظرتها الشّاردة تنداح فى جنبات المقهى. وفى النّهاية أطفأت السّيجارة ونهضت قائلةً: ينبغى أنْ أذهب يارو وبينما كانت تضع معطفًا من الشّمواه الأخضر فوق كتفيها وغطاءً على رأسها لاحظ هو تحت ذلك ملابسها غير الأنيقة (تنورةً من الجلد وقميصًا من نسيج خامٍ يظهر حلمتيها بشكلٍ صارخٍ) وأنّ جسدها صلبٌ وحيوىٌّ مثل فتاة تلعب التّنس. وقد صدرت عنها كلمات الوداع له فى ازدراء "إلى اللقاء تشاو" وبصورة سريعةٍ ومبتذلة . كانت بغيضة كريهة. بدت له بغيضةً كريهةً. تابعها لينارد بعينيه وهى تفتح الباب وتختفى بين ضباب الأشجار الكثيفة: إنّها نظرةٌ هادئةٌ وعطوفةٌ من جانب والدٍ لا من جانب زوجٍ. كما تابعها هو أيضًا بعينيه. فمازالت فى ذهنه ذلك الطّيف غير المكترث عندما وضعت يديها فى جيبى المعطف وذلك الشّعر الأشقر المسترسل فوق كتفيها وهى تختفى بين الضّباب، وعندما دعاه لينارد بعد ذلك بأيّام لتناول العشاء فى منزله. كان هناك بمفرده. وجده وحده هادئًا تمامًا وليس على عنقه الآن المنديل الوردى بل منديل أصفر ذهبى اللون مرسوم عليه بذور البرسيم بلون التّبغ. كانت لحيته سريعة الحركة وعاتيةً وقال لضيفه سننتظر أونا التى لن تتأخر. لكنّها تأخّرت. وبينما كانا

(*) Pelvis ، بالفرنسية فى الأصل.

ينتظرانها تناولا أكثر من ثلاثة كئوس ويسكى . كانا يتناولان الويسكى ويأكلان اللوز المملّح فى تلك الشقّة الصّغيرة والمرتّبة جيدًا والمكتظة بالكتب والأقنعة الأصلية ولوحة كوبية على الحائط ولوحة أخرى لأنخيلا ديفيز دون أنْ يبدى ليناردا أيّة بادرة تدلّ على جزعه أو فقدان صبره، كان يتحدّث إليه عن رحلة قام بها مؤخّرًا إلى أورينوكو، وعن كتاب يقوم بإعداده عن البعثات فى الأمازون. وفى العاشرة ليلاً نهض واقفًا وتوجّه إلى الهاتف. سجلّ رقمًا: ليلة سعيدة يا أونا.

آهه ! أنت بخير. ثمّ عاد إلى الجلوس مرّةً أخرى دون أدنى أثر للتّوتر أو القلق أو للرّيبة أو الجزع لن تتأخّر أونا. لكن مرّت خمس وأربعون دقيقةً قبل أنْ يرن الجرس وتدخل أونا وهى ترتدى المعطف نفسه وتضع على رأسها تلك القلنسوة الطّفولية التى كانت تضعها فى المرّة السّابقة. كانت القلنسوة مبلّلةً من المطر فخلعتها عند الدّخول وقد أطلقت العنان لشعرها المسترسل الأشقر وحيّت زوجها بتحية مرحة وتوجّهت إلى ضيفه قائلةً: كيف حالك. ولم تعر اهتمامًا لليناردا الذى ذكّرها بالسّاعة مبتسمًا وعندما خلعت أونا المعطف أظهرت فستانًا أخضر كان رقيقًا جدًا وبفتحة صدر واسعة تكشف صدرها، كان الفستان يعطى الانطباع بأنّها عارية تمامًا. قالت لزوجها مرّرت على الكلية. كانت الكذبة مكشوفةً لكنّ ليناردا قبلها دون أنْ تتوتّر عضلةٌ فى وجهه. دخلت أونا الحمّام وظلّت فيه وقتًا طويلاً ثم ظهرت بعد ذلك لدى

الباب وهى تمسك بدبوس شعر بين أسنانها وفى يدها فرشاةٌ تُسلِّك به شعرها تمهيدًا لتمشيطه. وكان إيرنستو ينظر إلى عينيها البرَّاقتين وأسنانها التى تعضُّ دبوس الشَّعر وخاصةً ملامح الضَّعف النَّاعسة تلك والصَّارخة فانتابه الإحساس المضطرب بأنَّ شخصًا ما منذ ساعة مضت كان يداعبها ويعاشرها فى أىِّ فراشٍ. كانت تتحدَّث إليهما ودبوس الشَّعر بين أسنانها وطلبت منهما أنْ يتناولا العشاء بدونها. قالت أونا بصوتٍ متذمِّرٍ : كن حسنًا يارو. وقال لينارد بلا غضبٍ : هذا ليس صحيحًا ويذكر إيرنستو أنَّ لينارد اصطحبه إلى غرفة السُّفرة. وبمجرَّد أنْ شرعا فى تناول الطَّعام بعد أنْ اختار لينارد بكلِّ عنايةٍ ماركةَ نبيذٍ ممتازةً، جاءت يدٌ نسائيةٌ طويلةٌ بها أساورُ عديدة تصدر عنها شخشخةٌ قويةٌ، وتركت شنطة شمواه خضراء بين كأسيهما. وعندما رفع كلاهما نظره مندهشين وجدا أونا واقفةً عند الطَّاولة تبتسم لهما. قالت لزوجها : لا تنظر إلىَّ باستغراب. لقد كنت ميِّتةً من الجوع وقرَّرت المجىء.

إنَّهما زوجان ساديان يتلذَّذان بالألم. منْ الذى وضع هذا اللقب للينارد وزوجته ؟ منْ الذى كان قد أخبره بعد ذلك بقليل من تعرفه عليهما أنَّ علاقتهما سادية مطلقة بصورة مجنونةٍ وأنَّ أونا من حيث المبدأ تقريبًا كانت على علاقة آثمةٍ مع كثيرين من أصدقاء زوجها؟ بلا شك أخبره بذلك ليتاريس . الشَّاعر ليناريس . صديقه الأوَّل فى باريس. فى المرَّة التى

تعرَّف عليه فيها في إحدى المصالح الإسبانية أعطاه انطباعًا عنه بأنَّه إنسانٌ من عصر الكهوف، عملاق يتدثَّر بجلد جدي، ذو شعر مستعار ولحية كثيفة ومتوحِّشة وشعر ملبَّد كالصُّوف وقطع من الجبن. قال له بيروانو وهما ينزلان في مصعد المصلحة الإسبانية. كان الشَّاعر له رائحة كرائحة الجدي أو رائحة قفص غريب للقرود، رائحة رجلٍ اعتاد على أنْ يعيش دائمًا في غرفٍ بلا حمَّام ، بلا بانيو ولا شيء من هذا القبيل باستثناء حوضٍ مكسَّرٍ صنابيره أكلها الصَّدأ. لكنَّه كان ذا ضحكةٍ صريحةٍ وعميقةٍ وكان يتَّسم بطمأنينةٍ هادئةٍ وحيويةٍ في عظامه وحاسة شمٍ شبه حيوانية لكي يجد الأماكن زهيدة الأسعار، ويعرف من أيْن يشتري الجبن ، والخَسّ والنَّبيذ. كان خبيرًا عجوزًا منغمسًا في البؤس اليومي لباريس. وقد أفاده كثيرًا تعليمه كيف يستفيد من أربعة أصناف من الخضراوات ونوعين من التَّوابل وكذلك تحويل رجل دجاجةٍ ملفوفة في ورق سيلوفان إلى شيءٍ ذهبي اللون طريٍ بعد رشها بصلصلة النَّبيذ. ويذكر أنَّه في منتصف يوم ما اصطحبه إلى غرفته في شارع لاتومبي - إيسويري. كانت الأحذية وزجاجات الخمر في حوض غسيل القدمين، وكانت الغرفة رائحتها عفنةٌ مثل الشَّاعر في قفص القرود. ويتذكر أنَّ فتاةً اسكندنافية كانت تضجع فوق مرتبةٍ على الأرض، بالتَّأكيد كان قد اصطادها قبل ذلك بيومٍ من مقهى مونتبارناس، كانت الفتاةُ نائمةً مغطَّاةً بلحاف، بعد

ذلك نهضت كانت تسير نائمة وثدياها الصّغيران مكشوفان وزغبٌ من الشعر الأشقر بين ساقيها، نهضت وهى تنظر شزرًا للهناريس .

كانت الشّمس تدخل الغرفة عبر النّافذة فى يوم صافٍ وبارد. كانوا يستمعون إلى بيبالدى، يشربون نبيذاً غليظ القوام، وكان الشّاعر يُعِدُّ طبقًا من المكرونة الإسباجيتى. وبصوتٍ أجشٍ وقويٍ كان يحدّثه عن باريس فى الشّتاء. كانت باريس قذرةً يا أخى، مثل ثمرة فاكهةٍ تكسر أسنانك إذا لم تتعامل معها بمهارةٍ وذكاء. اقترح عليه أنْ يذهب إلى مايوركا إذا لم يجد عملاً فى باريس. فالأكل فى مايوركا رخيصٌ والشّتاء لطيفٌ وشمس ساطعةٌ وطبيعيةٌ رائعةٌ حيث حقول الزّيتون والبرتقال والخمر الممتازة وفتيات كثيرات فى غاية السّهولة، سائحات يمكن أنْ يباشرهن بمجرّد الإشارة ويتذكّر أنّهما انتهيا سكرانين. وسرعان ماظهر غسق الشّتاء فى النّافذة وقد تمّ استبدال شريط لوس بيايتس (١) بشريط بيبالدى (٢).

غزا الشّبق الشّاعر فبدأ يداعب الفتاة الإسكندنافية بيده مداعبةً غريزيةً. أمّا الآخر فقد نهض واقفًا وقال : سأنصرف يارجل. فقال له الشّاعر : انتظر يا أيّها (الشّرير) يوجد متسعٌ من الوقت لكلّ شيء. لكنّه أصرَّ على الانصراف. إنَّ الفتاة التى لديك هنا تَحظى باعجابى جدًا وتُصيبنى بالتّوتر. أطلق

(١) Los Beates، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Vivaldi، بالفرنسية فى الأصل.

ليناريس ضحكةً كبيرةً قائلاً له : سترى فتيات كثيرات كهذه ولن تدرى ماذا تفعل معهنّ. إنّنى أراك مثلى تمامًا رجلاً مقززًا تنتصر للفحولة الذّكورية، ردّ عليه صديقه وهو يأخذ معطفه. وطاف تلك الليلة بالقرب من شارع جارسان لازار ينظر إلى فتيات الهوى ثم قرّر اصطحاب فتاة فيتنامية بشوشة وصغيرة وجدها عند ناصية بالشّارع، وعاد إلى شقة شارع كليبر وهو هائج النّفس من جراء الكروب والأحزان. فكّر فيما بعد قائلاً: إذا لم أجد هنا عملاً بعد كلّ هذا سأرحل إلى مايوركا بدلاً من أنّ أصوّب لنفسى رصاصةً. فهناك شمسٌ وحقول زيتون وفتياتٌ كثيراتٌ يستجبن لك بمجرّد الإشارة .

– كان إيرنستو فى الواقع يزهو للغاية برجولته وفحولته ـ توجّهت مينينا إلى فرناندو ـ عندما عدنا من شيلى ظللنا نعيش معًا، ولكنّنى لم أستطع تهذيب طباعه.

– قال إيرنستو: كنّا نعيش فى شقة صغيرة جدًا فى شارع ديبارى(*) وهو اسمٌ يثير مزيدًا من الحذر والتّأنيب .

كنت أرى تلك الشّقّة الصّغيرة الحزينة فى الطّابق السّادس لا تتسع إلا لسرير وبها شرفةٌ تُطلّ على برج مونتبارناس. كانا يطهوان الطّعام فى فرن وكانت كلّ ثروتهما تنحصر فى شريط موسيقى للمطرب راى شارلز كانا يستمعان إليه طوال الوقت .

(*) Départ، بالفرنسية فى الأصل.

- قال إيرنستو : كنا نستمع إلى راى شارلز.

- تذكرت مينينا قائلةً؛ وأيضًا مستاقى. كم كان البرد قارسًا يا امرأة فى ذلك الشّتاء. كنت على وشك أنْ أموت من البرد والغيرة.

- ياللعجب ! لقد كنت على علاقة بفتاة أخرى، وجئت للبحث عنها، وماذا حدث يافتى، ماذا حدث معها ؟ كنت تنام قليلاً وتخرج ليلاً. لقد كنت نحيفًا للغاية .

أكدَّ إيرنستو : هذا بالفعل. انتابه فجأةً بردٌ فى القلب وتناول جرعةً من الرُّوم لكى يتخلَّص منه -فى الواقع كنت نحيفًا بسبَّب خياناتك.

أنكرت مينينا ذلك برأسها.

كانت تورطاتك أنت.

أوضح إيرنستو لفرناندو بأنَّ مينينا بعد أنْ ساءت علاقتها مع زعماء الوحدة الشَّعبية فى شيلى اهتمت بالفن التَّشكيلى الأمريكى اللاتينى لكلٍ من سوتو وبوتيرو وبينياس.. وهل بارك أيضًا ؟

- صه! قالت له مينينا ضاحكةً وقد سدّت فاهه.

- سوتو - ظلَّ فرناندو يتحدَّث من خلال أصابعها.

- قالت مينينا : لم تكن لى علاقة به - ببساطة لقد دعانى ذات ليلة إلى مونتمارترى وغنَّى بعض الأغانى.

زجرها إيرنستو قائلاً : إنَّه متهتِّك.

وبوتيرو ؟ سأل فرناندو وبفضول

- تلك كانت قصةً أخرى - قال إيرنستو -ذات يوم وجدتها معه فى شقَّة شارع ديبارى كانا جالسين أمام زجاجة شمبانيا.

اعتذرت مينينا قائلةً : لقد كان عيد ميلادى.

كانت ورديةً. كانت شمبانيا ورديةً. كانت السَّاعة الثَّانية عشرة نهارًا، ساعة غير مألوفة لتلك الرَّفاهية وكان كلاهما يشعر بالذَّنب إلى حدٍّ ما. بعد ذلك بأسابيع أطلعنى بوتيرو فى ورشته على تمثالٍ رائعٍ لامرأةٍ. كانت مؤخرة المرأة بها نغزتين مثل نغزتى مينينا.

- دافعت مينينا عن نفسها قائلةً: لجميع السَّيدات نغزتان.

حرَّك فرناندو رأسه مفكِّرًا.

قال فرناندو: إنَّ لويسا ليس لها نغزتان.

- بعد ذلك جاء... منْ يا مينينا؟

- آهه ، لا تبدأ .

دعينى أحكى ذلك لفرناندو. لكى أثبت له أنَّ فحولته كانت محقةً فى الاضراب أقول لك: إنَّها غريزة الحفاظ على الصحة. إنَّه البول الذَّكى .

- أنت الآن سكران .

– ونثارينو .

– عمَّن تتحدَّث يافتى ؟

– ذلك الممثِّل الكوميدى بالتِّليفزيون الفنزويلى .

– لم يكن اسمه نثارينو

– على أيَّة حال هو ممثل كوميدى شهير – توجَّه إيرنستو بالحديث إلى فرناندو – كان رجلاً مرصَّعًا بالماس وذا أربطة عنق حريرية وقمصان وردية فاقعة اللون. اتصل بها من المطار . كان يريد استئجار سيارة مرسيدس بنز . وقضت مينينا معه ثلاثة أيَّام .

أوضحت هى بسذاجة لقد ذهبنا إلى شارتيس(*) كنَّا نريد زيارة الكاتدرائية .

قال إيرنستو: وأماكن أخرى أقلّ ورعًا. وأنا كعلامة احتجاج ذهبت لأعيش فى فندق. استمرت تلك الحكاية ثلاثة أيَّام وثلاث ليال بالنِّسبة لمينينا كانت رقمًا قياسيًا فى الاستمرار فيما يتعلق بالدَّلال. وفى الليلة الثَّالثة بعد أنّ أصبح مجنونًا بحبِّها جاء الممثِّل الكوميدى يطرق بابها. افتحى لى كان يقول لها ذلك باكيًا منتحبًا، لا – دافعت مينينا – أنت بالفعل تُبالغ !

– كان يئنّ حينذاك. كان يطلب منِّى أنّ أفتح له. افتحى يامينينا. إلى أن هدَّه التَّعب فاضطجع على الأرض وهناك ظلّ نائمًا.

(*) Chartes، بالفرنسية فى الأصل.

أوضحت مينينا قائلةً: كانت ذاته ـ فى الواقع ـ تستحوذ عليه. كان دائمًا يتحدَّث عن نفسه.

انتاب الفزع جارة مينينا وهى أرملةٌ مسنَّةٌ على المعاش تُسمَّى مدام مارشاند، عندما فتحت بابها فى اليوم التَّالى فى وقت مبكرٍ جدًا. فالأمر ليس هينًا أنْ تجد مواطنًا فنزويليًا قد حلَّ محل البساط. أيقظته صائحةً : ماذا تفعل هنا؟ كان الممثِّل الكوميدى فى حالة يرثى لها.

- كان فى حالةٍ يرثى لها. قالت مينينا.

وقال إيرنستو: بالفعل كان فى حالة يرثى لها كما تقول زوجتك. هكذا عاد الممثِّل الكوميدى حزينًا جدًا إلى كاراكاس وهناك لايزال يفطِّس مواطنيه من الضَّحك.

تناول إيرنستو جرعة نبيذٍ.

كان هناك آخرون كثيرون .

آه، لا،كفى ! احتجت مينينا .

وسرعان ماقالت مينينا كى تقطع على فرناندو فضوله: رسامٌ كان يُعِدُّ بروفاته بأشعة الليزر، وطبيب أطفال يهودى.بكى فى حضنها ومصوران أيضًا. اقترب منها أيضًا أشخاصٌ مسؤلو الكلام فى محطة مترو فندق المدينة كانوا بلجيكيين.

- إذا حكيت ذلك سأنصرف ـ قالت مينينا، وقد أدرك أنَّها تقول ذلك بجديةٍ؛ بدأت تشتاط غضبًا.

– لا داعى إذنْ للحديث عن البلجيكيين. لقد نسيت طيَّار الميراج الذى كان وفيًا لزوجته.

– هذا ليس موجودًا يا أخى ـ قال فرناندو ـ فليس هناك أىُّ طيَّارٍ وفىٍ لزوجته.

– قال إيرنستو: لقد كان هذا وفيًا. لقد أحضر شيئًا لمينينا من كاراكاس. وقد دعته بنية سيئة لتناول القهوة فى غرفتها. كان المطر غزيرًا، وكان الشَّخص يحظى بإعجابك، أحقًا هذا يامينينا ؟

– كان أشقر جميلاً ـ قالت هى وقد شدَّت انتباهها تلك الذِّكرى، كانت عيناه عسليتى اللون . كان يشبه الملاك. لكن ياله من رجلٍ يافتى، كان متزوِّجًا حديثًا من ابنة عمٍ لى !

– أترى ؟ – التفت إيرنستو إلى فرناندو ـ لقد سحرته مينينا بطريقتها كما تعرف . وبدأ الرَّجل يرتعد. فلنخرج من هنا أو لن أستجيب لك، كان يقول لها ذلك وهو يرتعش، علمًا بأنَّه كان طيَّارًا حربيًا ومعلِّمًا. حسنًا لقد كان هو الآخر من الذين يحافظون على صحتهم .

– إنَّها أخطر من الحيَّة ذات الذَّيل الجاف – قال فرناندو ضاحكًا – أخبرينى بشىءٍ لماذا تصيبينهم جميعًا بالجنون ؟

– بالنَّظرة الشَّهوانية ونصف الجسد العلوى الجميل أمَّا الأمور الأخرى فاسألها عنها .

رفعت مينينا كتفيها .

- قالت مينينا: إنَّ الرِّجال كالأطفال الصِّغار .

- هرش فرناندو لحيته مفكِّرًا لم يكن يبدو عليه أنَّه مسرورٌ. وفى النِّهاية قال :

هل هى ممتعةٌ فى الفراش ؟

أجاب فرناندو: إنَّها هائلةٌ لديها شهوة عارمةٌ وفضولٌ عجيبٌ . وشيءٌ من الجمباز السّويدى. وهى فى الجماع كالإعصارات البحرية. الحق يُقال: إنَّها ممتعةٌ .

- احتج فرناندو قائلاً: يا أخى لا تحدِّثنى عن هذه الأمور اللطيفة .

بالنِّسبة له إنَّه يفضِّل الفتيات من نوع آخر تدَّخلت مينينا بسخرية .

- الفتيات اللائى يغذِّين الخيال .

- قالت مينينا : إنَّه يحبُّ الفتيات الفندورات .

- طلب فرناندو توضيحًا .

- قال إيرنستو الأمر لا يمكن إيضاحه أكثر من ذلك إنَّه يفضِّل الفتيات الشَّابات المتأنِّقات الحسَّاسات للغاية .

اعترف فرناندو إذا كان الأمر هكذا فأنا كذلك. أنا عندما تقترح علىَّ امرأةٌ وتبدأ فى كشف مفاتنها ينتابنى الإحباط. لا أستطيع أنْ أفعل شيئًا. لقد

تعوّدت على الخادمات فى ارمينينا يا أخى، إنّهن يقاومن ويرفضن ويقلن لا حتى آخر لحظةٍ .

– قالت مينينا بإيماءة شفقة لقد أصابكما العفن .

– قال إيرنستو : بالتّأكيد. إنَّ رائحتنا عفنةٌ. الجيل العفن. لقد علّمونا بأنَّ المباشرة الجنسية والخطيئة سواء بسواء. لقد أحببنا حبًا طاهرًا عفيفًا نمطًا معيّنًا من النّساء يفضل أنْ يكن من برج العذراء من أمثال إنجريد بيرجمان وأودرى هيبرون وجريتا جاربو. وتعجبنا النّساء اللاتى على نهج خطيبة الضّابط.

– قال فرناندو الآن فهمت، نسوةٌ بفساتين حرير مجسّمة، كبيرات الصّدر، على خدودهن خال. عيون خضراء مثل فتيات الهوى فى مدينة ميدايين بكولومبيا .

ـ خطيبة أو حبيبة الضّابط ـ هل تتذكّر يافرناندو ضباط الشّرطة هؤلاء الذين انتحروا فى قفزة التكنداما .

– كيف أتذكّر ذلك يا أخى أنت أكبر منّى .

– ماعمرك ؟

– ثلاثون .

إنَّ الضُّباط الذين أتحدّث إليك عنهم ألقوا بأنفسهم فى قفزة التكنداما(*) وقد تركوا على شاهد

(*) Tequendama، بالفرنسية فى الأصل.

المنتحرين كابًا وزيه العسكرى ورسالة وداعٍ. وأحيانًا صورة التقطت في الحديقة الوطنية ذات يوم أحد. ودائمًا، دائمًا بسبب امرأة ما . امرأة فاسدة . وفى هذا الصّدد كلنًا ضبّاطٌ أحقيقةٌ ذلك ياضابط إيساثا؟ هذا حقيقى أيُّها الضّابط إيساثا؟

قال فرناندو : بالتّأكيد أيُّها الضابط ميلو .

- وهل أنا أشبه واحدة ممن ذكرتما ؟ قالت مينينا على سبيل الاحتياط .

- لا، أنت تنتمين إلى جيل لا علاقة له بالازدواجية. فالمعاشرة بالنّسبة لكنَّ هى رياضةٌ محضةٌ . قبل أنْ يقع الخيال فى خيوط العنكبوت كنتن قد تحرّرتن من الخطيئة فأنتنَّ مختلفات تمامًا. إنَّ المرأة التى نتحدّث عنها امرأةٌ مغريةٌ، امرأةٌ مراوغةٌ .

- وهو كذلك، إنّها تثير الرّجال .

- إن أردت ذلك .

قال فرناندو : إنّها تحمل السم .

قال إيرنستو: بالتّأكيد. لقد تربينا على تعاليم أصول الدّين التى كان يلقّنها لنا الأب أستيتى وهيئة مترو جولدن ماير. كان الحبُّ يتمثّل فى إنجريد برجمان فى البيت الأبيض . أمّا الهوى فكان ضوءًا أحمر فى حى وضيعٍ . أمّا أنت على العكس من ذلك ... مع منْ يا مينينا مارست الحبَّ لأوّل مرّة ؟

بدت مينينا وكأنّها تُجهد الذّاكرة .

قالت : مع شخصٍ من سان بيرناردينو. سان بيرناردينو هو الحى الذى كنت أعيش فيه بكاراكاس. جاء يحمل لى اسطوانة لفرقة البيتلز. ولم يكن أحدٌ بالمنزل .

– تنهَّد إيرنستو قائلاً: بيتلز وبترول. آى مينينا كم أنت بعيدةٌ عنَّا !

- ٢ -

تحاول الآن أنّ تتذكّر كيف ومتى تعرّف على ماريا وكيف قابلها فى باريس، فكلٌ مافى ذاكرتها عبارة عن يوم صافٍ وباردٍ. (هل كان فى أواخر الشّتاء أو فى أوائل الرّبيعْ؟) وتحدّثْ إلى ليناردو عن فتاةٍ كولومبيةٍ من قرطاجنّة كان يريد أنّ يعرّفه عليها. ذهبا ليتناولاً طعام الغداء معها. ويذكر أنّها الآن تنتظرهما فى ميدان أوديون، إنّها أنيقةٌ، نحيفةٌ وجميلةٌ جدًا، ترتدى فستانًا رماديًا وعلى ذراعها معطفٌ فى السّاعة الواحدة مساءً، تختلف تمامًا عن فتاة السّاحل، كان قد تخيّلها جريئةً وثرثارةً. وعندما ركبت سيارة ليناردو وجلست فى المقعد الخلفى ورآها عن قرب، انتابه انطباع فورى متأكدًا من أنّه رآها قبل ذلك. لم يدر أيّن. وبينما ليناردو يمضى بسيارته صوب ميدان كونتريسكاربى حيث يفترض أنّ أونا كانت تنتظرهم، كان إيرنستو يعذّب ذاكرته كى يتذكّر المكان الذى رآها فيه. وسرعان ما تذكّر. كان ذلك منذ سنواتٍ مضت

فى قرطاجنَّة أثناء مهرجان السِّينما. الوجه نفسه ذو الملامح الرَّقيقة، والعينان السَّوداوان الواسعتان، والنغزتان اللتان ترتسمان عند خديها عندما تبتسم. كان قد جَنَّ الليل وهما يجلسان فى شرفة ناد فى بوكاجراندى يتحدَّثان. الصَّحفى الذى ذهب لتغطية مهرجان السِّينما وتلك الفتاة التى تشبه كثيرًا أودرى هيبورن(*) (ومازالت تشبهها، الممثِّلة أودرى هيبورن)، كانا يتحدَّثان يتذكَّر فى الظَّلام، العصافير، اللون وأشجار نخيل بوكاجراندى والضَّوضاء ومن المحتمل رائحة البحر وكأنَّ كلَّ ذلك قريبٌ منه، بينما كانت الفتاة تتحدَّث. كان يلفُّه الحزن ماذا تقول الفتاة التى كانت تملُّ الحياة فى المحافظة، هكذا فكَّر وهو يستمع إليها. كانت ترسم وكأن قد قرأت فيرجيل، الأمر الذى بدا له غريبًا بالنِّسبة لفتاة مثلها ترتدى فستانًا أبيض رقيقًا مزركشًا بالزُّهور الصَّغيرة وفى مدينة شديدة الحرارة. كان قد نسى اسمها أمَّا وجهها فلا.

أمَّا هى فلم تكن تتذكَّر شيئًا. تلك الدَّردشة السَّريعة فى بوكاجراندى كانت قد تبخرَّت تمامًا من ذاكرتها. كان أناسٌ كثيرون يفدون من بوجوتا فى فترة مهرجان السَّينما أو فى أعياد الحادى عشر من نوفمبر، قالت له معتذرةً عندما كانا يجلسان فى

(*) أودري هيبورن: (١٩٢٩ ـ ١٩٩٣م) ممثلة أنجلو هلوندية، لم تمثل أفلامًا شهيرة فقط وإنما مثلت مرحلة، وكانت رمزًا للموضة وكانت ناشطة اجتماعية وسفيرة النوايا الحسنة وحاصلة على أوسكار ١٩٥٣م.

شـرفـة بميدان كـونتريسكاربى وهى تـمسك بكأس مارتينى فى يدها. كانا وحدهما مؤقتًا لأن لينارد ذهب إلى كابينة الهاتف، فى أحد جهوده المتكرّرة والمسالمة واليائسة لكى يعرف أين توجد زوجته أونا التى أخلفت موعدها. وفى وسط الميدان كـان بعض الصّعاليك يجلسون على الأرض ثيابهم رثّةٌ وسعداء، كانوا يتجرعون الخمر ويتشمّسون. كان فى تلك اللحظة بينما ترد على سؤال مبتذل (شىء من هذا القبيل: ماذا ستفعلين هنا؟)، قالت له لقد جاءت هاربةً، قالت له ذلك وهى جادة جدًا تنظر إليه بعينيها الواسعتين السّوداوين، وأردفت جئت هاربةً من زوجى فقال لها: هل ذات الرّداء الأحمر تهرب من الذّئب المتوحّش؟ أجابت: نعم ياسيدى من الذّئب المتوحّش. قال لها بصورة تقليدية بشمةً : ماهى مشروعاتك ؟. تذكّر كيف أظلم وجهها. مشروعات ؟ ردّت بصوتٍ غير واضحٍ حائرةً قلقةً. ووضعت الكأس بيدٍ مضطربةٍ على مرمر الطّاولة وأخذت تنظر إلى قشر الليمون الذى كان يتراقص داخل الكأس. قالت : لا أدرى أفضّل أىّ شىء على العودة. كانت على وشك البكاء هكذا فكّر ايرنستو. كانت لديه، دائمًا كانت لديه حاسة شمٍ معيّنة لكى يعرف متى يقترب الشّخص من حافة اليأس، ولم يرد معرفة أكثر من ذلك. إنّنا جميعًا هنا هاربون فلا تقلقى قال إيرنستو بغموضٍ. ولم يتذكّر هل قالت له على الفور أو بعد صمتٍ طويلٍ كانا أثناءه ينظران فى آن إلى الميدان الهادئ الذى تغمره الشّمس والصّعاليك

لابسى الأسمال الذين كانوا يتجرَّعون الخمر جالسين فى وسط الميدان، قالت له إنَّها تخاف من المدن الكبيرة ومن غرف الفنادق، إنَّها تفضِّل الحياة فى الرِّيف. نعم، نعم وافقها على ذلك مبتسمًا، فى منزل به كثيرٌ من الكتب واسطواناتٌ ؟ قالت هى: نعم، نعم، هذا بالضَّبط. قال لها: ألست من برج العذراء؟ انفجر إلى جانبه صوتٌ مرحٌ قائلاً: من الجوزاء. كان لينارد قد عاد من كابينة الهاتف. لكن ماريا بدت عيناها مغمضتين بالدَّهشة إنَّنى من برج العذراء، العذراء. وتوجَّهت إليه فى فضولٍ : كيف عرفت ذلك؟

كان كلُّ شيءٍ متوقَّعًا: أنْ يلتقيا يومًا بعد يوم طوال تلك الأسابيع، أنَّ يتنزَّها فى نزهاتٍ طويلةٍ فى باريس، أنْ تحكى له ماريا عن ظروف هروبها، عن زواجها الكارثى، وفى نهاية المطاف أحبَّ كلٌّ منهما الآخر. تحدَّثت له مرَّاتٍ كثيرةٍ عن حياتها فى قرطاجنَّة. عن منزلها شبه الخرب فى حى مانجا: منزل أسرةٍ ممتازةٍ تدهورت حالتها، منزل له فناءٌ يغطِّيه نباتُ السَّرخس ودهليزٌ كبيرٌ كانت تصل إليه الخفافيش . تحدَّثت له عن والدتها التى كانت تقضى كلَّ الوقت تلصق الصُّور المطبوعة فى ألبوم . كلَّمته عن والدها غير المكترث والذى تقدَّمت به السنُّ فى الحرِّ الشَّديد والتُّراب وروتين مكتب الجمارك كان شغله الشَّاغل الاهتمام بنظام المجموعة الشَّمسية وكذلك عن خائينتا الخادمة الزِّنجية شبه السَّاحرة التى كانت مرضعتها والتى كانت تتشاءم دائمًا من تحليق طيور

اليوم فى الليالى شديدة الحرارة . أحسّ إيرنستو وهو يستمع إلى ماريا بتلك الحياة الخانقة مثلما كانت حياته أيضًا : السّاعات الهادئة وتدريبات البيانو والدّردشات التى لا تنتهى مع والدته أثناء الليالى بينما يحلّق فوقهما طائر الخفّاش . تلك الأمُّ الحزينة التى كانت تشتكى دائمًا من حياتها وكانت لا تكفُّ عن الحديث عن جدّها أكبر رجل ذى نفوذٍ فى المدينة. والدةٌ تُشبه العنكبوت بدت له وهو يستمع إلى ماريا التى تحمى ابنتها فى حدودٍ غير معقولة، كانت تخيفها لكى تفرض سيطرتها عليها. كانت تقول لها: "ما الذى سيحدث لك بعد أنْ أموت" كانت تقول لها ذلك كلّ مرّةٍ وهى تتنهّد عندما ينتابها صداعٌ يهوى بها من فوق سريرها البرونزى . وكانت ماريا مازالت طفلةً تمسك بالملاءات وهى تبكى . كان يتحتّم عليها أنْ تحكى لها كلّ شيءٍ عمّا تفعله حتى عن أحلامها . وبهذه الطّريقة أصبحت ماريا فتاةً سلسة القياد مهذبةً جبانةً خاضعةً تمامًا لإرادة والدتها التى كانت تتطلع فقط إلى تزويجها من رجلٍ ثرّيٍ ذى حسبٍ ممتاز، تبحث - دون شكٍ - بذلك عن الثّأر والانتقام من حظّها. وظهر هذا المليونير الذى لم يكن من قرطاجنّة بل من بوجوتا فى احتفالات الحادى عشر من نوفمبر. كان قصيرًا أصلع يُحرِّك شفته لا إراديًا. كان يشربُ كثيرًا. ويداه تفرزان عرقًا وعندما كان ينظر إليها كانت عيناه تبدوان مليئتان بالأفكار القذرة لكنّه كان الوارث لسلسلة من السوبر ماركت فى جميع أنحاء البلاد. كان يصيب

ماريا بالتّقزّز والاشمئزاز. كانت الأمّ الحديدية المزعجة تقول لها هذا ليس مهمًا : تقتلينه فيما بعد، تدسين له السُّمّ إنْ شئت، لكنَّك ستتزوجينه. كانت إرادة الأم لاتلين وفى نهاية الأمر تكون لها الغلبة. ووسط عدم اكتراث الأبّ الذى ظلّ يهتم فقط بالكواكب والأفلاك وبالسُّرور الحزين والمظفَّر للأمّ، تمّ تقديم الاستعدادات للزّفاف . حدَّثته ماريا أيضًا عن أطقم السُّفرة ماركة سيفريس[1] وأطقم الزّجاج ماركة ليموج التى بدأ رصّها فى صالة المنزل، والارتباط الذى باركه القمص، ثم فى النّهاية الزّفاف الذى حضره المحافظ وأعيان المدينة وكانوا يشغلون المقاعد الأولى بالكنيسة.

لم يكن حينذاك وهما يتنزّهان فى حدائق توليدياس[2] أو وهما يتناولان مشروبًا مرطّبًا فى مقهى بلاس موبير[3] عندما تحدَّثت له عن هول شهر العسل ذلك فى فندق بميامى. تحدَّثت له عن الهول الآخر، عودتها إلى بوجوتا، إلى منزل حماتها، منزل فسيح قارس البرودة مثل الضَّريح، به خادمات كنّ يسرن فى الصَّالونات على أطراف أصابعهن، كلَّمته أيضًا عن حماتها الشّمطاء المتعجرفة والأرستوقراطية التى كانت تبدى امتعاضها برفع حاجبيها. تحدَّثت إليه أيضًا عن زوجها الذى كان مدلَّلاً كالطّفل من جانب تلك المرأة وعن الليلة الأولى التى جاء فيها سكرانًا فى

(١) Sévres، بالفرنسية فى الأصل.

(٢)Tullerías، بالفرنسية فى الأصل.

(٣) Place Maubert، بالفرنسية فى الأصل.

زمرة من أصدقائه قادمين من نادى جوكى[1] وكيف أنه فى وسط هذيان هؤلاء تبول على البساط وتنكر فى ملابسها الداخلية ونعليها عالىَّ الكعبين.

كان من الطبيعى أنّ تتناول ماريا ـ بعد ذلك كله عشرين قرصًا منومًا بعد بضعة أسابيع من الزواج. وقد أخرجتها ابنة عمها التى كانت تعيش فى ميامى بكلّ حزم من العيادة التى كانت تعالج فيها بميامى. كانت ابنة العم هى التى حصلت على إذن من الزوج لكى تصطحبها لبضعة أيام: فى رحلة نقاهة كما قالت له. وعندما كانت هناك ركبتها الطائرة: "اهربى ـ هكذا أمرتها ـ فالمرة القادمة إذا كررت فعلتك تلك ستموتين حقيقة".

عرض إيرنستو على ماريا مساعدتها فى العثور على عمل. ويذكر أنه كان كلّ صباح يمرّ ليأخذها من فندقها فى شارع سوميرارو[2] وكانا يتناولان إفطارهما على الناصية فى مقهى بلاس موبير أمام ضوضاء بائعى الفاكهة والبقول. كانا يخططان لخطط حزبية كما كان يسميها دائمًا. لكن لم يكن هناك عملٌ مناسبٌ لماريا.

كانت ماريا ماتزال ضعيفةً لكى تتحرك فى مراكز أكوىّ[3] للطلاب لتبحث عن الدورات الدراسية الإسبانية الكلاسيكية أو الترجمات أو الوظائف

(١) Jocky Club، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Sommeraro، بالفرنسية فى الأصل.

(٣) Accueil، بالفرنسية فى الأصل.

المؤقتة مثل القيام بأعمال النظافة فى منزل أو رعاية أطفال. كما لم يطف بالذهن التفكير فى أنْ نتخيلها وهى تجمع الفراولة فى الجنوب مثلما عرضوا عليهما فى محل فوير[1] بشارع جان جالفين، بهاتين اليدين الضعيفتين والرقيقتين جدًا كعازفة بيانو. ومع ذلك كانت مثابرةً ومنضبطةً، كانت كلَّ صباحٍ على استعداد لفحص الاعلانات بصحيفة الفيجارو وفى يدها قلمٌ جافٌ أو تقوم برحلاتٍ مضنيةٍ فى المترو بحثًا عن إمكانية عمل بعيدة المنال. فالواقعُ اليومى لصالات تعجُّ بالطلاب العرب والأفارقة الذين ينتظرون الفرصة نفسها، كانت الطوابير والمفارش الملطخة بالطماطم والزيت فى المطاعم اليونانية بالحى اللاتينى تصيبها بالاكتئاب. تأرجحت قراراتها الراسخة وغزا عينيها نوعٌ من الذعر. إذا لم أستطع البقاء هنا سأنتحر، كانت ماريا تقول ذلك أحيانًا. بدا إيرنستو يشعر تجاهها بنوعٍ من الحنان العميق شبه الأبوى . هذا الإحساس، أمرٌ غريبٌ، لم يكن يفسح المجال لأيَّة رغبة جسدية. كان ينتظرها كلَّ صباح بحياءٍ فى صالة استقبال الفندق دون أنّ يصعد إلى غرفتها، وكان يتركها بخجلٍ بالليل فى المكان نفسه. لم يجرؤ قط على أنّ يقترح عليها العيش سويًّا فى شقته بشارع كليبر. وقالت ماريا لموسيقار أرجنتينى سألها ذات ليلة عن درجة قرابتهما فى براسير مورفى[2] إننا شقيقان. بغموضٍ شعر إيرنستو بضرورة إنهاء هذه الصورة

(١) Foyer، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Braserie Morvin، بالفرنسية فى الأصل.

الهادئة. قال لها : حذار، مما جعل وجهها يحمرُّ خجلاً. إنَّنى أميل إلى زنا المحارم. وكان يتساءل مرارًا وتكرارًا اثناء عودته إلى شقته عن أسباب ذلك الحياء الذى كان يراه ضربًا من العبث. قرَّر معاشرتها، فهى فى نهاية الأمر امرأةٌ. وذات ليلة، وعلى طريقة شيطان شرير بدأ يوسوس له بالمناورات والخطط المحسوبة بدقة، جعلها تشرب كأسى بُنش (١) فى روميِر مارتينكو(٢) ثمَّ زجاجة سانسير(٣) مثلَّجة فى مطعم الزاسى(٤).

بالقرب من ميدان سان ميشيل وكأس ويسكى فى إسكالا وهو بارٌ أمريكىٌّ لاتينىٌّ كان يعرفه منذ مرحلته القديمة كطالب . بدلاً من البقاء فى الطَّابق الأوَّل للاستماع إلى النَّايات الحزينة لهضبة الإنديز التى يستمع إليها الفرنسيون الآن وكأنَّهم يحضرون قدَّاسًا، نزلا إلى البدروم الذى يكثر به الدُّخان والظِّلال حيث كانت تعزف فرقةٌ موسيقيةٌ كوبيةٌ. البيانو والبوق والنَّاى والقيثارة الكهربائية والآلات الموسيقية الأخرى كانت تتناغم بشكل رائع فى ذلك الجو الذى يمتزج برائحة العرق والخطيئة والليلة الهادئة والصَّامتة فى بيراكروث. وكان المغنى فتىً أسمر سيسبح فى وقت لاحق صديقه باريِّتو، كان يغنى أغنية قديمةً، بينما

---

(١) مشروب كحولى.

(٢) Rhumerie Martiniquiase، بالفرنسية فى الأصل.

(٣) Sancerre، بالفرنسية فى الأصل.

(٤) (نسبة إلى الزاس على الحدود الفرنسية الألمانية).

العمق أحمر والموسيقى صاخبةً. لم ترد ماريا الرّقص حينئذٍ بل بعد ذلك عندما عزف الموسيقيون أنغام رقصة إسبانية متحذلقة لروبرتو ليديسما، ولأوّل مرّة وهي في أحضانه أحسّ برائحة الليمون في شعرها، واحتكاك ثدييها الصّغيرين غير المترهلين. لكنها كانت متوتّرة. لم تهجر الإيقاع البطيء لموسيقى الرّقصة الإسبانية، وفي الظّل برائحة ليالي بيراكروث تلك أحسّ بها بين ذراعيه حذرةً متشنجةً. عندما خرجا إلى الهواء الرّطب في الشّارع، تساءل إيرنستو كيف يقول لها ذلك، كيف يقترح عليها. وفجأة قرّر أنّ يهجر كلّ حساباته. قال لها: ماريا أريد معاشرتك. هكذا نطق ببساطة وهما يسيران في شارع السّيد الأمير. لاحظ على الفور توترًا خفيفًا على الوجه، بريق الرّعب في العينين . قالت له: الآن لا أعطني مزيدًا من الوقت. ومن الغريب أنّه لم يشعر بخيبة الأمل بل بنوعٍ من الهدوء والحنان. قبّلها برقةٍ عند الوداع. لقد كان متيّمًا، لم يكن هناك شكٌ في ذلك.

أجرى اتصالاً في تلك الفترة بفضل ليناريس مع دار نشر في برشلونة للقيام ببعض التّرجمات (كتاب لبوريس فيان كما يقول). بالنّسبة لماريا فإنّ كل ما استطاع أنّ يجده لها هو رعاية طفلة لأستاذ إسبانيٍ وزوجته الألمانية التي تحمل نظارةً سميكة. كانا يقدّران ماريا جيدًا وقرّرا مساعدتها. وجدا لها عملاً لغسل الأطباق في مطعم بشارع سانت بلاثيد اسمه النّجمة الزرقاء، نظرت صاحبة المطعم إلى وصول ماريا بنوع

من الشّفقة قائلة: أنا متعودة على رؤية فتيات مثلك لسن متعودات على الشّرب، لكن حاولى أنّ تكونى كذلك.

قالت لها ذلك قبل أنّ تطلعها على حوض الغسيل المملوء بالماء الدّهنى وبجواره أكوام هائلة من الأطباق المرصوصة. فى اليوم الأوّل وبعد أنّ غسلت الأطباق لمدة ساعتين لم تستطع ماريا تذوق لحم الشّواء الذى وضعته لها صاحبة المحل على الطاولة ومعه فاصوليا بيضاء. حبست نفسها فى الحمّام وكانت على وشك الاستفراغ. واعدها إيرنستو بعد ذلك بيومين فى مقهىً صغيرٍ فى بلاس موبير(*) وقد رآها شاحبةً عند خروجها من المترو. وبمجرّد أنّ جلست بجواره على دكة فى آخر المقهى انفجرت فى البكاء. قالت له إنّ عربيًّا احتك بها فى عربة المترو ثم طاردها فى ممرّاته ووجه لها بعض العبارات البذيئة الفاحشة. لكن إيرنستو لاحظ أثناء استماعه لها وقد احمرّ أنفها واغرورقت عيناها بالدّموع أنّ ما قالته عن الشّخص العربى لم يكن سوى ذريعة. كانت هناك أمورٌ أخرى أطباق المطعم ورسائل والدتها تحضّها يائسةً كى تعود لتفادى الفضيحة. ويتذكّر إيرنستو الآن أنّه وضع ذراعه على كتفيها وأنّها تركت رأسها تلامس رأسه. فلم تكن حتى الآن الفتاة المتيّمة الولهانة بل الطّفلة التى تخلّصت توًا من هول كابوسٍ ووجدت يد الأبٌ وضوء مصباح وبطانيات الصّوف اللطيفة التى أعادتها

(*) Place Maubert، بالفرنسية فى الأصل.

إلى عالم آمن . قال لها إيرنستو وقد أحسَّ بأنَّه تجاوز الباب الأخير : سنذهب إلى مايوركا. وقد طيَّر البالونة المتعددة الألوان في الهواء وتحدَّث إليها عن منزل قديم جدًا به كتبٌ واسطوانات وعصافيرٌ تزقزق فوق قراميده القديمة التي فقدت لونها نظرًا لشدة الشَّمس وغزارة الأمطار، منزل تهيمن عليه رائحة الرِّيف بعيدًا عن باريس . إنَّه في النِّهاية والد لايشاركها المخاوف بل يحملها وحده على عاتقه. بادرة أمل بدأت تداعب مقلتيها اللتين مازالتا مغرورقتين بالدُّموع. سألته قائلةً وكيف سنفعل ذلك ؟ أجابها قائلاً : سنأكل برتقالاً، نعم يابنيتي من تلك البرتقالات التي تتساقط من الأشجار.

ذهبا في تلك الليلة بحثًا عن ليناريس الذي اصطحبهما إلى حانة روزيود(١) وتقع في شارع ديلاسبري حيث يكثر هناك الشَّعث من أمثاله. وبينما كانوا يتجرَّعون مشروبًا كحوليًا بكثير من الثَّلج تحدَّث إليهما عن قرية ديًّا(٢) بمايوركا ذات المنازل القديمة جدًا ومستودعات المياه وأشباح وتلال صفراء وأناس ممتازين كانوا يعيشون وكأنَّهم صنَّاع يدويون من العصر الوسيط. تحدَّث إليهما عن المجالات المغناطيسية في الجبال وعن أربعة أشخاص كانوا قد زاروا القرية في العام الأخير كان أحدهما بالتَّأكيد كولومبيًا يُدعى كارلوس كارلوس أو بريجون. كان ردُّ

(١) Rose Bud، بالفرنسية في الأصل.

(٢) Deiá، بالفرنسية في الأصل.

فعل إيرنستو قويًا : إنّ كارلوس كان صديقًا لي. بدأ الثّلاثة يضحكون. كانت ماريا تنظر إلى الشّاعر ليناريس المهزار دائمًا وصوته الأجش الذي يخرج من بين لحيته الكثيفة وكأنّه ملهىً شعبيّ. كانت السّاعة تقترب من الثّانية فجرًا عندما خرجوا إلى الشّارع وعيونهم ملتهبةٌ من الدُّخان. ودّعهما الشّاعر واعدًا إيّاهما بأنّه سيوفر لهما منزلاً في قرية ديًا، ويذكر إيرنستو أنّهما سارا تجاه نهر السين وهما في غمرة حب الإثارة. كانت تهبُّ رياحٌ باردةٌ مصحوبةٌ بمطرٍ خفيف عند بون ديزار[1] كانت الشّبورة كثيفةً تغطي أشجار الصّفصاف في فيرجالان[2] وكانت تسبح فوق المياه الدّاكنة والبطيئة للنّهر وقد اخترقتها الأضواء والانعكاسات. كانا قد استمعا إلى دقّات ساعة تعلن تمام الثّالثة فجرًا. وكانت ماريا تشعر بالبرد. وقد بدت صغيرة وضعيفة وهي ترتدي معطفها الفاتح فاحتضنها إيرنستو. أحسّ بها وهي ترتجف بين ذراعيه. أخذ يقبّلها ليس في فمها فقط بل في عنقها وفي شحمة أذنها حينئذ أحسّت بانقباض بداخلها فابتعدت عنه في ذعرٍ فظيعٍ أطلّ من عينيها. انتظر، انتظر يا إيرنستو، كن هادئًا. تركها إيرنستو كالعادة لدى باب فندقها بعد أنْ أكّد لها أنّه ليس غاضبًا.

يذكر إيرنستو أنّ لينارد دعاهما إلى منزله قبل السّفر. كان هناك أناسٌ كثيرون يحضرون الحفلةَ. لم

(١) Pont Des Arts، بالفرنسية في الأصل.

(٢) Vert Galant، بالفرنسية في الأصل.

يعرفا أحدًا وعلى الفور أدركوا أنَّ غالبية الحاضرين كانوا أساتذة أنثروبولوجي ومتخصصين في اللغة الإسبانية أو أشخاصًا من أمريكا اللاتينية كانوا يعملون في منظمة اليونيسكو. كانت أونا ترتدي فستانًا رقيقًا أحمر اللون وشعرها الحريري الأصفر يتدلَّى على كتفيها، وكانت مرحةً تمامًا في بيتها تضحك على مزاحهم معها. على ما يبدو أنَّها وكثير من الحاضرين كانوا قد زاروا هافانا حيث قال لهما مقدِّم شرطة أنَّ سُرَّتها هي أجمل سُرَّةٍ في كوبا. ظلَّ إيرنستو وماريا بعيدين عن المجموعة. وفي لحظةٍ معينةٍ ذهبا إلى المطبخ فالتقت بهما أونا. انتاب إيرنستو كما في المرَّة الأولى إحساسٌ بأنَّ الشَّفافية الخفيفة للفستان جعلت أونا عاريةً ويذكر إيرنستو أنَّ أونا وماريا تبادلتا النَّظرات للحظة وكان النُّفور المتبادل واللحظي يمكن اكتشافه في الهواء حيث كانت كل منهما تدرك أنَّها على طرف نقيض من الأخرى. فماريا رقيقةٌ ومهذبةٌ في فستانها الرَّمادي البسيط. أمَّا أونا فهي وقحةٌ مستفزةٌ بفستانها الأحمر رأياها فيما بعد في ركن مظلمٍ بالصَّالون بساقيها الطَّويلتين الرَّفيقتين وقد ثنتهما بإهمال فوق مسند، كانت تتحدَّث مع شخص أرجنتينيٍ ذي عينين خضراوين ووجنتين بيضاوين. ثم اختفت بعد ذلك تمامًا. كان إيرنستو يبحث عنها بعينيه في صمتٍ ولكن فستانها الأحمر لم يُر في أيِّ مكان. كان اختفاؤها أكثر تحديًا من وجودها. لكن لينارد لم يكن مضطربًا على ما يبدو. لقد اقترب منهما

بكأس فى يده وكان ثرثاراً، وكانت اللحية تهتز فوق منديل حرير أخضر اللون وبينما يسير إيرنستو وماريا صوب المترو سألته عن رأيه فى زوجة لينارد. ردَّ عليها قائلاً : إنَّها طائشةٌ وجذَّابة. وماريا شرسةٌ، فاجأته بقسوتها: لقد بدت بالنِّسبة لى فتاةً سوقيةً للغاية.

ظلَّ النَّاس يتوافدون . امتلأت غرفتا الشَّقة بالمدعوين والمطبخ والصَّالة أيضًا حيث كانت هناك مجموعةٌ تتجرَّع مشروباتها واقفةً. كانت موسيقى الإستريو تدوِّى صاخبة بين تلك الجدران، عندما خرج إيرنستو من الحمَّام نظر هنا وهناك بحثًا عن كريستينا لكنها لم تكن قد وصلت بعد. وفجأةً سمع أنهم ينادونه لدى الباب .

وبغموضٍ استطاع التَّمييز بأنَّ فتاتين كانتا تشيران إليه.

– قال إيرنستو: قرف . وبعد أنْ تعرَّف على مارجوت ثيثيليا نونيوث المسماة لامارجى قال: وماذا تفعلين هنا ؟

كان اللاتينيون الأمريكيون يبدون وكأنَّ لديهم رداراً يكتشفون به أيَّن تقام الحفلات . كانوا يظهرون دائمًا حتى ولو لم يعرفوا صاحب المنزل.

حيًّا إيرنستو مارجى التى كانت أنيقةً جدًا بقبلة على كل من خدَّيها كانت ترتدى سترةً وبنطلونًا أسود رقيقًا تفصيلته رجالى إلى حدٍ ما. وكان يتدلَّى من

عنقها منديلٌ حرير أحمر كلون النَّبيذ. وباستثناء رموشها التى كانت مطلية بالأزرق قليلاً لم تضع جرامًا من الزِّينة على وجهها وكانت جميلةً ولكن الشُّعيرات كانت تغطى وجنتها، كانت عيناها عسليتين تنظران هادئتين واثقتين دائمًا. كانتا خاليتين من أىِّ جمالٍ وخاصةً رسم شفتيها الصَّلب اللتين كانتا تُضفيان عليها مظهرًا لفتى وليس لفتاة. كانت كالرَّجل أيضًا فى طريقة وقوفها على نعليها عالى الكعبين. كان العطر الذى يُشمُّ منها عند تقبيلها هو الذى يتَّسم بالصفة النِّسائية إلى حدٍ ما.

سألها عندما اقترب بأنفه من شعرها هل العطر ماركة شانيل[1]

ردَّت عليه قائلةً كوريج [2]: إنَّه ماركة إمبرنيت دى كوريج [3] ثم سأل إيرنستو هل تعرفينها.

وفى ظلمة وضجيج الصَّالة لم يتعرَّف فى الحال على الفتاة ذات الشَّعر الكستنائى، الأصفر تقريبًا، كانت ترتدى فستانًا أحمر وتقف إلى جوار مارجى، لكن عينيها كانتا فاتحتين جدًا، وهى تنظر إليهما ضاحكةً، كانتا فاتحتين أكثر من لون بشرتها. قالا لها شيئًا. وسرعان ما رآها : لقد رآها منذ سنواتٍ مضت عاريةً وشعرها يتدلَّى على الكتفين كانت تجلس فوق

(١) Chanel، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Courrége بالفرنسية فى الأصل.

(٣) Empreinte De Courrége بالفرنسية فى الأصل.

صخرةٍ فى لوشي ألكارى [1] بمايوركا أمام روعة البحر وهى تُلِفُّ سيجارة حشيش.

صاح متعجّبًا: جاكلين .

كان قلبه ينبض بسرعةٍ بينما انحنى ليقبّلها .

- قال لها: يالك من جميلةٍ. اعتقدت أنّك لازلت حتى الآن فى الهند .

قالت له : قضيت عامًا هناك .

وتتحدّثين الإسبانية ـ التفت إيرنستو إلى مارجى، اسمعى هذه ليلة الأشباح، ليلة الأطياف . أقول ذلك بسبّب هذه الفتاة وأخرى هناك بالدّاخل على فكرة إنّها فنزويلية مثلك. أفسح الطريق بين النّاس الذين كانوا يرقصون واقتادهما إلى حيث توجد مينينا وفرناندو الذى كان مستلقيًا على ظهره على الأرض وقد أسند رأسه على وسادةٍ واستمروا يدردشون.

كانت مينينا ومارجى قد التقتا ذات ليلةٍ فى كاراكاس حقيقة أنت من ماراكايبو ؟

قالت مارجى : إنّ أسرتى من بلنسية .

فكّر إيرنستو وهو يستوى إلى جوار الاثنين فى أنّ الفتاة أنيقة للغاية أناقة تفوق ما يستحقه هذا المكان . إنّ مارجى بملابسها باهظة التّكاليف التى اشترتها من فوربورج سانت هونور[2] كانت تبدو أنّها ارتدتها

(١) Lluch Alcari، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Faoburg Sanit Honore، بالفرنسية فى الأصل.

لحفلة تقام فى أحد نوادى كاراكاس وليس لحفلة طلابية. إنَّ مارجى تجعل الشَّخص يعتقد أنَّ والدها ثرىٌّ، وأنَّ لديها سيارات رياضية فارهة ومنازل مكيَّفة. كانت تتسم بالثِّقة والطُّمأنينة والجراة التى يبثها المال فى النَّفس، رأى إيرنستو كيف كانت تنظر إلى مينينا بعينى استحسان أو استلطاف شبيهتين بعينى رجل.

حذر إيرنستو مينينا قائلاً لها حذار إنَّ مارجى ركَّزت نظراتها عليك .

أطلقت مارجى ضحكةً .

قال إيرنستو إنَّه ومارجى لديهما نفس الذَّوق بالنِّسبة للنِّساء .

– نعم نحن شريكان ـ قالت مارجى ـ إنَّ إيرنستو متحرِّرٌ على الرَّغم من كونه كولومبيًا .

– قالت مينينا غاضبةً ليس متحرِّرًا جدًا .

كان فرناندو حائرًا. أضفت عليه الماريجوانا صفة النَّاعس.

قال فرناندو فى النِّهاية: كلُّ شخصٍ وطبعه. عندما أرى نساءً مثلك –كان يتحدَّث إلى مارجى ـ فإنَّنى أعرب عن أسفى إذا أهدرت الفرصة. حسنًا، ماذا ستتناولون ؟ يوجد روم وكوكاكولا ونبيذ رخيصٌ، نبيذ بريفونتين الزُّجاجة بثلاثة فرنكات، نفس سعر الكلوشارد ويؤذى الكبد مثل حامض الكبريتيك. ربما يكون قد تبقى بعض الويسكى فى زجاجة ما.

نبّهه إيرنستو إلى أنّهن يُدخّن ولا يشربن.

قال فرناندو: لدى نوع من الدرجة الأولى، ماركة جولدن كولومبيان.

قالت مارجى باهتمام : هاتها إذنْ .

جلست إلى جوار مينينا وكانت تنظر إليها باهتمام، انظرى يافتاة ماذا تفعلين فى باريس؟

أدرس سينما.

قال إيرنستو: إنّها تُعِدُّ الآن فيلمها القصير الأوّل.
عن أىٍّ موضوع؟ لقد شرحت لى ذلك مرّاتٍ عديدةً ولكنّنى لم أفهم شيئًا.

إنّه فيلم عن مشاكل الزُّوجين حاليًا عن أشباحهما آهه نعم تذكّر إيرنستو. إنّه رواية حديثة لمسرحية شكسبير"العاصفة" أليس كذلك ؟ قال ذلك باللكنة الكاريبية حيث حذف الحرف السابق عليه فقال الـ S والحرف الأخير من كلمة ونبر الحرف السّابق عليه Tempestá (*) بدلاً من أن يقول . مسكين شكسبير.

لا تكونى سفيهةً .

ضحك الجميع. لاحظ إيرنستو أنَّ جاكلين ظلّت صامتةً يالها من جميلة، هكذا فكر فى نفسه . إنّها خطيئة. فشعرها لون العسل وعيناها الفاتحتان أكثر من بشرتها بكثير، يمكن لشخص أنّ يتخيّلها فقط فى

(*) Tempestad، العاصفة بالفرنسية فى الأصل.

ضوء الصيف. كانت حُلّتها الحمراء مطرزة جيدًا وقد رُصّعت بحبّات التّرتر الصّغيرة البّراقة.

لم أتصوّر أبدًا أنك ومارجى تعرف كلٌّ منكما الأخرى.

لقد التقينا فى جزيرة إيبيثا الإسبانية فى العام الماضى.

كانت تتحدّث إسبانيةً مسلّيةً جدًا بالتّناغم مع اللكنة الفنزويلية. فالعالم صغيرٌ كالمنديل ـ قالت مارجى ـ باللمفاجأة ـ عندما علمت أنّها تعرفك وأنّها كانت معك فى مايوركا ـ مرّرت يدها على شعر جاكلين، كانت يدها صغيرةً ورقيقةً، لكن الإيماءة كانت لشابٍ ولهان ـ عندما تعرّفت عليها كانت بدون أكل منذ يومين. تخيّل لقد ذهبت إلى الهند بلا نقود.

ماذا فعلت ؟

رفعت جاكلين كتفيها.

ماذا كان بوسعى أنْ أفعل ؟ طلبت الصّدقة. إنّها أبسط فكرةٍ تخطر على ذهن الشّخص عندما يحتاج نقودًا. سرقتُ أيضًا ولكن دائمًا بالقدر الذى يحفظ الرّمق. تعرفين ذلك.

قدّمت لها مارجى السّيجارة التى أعدّها فرناندو بعد أنْ أخذت نفسًا منها.

قالت : عجبًا إنّ هذا الحشيش ممتازٌ جدًا.

قال: لقد بدأت أشعر بالتّوتر، بالفتور. ولم تجد على الإطلاق بعض إيماءات الحنان ـ مثل مسك اليد على سبيل المثال فى ظلمات السّينما ـ لكسر الزّجاج الذى يفصل بين الاثنين بسبّب عمليات الرّفض المتلاحقة من جانب ماريا. لكنّه تخلّى عن فكرة أخذ الأمور قهرًا وقسرًا، فكل شىء ينبغى أنْ يتمّ فى اليوم الذى التقينا فيه بالمنزل الذى كانا قد استأجراه فى قرية ديًّا بفضل الشّاعر ليناريس. لقد أعدّا حساباتهما وبالتّرجمات الجديدة التى حصلوا عليها فى برشلونة يبدو أنّ الأمور بدأت تتحسّن. ومع ذلك ظلّ الفتور غير المعلن عندما تقابلا وهما ينتظران قيام القطار فى مقهى جاردى أويستريليت الصّاخب والحزين تحت البريق الجليدى لمصباح النّيون. وفيما بعد فى الكابينة المكتظة بالرّكاب بالدّرجة الثّانية تغلّب عليهما النّوم، استيقظا مع أوّل ضوءٍ للشّمس فى التّلال، ضوء كان بمثابة الإعلان عن قدوم فصل الصيف فى إسبانيا. شعر بأنّهما سعيدان. تلاشت كل مشاكل باريس بسرعة. لم تستطع أنْ توضح لماذا قرّر فى آخر ساعة طلب حجز غرفتين فى فندق برشلونة بدلاً من غرفة واحدة. كان يشعر وكأن الشّوك تحت ملابسه من جرّاء هذا الموقف الغريب، لكنّه كان يفكّر بأنّ هناك متسعًا من الوقت أمامه وأنّه لا ينبغى التّسرع فى الأمور وأنّه ليس هناك سوى بضع ساعات (لكى يستقلا الباخرة للذّهاب إلى بالما دى مايوركا عندما يحلّ الليل) لكى يستحمّ ويغيّر ملابسه. كان

اليوم صافيًا جدًا وصحوًا وكان الهواء أخف وطأةً من باريس عندما خرجا إلى الشّارع من جديد. كانت ماريا تبدو شابة للغاية بذلك الفستان الأبيض الذى لم يسبق أنّ رآها به أبدًا وكانت تربط منديلاً أزرق سماوى على عنقها وقد وضعت فيه دبوسًا. كانا يتنزّهان فى الشّوارع وهما يتفرّجان على أكشاك الكتب وبيع العصافير والواجهات الرّمادية المتربة للمبانى والتى وضعت فوق أشجار موز ذات أوراق جديدة نضرة، كانا يشعران بالإثارة والسّعادة فى أوّل يوم عطلة. وفى مطعمٍ صغير يغمره الدُّخان وتغطّى جدرانه صور الممثّلين ومصارعى الثّيران تناولا حساءً ساخنةً وجمبرى وزجاجة نبيذ أبيض باردةً جدًا. كان يغنى هناك ثلاثة فتيانٍ يرتدون العباءات السّوداء الطّويلة أغانى أندلسية مصحوبةً بالقيثارات، وكانت زرقةٌ رائعة لسماء البحر المتوسط تضىء مستطيل النّافذة. وبينما إيرنستو يحتسى الكونياك كان ينظر فى جو الدُّخان الخفيف إلى وجه ماريا الهادئ والمشرق وجانبى أنفها الرّقيقين وأسنانها المصفوفة جيدًا ناصعة البياض وهى تلتهم الجيلاتى، ولم يكن بوسعه تفادى قلق رغبة بطيئة ومضطربة بدأت تنبض فى دمه، بدأ يفكّر فى قيلولة ذات مداعبات خفيفة وقبلات فى ظلمة غرفة نوم الفندق. تبادلا النّظرات وقد أمسكت ماريا بيده وأخذت تداعبها بلطف. قالت فجأةً ماذا كنت سأفعل بدونك. وقد اقشعرّ بدن إيرنستو كما كان شهوانيًا وهو يتأمّل ذات الرّداء

الأحمر البريئة وهو فى قمة الإثارة إلاّ أنّه أحسّ بتراجعٍ خجولٍ، لكنّه عندما نهض واقفًا بجوار الطّاولة كان ذلك الجليد يهيمن من جديد على أعماقه. لحسن الحظ ستبحر السّفينة فى منتصف الليل.

كان النّهار يشقشق بعد ليلة قضاها كلٌّ منهما فى كابينته، التقيا على جسر السّفينة. كانت جزيرة بالمادى مايوركا تُرى قريبةً. كلٌّ هذا والتّلال العالية الصّفراء تهوى على سطح البحر الهادئ، كان صوت النّوارس ينطلق فى الهواء البارد وكان خرير الماء والسّفينة تمخر عبابه لطيفًا، كلٌّ ذلك كان ذا مظهرٍ جديد وغير معروف لهما، ولأوّل مرّةٍ انتابهما إحساس حقيقى بقطع الصّلة بكل أحداث الماضى وأنّهما مقدمان على حياةٍ جديدةٍ. كانت ماريا ترتعد من البرد فاحتضنت إيرنستو. كانَ وجهها متوترًا كما لو كانت ستبكى. كانت فكرة استئجار سيارة من مكتب شركة Avis القريب من الميناء فكرتها. قال لها إيرنستو ضاحكًا إنّنا فقيران يهيمن علينا هوس شخصٍ ثرى، قال لها ذلك وهما يخرجان إلى شوارع بالما دى مايوركا، تلك الشّوارع الصّاخبة ذات المبانى الصّفراء العالية. تأخّرا قليلاً من الوقت حتى وصلا إلى طريق الخروج من المدينة. وعندما كانا يسيران فى السّيارة بسرعةٍ توغّلا فى تلك الحقول ذات الأرض الحمراء ورائحة أشجار اللوز والزّيتون فى هذا الجو اللطيف والمشرق حيث ترتسم التّلال فى الدّاخل، انتابهما من جديد إحساسٌ قوى بالحرية. كانت ماريا تجلس إلى جواره وعلى

رأسـهـا إيشـاربٌ وكـان الـفـسـتـان يـتـمـاوج مع النّسـيم العليل، وهي تتأمّل الصّخور وأشجار الزّيتون ذات الجذوع الغليظة الملتوية المصطفة بإتقان خلف السّياج الحجري. ويذكر الآن مرارًا وتكرارًا أنّهما سارا في ذلك الطّريق وأنهما يتذكرانها جيدًا جزءًا جزءًا لدرجة أنّهما يعرفان في أيّ منحنىً أتلفا بغض النباتات وأين يمكنهما العثور على أرنب منبهر بضوء المصابيح. لكن في تلك اللحظة بدا لها كلّ شيء جديدًا. وكلّما توغّلا وسط ذلك الهدوء بين أشجار الزّيتون والسّرو والمنازل الحجرية القديمة ذات النّوافذ الزّرقاء، كان يهيمن عليها سبات الهدوء مثل طنين ذبابة وقت القيلولة. رأيا قرية بايديموسا وبرج ديرها العالي فوق مجموعة من المنازل في منطقة ذات لون وردي. تجاوزاها. وبعد أنْ مرّا بأحد التّلول رأيا أسفلها جزءًا أزرق بين خضرة حقول الصّنوبر، لقد رأيا البحر. وصلت إليهما رائحته. وعندما أوقفا السّيارة وصل إليهما أيضًا خرير الماء وهو يصطدم بجرف الشّاطئ. سارا عدّة خطوات وهما يستنشقان في الهواء الطّلق رائحة أشجار الصّنوبر. كانت العصافير تزقزق. قالت ماريا ياللهدوء. ياللسّكينة. لقد فكّر إيرنستو في تلك اللحظة في خابيير الذي كان قد تحدّث إليه مرارًا وتكرارًا عن مايوركا. لقد تخيّله في سفوحها التي يغطّيها الضّباب وهو يرتدي معطفه الرّيفي وقال في نفسه من الضّروري إنقاذه ذات يوم من هذا المصير الحزين جدًا. واصلا طريقهما في السّيّارة وهما يستمتعان

بالتِّلال الفسيحة الدَّاكنة وهى تمتد من منحنيات متعاقبة أمام الصَّفاء النَّائى للبحر. حتى رأيا القرية فى منعطف، كما سيذكران ذلك فيما بعد، ببرجها المربَّع ومقبرةٍ أشجار السَّرو فوق تل فى قلب الجبل الشَّاهق. إنَّها قرية ديًّا أحجارٌ ومنازلٌ وزهورٌ تغمرها رياح البحر الهادئة.

طقطق الباب الخشبى الكبير وعلى الفور وصلت إليهما رائحة الجير الرَّطب والرُّطوبة. لقد تركا السيَّارة فى الميدان المهجور وواصلا الخطة التى كان قد رسمها لهما الشَّاعر ليناريس على فوطة من الورق فلم يتأخَّرا فى مقابلة السيِّدة ماريا التى لديها المفتاح. فالسيِّدة ماريا عجوزٌ قصيرة القامة وبشوشةٌ مثل جدة فى كتاب للحكايات. كانت تجلس أمام المنزل ومعها سلَّةٌ مليئةٌ بالقفازات عند قدميها . تحدَّثت معها عن جودة الطَّقس ورافقتهما حتى المنزل . فتحت لهما الباب وسبقتهما إلى المدخل المظلم. عندما فتحت الباب الصَّغير غمر ضوء حقل الليمون النَّافذة فأضاء صفاء النَّهار والتِّلال جدران المنزل المطلية بالجير وبلاط الأرضية النَّظيف اللامع. سمعا لبرهة فى سكون وقت الزَّوال أصوات الأجراس البعيدة للخراف. سمعوا أيضًا طنين نحلة فى زهور الجرانيوم بالنَّافذة. تبادلا النَّظرات مع ماريا مذهولين. قالت ماريا يبدو أنَّه منزل حكايات كاييخا. لكن السيِّدة ماريا أطلعتهما على الجُبِّ العميق وبه بكرة رافعةٌ ودلو لرفع الماء والمطبخ النَّظيف جدًا وبه زهورٌ فى النَّافذة وغرف

النَّوم فى الطَّابق العلوى وبها صناديقٌ كبيرةٌ قديمةٌ لحفظ الملابس ولوحات القدِّيسين فى الحوائط وطابقٌ علويٌ مسقوفٌ بالخشب وبه نافذتان تطلاَّن على التِّلال الصفراء المزروعة بأشجار الزَّيتون، كان البحر يُرى من بعيد. وفى تلك اللحظة أدركا بشكل عارض أنَّهما كولومبيان عندما تحدَّثت إليهما عن كارلوس لأوَّل مرَّة. الشَّبح ؟ تمتمت ماريا مضطربةً. فردَّت السَّيدة ماريا : كان يعمل طوال الليل والنَّهار، فى هذه الغرفة نفسها. أرادت ماريا معرفة ما إذا كان قد توفى بالمنزل. قالت العجوز : لا، توفِّى بمدريد، لكن هنا فقد عقله، هنا حيث كان يتحاور مع الشَّيطان.

بعد ذلك بقليل وهما يسيران فى القرية أرادت ماريا معرفة المزيد عن كارلوس. كانا يتأمَّلان المنازل المشيَّدة من الأحجار، وكانت المنازل متدرِّجة كما فى المعلف وكان الجبل خلفها تُضيئه الشَّمس فى هذا الصَّمت الشَّديد والغريب الذى يبدو أنَّه يخيِّم على القرية بينما كان إيرنستو يتحدَّث لها عن كارلوس عندما كانا طفلين وقد تعرَّف كلٌّ منهما على الآخر بشكلٍ غامضٍ وهما يدرسان فى مدرسة الليسيه. ثم التقيا بعد ذلك بكثير فى باريس.

لقد أصبح طفل ذلك الحين رجلاً كتومًا ذا عينين فاتحتين شاردتين خلف نظارة شمبرها من الباغ وغليون دائم بين أسنانه وكانت عيناه شاردتين فى مشاكل ميتافيزيقية لا حصر لها مثل خيوط العنكبوت. وذات مساء ترك إيرنستو شقته لكارلوس لاستضافة

فتاةً ألمانيةً. وجدهما فى الفراش جنبًا إلى جنب يستمعان إلى اسطوانة برام(*) ويطلأن من النافذة عندما يجنُّ الليل على الغرف الصغيرة بالأدوار العليا فى باريس.

وبينما كانا يتحدثان عن كارلوس ابتعدا وهما يسيران فى الطريق. توغلا فى طريق ترابى فى ذلك الصمت المعطر والمصحوب بطنين النحل فوق أشجار الزيتون إلى أنْ وصلا إلى الاستراحة التى تطلُّ على شرم قرية ديًا . نظرا من أعلى الصخور الوعرة ومياه البحر الزرقاء والمتلألئة. وكانت شباك الصيادين معلقةً على المرسى الريفى المشيد من الحجر. تنهدت ماريا سعيدةً وقالت بوسعى أنْ أظلَّ هنا لسنوات. كان إيرنستو ينظر إليها هناك وهى تضع سترةً من الصوف فوق كتفيها، وتغمرها سعادةٌ تنعكس على وجهها . وأمام رياح البحر شعر إيرنستو بتلك النوبة من الحنان تغمره. كانا وحدهما. وكان صوت لنش يدوِّى بعيدًا. وكان خرير الماء يرتطم بالصخور. قبَّلها إيرنستو. بينما كانت ماريا تُكرِّرُ عبارة : بوسعى أنْ أظلَّ هنا لسنوات كثيرة.

وأثناء عودتهما إلى القرية تعرفا على الشاعر روبرت جرابيس. كان يسير فى طريق حقول الزيتون وقد علق فى كتفه سلةً من القشِّ وكان يضع فوق رأسه أيضًا قُبَّعةً من القشِّ. سألهما بالإنجليزية عمَّا إذا كان الماء باردًا. وقد ذُهِلَ كلاهما من أنَّ رجلاً

(*) Brahms ، بالفرنسية فى الأصل.

عجوزًا جدًا بوسعه أنْ يلقى بنفسه فى الماء فى ساعة تقترب من الغسق وفى فترة لم تكن حارةً فى ذلك الوقت. ظلّ يتحدّث معهما بإسبانية غير متقنة.

أراد أنْ يعرف وهو ينظر إلى ماريا بعينيه الهادئتين الزّرقاوين ما هو برجها، وعندما أخبرته ببرجها أومأ برأسه وكأنّه خمّن عليه. وعندما علم أنّهما كولومبيان ويعيشان فى أعلى منزل فى القرية هزّ رأسه مذهولاً. قال الشّاعر: هذا أمرٌ لا يمكن تصديقه. وتحدّث معهما عن كارلوس وكأنّه أحد الرّجال الصّالحين الأربعة الذين زاروا القرية فى العشرين عامًا الأخيرة. هل رأيتماه؟ ظهر شبحه بالليل عند حافة الجُبّ. وقد سألته ذات ليلة زوجة موسيقارٍ ألمانىٍ من هو وماذا يريد. نظر إليها كارلوس فى صمتٍ قبل أنْ يختفى. كانت ماريا تستمع إلى العجوز مذعورةً. لقد أشار عليهما بأنّ القرية كوّنت مع سولير وفورنا لوكس إبّان العصر الوسيط مثلّث السّحرة. تحدّث إليهما عن المجالات المغناطيسية فى الجبل وأنّ تأثيرها شجع النّزعات الخفية للذين تمكّنوا من العيش هناك. عاشق كاجليوسترو فى القرية. وقد حُرِق كثيرٌ من النّاس من جرّاء أعمال السّحر فى قرون مضت. فالمنازل قديمةٌ جدًا لازالت تحتفظ ببعض الأصداء والأصوات، ففى المكان الذى كانت به مدرسةٌ فى زمن آخر مازال يُسمع الأطفال وهم يغنّون، وإنْ كان هؤلاء الأطفال قد وافتهم المنية بعد أنْ صاروا مسنّين منذ سنوات طويلة. كان الشّاعر

ضخمًا وعجوزًا وجميلاً، كان ينظر إليهما بجدّية بعينيه الزّرقاوين الواسعتين القابعتين تحت قبعة من القشّ : ليس هناك أىّ أثر للمزاح بل اقتناع صادق شبه ساذج فيما يتعلق بكل ذلك، انصرف بعد هذا بقليل وواصل طريقه صوب البحر.

وكلما كانا يقتربان من القرية ومن المنزل الذى كان ينتظرهما على الرّبوة بغرفه الفسيحة العتيقة كانت ماريا تبدو مضطربةً بسبب الشّبح. وربما لهذا السبّب كانت تقول إنّ المنزل ظلّ مهجورًا زمنًا طويلاً. لكنّ إيرنستو كان يضحك وقال لها : إنّه لا يصدّق الأشباح التى ولدت فى شابينير(*) فى الواقع، على نحو ما يتذكر الآن، أنّ مزحاته كانت تخفى انزعاجًا وفى الوقت نفسه اضطرابًا وقلقًا إزاء فكرة أنّ يجد نفسه معها سويًا فى الغرفة ذاتها. قرّر دعوتها للذّهاب إلى شرفة المقهى قبل الصّعود إلى المنزل. طلب مشروبًا كحوليًا. قبلت ماريا أنّ تشرب كأسًا آخر من نفس المشروب.

إنّ القلق الصبيانى من الشّبح جعلها، فيما يبدو، تقترب من إيرنستو فأسلمت نفسها إليه فى هدوء.وعندما شرب الكأس الثّانى أصبح أكثر ثقةً وطمأنينةً. كانا وحدهما فى هذا الرّكن من البحر المتوسّط : طيور النّورس ساعة الغسق، شهاب فى الجبل، وجيد ماريا الطّويل، وشفتاها الرّقيقتان، وثدياها اللذان ينبغى أنّ يكونا صغيرين ومتماسكين

(*) Chapinero، بالفرنسية فى الأصل.

مثل ثمرات الكمثرى. أحس بلمس ركبتها. كان شيءٌ دافئ ينبض في دمه. سمع نفسه يقترح عليها العودة إلى المنزل. قالت ماريا ضاحكة: يا إيرنستو ستقتلني من الجوع. تراجع إيرنستو عن مغادرة المكان وقال: عجبًا يا امرأة أنت على صواب. ومن ثمّ تناولا الطّعام في مطعم القرية. كان نبيذ العشاء غليظ القوام وقويًا بالنّسبة له لم يكن يعجبه أنْ تقتصر ماريا على تناول بعض الجرعات الصّغيرة وأن تنظر بقلق واضطراب إلى الطّريقة التي يتناول بها المشروبات الرّوحية لكنّه كان يشعر بالسّعادة. بدأ يتساءل كيف ستكون ماريا في الفراش، أحيانًا هناك فتياتٌ مثل ماريا بكلّ العفة والسّذاجة ومع ذلك هنّ براكين ذات حُمم حارقة يتحركْن في الفراش وكأنّهنّ ضُربن بالسّوط. عند العودة إلى المنزل، كانت ماريا تتحدّث إلى إيرنستو عن أمور تافهة (هل تُحسُّ برائحة الياسمين، انظر إلى المجرّة..) لم يُعرها اهتمامًا. أحسَّ تجاهها برغبة قوية وملحّة لأوّل مرّة. وصلا إلى المنزل أخيرًا. يتذكر صوتَ الباب عند فتحه، رائحة المنزل العتيق وضوء القمر وهو يدخل بشكل مائل من النّافذة. جذبها إيرنستو بقوة تجاهه حتى أحسَّ بذلك الجسد ذي العظام الهشة. وبصوت خائف طلبت منه أن يفتح النور. قال إيرنستو: لا، بينما هو كان يبحث عن فمها. قاومت ماريا وأبعدت وجهها قائلة : انتظر، انتظر ثم سطع الضّوء كالبرق في رأسها. لقد عثرت على مفتاح الضّوء، وقالت له باسمةً انتظر، لا تكن متعجلاً.

اشتريت قميص نوم جميلاً. قال إيرنستو ماذا ؟ قالت ماريا وقد احمر وجهها خجلاً. قميص نوم انتظر حتى أرتديه. اعطني فُسحةً من الوقت. كانت هاتان الكلمتان تثيران الضَّحك حيث بدَّدتا الشَّك والانتظار اللذين استغرقا أسابيع كثيرةً. انتظرها في غرفة النَّوم وكان يتساءل هل ينبغي عليه أن يتحرَّر من ملابسه، ظلَّ ينتظر على أحرَّ من الجمر في ظلِّ غطاء الأباجورة بينما تأخَّرت ماريا كثيرًا في الحمَّام. ثمَّ قرَّر التَّحرر من ملابسه وتدثَّر باللحاف وظلَّ شاردًا وعيناه تنظران إلى خشب السَّقف ورغبته تتزايد وسط تلهف عميق. سمعها تخرج من الحمَّام وتطفئ الضَّوء وتصعد السُّلَّم على ضوء الأباجورة، رآها تظهر عند عتبة الغرفة ترتدي قميصًا أبيض من الحرير يصل إلى قدميها، كانت مبتسمةً وهي مضطربة متوترة كفتاة متحفظة في ليلة أوَّل رقصة لها. قال لها تعالي وقد بلغ به الضجر مداه. أصرَّت على إطفاء المصباح قبل أنْ تتسلَّل إلى جواره وهي ترتعد. أحس بأريج الليمون يفوح من شعرها وجسدها النَّحيل والخائف تحت حرير قميص النَّوم. قبَّلها مرارًا وتكرارًا ورفع القميص بيده حينئذ أحسَّ بأنَّها انكمشت وكأنَّها حيوان شموسٌ شرسٌ. لا، لا، سمعها تتوسَّل فجأة مذعورةً. أبعد وجهه بينما أبعدته بيدها بعنف.

عندما أشعل إيرنستو الضَّوء كانت ماريا قد التفتت تجاه الحائط وهي ترتجف من جرَّاء نحيبها. أبعدته وكأنَّ جمرة قد لسعتها. سمع صوتها يقول:

دعنى. كان الصّوت مليئًا بالرُّعب. ارتدى إيرنستو ملابسه الدّاخلية بسرعةٍ وفى صمتٍ. نزل على السلّم، اجتاز المدخل وخرج إلى الميدان الهادئ المظلم. كان يرتعد فأشعل سيجارةً. تفوّه بكلمة بذيئةٍ. ثمّ كرّرها. كانت الكلاب تنبح فى مكان ما بالجبل، وقد سطع شهابٌ فريد فى السّماء. لكن فى الجانب الآخر صوب البحر كانت تتساقط عناقيد النُّجوم. تنفّس بعمق. خطى خطوات. سر، لا تُفكّر فى أىّ شىء. لا تفكّر فى أىّ شىءٍ الآن. وعندما أحسّ بأنّه هادئٌ وأنّ أعصابه هادئةٌ مطمئنةٌ آمنةٌ عاد إلى المنزل. كانت ماريا جالسةً فى الفراش وهى تُدخن. وكانت عيناها ماتزالان مليئتين بالدّموع. قال لها إيرنستو: اصفحى عنّى وبعد ذلك قال بصوتٍ هادئٍ وحازمٍ : سأرحلُ غدًا. هكذا فكّر إيرنستو. لم يكن يتذكّر أحيانًا متى حدث له الموقف نفسه. شخص قريب منه، شخصٌ كان يحبُّه سيرحل. سمع فى ذاكرته صافرة قطار. ارتجف. كانت لديه الرّغبة الشّديدة فى الجلوس لكى يبكى فى مكانٍ ما كطفل هجرته والدته. ولكنّه سمع صوتًا باردًا محايدًا يقول: حسنًا، إذا كان هذا ما تريده، فلك ما شئت. كانت أجراس كنيسة القدّيس دييجو تدوّى على مسافة كبيرةٍ وقت الغسق، فى طفولته. هل سترحل، لك ما شئت، كرّرت ماريا ذلك لكن الآن بغضب وغلٍ. أشعل سيجارةً وظلّ يطلّ من النّافذة ينظر إلى الميدان فى الظّلام الهادئ الذى اكتظ بالنّجوم. وعندما عاد إلى الفراش. اكتشف أنّ ماريا كانت تبكى وقد غطّت

وجهها بيديها. شعر تجاهها بحنين فجائي. قال لها ماذا حدث يافتاة. أخبريني ماذا حدث. وجد عينيها خائفتين مذعورتين. قالت إنّي خائفةٌ وعندما قبّل رموشها أحسّ بطعم الملح في دموعها.

توسلت إليه بلطف قائلة : ابق هنا. ابقى ياماريا فكلّنا ينتابنا الخوف. ووضع يده على شعرها، لم ترد ماريا يده هذه المرّة بل أمسكتها بين يديها وقرّبتها من خدّيها مثلما تفعل الطّفلة بأرنبها من الصّوف أو اللبّاد.

عرض عليها النّوم في غرفة أخرى. لكنها لم ترد ذلك ربّما لكونها خائفة بسبب فكرة الشّبح. هكذا ظلّ إلى جوارها مضطجعًا في الفراش يُدخّن.. يقول إنّهما تحدثا حتى وقت متأخّر كانت ماريا في حاجة إلى الدّردشة. في تلك اللحظة حكت له عن زوجها وهول شهر العسل ذلك في ميامي. كان مريضًا. وفي بوجوتا كانت تحس أنه يأتي محملاً بالخوف. أمّا ما أراد أنْ يفعله معي فكان شيئًا مخيفًا. كان شيئًا مروّعًا. إنّني في حاجة إلى وقت يا إيرنستو. أحتاج إلى الثّقة. عندما قبّلتني في عنقي كان ذلك وكأنّه... قاطعها قائلاً : نعم، بالطّبع. أدرك ذلك، كيف لا أدركه. كان يدخّن سيجارةً وتُهيمن على أعماقه قشعريرة خيبة الأمل. قال لها تُصبحين على خير وقبّلها في جبهتها. كان قد نام إلى جوارها. لكنّه استيقظ عندما دقّت ساعة الكنيسة الثّالثة أو الرّابعة فجرًا. أحسّ بها وهي تلتفت تجاهه وتتنهّد. لكنها لم تكن تتنهّد وهي نائمة.

كانت مستيقظةً. لقد خمَّن ذلك من جرَّاء الطريقة الشعورية والمتعمدة فى اقترابها منه. سمع صوتها الهامس يقول : أشعر بالطمأنينة معك ولست خائفةً. الآن لا. قبَّلها ببطءٍ وحذر. وقالت له فجأةً وبهمس خفيض غير متوقَّعٍ : هل تريد ؟ وعندما أمسك بها لأوَّل مرةٍ قال لها كلمات محسوبة ومعسولة بينما هى تمرر يدها فى شعره، بث لها إيرنستو الحب بلطفٍ كأنَّه ملاكٌ طاهر.

- ٣ -

كنّا نستمع إلى المطرب دانييل بيجليتى فى أغنية جميلة عن كاميلو تورّيس ـ قالت لامارجى ـ كيف كانت جاكلين ؟ فى المكان الذى مات فيه كاميلو ولدت زهرة.

يبدو لى أنّ الأغنية كانت تقول ذلك.

ثم سألت لامارجى : هل رأيتموه ذات مرّة ؟

قال فرناندو: تعنين القسيس كاميلو ؟ أنا لم أره. ثم أشار إلى إيرنستو : هذا رآه.

هل حقًا كان جميلاً ؟ سألت مينينا. كان أشقر وذا عينين زرقاوين.

قال إيرنستو : خضراوان. لكن لنتحدّث عن شيء آخر.

لماذا ؟ سألت لامارجى.

إنّ الأغنية وموضوع كاميلو لا يأتلفان جيدًا.

أصرّت مينينا، لكن هل كان جميلاً حقًا ؟

أنا لا أعرف ماتطلقون عليه صفة الجميل. كانت عيناه خضراوين.. وكان يمسك غليونًا. وكان وجهه يحمرُّ فى كلِّ خطوةٍ لأنَّه كان خجولاً. وكانت الفتيات متيّماتٍ به لدرجة الجنون. وكانت والدته إيسابيل مضطرةً إلى طردهن شرَّ طردةٍ.

سألت مينينا: ألم يصطحب أيًّا منهنَّ.

ياميتينا أنت لا تُفكِّرين إلاَّ فى ذلك فقط.

يافتى إنَّنى عندما أرى قسيسًا شابًا أفكِّر دائمًا: كيف يرفِّه عن نفسه ؟

ردَّت مارجى : أو راهبةً.

قال إيرنستو : إذنْ أنا أعتقد أنَّ كاميلو كان يأخذ مهنته كقسيسٍ مأخذ الجد. وعلاوةً على ذلك ربما أنَّ الموضوع يهمكم جدًا ويشغل بالكم كان كاميلو يربط عشب ريحان الكافور بخيطٍ من الحرير عند خصره لكى يتخلَّص من الاغراءاتٍ. عشب ريحان الكافور؟ أظهرت مارجى الاهتمام هى الأخرى.

إنَّ هذا العشب يخدِّر الشَّهوة. يستخدمه كثيرٌ من القساوسة وأنت أيضًا يا مارجى : أنت أيضًا ينبغى أنْ تستخدميه.

ظلَّت مينينا مستمِّرةً فى فضولها :

هل أنت متأكِّد من أنَّه لم يهتم أبدًا بأيَّة امرأة ؟

ردَّ إيرنستو: إنَّنى لم أقل ذلك. كان لكاميلو خطيبةٌ وقد ترهبنت عندما قرَّر أنْ يكون قسيسًا. وأخرى أحبته حبًا عذريًا كانت فرنسية تعرَّف عليها فى لوبينا. وفيما يبدو أنَّها ذهبت وراءه حتى بوجوتا وعاشت بالقرب منه حتى وفاتها. كانت كاثوليكية حتى النُّخاع وكانت جذَّابةً جدًا وهى شابة بشعرها الأسود وعينيها الفاتحتين. أعتقد أنَّه مجَّد حبَّها فالشَّهوة الجارفة تجعل النَّاس فى غاية الحيوية والنَّشاط.

عندما ترك مهنته كقسيسٍ لكى يتفرَّغ تمامًا للثَّورة كانت ترافقه أيضًا. كانت سكرتيرته.

هزَّ فرناندو رأسه متشككًا.

حبٌّ عذرى ؟ إنَّنى لست مقتنعًا بتلك القصة.

أعتقد أنَّه بعد أنْ هجر مهنته كقسيسٍ لم يكن هناك داعٍ لعشب ريحان الكافور. اعتبروا ذلك مجرَّد افتراضٍ.

ماذا حدث لهذا العشب ؟

قال إيرنستو لن أحكى مزيدًا من ذلك. فالحديث عن كامليو يؤلمنى. يصيبنى بالمرض.

حذره فرناندو قائلاً إنَّ شراب الرُّوم هو الذى يذهلك. اشرب قربة أخرى من الخمر. هل تريد ماءً معدنيًا ؟

لا، سأتناول الرُّوم وحده. دون أنْ أخلطه بالكوكاكولا.

ماذا حدث مع خطيبة كاميلو الفرنسية ؟ أصرَّت مينينا.

هل التحقت بصفوف المحاربين أيضًا ؟

لا، ظلَّت حلقة اتصال بين المحاربين والسِّياسيين الذين يساندونهم. عندما توفِّى كاميلو هربت من كولومبيا وقد ساعدتها سيدةٌ تنتمى إلى الطَّبقة البرجوازية العليا كانت رفيقةً لها فى باريس. هذه السَّيدة كانت زوجة وزير سابق، امرأةٌ ممتازة. كانت مولعةً مثل زوجها باللوحات الرَّائعة والخمور وبورسيلان ليموج وأذواق مخزية للطبقة المتوسِّطة استطاعت إخراج هذه الفتاة فى طائرةٍ صغيرة وتركتها فى بنما عندما كانت الشُّرطة بأسرها والأجهزة الأمنية تبحث عنها. إنَّها مخاطرة –إلى حدٍ ما– عانى منها قليلٌ من الثُّوار. وبفضلها تعيش صديقة كاميلو الآن فى قصر فرساى.

قالت مارجى : أتمنَّى التَّعرف عليها.

قال إيرنستو : فى يوم ما. فالآن هى متزوِّجةٌ على فكرة من قسيس، أو من قسيسٍ سابقٍ. لذلك فإنَّ طباعها عنيدةٌ مثل طباعى.

تجرَّع إيرنستو جرعة من الرُّوم.

أمعنوا النَّظر، أىُّ قصةٍ فقدتها شركة مترو جولدن ماير. رتَّبت ماريا المنزل. ووضعت لوحات مقلَّدة للفنَّان ميرو بدلاً من اللوحات الزَّيتية لصور القدِّيسين. ركَّبت حديدًا للباب وعلَّقت جرسًا يابانيًا فى النَّافذة

وفى جدار المطبخ ووضعت فانوسًا قديمًا لعربة تجرُّها الخيول كانت قد وجدته فى مستودع للأشياء التَّالفة بالقرب من الماء. اشترت أيضًا دُمىً من القشّ ودجاجةً من الصَّفصاف وضعتها على رفّ المدخنة، وكتبًا وزهورًا صفراء من الورق وشرائط لموزار وبراهمز وبيبالدى وأيضًا لمانتارينو ولفريق البيتلز وبعض الأغانى الشَّعبية لكوكوسانشيث كانت تنال إعجاب إيرنستو. كما اشترت إلى جانب هذه الأشياء فواكه ولحومًا وجُبنًا ماركة ماؤن(*) وبسكويت وبرطمانات نيسكافيه وبعض زجاجات الخمر وبراندى، وشعرا بالطُّمأنينة والأمان. بدأت ماريا ترسم وكانت أوَّل لوحة مائية (عبارة عن منظر الجبل الذى كان يُرى من خلال نافذة بالمنزل) حيث أثبت رقة وتناسقًا وانسجامًا رائعين شجَّعها على الاستمرار فى الرَّسم. أمَّا إيرنستو فقد استقر فى غرفة الطَّابق العلوى. كان يقوم بترجمة جديدة لبوريس فيان تمَّ التَّعاقد عليها فى برشلونة ولكنَّه كان يخصِّص بعض ساعات الصَّباح لكتاب كان يريد تأليفه عن كاميلو تورِّيس.

وبمجرَّد أنْ حلَّ فصل الصَّيف كانت الأيَّام أشد سخونةً. كان كلُّ شىءٍ هادئًا جدًا. وكان رنين دقَّات ساعة البندول الموجودة فى المدخل يسمع فى جميع أرجاء المنزل. كان الذُّباب يطنُّ على الزُّجاج. كان فيفالدى أحيانًا ومانثانيرو أحيانًا أخرى بينما كانت ماريا ترسم فى الطَّابق الأرضى وإيرنستو يكتب فى

(*) Mahon، بالفرنسية فى الأصل.

الطّابق العلوى. لم يكونا سعيدين جدًا مثل الآن، لقد اكتشفا هوايةً مشتركةً ألا وهى الحياة فى الرِّيف. كانا يُفتنان بالاستماع إلى صياح الدِّيكة من بعيد. وعندما استيقظا تمامًا فى غرفة النَّوم الكبيرة المعتمة سمعا زقزقة العصافير على إفريز السَّقف. كانت الشَّمس ترسل بأشعتها الضَّوئية القوية للمشربيات. عند فتح النّافذة التى كانت تُطلُّ على ميدان مهجورٍ كانت تصل إليهما مع بريق الصَّباح الدّافىء رائحة البحر الذَّكية النَّقية وحقول الزَّيتون. كانت هناك امرأةٌ تكنس عتبة المنزل وفى الناحية الأخرى للميدان فى حديقة المنزل الرِّيفى كانا يريان ملابس القسيس منشورةً لتجفَّ كانا يحبان الذَّهاب إلى البحر. اكتشفا أماكن منعزلة جدًا فى ساحل رانش ألكارى(*) كان يحظى بإعجابهما ذلك الطَّريق الوعر وغير المعبَّد الذى كان يهبط صوب الخلجان البعيدة والهواء السّاخن الذى يئنُّ بضوضاء طيور الزِّيز بين أشجار الزَّيتون العتيقة حتى يتوغّلان فى الظِّلال الكثيفة والمعطرة لحقل أشجار الصَّنوبر. كانت المياه تُشاهد من مكان شاهق الارتفاع وتتلألأ بين أشجار الصَّنوبر. كانت شفافةً جدًا لدرجة كانت الأحجار تُرى فى قاعها، كانت الأحجار ذات لونٍ ذهبيٍ بسبَّب انعكاس الضَّوء. كانا يمكثان ساعاتٍ كاملةً مضطجعين على صخرةٍ ملساءٍ تغمرها مياه البحر باستمرارٍ، حيث تداعبُ الشَّمسُ رموشها والهواء العليل للبحر المتوسط يجلب لها أحيانًا صوت لنش

(*) Lluch Alcari، بالفرنسية فى الأصل.

بعيد في الماء. اكتسب جلد ماريا درجةً من اللون البرونزي مما جعل بياض أسنانها النَّاصع يتجلَّى في وجهها وكذلك بريق عينيها الهادئ. كانت تقول في كلِّ لحظةٍ لم أكن أبدًا سعيدة جدًا مثلما أنا الآن. ثمَّ امسكت بالخشب خشية الحسد. كانت تُحبُّ التَّنزه ليلاً في شوارع القرية الهادئة الصَّامتة. وعندما يكون القمر بدرًا فإنَّ المنازل العالية المشيَّدة من الأحجار بنباتاتها المتسلَّقة المزهرة تبدو وكأنَّها قد أحيطت بوميضٍ فوسفوري، ويكون عبق الياسمين هو الشذا الطَّاغي. كان إيرنستو يصطحب ماريا إلى الجبَّانة أحيانًا. كان ينتابها الخوف دائمًا من دخولها وكانت تحاول إيقافه بجذبه من كمِّه عندما كان يدفع الباب ذا الصَّرير الشَّديد الذي كان يؤدِّي إلى شواهد القبور التي يغمرها ضوء القمر. في الواقع كانت ماريا دائمًا خائفةً بسبب حكايات الأشباح الشَّائعة في القرية. كانت تخاف من البقاء وحدها في المنزل أكدت أنَّها سمعت ضوضاء تنهيدة في حجرة مهجورة، صرير السَّرير. كان إيرنستو يقول لها ضاحكًا إنَّ شبحٌ صديق لا يمكن أنّ يُسبِّب لنا أذىً. لكن ماريا كانت على يقين من كلِّ ماحكوه لها. كانت قد عثرت على كتاب قصائد كارلوس فوق رفٍ يغطيه التُّراب. كانت تقول لقد بقى لكارلوس أثرٌ بين الجدران : اللهفة أو الحنين، نمطٌ ما من الذَّبذبة.

تحدَّثت إليهما السَّيدة ماريا عن كارلوس، عن أيَّامه الأخيرة وأشارت بأنَّه كان يعمل طوال الوقت في

غرفة الطّابق العلوى وبالليل عندما تذهب لتنام كانت ترى عبر الفناء (لم تكن هناك كهرباء حينذاك بالمنزل) ضوء شمعة فى النّافذة كان كارلوس يعمل حتى وقت متأخر جدًا من الليل. وجدته ماريا نائمًا على الطّاولة فى كثير من الأيّام صباحًا وهو مايزال يرتدى ملابسه وقد نفدت الشّمعة فى الطّبق كان يعمل كثيرًا -قالت السّيدة ماريا -لدرجة أنّ عقله أصابه الجنون. كان يقول هراءات. لم يدعه الشّيطان فى حاله. كان يطارده فى كلّ مكان وكان يواعده فى حقول أشجار الصّنوبر فى لانش ألكارى . كانت السّيدة ماريا تقول: دعه ينتظر، لا تذهب. لكنه كان عنيدًا ويقول : ينبغى على أنّ أذهب ياماريا. وكان يذهب. كان يعود باكيًا وبه خدوشٌ وبنعليه ممزّقين. كانت السّيدة ماريا تغسل له قدميه فى طبق كبير بماء ساخن. كانت تُلبّسه جوربين نظيفين من الصّوف بينما هو مستغرق فى البكاء مذعورًا لأنّه رأى الشّيطان وتعارك معه. إنّ القدّيسين فقط هم الذين يرون الشّياطين هكذا كانت تقول لهم السّيدة ماريا وقد طلبت منه أنّ يصطحب معه شاهدًا وبالتّالى يمكن اعتباره قديسًا عند وفاته. لكن كارلوس كان يؤكّد أنّه ليس قدّيسًا ولم يرد أبدًا أنّ يصطحب أحدًا إلى حقول أشجار الصّنوبر حيث كان يذهب إلى لقاءاته مع الشّيطان. كان فتيان المزارع يرونه وهو يجرى بالقرب من صخور الشّاطئ، كان يرتطم بالأحجار ويهوى على الأرض أحيانًا. وفى اليوم الذى حاول الانتحار فيه بإلقاء نفسه بالدّرّاجة البخارية فى

الهاوية حيث تُحرق قمامة القرية قام شخصٌ ما بالاتصال بوالدته أو أرسل لها برقيةً. وجاءت والدة كارلوس. كانت امرأة مازالت جميلةً جدًا ذات عينين ناعستين فاتحتين، كانت تعامله كطفلٍ صغيرٍ لقد رآهما الجميع معًا فى الكنيسة يوم الأحد ذلك فى الخريف حيث قضت اليوم فى القرية ثمَّ تناولا الطَّعام فى مطعم كان أوليفيه(*) كانت تتحدَّث إليه دائمًا بطريقةٍ لطيفةٍ مستمرة ومقنعة، أمَّا هو فكان يستمع إليها دون أنْ يقول شيئًا، وغليونه مطفأ ممسوكٍ بأسنانه وعيناه هائمتان من جانبٍ إلى آخر. لقد رآهما الجميع وهما يسيران فى الطريق ورآهما أيضًا وهما يتأمَّلان البحر من شرفة مكتظَّةٌ بالزُّهور. ومن حين لآخر كان كارلوس يخرج كراسة من جيبه ويدوِّن بها بعض النِّقاط فى صمت دائمًا والغليون مطفأ فى فيه. لقد رحلا فى اليوم التَّالى. كان اليوم مطيرًا كما تذكر السَّيدة ماريا، لقد رأتهما أمام محل التَّبغ : كانت الأمّ تتحدَّث بشكل مستمرٍ ومعقول، أمَّا هو فقد كان شاردًا ينظر بعيدًا صوب المنازل والمطر. بعد ذلك بأسبوعين انتحر كارلوس فى مصحةٍ بمدريد ولم يستطع أحد أنْ يؤكِّد لها عمَّا إذا كان قد انتحر بتناول أقراصٍ منوِّمةٍ أو بإلقاء نفسه من نافذةٍ.

الآن عاد كارلوس بشكلٍ ما إلى المنزل فى صورة أسطورة البدر، فى صورة الشَّبح، فى صورة صرير الأبواب والنَّوافذ، فى صورة تنهيدات لا يمكن شرحها.

(*) Can Oliver، بالفرنسية فى الأصل.

لقد شاركهما كارلوس وحدتهما فى أيامهما الأولى فى مايوركا. وتلك الوحدة التى كانت تزعج إيرنستو أحيانًا أمَّا ماريا فلا. قالت له ماريا ذات مرَّة : أكره النَّاس. وفى كوابيسها الشَّديدة التى كانت تجعلها ترتعد وتئنُّ وهى نائمة، كانت ترى دائمًا وجوه صديقاتها فى قرطاجنَّة وهنَّ ينادين عليها. أو كانت ترى جدرانًا تتصدَّع وتخرج منها قاذوراتٌ. كان ينتابها المرض عندما تتلقَّى رسالة من والدتها لأنَّها كانت غاصةً بالتَّوبيخ والتَّأنيب والانتهار المرير. وطبقًا للأم كان زوج ماريا شغله الشَّاغل السُّكر فى بوجوتا ويقول للجميع إنَّ زوجته عاهرةٌ حزينةٌ وأنَّها كانت قد هربت مع صحفيٍ. تحدَّثت والدتها مع الأسقف وقد قام محامون أصدقاء بعمل إجراءات الانفصال بسبب هجر المنزل. كانوا يخشون قيام ماريا بالمطالبة بأموال. فكلُّ مرَّةٍ كانت تتلقَّى رسائل من هذا النَّوع، كانت ماريا تخرج من الحمام وعيناها باكيتان. كانت تقسم أنَّها لا تريد العودة مرَّةً أخرى إلى تلك البلد. وفى الليل كانت ماريا تحتضن إيرنستو. كانت تقول له ماذا كانت ستفعل بدونه، بالتَّأكيد كنت سأنتحر. وبمجهود ما (كانت ماريا تُفضلُّ التَّنزه فى الأماكن البعيدة) استطاع أنْ يصطحبها إلى المقهى الذى اكتظ بالفتيان من الهيبز.

كان أفراد أسرة أثويلا أوَّل أصدقائهم فى مايوركا كان أثويلا من أستورياس كلامه جافٌ وقد أصاب الشَّيبُ شعره قبل الأوان. أمَّا زوجته فهى مدريديةٌ وثرثارةٌ. كان لديهما ولدان. فتاة ذات تسعة عشر عامًا

تُدعى خوليا وبيبى فتىً فى الخامسة عشرة من العمر. هكذا كانت مجموعة الغرباء الذين التقيا بهم ذات صباح عند صخرتهما المعتادة فى لانش الكارى .كانت المدريدية هى التى اقتربت منهما أولاً. حيث طلبت منهما سكينًا لكى تُقطّع بها شمّامةً. إنّها تراها الآن فى ذاكرتها تفتح الشّمامة وتتحدّث بحيوية بينما ظلّ زوجها صامتًا وعيناه تمعنان النّظر فى الماء. وفى لحظة معيّنة سألتهما عمّا إذا كان لديهما أولادٌ على اعتبارهما زوجين. احمرّ وجه ماريا خجلاً. وقبل أنْ تُجيب بأىّ شىءٍ، سبقها إيرنستو قائلاً نحن لسنا متزوجين بل هاربين. كانت المدريدية تُدعى كارمن فأطلقت ضحكةً قائلة : ياالكما من همجيين. حينئذ سمع الصوت الأجش للزّوج. التفت إليهما محذّرًا بوجهه الذى لفحته الشّمس وبعينيه الزّرقاوين المليئتين بالمزاح قائلاً لهما : بئس صنيعكما. أعتقد أنّه ينبغى أن يتزوج الشّخص شابًا وكثيرًا. أشار إلى كريمته التى كانت تصعد الصّخرة فى تلك اللحظة حيث كانوا يوجدون والماء يتساقط من فوق جسدها : إنّنى أنصح هذه الفتاة دائمًا. كانت الفتاة ترتدى حُلّة بحرٍ صفراء، وهى سمراء اللون، وكانت تبدو وكأنّها غجريةٌ، ولديها طريقة وقحةً، مسلّية جدًا : كانت ترفع رأسها وتنظر إلى العيون مباشرةً. أتزوّج ؟ ردّت الفتاة وهى تجفّف وجهها بفوطة. ولا حتى عدة مرأت. قالت مشيرةً إلى والديها : إنّ هؤلاء يحضّان على الإباحية لكن كلاً منهما لا ينظر إلى الآخر كزوج ولذلك فهما يثيران

الاشمئزاز، أعجبت إيرنستو تلك الأسرة. ويتذكر أنّ الزّوج الأستورياني دعاهما لتناول العشاء في ذلك اليوم وقال لزوجته : أعدّي أرنبًا للهاربين هذه الليلة.

كان لدى تلك الأسرة منزل في لانش الكاري له شرفة مليئةٌ بالزّهور فوق الأسوار المضاءة بالطّابق العلوي تُطلُّ على البحر. ولم تعد تتذكر عدد المرّات التي شاهد فيها الغسق في تلك الشّرفة وهو يتناول مشروب الـ جينبرا[1] مقترنًا بشذا الزّهور في الهواء والشّمس تتهاوى تدريجيًا في الماء قبل أنّ تظلم الدّنيا تمامًا. ولم يبق في الظّلام سوى النّجوم والعصافير. كان مارتين الأستورياني ابنًا لفوضوي، كان يتحدّث بتكهمٍ عن فرانكو وعن التّنظيم الدّيني الذي كان يعرف أوبو ديل [2] والميليشيات والمجتمع المدني الإسباني، عن القساوسة وأعمال الخير لكنّه لم يكن يرى مخرجًا أو حلاً على المدى القريب. وكانت الأحزاب السّياسية الإسبانية الحقيقية في تلك اللحظة تتمثّل في فريق ريال مدريد وفريق أتليتكودي بلباو (من إقليم الباسك) وفقًا لما كان يقوله مارتين أحيانًا. كانت زوجته كارمن معتادة على انتقاداته ولم تكن تُعيرها اهتمامًا. كانت تُحبُّ العزف على القيثارة، وفي ليالٍ كثيرةٍ بعد العشاء كانت تُغنّي أغاني فلامينكو بصوت عميقٍ قويٍ جميلٍ للغاية. كانت خوليا وبيبي من المعجبين بالمطربين خوان مانويل سيرّات وباكو إيبانيث، وكانا طوال الوقت

---

(١) Ginebra، بالفرنسية في الأصل.

(٢) OPUS DEI ، بالفرنسية في الأصل.

يستمعان إليهما على جهاز اسطوانات محمول، كانا يخرجانه إلى الشُّرفة ويستمعان إلى أغنيتين بعنوان "عمّال خائين" واسمك له مذاق الكيف. كلاهما كانا من المتعاطفين مع الحزب الشّيوعى، وكانت خوليا علاوة على ذلك تنتصر لبنات جنسها بشراسة. كانت تتحدث عن الحبِّ الحُرّ وعن الازدواجية الجنسية (الخناث) مما كان يصيب والدتها بالخجل الشّديد (كانت الأم تقول لها فى كلّ لحظة ماذا تقولين يا أيّهَا الهمجية) بينما كانت نظرات الوالد مرتابةً ومتساهلةً وكان هو يثير حفيظتها قائلاً تكلّمى عن كل ماتريدينه أيتها الطّفلة، سأراك عمّا قريبٍ ترفين جوارب زوجك. كانت خوليا تشبه إيستيلا إلى حدٍ ما. عيناها مثل عينى إيستيلا والطّريقة الجريئة ذاتها فى إبداء آرائها ومعارضة الآخرين. قال لها إيرنستو ذلك ذات يومٍ أثناء الذّهاب إلى البحر وهو يسير بجوارها فى طريق حقول الزّيتون. أنت تشبهين فتاةً كنت أعيش معها فسألته خوليا : ماذا حدث معها ؟ إنّ مناصرتك لبنات جنسك تُصيبنى بالذّعر. ضحكت الفتاةُ. قالت له خوليا أنت مثل والدى تنتصر للرّجال. لذلك أنتما تتفاهمان جيدًا لأنّكما متشابهان. أنتما تُحبّان النّساء الحسناوات الخاضعات لإرادتكما. التّنويه بماريا، دون أنْ يدرى، سبّب له استياءً شديدًا.

تبنّى مارتين الأستوريانى وزوجته كارمن الفتاة ماريا. كان مارتين يدللّها بكلمة "طفلة" وكانت كارمن قد قالت لإيرنستو : إنّ ماريا فاتنةٌ أخّاذة بالحسن

حظك !. أمَّا خوليا فعلى العكس من ذلك كانت تصوب إليها كلَّ التَّلميحات العدوانية. ذات يومٍ قالت لى : إنَّ الجمال محضٌ ببساطة وضعف شخصية. احمرَّ وجه ماريا بشدَّةٍ من الخجل. قالت ماريا لإيرنستو فى تلك الليلة : يالخُوليا من فتاةٍ لا تطاق ! وفى اليوم التَّالى تعلَّلت بأنَّ لديها صداعًا وظلَّت بالمنزل. وألحَّت عليه لكى يخرج. وعندما اعتذر لأصدقائه عن عدم مجيئها، نظرت ماريا إليه بسخرية وخبث. ويذكر إيرنستو أنَّه ظلَّ طوال تلك الليلة قلقًا وهو يفكِّر فى ماريا، لأنَّها كانت تخاف من البقاء بمفردها فى المنزل. وكئوس الخمر التى كان يتجرَّعها لكى يرفع معنوياته أدت فقط إلى وقوعه فى حالة من السُّكر مزريةٍ وحزينة. قالت له كارمن فى لحظةٍ ما: هوِّن على نفسك يارجلُ، ماذا حدث لك، حملقت خُوليا فيه بعينيها. قالت لوالدتها إنَّه يشعر بالذَّنب. يشعر بالذَّنب لأنَّه جاء بمفرده. كانت خوليا تجلس أمامه، وكان ضوء المصباح يضىء وجهها الأسمر جدًا والمتَّقد بسبَّب يوم طويل على الشَّاطئ. كانت حدقتاها تبرقان جسورتين. وكانت العصافير تُغرِّد خلفها فى الظَّلام الملحوظ فى النَّافذة. فكَّر بسرعة إنَّها مازالت طفلة دفاعًا عنها. أصابته خوليا بالتَّوتر والاضطراب. التفت إلى مارتين الأستوريانى الذى كان يفتح زجاجة خمر فى تلك اللحظة وقال له : أنت محقٌّ فى أنَّها متمرسةٌ، إنَّها تقرأ أفكار الآخرين. ضحكت خوليا وقد احمرَّ وجهها بشدَّةٍ من الخجل.

عاد إيرنستو إلى المنزل بعد منتصف الليل بقليل بلهفة كبيرة لا يدرى إلى أىّ شىء يعزوها، إلى خوليا أم إلى كئوس الخمر التى تجرَّعها أو تلك الرَّائحة الكثيفة والحارة لفصل الصَّيف. كان يشعر باستياء غامض ينبض فى دمه. لم يدر قط لماذا فعل ذلك : إيقاظ ماريا التى كانت قد استغرقت فى النَّوم دون أنْ تطفئ النُّور وتجريدها من قميص نومها. رآها عاريةً فى ضوء الأباجورة. رأى أجزاء جسدها التى تغطيها ملابس البحر بيضاء ناصعة. قبَّلها إيرنستو برغبة شديدة وغاضبة وكأنها امرأةٌ أخرى، امرأة مجهولة رآها على رمال الشَّاطئ قالت له تعال، تعال لا تكن سفيهًا. لكنَّه كان يبحث عن شذا الصَّابون والكولونيا، يبحث عن العبق الحقيقى للمرأة. كانت لديه رغبة شديدةٌ فى أن يمزِّق ورق السيلوفان الواقى الليِّن السَّلس الرَّقيق الذى كانت تلتف به كوردة فى محل لبيع الزُّهور. قبَّلها كثيرًا محاولاً إثارتها بإحباط لاهث ومضطرب. لكنه اكتشف فى حدقتيها عدم وجود أيَّة رغبة بل خوفًا وذعرًا. سألها ماذا بك ؟ فأنا مازلت أنا. وبمجرَّد أنّ انتهى من مداعباتها بلطف أدرك أنَّها كانت تبكى. كانت تبكى كطفلة مذعورة. رقد إلى جوارها وهو يتنفس الصعداء لاهثًا مثل غريق هوى على الشَّاطئ. قال إيرنستو : إنَّه حيوان وطلب منها الصَّفح ظلاً إلى جوار بعضهما البعض وقتًا طويلاً فى صمت. وفى النِّهاية أحسَّ بيدها الحنون تداعب رأسه مدركة ومتفهمةً لما حدث. قالت له : الذَّنب ذنبى هكذا

سمعها تقول ذلك. سامحنى أنت فأنا معقّدةٌ جدًا. إنَّك إمَّا أنْ تكون فظًا أو حنونًا مفرطًا. لا أستطيع أنْ أشرح لك ذلك.

سأل إيرنستو عن السَّاعة. كانت تقترب من الثَّانية عشرة ليلاً ولم تكن كريستينا قد وصلت بعد. لم تستطع المجيء، فكَّر وهو يحس بخيبة أمل طوال الليل، بينما كان يتحدَّث مع فرناندو ومينينا أولاً وفيما بعد مع مارجى، كان ينتظرها، هكذا كانت تحدثُه نفسه اليقظة دائمًا، وتلك النَّبضات السَّريعة لقلبه عندما كان يرن جرس الباب. فمنذ زمن أونا، منذ سنوات طويلةٍ، لم يعد يشعر بهذا النَّوع من اللهفة.

ماذا بك يارجل ؟ هل يداعبك النَّوم ؟ مالت عليه لويسا زوجة فرناندو. كانت حبَّات العرق تبرق على ذقنه وجانبى أنفه.

اقترحت عليه قائلة : هل تريد قهوةً ؟

نعم، مع قليل من الكونياك.

ينبغى أنْ ترقص قليلاً –قالت لويسا وهى تومئ برأسها تجاه النَّاس الذين يرقصون: إنَّ فتاة بارانكيا تبرز من بين الجميع، إنَّها لا تكلُّ ـ هاهنا فتاةً شابةً تسأل عنك.

اهتز إيرنستو.

هل هى حسناء ذات عينين خضراوين ؟

قالت لويسا : إنَّها دميمةٌ ولا تعرفك إلاَّ بالاسم فقط.

حسنًا أرسليها لى على أيّة حال.

توجّهت لويسا بصوت عالٍ إلى كلّ الذين كانوا فى ذلك الركن هل مازال أحد لم يأكل بعد ؟ فمازال هناك قليل من البهية البيللا وكعكة.

قالت مارجى أريد كعكةً.

قال إيرنستو : أريد عجّةً.

ضحك فرناندو. نظرت إليه لويسا باستياء.

ممَّ تضحك ؟ يالك من سفيهٍ، لا تدخن أكثر من ذلك.

أعلنت مينينا أنّها يجب أنْ تتصرف

احتجت مارجى قائلة : إنَّ الحفلة بدأت توًا

قال إيرنستو ستتركينا محبطين أنا ومارجى فكلانا كانت لنا نوايا سيئة تجاهك. أحقيقة يا مارجى؟

قالت مارجى إنَّ لدى نوايا سيئةً دائمًا، شرارة من السُّوء والخبث فى العينين العسليتين.

قالت مينينا وهى تأخذ شنطتها : حقيقة لاأستطيع البقاء أكثر من ذلك. أنا أعيش فى فونينته - سوا - بوا (١) وآخر حافلة تغادر شاتليه (٢) فى الواحدة. انحنت على إيرنستو وقبّلته. مع السّلامة يارجل - قالت له بصوت خفيضٍ - متى سنتلقى ؟

(١) Fontenay – Sous – Bois، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Chatelet، بالفرنسية فى الأصل.

قال لها إيرنستو فى أىّ يومٍ.

نظرت إليه جادةً للغاية.

الا تريد رؤيتى ؟

ظلّت تتحدّث بصوتٍ منخفضٍ.

هل أنت الآن تحب زوجة واحدة ؟

قال لها إنّنى دائمًا حرٌّ، أنت تعلمين ذلك.

بالتّأكيد أنت الحرية بعينها.

لم يكن يريد رؤيتها فى الواقع. كانت مينينا تذكّره بأشياء كثيرة. لقد كانت حلقه الوصل خلال فترة كاملة من حياته فى باريس قبل الذّهاب إلى شيلى. كانت فترة يودّ نسيانها.

بدت مينينا وكأنّها تنبأت بأفكاره.

كيف حال حياتك ؟

قال لها : على مايرام.

هل كلُّ شىءٍ تحت السّيطرة ؟

كلُّ شىءٍ تحت السّيطرة.

هل مازلت تكتب ؟

مقالات غذائية. بعشرة أسماء مستعارة. لكنّنى لا أشكو، فالآن أتناول ثلاث وجبات فى اليوم الواحد.

وماذا عن كتابك ؟

لقد قام بجولة لدى دور النّشر فى برشلونة. فأدب الأسرار الخاصة ليست له أهمية اليوم. لقد

قالوا شيئًا من هذا القبيل. أخيرًا ينبغى أنَّ ندع ذكريات الطُّفولة وشأنها.

هل ستظل فى باريس فى الصَّيف ؟

ربما اذهب إلى ديًّا إنَّها قرية بها كثيرٌ من الأشباح إنَّها هكذا بالنِّسبة لى على الأقل.

مازالت مينينا تتأمَّله بعينين هادئتين وديعتين بعيدتى الغور.

قالت له هامسةً : إنَّنى أحبُّك، انت تعرف، أحقًا ذلك ؟

أنا أعرف يا امرأة. أنا أحبك أيضًا حبًّا جمًّا.

رآها وهى تشق طريقها صوب النَّاس الذين كانوا يرقصون، يفترض أنَّ صديقها ينتظرها فى مقهىً ما، هكذا ظنَّ إيرنستو. إنَّ الشَّاب الذى تعيش معه الآن شجاعٌ للغاية أو أنَّه فقد رجولته تمامًا، إنَّ ذلك قد يستمر... لبعض الوقت. إنَّهم لا يشبهون أحدًا من جيلهم، هكذا فكَّر إيرنستو فجأةً متذكِّرًا بحزن مرحلة مراهقته فى بوجوتا والمحادثات عن الرَّب وشوبنهاور وسط دخَّان صالات البلياردو.

فيمَ تفكِّر الآن ؟

نظرت إليه مارجى بفضولٍ

فى فن الشَّيخوخة دون حنين واشتياق.

لماذا تركتها تتصرف ؟

إنّ شخصًا ينتظرها. هنا بين الرّجال مثلنا يامارجى، فى مثل هذه الحالات لا شىء يمكن القيام به، وأنت تعلمين.

قالت مارجى : لا شىء يمكن القيام به وهو كذلك فهى متمرّسةٌ. نظرت إليه بعينيها العسليتين القاسيتين

-أنت لست عجوزًا يا إيرنستو. فأنت لا تشبه العواجيز فنحن دائمًا شباتٌ فى باريس.

تلك هى الحقيقة.

- ٤ -

وبانتهاء الصَّيف رحلت أسرة أثولا. كان الصَّيف بمثابة حفلة طويلة، حفلة طمست آثارها موجات البرد الأولى فى أكتوبر. بقيت القرية حزينة ومهجورة، وفى الخريف لم تكن إلا ماريا وكذلك فى الشّتاء، ماريا وفيفالدى والمطر وحقول الزَّيتون الرَّمادية تحت الأمطار والرِّياح، تلك الرِّياح الشَّديدة التى تهُبُّ من البحر بالليل وهى تضرب الأبواب والنَّوافذ بشدة. كان للبيت صريرٌ مثل سفينة عتيقة جدًا. فالبرد والوحدة والرِّياح وطقطقة الأخشاب كل هذا جعلهما يحسَّان بوجود كارلوس فى ذلك المنزل أكثر من أيِّ وقت مضى. كانت القرية غريبةٌ جدًا فى الشّتاء. كان فى لياليه شيءٌ لا يمكن تحديده يبعث على القلق. كانت ماريا تُعانى من كثرة الكوابيس. وكان يحسُّ بها تئنُّ وترتعد إلى جواره وهى نائمةٌ. أمَّا هو فقد كان يعانى من الأرق، يستيقظ فى ظلام حجرة النَّوم يسمع الرِّياح الحزينة فى حقول أشجار الزَّيتون، إلى جانب نوع من

اللهفة أو الحنين كان يستحوذ عليه. كان لديه إحساسٌ بأنَّه مفقود ومدفونٌ فى ذلك القبر على البحر المتوسط. كان يفكِّر فى حياته بضيق. يرى حياته كأنَّها مرتبة أُعدَّت من حوارات، من أحلامٍ لم تتحقَّق، من البحث دون جدوى، من عمليات رفض غير مجدية. كان يفكِّر فى والدته التى ليس لديه منها سوى ذكرى من أىِّ وقت مضى، يفكِّر فى والدته التى ليس لديه منها سوى ذكرى مبهمةٌ جدًا حتى أنَّه لم يكن يحتفظ بصورةٍ لها. كان يفكِّر فى والده الذى كان زعيمًا فى حقبة الثُّلاثينيات، يتَّسم بالقوة والحماس، وعلى ما يبدو وافته المنية أيضًا فى نفس وقت وفاة والدته فى حادث عبثىٍ: فقدا حياتهما وهما فى ريعان شبابهما لكى يعيشا فى ذاكرة أصدقائهما الآن وهم قليلون ومسنون، والذى كان يلتقى بهم من حين لآخر فى مكتب ما به كثيرٌ من الغبار، أمَّا عمه إدواردو وهو دبلوماسىٌ ورجلٌ محنَّك فقد كان ينظر إلى إيرنستو على أنَّه فاشلٌ تمامًا. لم يفهمه قط. أمَّا شقيقته بياتريث تزوجت ثم انفصلت عن زوجها ولها ثلاثة أولاد. وقد كانت بمثابة حلقة الاتصال بين إيرنستو والماضى، كان وجودها رائعًا لكنَّه كان بعيدًا بصورةٍ حتمية. كانت تتحلَّى بالصَّبر وتنظر إليه على أنَّه قضيةٌ خاسرة، فقد كانت تتبنَّى كلَّ أعراف وقيم الطَّبقة المتوسطة فى بوجوتا. ولكنَّه كان يعرف أنَّ خلف تهذُّب أخلاقها وملابسها الأنيقة واللوحات الفنِّية والبُسط، جدار للحماية والوقاية يخفى خلفه

بشكلٍ ما الوحدة والحيرة، واسطوانة عتيقة، وألبوم صور تقوم بتصفحه ذات يومٍ أحد ممطر فى بوجوتا، كلّ هذه الاشياء تعيدها إلى ذكرياتها الحزينة كطلاب فى مدارس داخلية ومنازل عمّاتهما الرّيفية، وكذلك الأسئلة المستمرة عن ماذا يعنى هذا ولماذا. لم توافق على الاطلاق أنّ أعيش مع إيستيلا بدون زواج. كانت تعتقد أنّ إيستيلا هى المسئولة عن جميع مشاكله. أمّا ماريا فإنّه حصل أو سيحصل على موافقتها لأنّها كانت طبقًا لرأيها صارمةً أيضًا ومهذّبةً (سيدةٌ بارزةٌ مميزة فى رأى بياتريث) لا تنطوى نفسها على جرام واحدٍ من السُوقية. وبطبيعة الحال شريطة أنْ يتمّ كلّ ذلك بشكل قانونيٍ بأنْ يتمّ الانفصال أولاً ثمّ الزّواج فى الكتمان بفنزويلا وألاّ يكون هناك ـ على وجه الخصوص ـ معاشرةٌ سابقةٌ أو حيلٌ مخادعة مثل الهنود الحمر كانت تقول له: يجب أنْ تتخذها زوجة وليست محبوبة. وماهو ذلك المستقبل الذى كان ينتظره مع ماريا فى شقةٍ فى أحد الأحياء الشّمالية فى بوجوتا، هكذا كان يفكر إيرنستو متخيلاً حياته مع ماريا. إنّ مجرّد التّفكير فى ذلك يُسبّب له قشعريرة فى ظهره. فمنذ أنْ كان فتىً لم يكن يدرى لماذا كان يرفض بعض الوظائف أو المهن المتوقّعة لأبناء جيله. لم يرد دراسة القانون مثل صديقه روديجو بيداليس ولا حتى الكيمياء الصّناعية (فكرة عمّه). كان يريد إضفاء مغزى مهم على حياته، ماذا كان يقول حينئذ ؟ هذا ما حدث أيضًا لكاميلو. لقد تحدّثنا عن ذلك ذات مرّة.

كان يرى أنَّ تحقيق الذّات من خلال خطة يتبنّاها كثيرون ويتوقون إليها ألا وهى دراسة تخصص ما وتكوين ثروة والزّواج والإنجاب ثم تصيبهم الشّيخوخة ويموتون، كان يرى هذا أمرًا تافهًا وغير كاف. كان كاميلو يقول : هذا لا يكفى. لقد رآه من جديد (بينما كانت الرّياح تهبُّ على حقول الزّيتون وماريا إلى جواره تئنُّ وتتنهّد وهى نائمةً) فى مقهىً بشابينير وذات ليلة عام١٩٤٧ وهو مايزال مراهقًا يتحدّث له عن السيّد المسيح. كان يقول له : إذا لم يوجد الرَّبُّ لظللت مسيحيًا. لقد عبَّر السيّد المسيح عن اشتياق عميق جدًا إلى المساواة والإخاء. وكان يقول عن الحبِّ : إنَّ الحبَّ والطّيبة هما أعظم السّمات البشرية. فالرّجال كانوا يعانون. كانوا يعانون من الوحدة والخوف وكانوا يرتدون أوّل سروال طويل. لماذا كان كاميلو يعانى فى تلك اللحظة؟ لماذا ذلك الحزن فى عينيه، لماذا لحظات صمته الطّويلة، وهوسه بالاحتباس طوال ساعات فى غرفته ؟ كانت والدته إيسابيل تطلب من أصدقائه أنْ يصطحبوه إلى السّينما وأنْ يُسرّوا عنه بشكلٍ ما. لم يجد كلُّ هذا. بعد أجازات فى السّهل، كان كاميلو غريبًا جدًا، كان يكتبُ قصصًا قصيرةً حزينةً، وكان الجميع يسأل ماذا حدث، ماذا حدث له، حتى ذلك اليوم الذى حدثهم فيه بيداليس أقرب الأصدقاء إلى كاميلو، بيداليس ذو النّقد اللاذع، والأشد إلحادًا وارتيابًا بين جميع أصدقائه ومع ذلك كان كاتم أسراره قال لهم : إنَّ كاميلو يريد أنْ يكون قسيسًا. هذا النّبأ

أكده لهم كاميلو بنفسه وهو يتدثّر معطفًا ريفيًا أبيض اللون فى ذلك المساء البارد والمطير يوم سبت بينما كان يسير فى شارع ١٨ قال لهم إنّ أصعب شىء انتهى. تريسا تعرف ذلك. كانت تريسا خطيبته قد عرفت ذلك فى الليلة السّابقة، وبعد ذلك ببضعة أسابيع أصبحت راهبةً، كان كلّ ذلك يبدو وكأنّه موضوع لقصّة إذاعية. لكن كلّ شىء تمّ بصورة حتمية. كان كاميلو قد التحق بالمعهد الدّينى المسيحى. ويتذكّر دهشته عندما رآه لأوّل مرّةٍ فى صيف حار بباريس بزىّ القساوسة الأسود، كان يتصبّب عرقًا وكانت تفوح رائحة العرق منه. وعندما عانقه إيرنستو عند باب القنصلية الكولومبية. قال فى نفسه متعجبًا لقد فاحت منه رائحة القسيس. كان فى طريقه إلى لوبينا. وكان قد انتاب إيرنستو انطباعٌ عن صديقه عندما ابتعد عن الحياة، بأنّه سيضيع حتمًا وهذا الانطباع سيتأكّد فى وقت لاحق عندما التقى به فى بوجوتا حيث وجده مستسلمًا تمامًا لبعض الأمور الشّعبية المسلّم بها. نشاطٌ وجده كاميلو وبيدليس وأصدقاءٌ آخرون لهما كانوا على علم تام بحقائق الثّورة وجدوه مجرّد أوهام تافهة. أىّ مغزىً لتوزيع فناجين شيكولاتة على الفقراء فى أحياء الجنوب طالما أنّ الحلّ الوحيد لبؤسهم، ولبؤس جميع المستغلّين فى كولومبيا لم يكن شيئًا آخر سوى ثورة مثل ثورة فيدل كاسترو التى كان يقوم بها فى كوبا ؟ هكذا كانوا يفكّرون وهكذا كان كاميلو يفكر فى أنّ ما يفعلون لم يكن إلاّ سخريات من

الحياة ذاتها، فقد أدركوا فجأةً بشكل ساذجٍ وغير ناضجٍ عدم جدوى فناجين الشّيكولاتة تلك التى كانت توزَّع على الفقراء، لذلك خلع رداء القسيس وأطلق لحيته وارتدى زيًا عسكريًا وانتحر فى إحدى الغابات.

لكن فى مطلع عام ١٩٦٠ كان من المستحيل أن يتخيّل أحدٌ أنَّ هذا سيحدث. فبينما كان كاميلو يجمع لجانه الخيرية لمزاولة نشاطهم فى الأحياء الفقيرة كان أصدقاؤه فى فترةٍ سابقةٍ مشغولين بأمور جادة. كانوا يسافرون إلى كوبا، كوبا : كُوبا المهدَّدة، وخطب كاسترو الحماسية، والإخاء الصَّاخب فى الملاعب والميادين المكتظَّة بالأعلام والشّعارات وأغانى كارلوس بويبلا ورجال الميليشيات الشُّبان الذين كانوا يراقبون الموقف فى الشّوارع أو من شرفة المنطقة المحرَّمة، يراقبون السَّماء والبحر خشية أنْ يحدث غزوٌ أمريكىٌ فى أيَّة لحظة : كلُّ هذا أثرَّ فى أصدقاء كاميلو القُدامى تأثيرًا كبيرًا. كان يبدو لهم أنَّ الثَّورة، التى كان يعتبرها الشّيوعيون سابقةً لأوانها ومتهوِّرة لأنَّ ظروف نجاحها لم تكن مهيأةً بعد، كان يمكن أنْ تحدث فى كوبا بظهور الطَّلائع الثَّورية. لذلك فإنَّ ظروف التَّمرد يمكن تهيئتها، ويمكن أنْ تزداد عنفًا. كان تشى جيفارا يقول: إنَّ الواجب الأوَّل للرَّجل الثَّورى هو القيام بالثَّورة. كانوا يهتمون لأوَّل مرَّةٍ بمشاكل التَّنظيم العسكرى استنادًا إلى كتيبات الجنرال بايو وجيفارا نفسه وذلك بتجهيز الأسلحة والمتفجرّات، تدريب الأفراد وأنْ يكونوا متأكّدين من أنَّ النَّشاط هو لإثارة الاضطراب فقط

وكذلك لأهداف انتخابية وذلك أنَّ ماكان يشغلهم فى ذلك الوقت كان فى نهاية المطاف مسألة إنتقالية.

وهكذا فى غرفة النَّوم المظلمة تلك، كانت تسمع دقَّات ساعة الكنيسة فى الهزيع الأخير من الليل، أو صفير الرِّياح الليلية التى كانت تهزُّ حقول الزَّيتون بقوة وهو يراجع فى هذه الليلة أو تلك هذه الفترة من حياته، عندما بدأوا العمل فى تأسيس تنظيم سرِّى سيكون فى وقت لاحق هو جيش التَّحرير الوطنى دون أنْ يعرف شيئًا عمن أسسه أو من كانوا أعضاءه. فهم لم يكونوا سوى أداة فقط وقد علم بذلك مؤخَّرًا ممَّا جعله لا يتورط فى هذه المغامرة، لكنه انخرط فيها، وإن كان بطريقة مختلفة عن أصدقاء آخرين لم يتحلُّوا بالصَّبر وقرَّروا الانضمام إلى التَّنظيم وقد غُرِّر بهم حتى لقوا حتفهم. كانت القائمة طويلة جدًا. رأى مرَّةً أخرى فى ذاكرته تلك المجموعة من الطُّلاب الذين كانوا يتجمَّعون ليلاً بشقته فى بوجوتا فى عام ١٩٦٠والتى خرج منها كلُّ شىء وإنْ كان أفرادها لايمكن تخيلهم فى تلك اللحظة. لقد كانوا مستجدين وبلا شك غير أكفاء فى استخدام السِّلاح. لم يكن أىٌّ واحد من هؤلاء الطّلاب ذى الثياب الرَّثَّة بالجامعة الوطنية أو جامعة تاديو لوثانو الذين كانوا يصلون إلى منازلهم يغمر أحذيتهم مطر الشَّارع يبحثون عن كسرة خبز وفنجان قهوة فى المطبخ ومكان دافئ ومأوى لكى يجلسوا فيه ويتناقشوا، لم يكن أحدٌ منهم يعرف كم يزن المسدَّس فى اليد، بل إنَّ أقصى ما استخدموه

حتى ذلك الحين فى حياتهم ويشبه السّلاح هو زجاجة الكوكا كولا مليئةً بالبنزين وبها قطعة قماشٍ مبلّلة بالبنزين أيضًا بدلاً من الفلين يلقونها من على بعد لتخويف جياد الشّرطة أثناء بعض المظاهرات الصّاخبة تأييدًا لكوبا أو احتجاجًا على زيادة أسعار المواصلات. وهكذا سوف نراهم من جديد، بعد عشرة أعوام وهم يدخلون فى مجموعات صغيرةٍ من فردين أو ثلاثة حتى يكوّنوا اثنى عشر فردًا أو أقل، كلهم فقراء باستثناء فردٍ واحد، كلّهم من الأقاليم وهم أبناء طبقةٍ متوسطةٍ جارَ عليها الزّمن لذلك كان المؤهّل أو الشّهادة العالية له أهمية ذات شأنٍ كمحامٍ أو مهندسٍ، كانوا يعيشون فى لوكاندات سيّئةٍ فى حى سانتا فيه ويرتدون مثل آبائهم ملابس متواضعة من المعاطف وأربطة العنق الباهتة والمتهالكة من كثرة الاستعمال. لقد انضموا إلى الحركة الثّورية الليبرالية نظرًا لكونهم ماركسيين ومن أنصار كاسترو من ناحية، على الرّغم من أنّهم لم يعترفوا بذلك نظرًا لإخلاصهم العاطفى للتّوجه العام السّائد لآبائهم فقط من أقاليمهم بل أيضًا للجماهير السّاخطة. ومن ناحية أخرى لأنّه لم يكن هناك بديلٌ آخر سوى فصيلين صغيرين والحزب الشّيوعى الصّاخب الذى ينادى بما يشبه الطّقوس الدّينية، وزعماءٌ مسنون يردّدون شعاراتٍ متكرّرةٍ، حزبٌ كان أعضاؤه من الشّباب مايزالون يخرجون فى الطريق السّابع يحملون لافتات مثل "عُمرًا مديدًا لجاجارين رائد الفضاء الخالد!"

كان ذلك بمثابة نوع من الارتباط بين بيداليس وإيرنستو من جهة وبين هؤلاء الزُّعماء الجامعيين من جهة أخرى لكونهم جميعًا أعضاءً فى تلك الحركة، الحركة الثَّورية الوطنية، لتكوين طليعتهم المناصرة لفيدل كاسترو والاعتقاد بأنَّه آجلاً أم عاجلاً كما حدث فى فنزويلا فإنَّ الكفاح المشروع سيتحوَّل إلى كفاحٍ مسلَّح. والآن بعد عشر سنوات، ومن تلك العزلة فى ذلك القبو المطِّلّ على البحر المتوسِّط حيث كان يوجد إيرنستو يمكنه أنْ يرى ذلك التَّطلع الغنائى الذى كانت تنطوى عليه توقعاته الآن اثنان على الأقل من هؤلاء الثَّمانية أو العشرة أو الاثنا عشر شابًا الذين كانوا يجتمعون فى منزله وافتهما المنية وهما مانويل باثكيث ونينو (أحدهما قتله الجيش والآخر أعدم رميًا بالرَّصاص بطريقة عبثية من جانب رفاقه المحاربين) بينما كان باقى أفراد المجموعة قد تفرَّقوا فى البلاد، مبتعدين كلَّ البعد عن أىِّ عملٍ ثوري : بعضهم عملوا محامين فى محافظاتهم أمَّا الآخرون فكانوا إمَّا موظَّفين بالبلدية اودبلوماسيين أو مصدِّرين للفراولة والقرنفل، وكان بيداليس عضوًا بمجلس الشُّيوخ، أما بالديبييسو، وياللسخرية المبكية، خوان م بالديبييسو أصبح صاحب سلسلةٍ من صالونات الحلاقة فى بوجوتا.

كان خوان بالديبييسو على وجه التَّحديد هو الذى يخطر على باله من حين لآخر: كان أقلهم جميعًا ثقافةً، ذلك الأبله العاجز تمامًا عن التَّعبير عن مفهومٍ

ما فى أىّ اجتماعٍ جامعيٍ، العاجز تمامًا عن إلقاء خطبة أو المشاركة فى مناقشة نظرية كان يتساءل أحيانًا هل قرأ كتابًا ذات مرةٍ ؟ كان هو الشّخص الوحيد الذى كانت ذكراه تكتسبُ بعدًا بارزًا لأسبابٍ واضحة. من الذى اصطحبه إلى منزله ؟ رُبّما يكونُ الشّخصُ المهمل الذى طُرد مثله من الشّبيبة الشّيوعية. بوسع إيرنستو أنْ يتذكّر كيف دخل بالديبييسو تلك الاجتماعات الليلية فى شقّته فى حى لاسوليداد(*) (العزلة) وأنّه أخذ عنه انطباعًا متواضعًا. لم يكن يتحدّث فى البداية، كان يبدو خجولاً بالضّبط مثل فتىً يقضى طوال اليوم يطلى جدارًا بالجير ثم ينزلونه من فوق السّقالة لكى يجلسوه بين فقهاء القانون. عندما كان يضحك كان يحمرُ وجهه بشدّة، وكانت له سنّةٌ من الذّهب تبرق فى فمه شريرًا متقلبًا، كما أتذكّر الآن، كإنذارٍ بالخطر. قالوا له : إنّه طالب فى السّنة الأخيرة بقسم الهندسة المعمارية، لكن كان من المستحيل أنْ أتخيّل أنّ هاتين اليدين العريضتين الحمراوين والغليظتين مثل عنقه تستطيعان أنْ تمسك بقلم رسم وتصمّمان حجراتٍ وأبوابٍ ونوافذ على ورق، بل إنّهما مؤهلتان فقط لإصلاح شاحنة طوبٍ أحمر أو تخرجان من جيبه منديلاً مخطّطًا ملوّنًا قذرًا لكى يُنظّف أنفه. فكّر إيرنستو أنّه شابٌ سوقيٌ دون أىّ تكوين سياسيٍ فقد كان ذلك واضحًا للعيان : أحد هؤلاء الكثيرين الذين يتلّقون دراسات ليليةٍ فى جامعة

(*) La Soledad، بالفرنسية فى الأصل وتعنى العزلة.

ما بوسط العاصمة بينما فى النّهار كانوا عمال مصعد كهربائى أو حجابًا فى محكمة. لكنّه مع ذلك كان كفئًا هكذا فكرّ أيضًا إيرنستو ـ فقد لاحظ أنّه أكفأ الجميع فى بعض الأعمال المعيّنة، كان كُفئًا لحمل إناء من الكرّات الزّجاجية لكى يرشوها بالماء على الأرض تنزلق فوقها سيقان جياد الشّرطة أو تصطدم بها. إنّه بمثابة اللوحة الكاملة التى تمّ إعدادها بين الكوادر الشّيوعية وليس بين الاجتماعات الليبرالية الصّاخبة، كان بوسعه السّفر إلى أىّ مكان بعشرين بيزو، لديه قدرة النّوم على حصيرة مرتديًا ملابسه إذا لزم الأمر، وكذلك فى كسب ثقة النّاس بسرعة، هؤلاء المستوطنون فى ميناء بوياكا، على سبيل المثال، الذين كانوا يعترفون به كفرد منهم لقوته البدنية ومزحاته وطريقته فى أكل قطعة من اللحم أو لوضع خلة بين أسنانه. كانوا يشعرون بمزيد من الارتياح مع الرّفيق بالديبيسو.

كان مايزال يراه مثل تلك السّنوات الأولى وهو يدخل منزله ويجلس وسط الآخرين، ويداه الحمراوان بين ساقيه بهيئته المعتادة، بحلّته التى لا تتغير ذات اللون البنى زهيدة الثّمن ونعليه الأصفرين وعليهما قشرةٌ من الطّين الجاف عند حوافيهما، كان متواضعًا، شعبيًا، صامتًا، غير مكترث دائمًا وقلقًا بالنّسبة للتّحليلات والتّكهنات السياسيّة لبيداليس الذى كان يرأس الاجتماعات أحيانًا باقتراحاته وتكتيكاته المتعلّقة بالمؤتمرات السّياسية، ولكنّه أى بالديبيسو كان

يقظًا مثل كلب يرفع أذنيه عندما يسمع جلبةً أحسَّ بها وحده، عندما كان يدور الحديث عن الاتصالات فى المناطق الرِّيفية حيث كانت جماعاتٌ مسلحةٌ تزاول أعمالها لمساندة حركات الإضراب. ويذكر إيرنستو أنَّ بالديبيسو كان أوَّل من يثير الشُّكوك حول بيداليس واقتراحاته.

وأمَّا عن بيداليس، صديقه طوال حياته، منذ سنوات مدرسة الليسيه فهو محامٍ فقيرٌ يدافع عن المسجونين السِّياسيين، مؤسس الجمعيات الزِّراعية هو الوحيد بين الجميع بدأ نشاطه شيوعيًا ثمَّ بعد ذلك ليبراليًا يساريًا (النَّهج الكلاسيكى لكثيرين) كان قد تعرَّض لمخاطر فى فترة العنف. كان عرضة لدعابات لطيفةٍ غير جارحة كانت تتناغم مع الجو المرح أحيانًا لتلك الاجتماعات، كانت هذه الدُّعابات توجَّه فى غفلة من بيداليس أو عندما ينصرف من الاجتماعات، مزحات، ثمَّ فيما بعد تلميحاتٍ كانت تنطلق فى تهكمٍ وسخريةٍ، كانت دعاباتٌ مستهلكةً بشأن التَّطلعات الانتخابية لصديقه. كان إيرنستو مايزال يرى بالديبيسو محمرَّ الوجه وهو يقول عبر ابتسامةٍ تظهر خلالها سنَّته الذَّهبية بتحفظ : "عجبًا، أعتقد لو أنَّ الثُّورة تأخَّرت أو فشلت سيتخلَّى رفيقنا عن مقعده فى مجلس الشُّيوخ". كان إيرنستو يقول له : دعك من السَّفاهات، وهو يفكِّر فى مركَّب نقص بسيط لدى خوان بالديبيسو تجاه المحامى الشَّاب، الذَّكى والمثقَّف رودويجو بيداليس الذى كانت ردوده اللاذعة

وإيضاحاته وتحليلاته تتطلّب، وهذا أمرٌ أكيدٌ، وبصوت عالٍ، مناخًا برلمانيًا وليس جو اجتماعات تافهة لطلاب متعجّلين يثورون فقط إزاء أيِّ شكلٍ من أشكال النّشاط. نشاطٌ كان بالدبييسو بالتّأكيد قادرًا على أنْ يبدو فيه صاحب كفاءةٍ مدهشةٍ.

ويتذكّر إيرنستو كيف أنَّ خوان بالدبييسو فى تلك الليالى استطاع إرساء نوع من المشاركة مع الآخرين، على الأقل مع خمسة أو ستّةٍ منهم. كانوا يتبادلون النّظرات فيما بينهم، والمزحاتِ عن بيداليس والآخرين الذين كانوا موقنين بمجيء عصر مثل ذلك والثّورة الكوبية على أبواب منازلهم فضلاً عن الحكاية الذّهبية حول الانتخابات وتحريض الجماهير، وعن الخطب الحماسية والبيانات وإجراءات أخرى تشوبها انتهازية مريبة، وليس فقط فى الأسلحةِ والمتفجرّات ووحدات القتال التى لم تكن فى حسبان خوان بالدبييسو فحسب بل أيضًا فى اعتبار الآخرين مثل نينيو وريستريبو وباستيداس وربّما مانويل باسكيث وخاصة باتستو. كانوا يجيئون وينصرفون معًا. وذات ليلة بعد تردّدٍ كبيرٍ ونظراتٍ ونحنحات كان هؤلاء جميعًا جالسين كما يذكر إيرنستو حول طاولة السّفرة حيث تناولوا بيضًا مقليًا، كان ضوء الأباجورة فوق الطّاولة وقد أضفى على وجوهم صفة المتآمرين، لقد قرّروا أنْ يتحدّثوا مع بالدبييسو. كان لديهم عشمٌ فى بالدبييسو ربّما أكثر من بيداليس. وفى خط موازٍ للتّنظيم المشروع لفرق كوماندوز للحركة الثّورية

الليبرالية التى كانوا يشكّلونها. تحدّثوا إليه عن أسس تنظيم سرّي متحفظ تحسبًا للمستقبل لأنّ القمع قادمٌ لا محالة. فالطُّغيان قادم آجلاً أم عاجلاً. وكان ينبغى الاستفادة من مرحلة الكفاح المشروع التى كانت تُسهّل الاتصالات والانتقالات على حد قول أحدهم، وكان خوان بالدبييسو يدعى من جانب أصدقائه، أخرج من جيبه فوطة من الورق عليها رسومات عبارة عن دوائر وخطوط لكى يشرح له كيفية ذلك التّنظيم بألوية نشاط أو قتال يتكوّن كلٌّ واحد منها من خمسة أفراد فقط وفرد واحد للاتصال مع القيادات العليا، كان يقول، هكذا كان تنظيم جبهة التّحرير الوطنية الجزائرية، لقد درسها جيدًا، كان من المدهش أنّ يتحدّث بالدبييسو عن أمر قديم كهذا، بعيدًا كلّ البعد عن خبرته اليومية وعن براجماتيته مثل جبهة التّحرير الوطنية الجزائرية. لكن تلك لم تكن فى الواقع، أوّل المفاجآت التى أعدّها لهم جميعًا، وسرعان ما تجسّدت وتبلورت تلك الفكرة التى كانت تبدو شقاوةً طلابية وتطوّرت بصورة مذهلة، وأفصح بالدبييسو ذلك الرّيفى الخجول والغامض عن كفاءته كخبير استراتيجي ماهر رغم أنّه كان دائمًا قليل الكلام. كان هو، وبلا شك هو، خوان بالدبييسو الذى يتحتم علينا أنّ نتذكرّه بعد عشر سنوات فيما بعد على الرّغم من أنّه لم يكن هناك أحدٌ يهتم بذلك، والذى لم يجد إيرنستو فرصةً مواتيةً لاسترجاع ذكرياته وأفكاره إلاّ صدى الرّياح الحزينة التى كانت تُهبُّ على حقول أشجار الزّيتون، خاصة وأنّ خوان بالدبييسو كان أوّل

من اقترح الاسم لذلك التّنظيم وهم يلتفون حول طاولة السّفرة : جبهة التّحرير الوطنية. كان الآخرون يعملون فى مناخ مايزال مرتبطًا باللعب، بالشقاوة الطّلابية المسلّية، وكانوا متأثرّين بأفلام جيمس بوند أكثر من فكر الجنرال بايو أو تشى جيفارا أو الوطنيين الجزائريين، كانوا قد اقترحوا اسم "اليد الحمراء" كرد مناسب على التّنظيم المناهض لفيدل كاسترو تحت رعاية أصحاب البنوك والمموّلين والتى كانت الصُّحف اليسارية تُندّد بها وتنعتها بـ"اليد السّوداء" لكن خوان بالدبييسو دون رغبة فى أنّ يفرض عليهم شيئًا، كان ينظر إلى نعليه، أو إلى يديه، أو يحمرّ وجهه خجلاً عندما يرفع نظره صوبهم، كان قد أبدى بعض الاعتراضات، ضحك فجأةً وظهر بريق سنّته الذّهبية كالبرق الخاطف وقال لهم : أعتقد أنّ ذلك له مدلول مافيوى إلى حد ما يا أيُّها الرّفاق. فباسم هكذا لن يكون من السّهل الحصول على تأييد الكوبيين. فهذا الاسم ليس جاداً. كان للفنزويلين قواتهم المسلّحة للتّحرير الوطنى[1] لماذا لا نفعل الشىء نفسه فى كولومبيا ولو مؤقّتًا (قال ذلك خوان بالدبييسو (كانت عيناه شاردتين كما أبرزت سنّته الذّهبية السّخرية والتّهكم) كان مافعله الفنزويليون أكثر تواضعًا؟ ضحكوا، قبلوا اقتراح الرّفيق بالدبييسو : سيسمّى تنظيمه جيش التّحرير الوطنى[2] لقد كان الوقت قد

(١) FALN.

(٢) ELN .

حان للتّفكير فى ذلك بجديّة. لقد فكّر فى جيش جميل، وبعد ذلك بقليل وهو يُطلّ من النّافذة كيف أنّ تلك المجموعة من الفتيان قد ابتعدت، لم يكن أىٌّ منهم قد تجاوز الخامسة والعشرين عامًا، فى ذلك الشّارع فى حى العزلة، ذلك الشّارع المظلم والمطير وهم يتدافعون مثل طلاب عند خروجهم من مدرسة الليسيه.

لم يأخذ - بالطّبع - ذلك مأخذ الجد لا فى ذلك الحين. ولا فيما بعد عندما استمع إليهم يتحدّثون عن كيفية قيام كلٌّ منهم، طبقًا لما هو متوقّع بتشكيل مجموعة الكوماندوز السّرية من خمسة أفراد. كان الرّفاق قد طلبوا منه بأنّه لا ينبغى عليه حتى الآن أنْ يخبر بيداليس بشىء. ولم يذكر شيئًا لصديقه إيرنستو على الرّغم من تبادل دعابة ما معه عن الوساوس الحربية لرفاقه. ظلّ ينظر إلى ذلك على أنّه لعبٌ ولهوٌ حتى عندما كانوا يأتون متأخّرين دائمًا ودائمًا خمسة أفراد، ولكن الآن كانت برفقتهم فتاةٌ سمراء ولطيفة من بلدة سينثيليخو، كانت خطيبة خوان بالدبييسو، يشرح له أنّهم قرّروا الإسراع بتسمية حركتهم باسم جيش التّحرير الوطنى بمناسبة وصول الرّئيس كينيدى إلى بوجوتا. سأله إيرنستو مبتسمًا أىُّ حركة تقصد؟ كان أحدهم قد اقترح ربما يكون ريستريبو، تعليق دمية من القشّ على باب المدينة الجامعية تمثّل الإمبريالية الأمريكية. لم يقل بالدبييسو شيئًا كان يستمع إليهم جميعًا، كما يتذكّر الآن إيرنستو جيدًا، على الرّغم من

أنَّ الاعتراضات كانت تقرأ في وجهه، وفجأةً كان يحمرُّ وجهه، ودائمًا كانت عيناه تختفيان خلف رموشه المسدلة وقال إنَّني اقترح أمرًا إضافيًا يسيرًا.

قال ذلك بطريقة فرضت على الآخرين الصَّمت والتَّرقب، أدرك إيرنستو أنَّ بالدبييسو يملي عليهم شكلاً غريبًا من الاحترام والمصداقية. قال بالدبييسو وهو يحرِّك رموشه قليلاً : متفجِّرات. فجأة سكت الجميع، فجأة لم يكن كلُّ هذا مزاحًا، لقد تبادلوا النَّظرات فيما بينهم بنفس الاضطراب، ثم كان الجميع في انتظار تحديد جديد. متفجرات ؟ كرَّر إيرنستو بغرابةٍ شديدة، لدرجة أنَّ الآخر (إيرنستو) احمرَّ وجهه من فرط خجله. تسرَّع في القول : لاشيء يلحق الضَّرر بأحد. فقط انفجاران صغيران شبه رمزيين لكي تكتب الصَّحافة عن جيش التَّحرير الوطني لأوَّل مرَّةٍ لكي يعرفنا الجميع. قال إيرنستو هذا أمرٌ جائز. لكنَّ الآخرين كانوا شغوفين متلهفين، كانت اللعبة تثيرهم، كانوا يريدون معرفة كيف وأيَّن، وبماذا. فقال بالدبييسو : من أجل ذلك لا توجد مشكلةٌ سأتعهَّد بالحصول على المتفجِّرات : فلديَّ الآن مجموعتي من الكوماندوز جاهزةً.

لم تنفجر أيَّةُ قُنبلة. لكن ذات مساء جاءوا سعداء ومعهم صحيفةٌ بها نبأٌ عن عثور كنَّاس على بعض عبوات ديناميت لم تنفجر كانت ملفوفة في ورق هدايا أعياد الميلاد. تم شراؤه من متجر لي(*) . كانت هذه

(*) Ley، بالفرنسية في الأصل .

اللفافة مكتوبًا عليها مختزل كلمات جيش التّحرير الوطنى التى كانت تغطى جدار المبنى عقب زيارة الرّئيس كيندى مباشرةً. كان يبدو لإيرنستو أنّهم يلعبون لعبة اللصوص ورجال الشّرطة (عسكر وحرامية) وأنَّ ذلك كان شغل أطفال. منذ تلك اللحظة بالتّحديد بدأ يضع بالدبييسو فى الاعتبار، وبعد ذلك بوقت طويل، أرسله تلك المرّة إلى ميناء بوياكا بلافتات ومواد دعائيةٍ أخرى للحركة الثّورية الليبرالية، وبعد شهر وجد أنَّ أفضل القيادات المحلية لم تكن تعتقد فى الانتخابات ولا فى بطاقات العضوية اللهم إلاّ فى طريقة شراء بعض الأسلحة، وكانوا ينظرون مرتابين أو كانوا يباغتونه وهو يتحدَّث بصوت منخفض فى مكان سرى. كان يمكن أنْ يراه وقميصه الوحيد يتصببُ عرقًا وهو يجتاز فى سيارة جيب تلك المنطقة المشتعلة التى يمر بها خط أنابيب البنزين وألسنة النيران الفجائية من الغاز المشتعل بين أشجار الغابة التى قطعت للتو من جانب المستوطنين، برفقة ذلك العامل من تكساس والمدعو سينون بلانكو، أو مع ذلك المعلّم. كيف كان يُسمَّى ؟ فيدريكو، فيدريكو روساس ذو اللحية الكثيفة الدّاكنة والعينين الخضراوين، الذى سوف نرى وجهه داميًا فى الصّحيفة بعد عام أو عامين تحت عنوان تصفية بؤرة من رجال حرب العصابات. كانوا جالسين فى الجزء الخلفى لكانتين يعجُّ بضجيجٍ صاخبٍ وحرارة شديدة، كان فيدريكو فى شبكته الهزّازة والى جواره بالدبييسو يتحدث قريبًا

منه جدًا، وكأنّهما أناسٌ يبلغون عن أمرٍ سرّى فيما بينهم، لقد التفتوا إليه قلقين مضطربين فى الوهلة الأولى، ثم ابتسموا فيما بعد عندما سألهم : هل تتآمرون ؟ كان فيدريكو يعرفه جيدًا، كان مثل قديس يكتب أشعارًا بحلم بالثّورة، وكان قد انتقل ليعيش بين المستوطنين كمبشرٍ بين أهالى البلاد الأصليين.

وبالنّسبة له لم يزعجه كثيرًا مثلما حدث مع بيداليس أنّ خوان بالدبييسو كان ينهب من مكان إلى آخر، ولكى يقيم اتصالاته الموازية، ولم يكن يعتقد أنَّه عضوٌ بالحركة العمالية الكولومبية أو أىٍّ تنظيم طلابى ذى توجه سرّى لأنه كان يعرف أنَّه من أفراد جيش التّحرير الوطنى والذى كان نشاطه يقتصر مؤقّتًا على شىءٍ محدد : شعار رُسم بشكلٍ متسرعٍ على عددٍ من الجدران وخطبةٌ موجهةٌ للفلاحين لم تكن مكتوبة على آلة طابعة بل المدهش أنَّها كانت مكتوبة فى مطبعة وبحروف اللينوتيب. لدىٍّ اتصالاتى هكذا كان بالدبييسو يجيب ويحمرُّ وجهه خجلاً كموظّفٍ متواضعٍ وكفءٍ عندما كان إيرنستو يسأله ما الذى فعله لكى يحصل على مطبعة. كان إيرنستو يُفكّر أنّ بالدبييسو صامت وكفء وهو يراقبه. إذا عادت البلاد إلى عصر القمع القديم والعنف أو لو أنَّ الاضطراب الاجتماعى (وكثرة الاضرابات التى كانت تحدث فى ذلك الحين) أو ماكانت توحى به من ظهور وتطور الوعى الثّورى (تلك الجموع الحاشدة فى ميدان سيمون بوليفار والتى لم يكن الإنسان يعرف

كيف ظهر هؤلاء بهذه السُّرعة المذهلة وهم يصيحون "نعم لكوبا ولا للأمريكان" أو "الثَّورة لا تزال مستمرةً !" "الثورة !" كلُّ هذا اضطر الطَّبقة الحاكمة إلى رفع القناع عن وجهها (هكذا كانوا يتكلَّمون بهذه اللغة) لأنماط أخرى من الكفاح، هكذا كان إيرنستو يعتقد أنَّ أشخاصًا مثل بالدبييسو كان من الضروري وجودهم، وهم وتنظيمهم مهما بدا قاصرًا فإنَّه مفيدٌ جدًا. كانت أميركا اللاتينية بأسرها تتنفس الهواء السَّابق على الثَّورة وقد ظهرت جماعات مسلَّحة في كثير من البلدان : في فنزويلا، في بيرو، في جواتيمالا، وكذلك في الأرجنتين.

وكل ذلك، كما يتذكر جيدًا، كل ذلك الذي كان حتى ذلك الحين يبدو تمتمات وعمليات جس نبض، وحبو ثورية اكتسبت بعدًا محددًا وغير متوقَّع عندما ذهب بيداليس إلى هافانا مدعوًا، وعندما عاد بأنباء لا يمكن تصديقها، كان قد تحدَّث مع فيدل كاسترو وعلى مدى ساعة كاملة تحدث مع فيديل. وبوسع إيرنستو أنَّ يتذكر الآن الصمت الذى خيَّم على الجميع عندما بدأ بيداليس يتحدَّث لهم عن مقابلته في ذلك المكتب المترب لفيدل كاسترو في شارع ١١ وهو مكتب محام، كان الوجه جادًا والأنف بارزًا، والعينان واسعتين يقظتين تمامًا خلف النَّظارة التى كانت تتلألأ في شمس الغسق في النافذة، وأجراس الكاتدرائية تدقُّ قريبًا جدًا من المكان. كان قد تحدَّث مع كاسترو، وكانت دردشته في البداية تشبه مهارشة الدِّيكة

(وذلك لأنَّ الكوبيين يشبهون كثيرًا سكان الساحل الكولومبى، هكذا يقول بيداليس). لقد تحدَّث عن ساقى جاكلين كينيدى، ويتذكَّر كيف كانا يتبادلان النَّظرات فيما بينهما، بإبتسامة حائرة. نعم، كان بيداليس يقول : لقد تحدَّثنا عن زيارة كينيدى لبوجوتا. لماذا كان هناك كثير من النَّاس فى الشَّوارع ؟ لم يفهم كاسترو ذلك ولكنَّ بيداليس كان يفهم ذلك بالفعل، وقال : إنَّ ذلك ياسيادة القائد لا يحتاج إلى تحليلٍ ماركسى، فكلُّ الناس خرجوا لرؤية جاكلين. كان كاسترو حائرًا، وكان ردُّ فعله شبيهًا بردِّ فعل مواطن من بارَّانكيا أو قرطاجنَّة أو ساماريا ولكن كاسترو قال ياعزيزى، كيف تنظرون لهذه المرأة ذات السَّاقين المعوجتين، اخرج الآن إلى هافانا وسوف تجد فى أى شارع عشرين، أقول عشرين، بل أربعين فتاةً أكثر جمالاً منها. وكان بيداليس وقورًا، لكن المزاح المعروف عن أهل بوجوتا ظهر فى حدقتيه وهو يرد على كاسترو : لا ياأيُّها القائد: إنَّنى أعتقد أنَّ جاكلين جميلة جدًا، هذا إلى جانب أنَّ زوجة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لا تُرى كلَّ يوم أحدٍ فى بوجوتا إلى جانب زوجها يمرَّان فى سيارة بشوارعها.

كانت هذه هى المقدمة الخفيفة قبل الانتقال إلى موضوعاتٍ أكثر جدِّية. وجه إليه كاسترو أسئلةً واستمع إليه باهتمامٍ، ثم أبعد السِّيجار عن فيه وأخبره بما كان يفكِّر فيه. إثارة الجماهير، العمل المشروع، كلُّ هذا له أهميته، لكن لا ينبغى أنَّ نعلِّق

عليه آمالاً كبيرةً ياأيُّها الفتى، لا ينبغى أنْ نعقد عليه الآمال فالكفاح المسلَّح فى كولومبيا كما فى جميع الأماكن سيكون حتمًا حيث توجد الإمبريالية وحكم الأقليات فى كولومبيا كى يشعروا بأنَّهم مهدَّدون ينبغى أنْ يعدَّ العدَّة لذلك. فالثَّورة لن تكون عشوائية، إنَّها لن تظهر بطريقة تلقائية. لقد سبق له أنْ رأى أثناء اضطرابات بوجوتا أنَّ الشَّعب فوضوىّ غير منظَّم، وأنَّ تمرده تمَّ القضاء عليه لافتقاره إلى التَّنظيم. لابد من إعداد الكوادر وتدريبهم وتشكيل تنظيم للكفاح فورًا، هذا ماقاله فيدل كاسترو لبيداليس، وكان الباقون، الباقون الحاضرون مع بيداليس هناك بمن فيهم بالدبييسو قد تبادلوا النَّظرات فيما بينهم وكلٌّ منهم لديه إحساس بأنَّ الموضوع كان جاداً اعتبارًا من الآن. عرض عليهم فيدل كاسترو رجالاً من كوبا لتدريبهم على حدّ قول بيداليس.

ويتذكَّر فيما بعد أنَّ تلك الفترة كانت مكثَّفة، فسرعان ما تحولَّت الثَّورة من مجرَّد مشروعٍ خيالىٍ فى المستقبل المظلم، من مجرَّد لعبة طلابٍ، أو كلمة كانت تُلقى على مسامع الجماهير الغفيرة عبر شرفةٍ أو مجرَّد شعارٍ مكتوب على علم أحمر تحولَّت إلى تنظيم عاجلٍ وصامتٍ يتطلَّب خطوات تمهيديةٍ وحذرٍ وحزمٍ كبيرٍ. لقد قبل المسئولية وهو يدرك أنَّ الجماهير الشَّعبية فى كولومبيا كلَّما دخل استياؤها مرحلة الغليان كان يتم قمعها دائمًا بوحشية لأنَّه لم يكن لديها طريقة منظمة للكفاح، لقد اقتصر كلُّ شىءٍ

دائمًا على مقاومة عشوائية ومحبطة لجماعات الفلاحين التى كانت تواجه بالقمع الحكومى. كان ينبغى العمل على صعيدين : أحدهما مشروعٌ للتَّحريض الاجتماعى بما فى ذلك الانتخابات كلَّما سمحت الظُّروف بذلك وثانيهما سرِّىٌ يهدف إلى تشكيل تنظيمٍ للكفاح المسلَّح إذا اقتضى الوضع ذلك. فى إطار هذا الافتراض الأخير فإنَّ العرض الكوبى كان ذا أهميةٍ كبيرةٍ استنادًا لتفكير بيداليس وبالدبييسو.

هكذا أخذ التَّنظيم الجديد مأخذ الجدّ. ولقد عارض فى ذلك بالدبييسو بحزمٍ الذى كان مصممًا على الاستفادة من الاتصالات التى أقامها بيداليس فى هافانا ولكن على أنْ يظل بيداليس وبعيدًا عمًّا كان يسمَّى جيش التحرير الوطنى ذلك الاقتراح لم يكن فقط خيانةً لصديق بل كان أيضًا صبيانيًا كما قال له، لأنه إذا كان كل واحد سيضع فى جيبه التَّنظيم الذى يشرف عليه ويستثنى منه من لا يحظون بإعجابه فإنهم لن يحققوا نجاحًا. قدَّم بالدبييسو تبريراتٍ مماثلةً إلى بيداليس عندما تعلَّل هذا بأسباب ليست واضحة عن انعدام الثِّقة حيث أراد الاعتراض على سفر بالدبييسو إلى كوبا بين الفتيان الأوائل الذين سيتدرَّبون هناك على حرب العصابات. لقد دافع إيرنستو عن بالدبييسو دفاعًا قويًّا لأنَّه كان يعرفه، أو كان يعتقد أنَّه يعرفه جيدًا ورغبته الأكيدة فى هذا النمط من الكفاح. سنحت له الفرصة لمراقبته

عندما كان بالدبييسو يرافقه فى مناطق متعددّة فى كولومبيا فى كينديو، فى السّاحل، وفى ضباب سلاسل الجبال سواء فى حافلات أو فى سيارات ملاكى وهو يختار الشّباب الذين سينضمون إلى الحركة الثورية الليبرالية(*) وكذلك الكوادر ذات الكفاءة من بين جموع غفيرة لإرسالهم إلى كوبا. لم يكن هناك شكّ فى أنّ بالدبييسو كانت لديه حاسة شم فوق العادة كى يعرف من يصلح ومن لا يصلح. كان يعرف جيدًا كيف يفرز الحبوب عن التّبن (كان يعرف جيدًا التّمييز بين الغثّ والثّمين). لم يكن يخطئ، لم يخطئ فى الواقع، عندما كان يميّز بين الصّالح والطّالح بمجرّد ظهور دعابة مقترنة ببريق سنته الذّهبية وفى سرعة البرق كان بالدبييسو يقترح عليه (أى على بيداليس) استبعاد أى شاب يتحلّى بصفات القيادة بسبّب انه يُحبّ الكلمات الرّنانة بشكل مفرط، لكونه خطيبًا مفوّهًا فى الشّرفات وفى إلقاء البيانات (ابن آخر من التّراث الليبرالى الكولومبى، عضو فى المستقبل بالمجلس المحلى أو نائب أو عضوّ فى مجلس النّواب) عندما كان يشير إليه بالدبيسو على العكس من ذلك، بالشّخص الغامض الكتوم، الجائع، الحوارّى، الرّومانتيكى، الحانق المستاء، الذى اعتاد على شظف العيش وحياة الرّيف القاسية، الذى كان على استعداد للتّضحية بكلّ شىء ويموت فى أىّ يوم دون انفعالات.

هكذا وبمساعدة بالدبييسو (من الذى كان سيصدّق ذلك، كان إيرنستو يفكّر فى هذا وهو يسمع

(*) MRL.

دائمًا صوت الرّياح فى ظلام تلك الليالى الشّتوية بالجزيرة) بدأ ينظّم تلك الرّحلة للثّائرين الجدد، للذين سيعدمون فى المستقبل أو سيستشهدون فى القتال. تمكّن من رؤيتهم، كان يتذكّر بعضهم. فيدريكو روساس، على سبيل المثال، مدرّس المدرسة ذلك فى ميناء بوياكا، كان ذا لحيةٍ سوداء وعينين فاتحتين خضراوين وهو الذى سيلقى حتفه بعد عامين فى أرض باسكيث، بعد أنْ حاصرته المروحية فى منطقة فضاء بالغابة حيث كان يوجد معسكره. وكذلك ريكاردو أوتيرو الذى كانوا يلقّبونه فيما بينهم "بالرّفيق الصّغير" الحنون الكتوم مثل راهبٍ، والذى كان يصرّ على الحياة فى شظف العيش كالفقراء، كان ينام فوق فراء جدى بسيطٍ فى غرفة المناوبة المستمرة قبل أنْ يفتح جبهةً فى سلسلة الجبال الوسطى حيث هوجم بغتةً وقتل من جانب الجيش فى مزرعةٍ فى الخامسة صباحًا. وكذلك ماريو سالجيرا مطرب الأغانى الشّعبية من بارّانكيا، كان شاحب الوجه، وله شاربٌ رفيع كرجلٍ رومانسىٍ من أزمنةٍ سابقةٍ، والذى كان حذره وفهمه السّريع والذّكى لكافة الأمورِ يلفتان نظر إيرنستو دائمًا. كان يعيش مع سيدة قليلة الهندام وأربعة فتيان كانوا أولادها وليسوا أبناءه، كان يؤلّف أغانى فى منزله ويستمع دائمًا إلى الموسيقى والأناشيد الوطنية الكوبية من إذاعة هافانا. كان بارد الاعصاب يعرف جيدًا السّيطرة على عواطفه لكن عند الحديث معه عن تلك الرّحلة إلى كوبا استعرت

عاطفته وظهرت على وجهه فى فناء منزله الخانق لاتقل لى ذلك يا أيُّها الرَّفيق، وكانت الفرحة الطَّاغية قد جعلت صوته يرتجف، كما أدى ذلك إلى ظهور بريق فى عينيه، هاتان العينان الفاترتان لمطرب شعبى سيراهما فيما بعد براقتين ولكنهما ثابتتان لا تتحركان فى صورة بالصحافة ولحيته قد غبَّرها التُّراب ولطَّخها الدَّم، عندما أبعده الجيش وأعدمه رميًا بالرَّصاص على مايبدو أسفل نخلة فى سينو.

لم يستطع أنْ يتذكَّر فابيو باسكيث كاستانيو الزَّعيم القادم والحزين لجيش التَّحرير الوطنى فى أوبون، لكنَّه تذكَّر شقيقه مانويل الذى كان قد رشحه وأوصى به لكى يكون مرشَّحًا جيدًا للتدريب فى كوبا. كان بيداليس يرى أنَّ ذلك الشَّاب فابيو باسكيث، وهو ابن شخص ليبرالى أُغتيل أثناء أحداث العنف، حيث أنَّه كان قد اعتاد على هذه الطَّريقة المستمرة والثَّانية والسَّهلة والمرعبة لأنَّ النَّاس كانت فى تلك الفترة تُغتال برصاص الشُّرطة، التى كانت متحمِّسةً بإفراط لقمع النَّاس، كانت الشُّرطة ترفع شعار كل شىء ينبغى أنْ يكون القضاء عليه بالرَّصاص. ومع ذلك فقد بسَّرواله السَّفر فيما يتعلَّق بمانويل فلقد تذكُّره الآن كان يكن لهم احترامًا كبيرًا. كان مانويل صامتًا، وذكيًا، وكان دائمًا آخر من يتحدَّث فى الاجتماعات، بعد أنْ يستمع إلى الجميع، ويدوِّن ملاحظاته فى مفكِّرة، وبمجرَّد أنْ يدلى برأيه كان لا ينبغى أن يُضاف شىءٌ آخر. كان زعيمًا بارزًا فى الجامعة الحرَّة. كان يتذكره دائمًا فى

الاجتماعات القديمة فى شقّته في حي لاسوليداد وكان يتميَّز بتلك الاستقامة التى يتّسمُ بها الطُّلاب الفقراء أحيانًا حيث كان يجمع فتات الخبز من فوق المائدة لكى يضعها فى فيه وهو يفكِّر، كان نحيفًا طويل القامة، وذا بنية هزيلة جدًا لدرجة أنَّه كان من المستحيل أنْ نتصورّه بزى محارب وبندقية على كتفه متحمّلاً حرَّ الغابة فضلاً عن افتقارها لكثير من سبل الرّفاهية والرّاحة حيث سيلقى حتفه فى القتال بعد عامين.

كان الكوبيون يعرفون أيضًا التَّمييز بين الغثّ والثمين. كانوا يراقبون كلَّ الذين يصلون إلى هناك. فالذى كان يبدو لهم ثرثارًا (كانوا يطلقون عليه فيما بينهم بمزاحٍ : نائب بالبرلمان) كانوا يردونه بودٍ بعد جولة سياحيةٍ فى الجزيرة وكتب دعاية واسطوانات لأغان ثوريةٍ كانت تُسلبُ منهم فى الجمارك عند العودة إلى كولومبيا. أمَّا الآخرون فقد كانوا يبقون عليهم ويدرّبونهم وفقًا لقدراتهم ومهاراتهم الخاصة. فسالجيرا على سبيل المثال ـ تعلَّم تقنيات متقدّمة فى الاتصالات بالشّفرة بالطبع من إعداد السُّوفيت وبالنِّسبة لإيرنستو لم يذهله أنْ يتمَّ تصنيف خوان بالديبيسو كقائد عظيم وأنَّه كانت له ميزة هائلة لأنَّه التقى بالمناضل تشى جيفارا شخصيًا. كان بوسعه أنْ يفهم تمامًا ذلك، فجيفارا كان يسير غاضبًا وكان ثرثارًا، يضع النَّظريات ويُميدُ الأفكار، كان شخصًا أمريكيًا لاتينيًا عاديًا يظهر فى هافانا خلال تلك

الأيام ومع ذلك كان حازمًا ومحددًا قادرًا على تحليل احتمالات متعددة للكفاح بعقل ورصانة، كان يفكر فى كل مشكلة من مشاكله، ولذلك فإن بالدبييسو استرعى اهتمام جيفارا على الفور.

لدرجة أن خوان بالدبييسو عاد إلى كولومبيا قائدًا لكل هذه المجموعة من الفتيان الذين تدربوا جيدًا وهم ينتظرون على أحر من الجمر مزاولة نشاطهم، ومازال بالدبييسو يبهرهم بأعمال جريئة مثل جلب أسلحة من المكسيك فى حقائب لها جيوب خفية -كان يطلعهم هكذا على تلك الأسلحة ـ أو عندما كان يُعِدُّ بعض العمليات من بنات أفكاره من السطو والسرقات التى كان يطلق عليها عمليات التمويل، وكان يسخر متهكمًا ببريق سنته الذهبية من الذين كان لديهم بعض المخاوف وكانوا قلقين من الدخول فى مضمار كان مقصورًا وحكرًا على محترفى الإجرام وكانوا عاجزين عن تقليده حتى الآن. لكن تلك العمليات كانت فيما يبدو مثمرة إلى حد ما لأنه كانت لديه أموال دائمًا فى جيبه ليس فقط لكى يموِّل الانتقالات والشراء الطارئ لمسدس أو أسلحة أخرى بل أيضًا لشراء ملابس لتحسين مظهره بما فى ذلك دبوس إنجليزى اشتراه من البضائع المهربة فى الغليون الذى كان يستخدمه. كان يُرى أكثر اطمئنانًا وثقة فى نفسه، كان شبه وقح ولم يخف تهكمه الآن عندما كان يستمع إلى التحليلات السياسية لبيداليس أو لتحليلات إيرنستو المتعلقة بالظروف الانتخابية أو

احتمال أنْ يصبح فوز ترشيح لوبيث ميتشيلسن الذى لم يكن دستوريًا فى ذلك الحين بمثابة فتيل للقيام بتمرد أو اعمال شغب. كان خوان بالدبييسو مثل جميع العائدين من كوبا يعتقد أنّ أوّل واجب يقوم به الرّجل الثّورى هو القيام بالثّورة استنادًا إلى عبارة تشى جيفارا وحينذاك أو ربّما فيما بعد، كانوا يفكّرون فى رخيس ديبراى انطلاقًا من بؤرة النّظر هذه من خبرته الكوبية استنادًا إلى البطولة الأسطورية للاثنى عشر شخصًا الباقين على قيد الحياة فى عملية جرامًا فى هضبة مايسترا. هكذا وبتلك الأسس النّظرية فإنّ كلّ مايسوّف أو يؤجّل أو يؤخّر أو يعوق كفاح حرب العصابات كان بالنّسبة لهم انتهازية ودعاية انتخابية أو ببساطة جبنًا.

كانوا إذن على أحرّ من الجمر مثل لاعبى كرة القدم الذين ينتظرون على دكة البدلاء لحظة نزولهم إلى الملعب. كانوا عاجزين فيما يبدو عن العودة إلى دراستهم عندما كانوا مايزالون طلابًا أو لكى يغرقوا فى تراب مكاتب موثّقى العقود والمحاكم إذا كانوا قد حصلوا بالفعل على شهادة الحقوق بعد أنْ شمّوا عن كثب رائحة البارود ورأوا إلى جوارهم أصحاب اللحى والزّى الأخضر الزّيتونى للثّوار المظفّرين الذين كانوا مثلهم قادةً جامعيين مغمورين ومحرضين على التّمرد أو كانوا ترزيةً أو أصحاب مهن فاشلين. كانوا قلقين مضطربين، يشعرون بالملل ويطالبون بمزاولة مهامهم، كانْ فابيو باسكيث يقول ذلك لبيداليس، كما كان

باسكيت أيضًا غاضبًا أو يعاني من الجزع. وبشاربه الكثيف كمغازل جميل في فيلمٍ مكسيكيٍ كان ينتهي به الأمر إلى أن يقول في نبرةٍ ازدرائية : أنا سأرحل الآن لمدة أربعة أو ثمانية أو عشرة أسابيع قبل أنْ ينتبهوا إلى وجوده في أوبرون على رأس مجموعةٍ من المقاتلين نظمها هو بمبادرة ذاتيةٍ منه وحذا حذوه آخرون.

كان يستطيع أنْ يتذكَّر خوان بالدبييسو في تلك الأيَّام وهو يذهب من مكانٍ إلى آخر قلقًا متخفيًا كتومًا ومتحمِّسًا ومن المحتمل جدًا أنْ تكون الأحداث قد أثقلت كاهله وهو مايزال يعتقد أنَّ ذلك كان -بالفعل- سابقًا لأوانه، لكن كان من الضَّروري الابقاء على الاتصالات، وبينما ساد الانطباع بأنَّه كان يواصل من تلقاء نفسه تلك العمليات المتعلقة بالتَّمويل، فهو الآن يستقل الطائرات بدلاً من الحافلات كما أنَّ ملابسه أصبحت فخمة حيث كان يرتدي معطفًا مذهلاً من فراء الجمل. لم يكن يشبه ذلك السائق للسيَّارة النَّقل كما في الأيَّام الأولى بل كان أشبه بتاجرٍ مزدهر من أبناء الطَّبقة المتوسطة (كان في ذلك الوقت يضع غليونًا بين أسنانه كما كان يتساقط شعره بشكلٍ سابق لأوانه)، ويستطيع أنْ يتذكَّره عندما جاء ليراه وطلب منه أنَّ يرافقه إلى بارَّانكيا لكي يقابل سالجيرا. كان لدى سالجيرا جميع شفرات نظام الاتصالات الذي تعلَّموه في كوبا. قال له : من الضروري تشغيله الآن لأنَّ هناك رفاقًا في الجبل. وعلى الرَّغم من أنَّهم كانوا خارج الحركة وقرارهم قد يكون متسرِّعًا فإنَّه

كان من المحتم مساعدتهم وحمايتهم فالاستفادة من تلك الشّفرات كان أمرًا حيويًا. وماكان يقوله بدا معقولاً ومنطقيًا؛ لذلك قبل مرافقته إلى حيث يوجد سالجير الذى أصبح مؤقّتًا مطربًا شعبيًا فى ناد ليلى. كان الحرّ شديدًا فى بارّانكيا فى تلك الليلة، وكانت تسمع أصوات الجداجد فى الظّلام، وهو يتذكّر الآن، كما كان الجو يبدو كئيبًا وخانقًا بالصالة حيث كانا يتحدّثان مع سالجيرا فى هذا الجو الخانق وبذلك المصباح ذى السّتين فولت الذى كان مضاءً فوق رءوسهم. رأى بالدبييسو من جديد وقميصه ذا النّسيج الجيد مبلّلا بالعرق، رآه هادئًا فى الظّاهر لكنه كان يعضّ غليونه ويمصّها ويطرد سحبًا خفيفة ومستمرة من الدّخان، وكان سالجيرا يقظًا حذرًا غير واثق يُمرّر إصبعه على شاربه متأمّلاً إلى أنْ استأذن الرّفيق معتذرًا، ونادى على إيرنستو على انفراد فى فناء بيته المكتظ بالجداجد وتفوح منه رائحة ثمار الجوافة النّاضجة لكى يسأله هل لديه ثقةٌ مطلقةٌ فى بالدبييسو وعمّا إذا كان متأكّدًا من ذلك مائة فى المائة. وقد ردّ عليه: إذا لم تكن هناك ثقة فيه، لايمكن أن تكون هناك ثقةٌ فى أحد : إنّه مؤسّس هذه الحركة" وسالجيرا: هل هو من جيش التّحرير الوطنى؟ نعم، يارجل، نعم. حينئذ قال سالجيرا يارفيقى إذنْ لا داعى لمزيد من الكلام، وبعد ذلك بقليل جاء ومعه دفترٌ فى يده. دفتر الشّفرات ذو الإعداد السوفيتى.

لن أنسى أبدًا تلك اللحظة فى الصّالة الصّغيرة سيئة الاضاءة. ولم يُر سالجيرا بعد ذلك إلاّ فى صورة

الصّحيفة التى أعلنت عن قتله فى سينو كانت عيناه مفتوحتين برّاقتين ثابتتين لا تتحرّكان، بعد أن لقى كثيرون آخرون حتفهم فى أماكن متفرّقة بالبلاد مثل الذّباب وأيضًا بعد أنْ شارك رودريجو بيداليس فى ذلك الاكتشاف المهول الذى كان يستند على براهين وأدلة لا يمكن دحضها؛ كان خوان بالدبييسو منذ بداية ذلك كلّه عميلاً ليس لجهاز المخابرات الكولومبية بل لجهاز استخبارات أكثر انتشارًا وأكبر حجمًا وأكثر ذكاءً وثراءً وجبروتًا كان عميلاً لوكالة الاستخبارات الأمريكية.

- ٥ -

هل حضرتك إيرنستو ميلو ؟

تحت أمركم.

قالت الفتاة: كنت أبحث عنك. لقد قرأت بعض مقالاتك. مقالك عن شيلى..

كانت تقول ذلك بنبرة تنم عن تهديد على مايبدو. كانت الفتاة ذات قوام نحيف، مظهرها تافه. كان بذقنها بعض الحبوب الدامية بصورة مقززة نظرتها تبدو غير واثقة وغير مطمئنة. جلست على عقبيها إلى جواره.

أضاف فجأة لم تحظ بإعجابى النظرات التى وجهها الآخرون إليها. قال إيرنستو بمزاح كما لم تحظ بإعجابى أيضًا. كان مقالاً مكتوبًا دون تريث. كان ينطوى على مزيد من العاطفة وقليل من التحليل أليس كذلك ؟

بعد فنجان القهوة ببعض قطرات الكونياك الذى كانت قد أحضرته له لويسا جلس إيرنستو صافى الذّهن ومتحمّسًا.

حرّكت الفتاة رموشها وفجأة فقدت اتزانها.

قالت الفتاة قلقة مضطربة إنّ هذا يعنى أنّ المقال يتضمّن جوانب إيجابية وأخرى سلبية. لكن الفضول الذى كان يحرّضها فيما يتعلّق بالمقالات الأخرى أدى إلى إيقاظ عدوانيتها من جديد مثل قطرات البنزين التى تُلقى فوق النّار. ومع ذلك كانت المقالات تداعب اليمين.

أليس كذلك ؟ لماذا ؟

بدلاً من التّنديد بالإمبريالية صراحةً كنت تستعين بموضوعات من صحافة الطّبقة المتوسّطة. مثل ندرة السّلع على سبيل المثال.

يبدو أنّنى أتحدّث عن الدّور الذى قامت به وكالة الاستخبارات الأمريكية.

قالت الفتاة: هذا لا يكفى. علاوة على ذلك تضفى مزيدًا من الأهمية على الطبقة الوسطى الدّنيا وهى طبقةٌ انتهازيةٌ. إنّها لا تواصل العمليات الثّورية حتى النّهاية. إنّها تتوقّف فى منتصف الطريق. فموقفها أقرب إلى كونه اشتراكيًا ديمقراطيًا، إصلاحيًا.

قال إيرنستو فجأةً: هذا أمرٌ مُسلٍ. لقد قضت نصف حياتها تستمع إلى موضوعات مشابهةٍ. كانت

المحاورات الجدلية تُسلِّيها مثل الخطوات الأولى التى يخطوها طفلٌ عند تعلمه المشى. ماهويتك أنت، هل انت شيوعية ؟

أنا أنتمى إلى جماعة الـ «أونو»(*) فى كولومبيا.

إنَّ هذا يشير إلى ماركة مرطبات.

انتاب وجه الفتاة تعبيرٌ غاضبٌ

أنا لا أستغرب أنك تجهل ماهى بالطَّبع، إنَّنى أعيش خارج كولومبيا منذ سنوات طويلة. هل أعضاؤها موالون للسوفيت أو للصينين؟ فأنا أخلط بينهما دائمًا.

لا أدرى ماذا تقصد بذلك. إنَّنا نؤمن بالدَّولية الكادحة.

هائل.

إنَّنا لا نداعب الرَّجعية ونقبل الاتحاد السوفيتى بموضوعية فهو وطن الاشتراكية. ولولاه لما كانت كوبا.

تمام. تناولى جرعة يارفيقتى. هل تريدين الرُّوم أم الكونياك ؟

قال فرناندو: أعتقد أنَّ مايناسبها هو قطعة من الماريجوانا فضحك الآخرون.

أتسخرون منِّى؟

قال إيرنستو: على الاطلاق، ينبغى أنْ تتناولى شيئًا ما اسمك ؟

(*) La Uno، بالفرنسية فى الأصل.

أورا كولميناريس.

خيَّم صمت غير مريح على المكان. لم تكن الفتاة تجلس بارتياحٍ لكنَّها خجولةٌ بإفراط لكى ترحل عن المكان. سرعان ماتوجَّهت نظرتها إلى جاكلين. كانت معجبة ببطانة الفستان الذى ترتديه فلمسته بيدها. وسألتها من أين حصلت عليه ؟

قالت لها جاكلين لقد سرقته.

قالت أورا أسألك جادةً.

وانا أجيبك جادةً. عندما يحظى شيءٌ بإعجابى ولا أملك ما أشتريه به، أسرقه.

ضحك فرناندو ومارجى من جديد وبدت أورا كولميناريس غاضبةً. قال إيرنستو: إنَّها عقدةٌ من مركبات النَّقص. كانت مؤخرة رأسها تُطلُّ من بين خصلات شعرٍ دهنىٍ وغير كثيف. كانت البطَّة الدَّميمة، الدَّميمة والغاضبة. فكَّر إيرنستو فى نفسه كان ينبغى عليهما انْ تترهبنا. أمَّا الآن فقد التحقتا بالحزب الشَّيوعى بنفس الرَّغبة والشَّعور اللذين التحقت به عماتهما وخالاتهما بالدَّير. كانت المروج الخضراء بالجامعات مكتظةً بأناسٍ مثلها قادمين من الضَّواحى والمحافظات. فالجوع والتفاوتات الاجتماعية وازدراء وصفاقة الطبقة العليا كلُّ هذا جعل منهم سفهاء بلا توجيه.ونادرًا ما كانت روحهم الثَّورية تتجاوز إشعال النيران فى سيَّارات الطَّبقة العليا. وإذا كُتب للثَّورة النَّجاح ذات مرَّةٍ فإنهم سيتولون أمر أقسام

الشُّرطة بلا رحمة أو هوادة. وبسببهم أيضًا كانت الثَّورة تؤجَّل ويتأخر قيامها إلى أجل غير مسمًّى.

سألها إيرنستو مصالحًا: ماذا تفعلين فى باريس ؟ إنَّنى أُعدُّ رسالة تربوية فى علم النَّفس الاجتماعى قالت أورا. إنَّنى مهتمةٌ بتطبيقه على الوسط الرِّيفى فى كولومبيا. فالفلاَّحون مايزال معظمهم ليبراليين محافظين وهذا يتعارض مع جميع مصالحهم كطبقة اجتماعية. ينبغى أنّ نعرف لماذا لدى ابن عم فى راميريكى بوسعه أنْ يخبرك بذلك إنَّه مستبد القرية.

غضبت أورا كولميناريس

قالت بفظاظة إنَّكم لستم جادِّين.

قال إيرنستو: لحسن طالعنا.

قالت أورا واخسارتاه . اعتقدت أنَّنى أستطيع التَّحدث معك. فعلى الرغم من مواقفك البرجوازية الدَّنيا يوجد شيءٌ إيجابىٌّ فى مقالاتك.

شكرًا أيتُّها الفتاة. تجرَّعى قليلاً من الرُّوم.

لكن أورا كولوميناريس بدت لا تلين مثل وكيل نيابة يُعدِّد الاتهامات.

إنَّ حضراتكم ـ فى الواقع ـ ابتعدتم عن أصولكم. وقد اندمجتم فى الحياة الرَّغدة فى باريس.

أنت لا تتصوَّرين كم كانت رغدةً.

لحسن الحظ يوجد كتَّابٌ ومفكرون على الرَّغم

من أنَّهم يعيشون بعيداً عن وطنهم ومع ذلك فهم على وعيٍ لما يحدث فيه ويتفاعلون معه.

حملق فيها إيرنستو باهتمامٍ مرحٍ.

منْ على سبيل المثال ؟

قالت أورا خوليو كورتاثار، جارثيا ماركيز فمواقفهما إيجابيةٌ للغاية.

قبل ذلك كانا ينددّان بوطنيهما ويحطّان من قدرهما. ما الذى حدث الآن ؟

ألم تقرأ ماكتباه عن كوبا ؟

قال إيرنستو لقد اطلعت على شيءٍ من ذلك.

وما رأيك ؟

حسنًا، إنْ كورتاثار لا يزال فى ريعان المراهقة. لقد نضج كثيرًا ولكنَّه مازال ساذجًا فى السِّياسة. وهل جارثيا ماركيز مراهقٌ أيضًا.

لا، إنَّ جابو كان دائمًا رجلاً يساريا. طوال حياته يساريٌ.

هل تعرفه ؟

بالطبع سافرنا معًا إلى موسكو فى فترة المهرجانات العالمية للشّباب. تأمَّلنا الزَّمن، كنَّا موقَّرين شاهدنا جثمان ستالين قبل أنْ يلقوا به فى القمامة وأعتقد أنَّنا ساورتنا بعض الشُّكوك فى آنٍ.

شكوك عن الاشتراكية ؟

عمَّا يسمُّونه هناك بالاشتراكية.

قالت كولميناريس يبدو لى هذا غريبًا جدًا.

ألم تقرأ ماكتبه عن كوبا ؟

يحظى بإعجابى كثيرًا ما يكتبه. إنَّه أحد الكُتَّاب الكبار. من العظماء، من العظماء.

إنَّــنى لا أتحــدَّث عن ذلك، بل عن مــواقــفه السِّياسية هل قرأت ما كتبه عن كوبا ؟

نعم، بالطبع، إنَّه لا يتفق مع التَّقارير التى لدىَّ من طرف آخر.

تقارير الموتى الذين التهمهم الدُّود.

الموتى الذين التهمهم الدُّود ومايزالون يؤمنون بالاشتراكية إنَّهم مساكين سفهاء. إنَّهم يشبهون الفراشات إلى حدٍ كبير.

إنَّك لا تتحدَّث بجدِّية قط.

إنَّنى تقريبًا أتحدَّث بجدِّيةٍ دائمًا. هل تعرفين من كانت -فى الواقع- ريميديوس الحسناء ؟

ما علاقة ذلك بما نتحدَّث بشأنه ؟

له علاقة كبيرة. كانت ريميدوس الحسناء على مايبدو خادمة من جيخارا عكَّرت على جابرييل صفو طفولته. إنَّها لم تصعد إلى السَّماء ولكنَّها هربت مع سائق سيَّارة النقل ابن بايِّدوبار.

وما صلة ذلك بكوبا ؟

إنَّ كوبا تعانى لدى جابرييل جارثيا ماركيز من عملية تغيير الشَّكل الأدبى عند الكاتب. إن كوبا ماهى إلاَّ نسخة أخرى من ريميديوس الحسناء.

ابتسمت أورا كولميناريس ابتسامة حزينةً.آهه، أبالفعل؟ لا توجد مدارس ولا رعاية طبية فى كوبا. ألم يتم القضاء على الأمية هناك ؟ ألا تعرفون أنَّ آلاف الأطفال يموتون من الجوع فى كولومبيا؟ ألا تعرف أنَّ المرضى يموتون على أبواب المستشفيات لأنَّه لا توجد مخصَّصات مالية للرِّعاية الصِّحية. هل تعرف كلَّ هذا؟

بالتأكيد يا امرأة . كلّ هذا معروف جيداً كما الإنجيل. لكن ... لا أرى لماذا حزب واحدٌ، لماذا البيروقراطية، لماذا السجناء السِّياسيون. هل سمعت عن هوبر ماتوس ؟ فى نهاية الأمر لنتحدَّث عن شيء آخر. يالروعة هذه الأغنية. إنَّه جونى باتشيكو بكلّ آلاته الموسيقية.

نظرت إليه أورا كولميناريس بحقدٍ.

الآن أعرف من أنت.

من ؟

إنَّك رجعيٌّ ولا حتى اشتراكى ديموقراطى، بل رجعيٌّ - قالت أورا كولميناريس وهى تنهضُ واقفة. لقد نبَّهونى إلى ذلك.

انصرفت الفتاة وقد وجَّهت إليهم جميعًا نظرة ازدراءٍ واحتقارٍ.

قالت مارجى يالها من سطحية ساذجة.

قال إيرنستو : إنهم كثيرون.

وهكذا استيقظ إيرنستو فى غرفة النوم الباردة والمظلمة، وقد ظلّ لساعات فى أرق وهو يتذكر تلك الأوقات، بينما كانت ماريا تتنهّد أحيانًا وتئن إلى جواره فى نومها أحيانًا أخرى، كما كانت رياح البحر تهزّ أشجار الزّيتون فى التّلال وتُسبّب صريرًا لأبواب ونوافذ المنزل. كان يعرف أنّ فى جزء ما من حياته انقطع خيط الوصل الذى كان يربطه ببلده وبأهله وذويه : كان يريد أنْ يعرف وأين ولماذا. ومن ثمّ كان يعود مرّةً أخرى بالذّاكرة إلى الفترة التى اكتشفوا فيه تلك الخيانة التى لا يمكن تصديقها، تلك الخيانة التى أودت بحياة الكثيرين وجعلت بيداليس سياسيًا متشكّكًا وواقعيًا وتقليديًا، وجعلت آخرين من رفاقه محترفين عمليين وجعلته كفريق بلا بوصلة. لأنّه باستثناء الفترة القصيرة والبرّاقة التى فيها كاميلو توريّس متناسيًا مبادئه غير المجدية ونشاطه فى الأحياء الفقيرة، فقد ظهر فى ضوء الميادين العامة، يحرّك ويحفز ويعبئُ الجماهير بحقائق أساسية وحماسية لكى يصل به الأمر توًا إلى الافتتان بسراب المحارب ليلقى حتفه فى أوّل معركة، فقد كان الاكتشاف الذى توصّل إليه بيداليس قد أثّر فى معنويات الجميع وتولّد لديهم انطباعٌ بأن بوسعهم الهروب من ذلك العالم الذين أحسّوا منذ أنْ كانوا أطفالاً بأنّه عالم قمعى وجائرٌ أو باستطاعتهم أن

يتعايشوا معه ويتعاملوا معه بنفس أوراقه وأساليبه إذا كانت لديهم الشجاعة للقيام بذلك، لكن أن يغيّروه بأعمال تطوعية مستحيلٌ لأنَّ مثل هذه الأعمال يتمُّ القضاء عليها فضلاً عن كونها لا جدوى منها.

كان ينبغى على بيداليس أنْ يضع ذلك موضع الجدّية عندما بدأ يتلقّى تلك التّهديدات مجهولة المصدر عبر الهاتف، تهديدات بالقتل، تهديدات يومية مقترنة بنعوتٍ نابية موجّهة إليه عبر الجهة الأخرى من الخطّ بصوت رجلٍ أحيانًا وبصوت امرأةٍ أحيانًا أخرى. لقد اتخذ ذلك مأخذ الهزل أو محاولات بسيطةٍ للتّخويف والتّرويع (قائلا: إذا كانوا يريدون قتلى حقيقةً لما نبهونى أو حذرونى) حتى ذلك اليوم جارابيتو مونيوث كان محاميًا يساريًا صديقًا له، كان معه مدافعًا فى فترات أخرى عن المسجونين السّياسيين بعد شهرٍ من التهديدات المستمرة عبر الهاتف تلقّى ثلاث رصاصاتٍ فى قلب بوجوتا لم تقتله بمعجزةٍ. لدرجة أنَّ بيداليس اشترى مسدسًا وبدأ يأخذ حذره . أنا أعرف من أين تأتى هذه المكالمات، قال ذلك ذات مرّة بشكلٍ غامضٍ دون أىّ ايضاحٍ. كانت لديه فكرةٌ عن الأمر، تلك الفكرة التى اكتشفها إيرنستو فى ذلك اليوم الذى كان يسير فيه مع بيداليس وأصدقاءٍ آخرين فى الشّارع السّادس عندما التقوا مع خوان بالديبسو واستوقفه بيداليس بحزمٍ صارم وهزّ له أصبعًا أمام وجهه وقال له جادًا للغايةً : "اسمع إذا حدث لى شيءٌ ستكون أنت العقل المدبّر له

: فكلُّ أصدقائى يعرفون ذلك الآن" تغيَّر لون وجه بالدبييسو. بمعنى أنَّه احمر وجهه ثم أصبح شاحبًا فيما بعد. هزَّ رموشه قلقًا مضطربًا، وفقد رصانته فجأةً. وفى النهاية استطاع أن يبتسم، أو بمعنى أصح استطاع فتح شفتيه ببطءٍ وازدراء ببريق وقح الآن من سنته الذَّهبية. قال له أنت مجنونٌ. لكنَّ بيداليس واصل طريقه بين ذهول الجميع وذهوله خاصةً (أعنى ذهول إيرنستو) .

بالفعل، هذا أمرٌ أكيدٌ أخبره بيداليس بذلك، تحدث إليه بتلك الكلمات الحذرة المتحفِّظة لمحامٍ من بوجوتا، إنَّه أمرٌ أكيدٌ يستند إلى أساسٍ جيدٍ، قال له ذلك على انفرادٍ عندما تقابلا فى مطعم فى مبنى مونسيرات وهما يجلسان على الطَّاولة حيث اعتادا تناول طعام الغداء. ترك الحسَاء تبرد قليلاً على الطاولة وبدأ يتحدَّث له أىَّ لإيرنستو عن عيون بالدبييسو. فهما لا ينظران إلى الأمام هل أدرك ذلك؟. لم يقل له أبدًا عن علمٍ إنَّه كان يبدأ بأكثر الأمور تفاهةً واحتماليةً مثل وكيل النِّيابة الذى يرتب بطريقة تدريجية أدلَّته أمام هيئة المحلَّفين تاركًا الأمور الأكثر أهمية للنِّهاية. كان بيداليس يقول: يجب أنْ نرتاب فى النَّاس الذين ليسوا قادرين على تثبيت نظرتهم. ففى فترة العنف عندما كان يدافع عن المساجين السِّياسيين، كان يعانى كثيرًا من ذلك من جانب ضفادع كانت أجهزة الاستخبارات تُرسلهم، كانوا أغبياء أحيانًا، وأحيانًا أخرى أذكياء يقظين، لكن

كان هناك شيءٌ دائمًا فى عيونهم، شيءٌ عابر ودون اقتناعٍ وبعيدٌ عمَّا كانوا يتحدَّثون بشأنه ممَّا كان يبعث على الارتياب.

فجأةً تحدَّث له عن ساعة خوان بالدبييسو، هل رآها ؟ حسنًا، بالفعل أجابه إيرنستو، إنها ساعةٌ كمن يريد أنْ يقول : أىُّ شخصٍ له الحق فى أن يكون فى معصمه ساعة فسفورية دون أنْ يؤدى هذا إلى وجود أى شك. لكنَّ بيداليس كانت لديه فكرةً أخرى. فساعة بالدبييسو من الذَّهب، ساعة روليكس من الذَّهب. أنا لم أكن أستطيع وضع ساعة من تلك السَّاعات فى معصمى اللهم إلاَّ فى اليوم الذى أربح فيه جائزة اليانصيب الكبرى، قال له ذلك أى لأيرنستو وقد حملق فيه بعينيه الزَّرقاوين الجاحظتين لكى يؤكد كلَّ الشُّكوك بشأن هذه الملاحظة، ساعة كانت قيمتها ثلاثة آلاف دولار على الأقل فى بنما أو كوراثاو. ثلاثة آلاف ؟ نعم، يارجل، ثلاثة آلاف. كما أنَّ ذلك المعطف من فراء الجمل الذى كان يرتديه بالدبييسو والحلية الإنجليزية التى كان يزِّين بها غليونه تنم عن رفاهية كبيرةٍ. وقد سلَّم بأنه من الغريب جدًا أنْ يُرى ثائر، نجل خبَّازٍ بأذواق راقيةٍ وأشياء وملابس فخمة لثرىٍ أو أمير. والآن وبدون يقينٍ راسخ بل كان من أجل تخفيف حدة القلق الذى خيَّم بظلاله على الغداء، كان إيرنستو يحاول تفسير هذا الترف المفاجئ لبالدبييسو المسلَّم به، ببعض الأسباب : مثل نشاطه المهنى (ألم يتحدَّث لك عن مكتب للمهندسين قام بتأسيسه، إلى

جانب نشاطه السِّياسى؟) أو عمليات السَّطو أو كيف ينبغى أنْ نفسِّر عمليات التَّمويل تلك التى كان يُسمِّيها هكذا. كان بيداليس يضحك وهو يحتسى الحسَاء. أحقيقة كان يصدِّقُ ذلك ؟ هل حقيقة كان يتخيَّل أنَّ خوان بالدبييسو يسطو على البنوك ؟ هل كان يضع منديلاً على وجهه ويمسك مسدسًا فى يده ؟ استمرَّ بيداليس ضاحكًا. ويتذكَّر إيرنستو كيف أنَّ تلك الضَحكة أثارت حفيظته. قال له : الموضوع جدُّ خطير، دعك من النِّكات. احمرَّ وجه بيداليس فجأةً بعد أنْ تخلَّى عن الضَّحك. نعم، إنَّنى أعرف أنَّ الأمر جدُّ خطير. أريد أنْ ترى هذا الموضوع عن كثب. هل لديك شىءٌ تقوم به الآن ؟

اصطحبه بيداليس فى ذلك المساء نفسه فى سيَّارته المستعملة إلى مخبزٍ فى حى ريكاورتى حيث كان خلف منصَّة البيع رجل يشبه بالدبييسو تمامًا، لكنَّه اكبر سنًا منه بكثيرٍ، وكان مرهقًا ويرتدى مريلةً يلطِّخها الدَّقيق تمامًا حيث اشتريا رغيف خبزٍ. سأله بيداليس عن نجله خوان بالدبييسو. نظر إليه الخبَّاز لحظةً مكفهرًا. قال الرَّجل بصوت هامس : لن تجداه هنا : لقد نسى خوان الأسرة برُمَّتها تمامًا. وسرعان ما فتح شفتيه بابتسامة تشبه ابتسامة نجله بالدبييسو مع فارقٍ واحدٍ وهو أنَّ الأب لم يكن لديه سنَّةٌ ذهبيةٌ مثل ابنه بل كان لديه فقط نابٌ وحيدٌ فى فيه : إنَّه الآن يؤيِّد حكومة الأقلية. وفيما بعد قال لهما انتظرا، ذهب إلى حجرة خلفية بالمخبز رغمًا عنه وعاد ببطاقةٍ

قذرة دوّن عليها اسم شركة مهندسين معماريين ومهندسين مدنيين وقال العجوز يبدو أنّ ذلك هو مكتبه، ستجدانه هناك اذا لم يكن قد اختاروه وزيرًا للأشغال العامة، ومرّةً أخرى نجد التّهكم الذى كان يبدو سمة للأسرة، وكان مقترنًا بابتسامته ذات النّاب الواحد فى خبث.

هل هو شريكى؟ هل هو شريك فى هذه الشّركة؟ كان المهندس المعمارى أو المهندس المدنى الذى استقبلهما فى ذلك العنوان المدوّن فى البطاقة شابًا مرحًا، كان ذا شعرٍ كثيف مجعّدٍ، كان ـ بلا شك ـ من منطقة السّاحل، صاغ هذين الاستفسارين وقد ارتجف جسده من شدّة الضّحك. وقال لهما: اتركا المزاح جانبًا لقد اشتغل بالديبيسو فى ذلك المكتب ذات مرّة. لم يكن يعمل بشكل ثابت، أوضح المهندس لهما: بعض الأعمال البسيطة من تلك التى تُعطى لطلأّب الهندسة المعمارية عندما يكون هناك عملٌ كثيرٌ، لكن ذلك العميل كانت يده طويلة (كان لصّا) لأنّه عندما كان يأتى ليعمل أو كان يمضى الليل لإنهاء مشروع أو رسومات هندسية كانوا يقدمون له بعض الأشياء: أقلام، مسطرة حسابية وأيضًا راديو ترانزستور. هل كان مدينًا لهم ؟ هل كان يزوّر شيكًا ؟ لم يكن الشّاب المهندس يستغرب ذلك، فقد كانت لدى خوان بالديبيسو حيلة. لكن طالما أنّ البلاد على هذا سيكون بمرور الوقت مقاولاً ناجحًا جدًا.

عند الخروج من ذلك المكتب تحوَّل قلق الغداء إلى ذُعرٍ. ومع ذلك تشبَّث إيرنستو بإيضاحات ومبُررات ضعيفة. ربَّما كانت أكيدةً عمليات التَّمويل تلك. كان بالدبييسو يحتفظ بجزءٍ من المال لنفسه. اصطحبه إلى الشَّوارع المكتظَّة فى وسط المدينة، كان بيداليس يسمع ذلك بتعبير غير قابل للتَّصديق، بتعبيرٍ ساخرٍ شبه مرحٍ، مثل وكيل نيابة متأكِّدٌ من اتهاماته يستمع إلى تبريراتٍ واهية من الدِّفاع. كان يقول انتظر أن يعير اهتمامًا لتبريراته، انتظر فمازال هناك الأفضل، كان يقول ذلك وهو يدخل شارعًا جزئيًا فى شارع سانتا فيه مجاورًا للجبانَّة حيث توقَّف به.

تأخَّر لبعض اللحظَّات لكى يتعرَّف على الفتاة: على نيللى راموس، خطيبة بالدبييسو. كان بوسعه أن يتذكر بيداليس وهو يتصل بها هاتفيًا من محلٍ قريب من اللوكاندة التى كانت تعيش فيها، قالت لبيداليس وهى تخرج من جيبها لفَّةً من الجلد الأحمر: الآن ستراها، انتظر، انتظر، جاءت الفتاة أخيرًا وهى ترتدى معطفًا ريفيًا ملوَّنًا، وقد استحوذ عليها الخوف وجلست فى صمت على طاولة صغيرةٍ فى الرُّكن. إذن لم يكن هناك شكٌ أنَّ تلك الفتاة من سينثيليخو هى خلاسيه (أى أنَّ أحد والديها أوروبى والآخر أمريكى لاتينى)، ذات شعر أحمر، هى جذَّابةٌ عندما تضحك، كان ينتابها الخوف ويظهر ذلك فى عينيها بالطَّريقة التى تنظر فيها عبر الزُّجاج الذى كانا يقفان خلفه وقد أزعجها الذُّباب، حيث كانا يتناولان بقسماط من

القشدة وسندويتشات جوافة، ثم انصرفا صوب الشَّارع الحزين والمطير الذى كان يُطلُّ على جدار الجبَّانة. كانت الفتاة تقول لو عرف أنَّنى كنت معكما سيقتلنى. كان بيداليس هادئًا، هادئًا بشكلٍ مذهلٍ وقال للفتاة احكى ذلك كله لإيرنستو كما قصصتيه علىَّ من قبل. لقد قدّما لها أيضًا كوكاكولا. وبينما كانت نيللى تتحدَّث بصوتٍ هامسٍ وتتوقَّف فقط لكى تدخِّن أو لتتناول جرعةً من الكوكاكولا، كان يستنتج من هذه الحكاية أنَّ صورة بالدبييسو لا يشوبها أدنى شك، أمَّا الفتاة فهى التى تعاشره وبالتالى تستطيع أنْ تراه على حقيقته، لم يكن خجولاً ولا داهية بل كان وقحًا وعنيفًا. كان الجميع يخشاه للأسباب ذاتها التى كانوا يخافون بها من الكابونى. فبالدبييسو لم يكن يخيف الفتاة فقط بل كان يُروِّع أصدقاءه، هؤلاء الأصدقاء على حد قول نيللى، كان يواعدهم بالدبييسو فى ساعات غريبة وأماكن وفقًا لهواه مثل مخزن مصوِّر متخصِّص فى الصُّور الملوَّنة صور الزِّفاف أو القربان المقدَّس الأوَّل. أصدقاء يشبهون تُجَّار الزُّمرُّد على حد قول الفتاة لكى يكتشف بطريقة ما هؤلاء الأفراد العاديين الذين يزِّينون أربطة عنقهم بمشابك ثمينة وأصابعهم بخواتم أنيقة، على هؤلاء الذين يبدو أنَّ الثَّروة حطَّت عليهم فجأةً.

كان رجال بهذه السِّمات قد سلَّموا خوان بالدبييسو أسلحة. وكان يقوم بإخفائها فى غرفتها تحت ألواح مُلَّة السَّرير، لم تكن مثل هذه الأشياء

تُخيف الفتاة، وإن كانت تتساءل ما صلة هؤلاء الأفراد بكوبا، ماعلاقتهم بالشّيوعية وبلحية كارل ماركس، بدأت تشعر بالخوف بعد المكالمات الأولى مجهولة المصدر الموّجهة لبيداليس من تليفون عمومى كان خوان بالديبيسو هو الذى يجرى هذه المكالمات بإخفاء صوته بمنديل يضعه على بوق الهاتف. شاركت نيللى شخصيًا فى بعض هذه المكالمات معتقدة كما أخبرتها بأنّ الأمر ماهو إلا دعابة أو مزحة أو على أسوأ الأحوال للايحاء إلى بيداليس بفكرة خُطورة الحياة فى المدينة ومن الأولى بدء الكفاح المسلح فى الرِّيف بأسرع وقتٍ ممكنٍ. لكن الطَّلقات التى أطلقت على جارابيتو مُونيوث، المحامى اليسارى الآخر فتَّحت عينيه تمامًا. لم تكن المكالمات مزاحًا بل كانت بمثابة إعلان عن أخطار حقيقية. قالت الفتاة فى تلك اللحظة بالضبط بدأ الخوف ينتاب نيللى. لم يجد لها لكى تهدّئ من روعها أنّ ذكرت لبالديبيسو ذات مرّة شكوكها، وتحدّث معه عن الخلق الثّورى كما حدّثته بأنَّها ستقدم تقارير إلى باقى رفاقه. وبمجرّد أنْ انتهت من كلامها طرحها بالديبيسو أرضًا بصفعة وحشية. وبعد أنْ نهضت وعيناها ماتزالان مغرورقتين بالدّموع صوّب إليها صفعةً أخرى جعلتها تهوى فوق السَّرير السَّفرى ثم أتبعها بأخرى حتى عجزت عن الحركة وكان وجهها مستعرًا مثل المدفأة وقلبها يخفق من الذُعر، لقد سمعته يقول وهو ينظر اليها عند باب الغرفة بوجه بارد وشاحب كان يبدو أنَّه ليس وجهه وبشكلٍ صارمٍ: إذا تفوهت بكلمة من ذلك سنحرقك.

لكن نيللى كانت تلميذةً لبيداليس فى الجامعة الحرَّة ومن الممكن أنْ تكون قد شغفت به حبًا. كانت تعتبره علاوة على ذلك رجلاً يساريًا ذا ميول ونزعات انتخابية، لكنَّه نزيهٌ وشريفٌ. هكذا عرَّضت نفسها لجميع المخاطر واستطاعت تنبيهه لكى يأخذ حذره فحكت له كلَّ شىء وإنْ كانت لم تجرؤ على هجر خوان بالديبيسو بسبَّب الخوف كانت إذن محاطةً ليس فقط بجامعيين مرموقين ومازحين بل أيضًا برجالٍ بوسعهم أن يقتلوا برباطة جأشٍ دون أن يصيبهم الأرق أو أنْ يفقدوا شهيتهم - والآن، بعد عشر سنوات، بصوت الرِّياح الحزين يدوِّى فى ليالى الجزيرة فى الشِّتاء، عندما سُجنت نيللى، عندما عادت إلى محافظتها، وربَّما تكون متزوِّجة من مربٍ للماشية فى سينو، ظلَّ إيرنستو يرى نيللى فى ذلك المكان وهو يرتعد من الخوف، دون أنْ يدرى أنَّها اعتقلت بعد ذلك بأيَّام. مثل كلِّ الآخرين.

الآخرون. كان قد فكَّر فيهم عندما جلس من جديد إلى جوار بيداليس فى سيارته بقلقٍ متزايدٍ وحزين. كان ينبغى عليه أنْ يتحدَّث معهم فى أسرع وقتٍ ممكنٍ. وبما أنَّه كان يقود بسرعة فقد تمكَّن من أن يجمعهم بمنزله فى اليوم التَّالى: مانويل باسكيث وباستيداس وريستريبو والباتوسو وربَّما نينيو. رآهم من جديد جالسين حول طاولة السُّفرة يتبادلون المزحات فيما بينهم مثل طلاب عندما يتركهم المدرِّس وحدهم فى قاعة الدَّرس. لم تبد له رئاسة أركان

جيش التّحرير الوطنى وهمية بهذا الشّكل أبدًا. قبل أن يخبرهم بشىء، وجّه إليهم بعض الأسئلة من الذى حصل على المطبعة حيث تُطبع خُطب جيش التّحرير الوطنى؟ من الذى يشترى الأسلحة ؟ من الذى كان يتولّى مهمة الاتصالات مع الرّفاق الذين كانوا يتبادلون النّظرات قلقين، يتردّدون فى الاجابة. ألم يتفقوا على أنّ كلّ واحد منهم سيحافظ على اتصالاته فى سرية صارمة؟ لقد كان ردّ فعله غاضبًا. دعكم من الغباوات حبًا فى الله! فالموضوع خطيرٌ. خطيرٌ للغاية، كرّر ذلك فى نبرة غاضبة لدرجة أنّ الضّحكات الصّامتة انتهت تمامًا، وأصبح الجميع جادين ومنتبهين كأطفال هُدّدوا بالعصا. رأى أنّ الشّكّ يطلّ من وجوههم لدرجة أنّ جميع تلك الأسئلة لم يكن لها سوى إجابة واحدة، هى اسم بالدبييسو كان كلّ التّنظيم منوطًا ببالدبييسو. لم يقم أحد قط بعملية تمويل، كما لم يكونوا على علم بكيفية تنفيذها، وأيّن ومع من كان بالدبييسو يقوم بتنفيذ عملياته كانوا يرون فقط الأموال التى كان يحصل عليها من جرّاء هذه العمليات، والأسلحة التى كان يشتريها من تلقاء نفسه. والاتصالات ؟ باستثناء مجموعة أوبون، كان خوان بالدبييسو الوحيد المهيمن عليها. وبالقدر الذى كانوا قد بدأوا فيه كشف هذه السّلسلة من الايضاحات والمواجهات كانت قد بدأت عملية إراقة الدّماء. فقد لقى ريكاردو أوتيرو "الرفيق الصّغير" حتفه على يد الجيش فى مزرعة بعيدًا عن مخابئ سلسلة الجبال حيث كان بالدبييسو قد حدّد له

موعدًا. وفيدريكو روساس مدرّس ميناء بوياكا الذى فوجئ بشكل صاعقٍ بالعقيد ماتيانا ورجاله قبيل أن تسنح له فسحةٌ من الوقت لكى يبدأ تنفيذ العمليات، كان من المحتمل أنَّه يعمل بالتنسيق مع بالدبييسو أو هكذا كان يبدو لهم .

كان ينبغى التَّحرى عن ذلك، كان يجب إجراء تحرِّيات سريعة ووقف الاتصالات والتزام الحذر. وسرعان ماتطوَّع إيرنستو لكى يذهب إلى منطقة ميناء بوياكا بحثًا عن التقارير. ذهب إلى هناك، وفى ميناء بوياكا حيث انتهى كلُّ شىءٍ بالنِّسبة له ؟ هناك فى ذلك الطَّريق الذى نسى اسمه بالقرب من النَّهر الأسود ؟ عاد ليرى من جديد الضَّيعة أو السَّقينة عبارة عن أربعة نبابيت تحمل فوقها لوحًا من الزِّنك وفى وسطها طاولةٌ وكرسىٌّ ـ حيث التقى إيرنستو وبيداليس مع بلانكو، صديق فيدريكو روساس. تذكَّر منتصف ذلك اليوم الحزين شديد الحرارة حيث لايوجد شىءٌ حول السَّقيفة سوى جذوع الأشجار المقطوعة والأرض المتوحِّشة الصفراء المتفحِّمة وطيور الزُّمَّاح الملكى تُحلِّق على ارتفاعٍ منخفضٍ فى سماء تعكس الضوء والحرَّ. كان بلانكو يعرف: نعم، كان الرَّفيق بالدبييسو قد جلب بعض الأسلحة، نعم، كيف لا، كان يعرف جيدًا المكان الذى أقام فيه فيدريكو روساس المعسكر، المكان نفسه الذى وصل إليه فجأةً ذات صباح جنود العقيد ماتيانا الملعونون، حيث لقى فيدريكو وسبعة رفاقٍ آخرين مصرعهم. كان يتصبَّبُ

عرقًا من جميع مسام وجهه وبدأ العرق يُبلِّل قميصه ومع ذلك لم يفقد رصانته حتى ولو كانت درجة الحرارة أربعين درجة فى الظلِّ شأنه فى ذلك شأن محامىٍ بوجوتا. تحدَّث إليه بيداليس لأوَّل مرَّةٍ عن وكالة الاستخبارات الأمريكية ـ بينما كان الهواء السَّاخن خارج السَّقيفة يهبُّ فوق الأرض المفحَّمة ليبعث لهم برائحة النَّهر أو بعبق الغابة القريبة. إنَّ هذا الموضوع ليس من تدبير أجهزة المخابرات الكولومبية ولا جهاز الـ DAS ولا جهاز الـ F2 ولا أىِّ جهاز آخر من أجهزة المخابرات الكولومبية. إنَّها عملية من تدبير استراتيجىٍّ لوكالة الاستخبارات الأمريكية: لقد سبقت بذلك عملية تشكيل جيش التَّحرير الوطنى فى كولومبيا انطلاقًا من أنَّه آجلاً أم عاجلاً سيظهر هنا جيش التحرير الوطنى أو أىَّ تنظيم من هذا القبيل تلقائيًا اقتداءً بفنزويلا أو بمبادرةٍ من كاسترو. هكذا يكون بوسعهم إحكام الرَّقابة عليه والحدُّ من خطورته منذ البداية وذلك بتصفية منظِّميه البارزين المتحمِّسين. لقد نصبوا لنا الشَّرك، أتفهم ذلك ؟ لقد نصبوا لنا الشَّرك لكى يصيدونا واحدًا تلو الآخر مثل الأرانب. إنَّ الخطأ الوحيد الذى ارتكبوه كان على حساب التَّخلف الإقليمى : إنَّ عميلهم لم يستطع مقاومة إغراءات شراء ساعةٍ من الذَّهب وهذا يسهل إيضاحه إذا كان هذا الشَّخصُ قد وُلِدَ ونشأ فى مخبر.

كان بيداليس ساخرًا ويتصبَّب منه العرق فى تلك العشة التى كان سقفها من الزِّنك يطقطق من الحرِّ

مثل الحطب فى النّار المشتعلة، كان بيداليس يتحدّث أمام بلانكو العامل المسكين المذهول وكان يستمع إليه بالذّهول نفسه وبإحساس السّذاجة ذاته الذى كان يخدع فى عيد الملوك المجوس بأنّ السّيد المسيح عليه السّلام هو الذى كان يقوم بشراء لعب عيد الميلاد. كان قد عرف الحقيقة وهو مايزال طفلاً وهى أنّ خالاته هنّ اللائى كنّ يشترين اللعب من متجر لى . كان بلانكو يتساءل وهو يستمع إلى بيداليس يحدثه عن كلّ حروب العصابات فى أمريكا اللاتينية ويقول إلى متى سيستمر زمن السّذاجة لديه ؟ كان تشى جيفارا يثق فيها جيدًا. قال بيداليس : لقد كان رومانسيًا. أمّا كاسترو فلم يكن كذلك. لم يكن كاسترو حواريًا، غرّيرًا بل كان سياسيًا. كان يقول له : تذكّر جيدًا أنّ كاسترو لم يكن لديه أىّ مانعٍ فى أنْ تُلتقط له صورة وهو يقرأ كتاب لمونتيسكو وهو فى سلسلة الجبال الرئيسية سيرا مايسترا(*) كتابًا لمونتيسكو وليس لماركس - ويتناول القربان المقدّس على الملأ وهو يتقلّد فى عنقه ميدالية من النّحاس للسّيدة العذراء عليها السّلام بعد أنْ يدخل هافانا بقليل. لكى يضلّل الأجانب الأمر الذى لم يفعله أىٌّ من ماركسيينا السُذّج. كان كاسترو قد وصل إلى السّلطة دون أنْ يطبّق الماركسية مثل علم الحساب، لقد حشد كلّ من فى الجزيرة ضدّ الطّاغية باتيستا، ضد طاغيةٍ كان منحطًا فى قارةٍ كان الطّغاة فيها يتساقطون فى كلّ مكان مثل ثمرات الجوافة

(*) Sierra Maestra، بالفرنسية فى الأصل.

العفنة. وكان كاسترو يعرف أنَّ هذه التَّجربة لا يمكن أنْ تتكرَّر بصورة مماثلة في أمريكا اللاتينية يقول بيداليس : إنَّ كاسترو كان يعرف ذلك جيدًا ـ كان بيداليس متهكِّمًا بعينيه الزَّرقاوين الحادتين في وجه يغمره العرق ـ ومع ذلك كان كاسترو يدعم بؤرًا استبدادية هنا وهناك وحتى كلَّف ذلك الفتى الطَّيِّب المدعو ريجيس ديبراى ـ وهو شاب فرنسى ينتهج مذهب ديكارت الفلسفى، ويدعو للأخلاق، تصور ذلك، لم يتناول أبدًا ثمرة مانجو، ولم يمسك على الاطلاق بعصا الكرة الأمريكية كما لم يرقص رقصة الرُّومبا لم يزر الحى اللاتينى وهو يرتدى حزام العفة بأخلاقياته الماركسية، ولم تلتقط له صورة وهو يطالع كتابًا لمونتيسكو أو وهو يتناول القربان المقدَّس فى ميدان نوتردام فى باريس -كلَّف كاسترو هذا الشَّاب بكتابة نظرية ثورية لأمريكا اللاتينية كمن يعهد إلى ترزى بتفصيل بدلة أو حلوانى بإعداد تورتة لعيد ميلاد. لماذا فعل ذلك ؟ لكى يدافع عن ثورته وهو أمرٌ من حقه تمامًا فكاسترو سياسىٌ لا تنس ذلك، بمعنى أنَّه رجل لديه القدرة للقيام بأىِّ شىء لتحقيق مآربه. جيفارا لا، لكنَّ كاسترو كان سياسيًا بالفعل. لدرجة أنَّنا كمساكين تعساء متخلِّفين، مساكين من العالم الثَّالث يتلاعب بنا الجميع؛ وكالة الاستخبارات الأمريكية وكاسترو وغدًا من جانب الرُّوس او الصِّينيين ـ ولأسباب أيدولوجية فى الظَّاهر فقط؛ لأمر يتعلق بالدَّولة ببساطة ـ فالأمر الوحيد السَّيِّئ

أنّنا فى هذه النُّزهة نقدِّم الضّحايا. وأسوأ مافى الأمر أنّنا نقدِّم ذلك بلا جدوى.

وهذا الإحساس بالإحباط والحزن أحس به حينئذ وهما فى طريق عودتهما من ميناء بوياكا إلى لادورادا يتقدمان فى حزن المساء الحارق، وبعد ذلك فى بوجوتا عندما تحدّث مع رفاقه. كانوا يريدون محاكمة بالدبييسو، لعلّهم رأوا ذلك فى كتاب أو فى فيلم سينمائى: يُحاكم الخونة ويحكم عليهم بالإعدام. لدرجة أنّ الإحساس بالإحباط أضيف إليه آخر، وهو الإحساس بالسُّخرية لمشاركتهم فى هذه الملهاة الهزلية. ولم تكن هناك طريقةٌ أخرى لكى يستطيع أنْ يتذكّر ذلك الاجتماع، الذى دُعى إليه على وجه السُّرعة، والذى لم يحضره بيداليس لكن حضره بالدبييسو، خوان بالدبييسو شخصيًا بشحمه ولحمه. كان باردًا وشاحبًا، كان الأخير فى المجىء، ظلّ بجوار الباب، كان يرتدى ملابس مثل عصابات الإجرام فى شيكاغو، رباط عنق فضّى اللون ويداه فى جيبى معطفه من فراء الجمل الذى لم يتغيّر حينذاك. هل كان يحمل سلاحًا ؟ تساءل الجميع، بينما كان هو فى غاية الحذر وقال بصوت أجش : ليس لديه وقت طويلٌ وليقولوا له ماينبغى أن يُخبروه به. ربّما يكون باستيداس الذى لم يكن موفّقًا عندما تحدّث عن السّاعة الذّهب والسيّارة الفولكس فاجن (لقد اكتشفوا ذلك: لديه سيارة فولكس فاجن). بدأ بالدبييسو يبتسم، إذا استطعنا أنّ نعتبرها ابتسامة تلك الاشارة الخاطفة والوقحة لسنّته

الذَّهبية فوق البريق الدَّائم لرباط عنقه الفضِّى عندما تفادى إيرنستو أيَّة ديباجات أو مقدِّمات وقال له ببساطة: نريد أنْ نتحدَّث معك عن مقتل أوتيرو وفيدريكو روساس وآخرين. رأوا فى تلك اللحظة للمرة الوحيدة الأولى والأخيرة ذلك الوجه الحقيقى الجليدى لبالوديبيسو الذى كانت قد رأته نيللى بعد أن تلَّقت منه ثلاث صفعات، وسمعوا صوته غير الماكر وغير الرَّصين، بل صوتًا رتيبًا متمهلاً وبذيئًا قال لهم: إنَّنى مسلَّحٌ. ولدىَّ تحت وعلى السُّلَّم أناسٌ مدجَّجون بالسِّلاح سيصعدون إلى هنا إذا لم أخرج فى غضون خمس دقائق. وبالتَّالى التزموا الهدوء. سأظلُّ أعمل من تلقاء نفسى. وأوصيكم بأن تأخذوا حذركم. وانصرف.

هكذا انتهى ذلك الاجتماع، بعد ثلاث دقائق من بدايته: يصفق الباب والجميع ينظرون إلى وجوه بعضهم البعض حائرين. كانت فى جيوبهم أقلام جاف زهيدة الثَّمن، ولم يكن بها أسلحة. ولم يتعلَّم أىٌّ منهم كيف يستخدم مسدَّسًا باستثناء باسكيث ونينيو اللذين قُتلا بعد ذلك بسنوات ـ وإنْ كان الجميع باستثناء بيداليس وإيرنستو ـ قد عرفوا السِّجن النَّموذجى فى ذلك الأسبوع ذاته إلى جانب أصدقاء لهم من كالى وبوكارامانجا وبارَّانكيا وبالطَّبع نيللى راموس: لقد عثر رجال مباحث F2 على الأسلحة تحت أرضية غرفتها، ترسانة من الأسلحة ظهرت صورها فى الصُّحف. وبعد سنوات عرفوا فقط أنَّ بالديبيسو اشترى صالونًا

لتصفيف الشّعر وبعد ذلك واحدًا تلو الآخر حتى كوّن سلسلةً منها. أصبح بدينًا وتساقط شعره، كان يلبس نظّارة شمبرها من الباغ أو البلاستيك وكانت أعماله التّجارية ناجحةً مزدهرةً .

- ٦ -

قال إيرنستو يبدو لى أنَّكم جميعًا لديكم نظرات شيطانية فما هى المشكلة فى أن نمشى بين مدمنين. انظروا إلى جاكلين.

قالت مارجى: إنَّها تعيش سعيدة وقد أمسكت عنقها بلطفٍ وجذبتها نحوها لكى تُقبلها برقَّةٍ فى خدِّها.

أحقيقة ذلك ياحبِّى ؟

قال فرناندو وهو يهرش لحيته متأمِّلاً ويخبث: ياللضياع.

سرَّى عنه إيرنستو قائلاً : إنَّ جاكلين يمكن إنقاذها لكن ينبغى عليك أنَّ تبارز مارجى.

ضحكت هذه فالماريجوانا تجعل حدقتيها تبرقان.

واصل إيرنستو حديثه قائلاً: هل ترى الرَّغبة الكبيرة التى يتم بها شراء مجلة البلاى بوى(*) . إنَّنى

(*) Playboy، مجلة إباحية أمريكية.

لم أر قط أحدًا يصطحب سيدات حسناوات مثل هاتيك إلى فراشه.

قالت مارجى فى تواضع: يا أيُّها الشَّاب ليس فى الإمكان أبدع مما كان.

قاطعهم صوتٌ أنثويٌ قائلاً.

ليلة سعيدة.

كانت كريستينا رييس. تلاشى تمامًا كل هدوء إيرنستو وقد طاردته نبضات قلب متلاحقةً سريعةً.

حيًّاها ليس كما ينبغى قائلاً لها : أهلاً.

كانت جذَّابةً للغاية، ترتدى فستانًا أبيض مفتوحًا بطول السَّاق، وعيناها خضراوان فوسفوريتان، كانت تبدو وكأنَّها ممثِّلةٌ تظهر أمام جمهورها متألِّقة وواثقةً من نفسها فى أضواء المسرح.

انتهرته قائلةً بصوت هامسٍ مشوبٍ بالاستفزاز : ياسيئ التربية دبِّر لى مكانًا لكى أُجلس.

كانت تنظر بازدراء إلى ذلك الرُّكن بالغرفة الخالية من الأثاث وبها أناسٌ يجلسون على وسائد تحت النَّافذة. ابتعد إيرنستو قليلاً لكى يترك لها مكانًا. عندما جلست كهمس الحرير أحسَّ إيرنستو لبرهة بوزن جسدها النَّحيل على جسده، كان عطرها لطيفًا، عطرًا حميمًا مثل غرفة نوم فى ضوءٍ خافت.

عندما جلست فتح الفستان فكشف عن ساقيها. مثل ذلك المساء الذى رآها فيه وهى تدخل فى

الاستوديو المظلم عندما كانت ترتدى حُلَّةً صيفية ضيقة عند الخصر، شعر إيرنستو إلى جوارها بأنّه ضعيفٌ. كان قلبه ينبض بقوة. كان يحسّ برغبته الجامحة. لمس بأصبعه معصمها تحت الكُمّ. كان معصمها ضعيفًا ويغطيه شعرٌ أملس مثل قشرة شجرة الدُّرّاق. فكّر فى أنّها لا تحظى بإعجابه فقط. لقد كان الأمر أكبرمن ذلك، أكبر من ذلك بكثير، لقد تأكد من ذلك مندهشًا واضطر أنّ يقوم بردّ الفعل المناسب لسرعة فيها دعابة وبصورة دفاعية غريزية.

قال لأصدقائه : أقدّم لكم ملكتنا.

قالت كريستينا مستدركة ملكة الصُّلب وهى تنطق الكلمات بقوةٍ بصوتٍ بارد مثل ذلك المعدن فى الوقت الذى كانت تتفحّص الجميع ببريق الصَّفاقة فى عينيها الفاتحتين جدًا. يبدو أنّها كانت تزدرى بسرعةٍ لحية فرناندو البوهيمية والعينين الملتهبتين الحمراوين والقميص الأصفر المبلَّل بالعرق. تبادلت النَّظرة الوقائية مع جاكلين، نظرة متنافسين فى مملكة الجمال، وقد قوّمت حُلّتها المزركشة بالترتر بطريقة متواضعة، ثم حملقت باهتمام فى مارجى وقد شدَّها إلى ذلك وجهها الشّاحب والواثق الذى يبدو مثل وجه شاب وكذلك ملابسها التى عرفت منها استوحت منها فى اللحظة نفسها مهارة الترزى الذى فصّلها.

سألتها: ما أسمك ؟

مارجوت ثيثيليا. ويسمُّوننى مارجى.

ردَّدت كريستينا مقلِّدة لكنتها: يسمُّوننّى مارجى.
هل أنت ساحليةٌ ؟

إنَّنى فنزويلية.

مالت كريستينا على إيرنستو وقالت له بصوتٍ هامس: تعجبنى صديقتك.

يمكن أن أقول إنها بالأحرى صديق.

لقد أدركت ذلك. قالت هذا بصوت خفيض، ثم أردفت بشكل سرِّى: لكن الجو العام هنا لا يعجبنى يا أيُّها الدُيموقراطى. العرق والرائحة ثم صدرت عنها حركة تدلُّ على التَّقزُّز مثل طفل أمامه طبق من السَّبانخ الباردة.

سنذهب عندما تريدين.

كانت عيناها تبرقان فى الظَّلام.

لقد أتيت إلى هنا لأن الطَّلاق لن يكلِّفنى إلاَّ القليل قالت وهى تتحدَّث دائمًا بصوت هامسٍ جدًا. ماذا حدث ؟

كنا نأكل مع مجموعةٍ من الأصدقاء. كان جيرارد يتحدَّث عن السِّياسة. عمَّ الصَّمت. الجميع صامتون. فجأة فكَّرت وقلت: كفى. نهضت وقلت إنَّنى أريد أن أستنشق هواءً نقيًا. قالت كريستينا وهى تتذكر: لقد ضحك. مسكين جيرارد. إنَّنى أهيم به حبًا. لذلك سوف أتزوجه.

توجّهت إلى الآخرين قائلة: إنّها أسرار غرفة النّوم.

صدرت عن جاكلين صيحة تعجبٍ.

كان فرناندو يلفّ سيجارةً أخرى

سأل كريستينا هل تدخنين يا أختاه ؟

غمرته كريستينا بنظرتها.

وقالت له بابتسامة جليديةٍ لسنا شقيقين.

وشعر فرناندو بالإهانة.

ولا غريبين.

صدرت عنها صيحة غضب وكأنّها تتحدّث مع كلبٍ صغيرٍ : قالت له : بلا عُقدٍ.

كانت ترتدى ثوب الصّقافة وكأنّه جوهرةٌ. نظرت إليها مارجى مفتونة مثل قط يتأمّل عصفور كنارى يرفرف بجناحيه. أخرجت من جيب حُلّتها مبسمًا من الصّدف وأدخلت فيه سيجارة عاديةً ووضعتها فى فمها. أشعلت السّيجارة فيما بعد بقدّاحة من الفضة. كانت إيماءاتها رجولية أكثر من أىّ وقت مضى.

سألتها وهى تطرد الدّخان من أيّن أنت ؟

التفتت كريستينا إلى إيرنستو بدلاً من أن تردّ عليها.

يالك من ثقيلة الدّم، تقولين لى ذلك.

بل من أين أنت ؟ صحّحت مارجى دون أنّ تغيّر من لهجتها.

من عيادة مارلى فى بوجوتا.

صحّح إيرنستو قائلاً : لقد وُلِدت فى تشاينا بايتا. ياللخطيئة، تنكرين أصولك فى ميناء بوياكا.

قالت كريستينا له دون أنْ تعيره اهتمامًا أو حتى تنظر إليه : أنا لست من هناك. إنّ والدى من هناك.

لم تفهم مارجى شيئًا.

من أين ؟

قال إيرنستو من قرية بالهضبة العليا الكولومبية يهيمن عليها الضّباب تُسمّى تشاينابيتا. بين زراعات البطاطس والشّعير حيث قضت هذه الفتاة طفولة سعيدةً إلى أنْ أصبح والدها السّيد كايتانو ثرى المنطقة كلّها فأرسلها إلى باريس لكى تدرس تصميم الموضة. ألم يكن الأمر هكذا ؟ سألها إيرنستو ثم أردف : من الأكل فى الحلّة إلى محلات بيير كاردان(*) يالها من نقلة كبيرة فى حياة هذه الفتاة.

ردّت كريستينا وقد وقفت ضحكتها عند رموشها: كفى مسخرة !

نهضت جاكلين وقد بدا عليها الإرهاق.

قالت أنا ذاهبة إلى الصيد.

كان يمكن أن يسمع صوت الرّياح فى تلك الليالى، وفى غالب الأحيان يمكن أن يسمع تساقط دقات

(*) Pierre Cardin، بالفرنسية فى الأصل.

ساعة الكنيسة مرة تلو الأخرى وهو مستيقظ عند الفجر، أحيانًا أخرى كانت ساعات الأرق فى ظلام غرفة النوم لا يمكن التّصالح معها فكان يخرج ليسير فى شوارع القرية حاملاً فانوسًا لكى يضىء له الطّريق. وعلى الرّغم من الرّياح فإنّ السّير فى هذه القرية الشّبح كان يهدّئه.

كان يرسم الخطط. لقد اكتشف أنّه عاجزٌ عن كتابة السّيرة الحياتية لكاميلو تورّيس التى اقترحها على نفسه مرارًا وتكرارًا. لم تكن لديه موهبة كتابة السير الحياتية، فضلا عن أنّه كان من الصّعب عليه أنْ يتعرّف على تلك الأسطورة الرومانسية للقسيس المحارب التى تحكى قصة صديقه القديم بمدرسة الليسيه، ذلك الشّاب الذى التحق برجال الكنيسة قسيسًا منذ عشرين عامًا، وحتى على ذلك الأستاذ الجامعى الذى نسى مساعيه ونشاطه الخيرى غير المجدى بالأحياء الفقيرة وانطلق فجأةً إلى الميادين العامة. كان قريبًا منه للغاية فى تلك الفترة. كان يبدو له أنّ تلك الحقائق الأساسية والحماسية التى كان ينادى بها كاميلو فى الميادين العامة والمسارح وهو لايرتدى زىّ القسيس بل بحُلّة سوداء ورخيصة وقميصٍ أسود، كانت ستؤدى إلى ظاهرة التفاف الجماهير حوله أسوةً بالتفافها حول جايتان (الزّعيم اليسارى الذى اغتاله الطّغيان فى بوجوتا). لكنّ كاميلو كان مسرعًا، كان كاميلو قد اعتقد فى أسطورة الحبّ وأعمال الخير المسيحية، وقبل أنّ يعرف عددٌ كبيرٌ من

أصدقائه مقاصده كان قد تحوّل إلى محارب بالطريقة نفسها التي اتخذ فيها القرار الغامض الذي لا رجعة فيه عندما قرّر أن يكون قسيسًا منذ ثمانية عشر عامًا مضت. سرعان ما سيعرف من هم الثّوريون الحقيقيون، قال له ذلك ذات ليلة في فندق ماجستيك في بارّانكيا أثناء جولة وهو يخرج الغليون من شفتيه وينظر إليه بهاتين العينين الخضراوين وأحيانًا الحزينتين. عبارة لم يدرك مغزاها إلاّ بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع فيما بعد، عندما بلغه نبأ أنّه كان في أوبون مع فرقة محاربي باسكيث كاستانيو.

سيقتلونه، كان بيداليبس يقول له ذلك بنوع من اليقين الحزين. سيقتلونه، كان يتكّهن بذلك كلما تقابلا وقت الغداء (وكان بيداليبس مشغولاً تمامًا بنشاطه الانتخابي)، ليس فقط لأنّ حركة جيش التّحرير الوطني قد تم اختراقها (ومن أفضل منهم يستطيعون معرفة ذلك بعد الذي حدث مع بالدبييسو؟) بل لأنّ قائد جماعة أوبون فابيو باسكيث كان يثير شكوكًا كثيرةً لدى بيداليبس. كان يعرف ذلك جيدًا. إنّه باتشوبيا على غرار "أنا هنا الآمر النّاهي كان يقول له ذلك، كان يشبه قائدًا من الطُّراز القديم أكثر منه محاربًا حديثًا، وكان قادرًا على التّضحية ـ بغباء ـ بكاميلو توريّس فقط لكيلا يغطي عليه وينتزع منه الزّعامة. ستراه، قال ذلك بيداليبس بتلك الثّقة الجلية والآن لا يمكن خداعه بأيّ حماس زائف وأصبح ذلك سمةً بارزة لشخصيته وهاجسًا لمسيرته السّياسية

القادمة لكونه سياسيًا تقليديًا. ثقة ويقين سيتذكرهما إيرنستو دائمًا. في وقت لاحق بعد مقتل كاميلو تورِّيس سيعرفون بالفعل -أنَّ فابيو باسكيت سيزجُّ به في أوَّل معركة له بلا سلاح، وفي مهمة لخطف سلاحه الذَّاتي، وهذه مخاطرةٌ كبيرةٌ وغبيةٌ وفي تلك المعركة لقي حتفه.

كان بوسعه أنْ يتذكَّر كيف أنَّ النبأ هزَّه تمامًا على الرَّغم من تلك التَّكهنات المستمرة والحزينة لبيداليس. تذكر الآن أنَّ ذلك كان في وقت الغسق وأجراس المدينة تدقُّ تباعًا كما يحدث بالتَّأكيد في العصور الاستعمارية، بينما بائعو الصُّحف يركضون في الشَّوارع بالجرائد المسائية التي كانت تعلن نبأ موت كاميلو تورِّيس في مانشيتاتها الكبيرة على صدر صفحاتها. تذكَّر صورة كاميلو تورِّيس. صورة جثته: بكدمة في عينه نتيجة ضربة بمؤخرة البندقية أو ربَّمَا من جرَّاء ركلة. وكانت لحيته كبيرةً. كان إيرنستو بمفرده في موقف السَّيَّارات يبكي داخل سيارة والصَّحيفة في يده. ليس فقط على كاميلو، بل على نفسه شخصيًا بسبب مامات بداخله هونفسه. ولعله في ذلك الحين كان يعيش مع إيستيلا ويعمل كمحرِّر لنصوص إعلانات، ولديه في نفسه شيءٌ مريرٌ وذابلٌ عندما فكَّر لأوَّل مرَّة في الهروب. في الذَّهاب بعيدًا عن هناك، من ذلك العالم السَّاحق الذي كان يطحنكن ببطء أو يمزِّق إربًا بالرَّصاص، إذا لزم الأمر كل من يريد تحريكه أو تغييره. فكَّر في الهروب وفي النِّهاية

ومع أوَّل فرصة فى رحلة طيران شارتر زهيدة الثَّمن تنظمها شركة أليانثا الفرنسية ـ هرب وهاهو هناك هاربٌ من شىء لم يفلح فى إيضاحه مع فتاة كانت قد هربت أيضًا (ليس فقط من والدتها، وليس فقط من زوجها)، كان يسير فى شوارع وهمية فى قرية قديمة بينما كان يسمع صرير الرِّياح الغاصب فى حقول أشجار الزَّيتون.

كان يعدُّ الخطط إذن، وكان ينبغى عليه أنْ يكتب لكن ليس عن تلك السِّيرة الحياتية لكاميلو تورِّيس، بل عن شىء شخصى تمامًا حاكه بخيط خبراته الشَّخصية كان يفكِّر فى كتابة قصَّة. لم يكن قادرًا على التَّأكيد على شىء ولا على إبراز شىء، لا شىء من المرَّات الكثيرة التى حاول فيها الكتابة ولكن النتائج قليلة الشَّأن، بل شيئًا يتضمَّن خُفىَّ جدته ومنزل خالاته، وعن المدرسة الدَّاخلية، وربُّما عن كاميلو نفسه كما كان حينذاك، مراهقًا يتحدث عن الحب وطيبة القلب. كان فى حاجة ماسة للكتابة عن كلِّ تلك الأمور. وذات يوم وهو يتناول قهوة عند النَّافذة على ضوء بائع الليمون، كتب على الآلة الكاتبة أوَّل سطر من تلك الرِّواية التى لا مبرِّر لها حيث لجأ إلى أقدم ذكرياته (عندما كانت جدته تتركه فى حجرة مظلمة) سرعان ما أحسَّ بأنَّه مسرورٌ وهادئٌ. كان فى منتصف نهار ذلك اليوم معتدل المزاج جدًا. كانت ماريا تعمل أيضًا بلا راحة. وفى بعض الأمسيات عندما كان ينهض مرهقًا فى السَّاعة الخامسة تاركًا الآلة الكاتبة، كانا

يذهبان لكى يتمشيا فى الطّريق السّريع. حلّ غسقُ الشّتاء ذو اللون الرّمادى الهادئ فوق بحر شاحبٍ ذى لون بنفسجى، كانت طيور الزّرزور أو الجُنفلة تطير صافات فوق البحر، وكانت القرية تبدو وكأنّها تختلى بنفسها.

كان فى ذلك الصّيف عندما تعرّفا على إيريك وماريانا. لن يوضّح الآن كيف أنهما تأخرا وقتًا طويلاً لزيارة منزلهما الذى كان معروفًا فى القرية بالمنزل ذى النّوافذ الزّرقاء. كانت الخيّاطة كتالينا هى أوّل من تحدّث عن سيدة من أمريكا اللاتينية مثلهما من أوروجواى أو نيكاراجوا لم تكن تعرف جيدًا من أىّ بلد منهما. لقد تعرّفا عليهما فى محلٍ لبيع التّبغ. أو رُبما فى الشّارع، لم يتذكّر ذلك جيدًا. الواقع أنّه وماريا وجدا نفسيهما ذات ليلة فى منزلٍ نظيف وهادئ ودافئ وكأس براندى فى يديهما ويتحدّثان مع شخصين تجمعهما سماتٌ كثيرة مشتركة معهما، ولهذا السبّب يذكر إيرنستو أن الألفة جمعت بينهم على الفور. كان إيريك وماريانا كل منهما يختلف عن الآخر تمامًا. فإيريك كرجل إسكندنافى طيّبٌ هو قليل الكلام، كان يستمع باهتمام وهو مشغول بإشعال النّار، كان بريق النّار يظهر على لحيته وعينيه الزرقاويين، أحيانًا كانتا شفّافتين مثل عينى طفلٍ وأحيانًا أخرى مليئتين بشرارة المزاح والفكاهة. كان نحّاتًا، عاش سنوات طويلةً فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى الهند وأالمكسيك وكان خبيرًا فى أسرار وألغاز البوذية

وكذلك فى الدّيون المستحقة على بانشوبيا. كانت مارينا على طرف نقيض منه، قصيرةً ثرثارة، تُفخِّم كلَّ شيءٍ للغاية. وكانت تكتب أعمالاً مسرحيةً وأغانى بالإنجليزية والإسبانية. كانت مشتركة فى جميع المجلات وتتلَّقى رسائل من كم غفير من الناس فى أمريكا اللاتينية من ذلك المنزل المكتظ بالكتب وأقنعة أهالى البلاد الأصليين وأشياء فنِّية أخرى، ذلك المنزل الذى كان يفتح وقت الغسق مع آخر ضوءٍ يطلُّ من الجبل وضوضاء العصافير، وفى الليل ينحسر المنزل حول المستطيل المضىء للمدفأة، كان إيريك وماريانا خبيرين كبيرين فى شئون العالم : كانا يعرفان الكثير عن بيافرا وفيتنام وجواتيمالا، عن قصص جارثيا ماركيز وأشعار كاردينال أو لوحات ميرو الفنِّية. كانا يتحدَّثان عن ذلك كلِّه فى ليالى الشّتاء بينما كانت أعواد الحطب تحترق فى المدفأة وتهب الرِّياح فى الخارج. كانت ماريانا مولعةً بالحديث عن الأشباح. ذات ليلةٍ رأت سيدةً تجلس بجوار جدول المياه، تبكى ومعها طفلٌ بين ذراعيها، وليلة أخرى، على باب غرفة نومها، كانت قد رأت فى العتمة رجلاً طويلاً، فى فكِّه أثر جرحٍ. طبقًا لجرابيس كان فرنسيًا قد لقى حتفه فى ذلك المنزل، منذ سنوات مضت، بعد أنّ كان قد كتب بدمه، فى الحمَّام الكلمات التَّالية "لقد أحببتك". كان إيريك يأخذ مأخذ الجدُّ كلَّ قصص القرية. كان مهتمًا بمرو كاجليوسترو إنهم أفرادٌ من الهيبيز، كانوا يعيشون فى الجبال بعد أنْ طردوا من جزيرة إيبيثا،

يحاولون ابتعاث بعض الشعائر الوثنية وبعض القداسات السوداء التى ترجع إلى أعمال السحر فى العصور الوسطى وذلك بذبح الخراف. كانت ماريانا وإيريك يشيران إلى تلك الأمور وهما يستمتعان بخوف ماريا منها، التى كانت فيما بعد ترتعد عندما ترى فقط، فى الظلام وهى تتجه صوب منزلها، العينين الصفراوين لهر.

ذات ليلة انتابها الهلع عندها وجدت لدى باب منزلها امرأةً حسناء شقراء سألتها بهدوء عن كارلوس كانت حقيبةُ سفرٍ عند قدميها. كانت ألمانية. عندما أخبراها بأنَّه توفى منذ بضع سنوات مضت، هزَّت رأسها غير مصدِّقة. كانت صديقته عندما كانت تعمل مضيفة فى شركة لوفتهانزا(*). كانت قد انفصلت عن زوجها حديثًا وقرَّرت المجىء للبحث عن كارلوس أو للبحث عن مكانه فى قرية ديًّا . فى تلك الليلة ظلت فى غرفة الطَّابق العلوى لأنَّ الوقت كان متأخرًا لكى تعود إلى جزيرة بالمادى مايوركا. وفى اليوم التَّالى تناول الثَّلاثة طعام الإفطار فى الشَّمس التى تسلَّلت عبر نافذة الفناء. كانوا يستمعون إلى شريط لـ موتسارت سرعان ما اغرورقت عينا الفتاة بالدُّموع وكانت تُسمَّى فريدة. لا يمكن أنَّ أتخيَّله ميتًا، قالت ذلك بالفرنسية. عندما رافقاها إلى محطة الحافلة، عرضت عليها المجىء لزيارتها فى الصَّيف.

(*) شركة الطيران الألمانية الشهيرة.

قبيل أعياد الميلاد وصل أبناء إيريك وماريانا من باريس. كنّ ثلاث فتيات حسناوات شعرهن فاحمٌ وعيناهن فاتحات: مزيج نتج عن تعدُّد السُّلالات وكثرة الجنسيات الممكنة التى فى نهاية الأمر لم يحصلن على أىٍّ منها، كنّ يتحدّثن عن أعمال مسرحية، عن أفلام ومعارض أقيمت فى باريس فى ذلك الموسم وكن يتحدّثن بشكل مستفيض لدرجة أنَّ إيرنستو وماريا أحسَّا أنَّهما ريفيات قرويات عاجزات عن إبداء رأيهما حول أىِّ شىءٍ. كانت الفتيات قد جئن فى رفقة مجموعة من الفتيان الفرنسيين وفى ليلة عيد الميلاد بمشاركة الوالد نظمّن حفلةً سعيدة امتدت طوال يومين وقد تنكَّر فيها الجميع. ألبسوا ماريا ثياب أميرةٍ مصريةٍ، وبينما تعالت ضحكاتهم، كانوا يزينوها بالماكياج حتى بدت وكأنَّها بالفعل جمالٌ من عصر الفراعنة. كان البرد قارسًا فى تلك الأيَّام، وكانت غرفة النَّوم دائمًا باردة كالجليد عندما كانا يستيقظان (ماريا وإيرنستو)، وكانت الأغانى الشَّعبية لأعياد الميلاد تُسمع مبكرًا عبر برج أجراس لكنيسة من خلال مكبرات الصَّوت. كانت الشبورة تظهر على تلال الجبال عند فتح النَّافذة. كانا يلتقيان كثيرًا بالقسيس السَّيد بيدرو وهو يتنزَّه متضجرًا فى الميدان، كان يتحدَّث لهما عن رغبته فى الذِّهاب إلى غابات الأمازون حيث كانت هناك بعثات تبشيرية لتعليم الهنود الحمر أسس وأصول الدِّيانة الكاثوليكية. ألبس القسيس ثلاثة شبان من القرية فى ٦ يناير ملابس

الملوك السَّحرة (ملوك المجوس) وقد نزلوا من التِّلال وهم يمتطون جيادًا وقد تزيَّنت بأطقم خيلٍ مطعَّمة بالزهور. كانوا الملوك الذين سلَّموا الهدايا للأطفال من فوق منصَّةٍ أقيمت فى الميدان. كان مسلِّيًا أنّ ترى أهالى القرية وبعض الهيبز الذين يشعرون بالبرد يشاركون فى هذا الاحتفال. بعد ذلك ذهب إيرنستو وماريا مع إيريك وماريانا وبناتهما وأصدقاء آخرين إلى مطعم فورنالوكس. تجرَّعوا زجاجات كثيرة من النبيذ ماركة "لاريوخا" وعند العودة بالطَّريق المتعرِّج والملتوى فى قافلة من السَّيارات، وأوارق أشجار الزَّيتون تبرق وتتلألأ فى ضوء أعمدة الكهرباء، كان الجميع سكارى إلى حدٍ ما، وكانوا يحاولون الغناء فى السيَّارات كجوقة موسيقية واحدةٍ بشكل كارثى كان الغناء نشازًا بالفعل.

وعندما جاءت الفتيات الثلاث بنات إيريك وماريانا لكى يودعن الآخرين، تحدَّثت إليهن الابنة الكبرى كريستينا عن باريس بشكل غامض، عن المترو وعن قسوة الحياة. وطلبت منهم جميعًا أنّ يظلُّوا هنا ما استطاعوا، وقالت لهم : أنتم لا تعرفون كم أحسدكم على ما أنتم فيه. كان إيرنستو مؤيدًا لذلك. وكانت ماريا من هذا الرأى أيضًا. فمنذ أنّ بدأ إيرنستو فى تأليف كتابه، وبالقدر الذى تقدَّم فيه وهو يعيش من جديد ذكريات طفولته، كان يشعر على غير العادة بأنَّه هادئٌ ومطمئنٌ. فبعد رحلة خاطفة إلى برشلونة كان قد عاد بعقود ترجمات جديدةٍ : لم يكن

ما يدفعونه كثيرًا لكنهما كانا ينفقان قليلاً لكى يستطيعا البقاء على قيد الحياة. وكانا يشعران بفقرهما فقط عندما يذهبان إلى بالما حيث كانت ماريا تتريَّث قليلاً أمام واجهات المحلات فى شارع خايمى الثَّالث وقد حاز إعجابها نعلان طويلان أو فستانٌ. فالنعلان العاليان يساويان ثمن بضعة أشهر من الطَّعام. لكنَّهما كانا يتحمَّلان هذا الوضع عن طيب خاطرٍ. كانت ماريا تتحدَّث أحيانًا عن بيع هدايا الزَّواج التى كانت قد تلقَّتها. لكنَّه لم يكن يريد أنْ يعرف شيئًا عن تلك النُّقود. كان إيرنستو يقول لها. أتركيها لوالدتك. عندما أتينا إلى هنا اخترنا المخاطرة مثل مصارعى الثِّيران، وبالتَّالى ينبغى أنْ نتحمَّل ذلك. بدأت ماريا فى تلك الأيَّام تحدثه عن رغبتها فى إنجاب طفلٍ. وهو يقول لها: سيكون هيبز صغيرًا ردًّ عليها إنَّه لن يكون حتى هيبزًا بل سوف يقوم بجنى الزيتون. إنَّ ذلك كان يسبِّب له، دون أن يدرى، قلقًا غامضًا. كان يقلقه أنْ ينجب ابنًا، وكان يخيفه ذلك، هذا بالاضافة إلى وجهة النَّظر النِّهائية للبقاء فى مايوركا. لكنَّه كان أحيانًا يفكِّر بعد ذلك كلِّه فى أنَّه يستطيع أن يحذو حذو إيريك وماريانا. كان إيريك قد حدثه عن ضيعة فى الجزيرة، تكون شيئًا إلى جانب نشاطه الحقيقى، لكى يستطيع مواصلة الحياة. وبعد ذلك ينبغى أنْ يفكِّر فى ماريا. ستكون ماريا سعيدة بطفلٍ. كان أحيانًا ينظر اليها وهى تحيك ذيل تنورةٍ على ضوء المدفأة.فكان يشعر تجاهها بحنانٍ شديد

-٧-

كان إيرنستو يفكّر وهو يشقّ طريقه فى الممرّ إلى الحمّام أهذا حصن بابل. رأى ستة أفراد كلّ اثنين منهما يتبادلان القُبلات فى العتمة. كانت الموسيقى تدوّى بلا توقف لدرجة أنّها كانت تؤثر بقوة على إيقاعات الأغنية الشّعبية. وجد فى الممرّ ثلاثة شبانٍ من معارفه، كان أحدهم زنجيًا يحمل فوق رأسه غابةً هائلةً من الشّعر الأكرت أو المفلفل المجعّد، كان هؤلاء الفتيان يتردّدون على ملهى سيليكت فى مونتبارناس. كانوا يتبادلون زجاجة من الرُّوم من جزر الأنتيل. قدّموا له جُرعةٍ لكنّه رفض بمزاحٍ. رأى الفتاة القادمة من بارّانكيّا كانت خارجةً من المطبخ وفى يدها جزءٌ من بوصلة ملاحية الأمر الذى يصعب إيضاحه. قالت لإيرنستو عند مرورها به : إنّنى قتيلةٌ" قال لها : حذار فأنا الوصى عليك لا تنسى ذلك. قالت هى : "عجيبة" وضحكت.

وأمـام بـاب الحـمّـام وجـد جـاكـلـين والـفـتـاة كوليناريس فى وضع انتظار.

قالت جاكلين يوجد اثنان بالدّاخل.

هل هما رجل وامرأة ؟ أم سيدتان ؟ أم رجلان ؟

ردّت جـاكـلـين وهـى تـضـرب الـبـاب بـقـوة : أنـا لاأعرف شيئًا أسرع، يازفت.

سُمعت ضحكات بالدّاخل : وبعد ذلك صوت امرأة يقول : "لا تكونا وضيعتين حقيرتين"

أزهـرت أشـجـار الـلـوز بسـرعـة فى الجزيرة ذلك العام، كما أنّ الهواء حمل بين ذراته الرّوائح الزّكية، والأيام أصبحت أشدّ حرارة تدريجيًا. عندما تلقّيا رسالةً من الشّاعر ليناريس أخبرهما فيها أنّه يستعد للسّفر إلى قرية ديًا برفقة صديقتين له، حينئذ أدركا أنّ الوقت مرّ سريعًا جدًا. لقد أمضيا عامًا بالجزيرة. كما كتبت أسرة أثويلا معلنين عن قرب مجيئهم إلى الجزيرة. وفى اليوم الذى دخلوا فيه المنزل كإعصار مائى (كان الوقت مايزال مبكّرًا وكانت ماريا حتى ذلك الوقت نائمة في غرفة نومها)، وبعد أنّ نزلت من سيارة مليئة بالتّراب ومحمّلة حتى سقفها بقوارب مطاطية ومجاديف وأدوات الصّيد فى أعماق البحر، أدرك إيرنستو أنّ الصّيف قد حلّ بالفعل. كان ظهور أسرة أثويلا بمثابة نسمة هواء رطب. قال له مارتين : دعك من العمل كثيرًا، لقد خجل من أنّهما لم يأخذا أوّل حمّام لهما بالبحر حتى الآن. واستؤنفت حياة

الصيف الماضى. عادوا إلى شرفة لوتش الكارى، عادوا إلى مشروب الخينيبرا بالثّلج والى الغسق الحار فوق البحر، إلى الليالى الهادئة والمكتظّة بالنُّجوم الشّاردة، إلى الجداجد، إلى الرّوائح الكثيفة، إلى الفتيات اللاتى يرتدين ملابس رقيقةً فضفاضةً وهنَّ يستعرضن فى مقهى القرية، كان ذلك بالنِّسبة لإيرنستو يمثل راحة كبيرة بعد شهور طويلة من الاحتباس. بدت ماريا حزينةً. كانت تقول إنَّ الحرَّ بالنِّسبة لها والذُّباب والنَّاس يصيبونها بالإرهاق. إنَّها كانت تُفضّل الصّمت وهدوء الأيَّام الباردة.

ظهر الشّاعر ليناريس بعد ذلك بقليلٍ برفقة فتاتين حسناوين : إحداهما فرنسية تُدعى ميتشيل والأخرى ألمانية تُسمَّى ريتشيل. لم يتأخّر كثيرًا حتى أصبح صديقًا لأسرة أثويلا وخاصةً خوليا. فمنذ أن وصل وهو ينظِّم الحفلات الصّاخبة فى منزلٍ ناءٍ قام باستئجاره قريبًا من الشّرم أو الخليج، كان منزلاً يطلُّ على البحر وكان هناك انطباع بأنَّه يقوم بنشاط جسديٍ مبالغ فيه. كان يقول بوجه مرحٍ يوحى بالفجيعة ماذا أفعل لهؤلاء النِّساء الكثيرات؟ كانت الفرنسية ميتشيل امرأةً حسناء ذات عينين واسعتين سوداوين، لكن كان يغلب على وجهها القسوة. كانت تكشف عن نصفها العلوى فى هدوء على الشّاطئ لكى تأخذ حمّام شمسٍ دون خوفٍ من أنْ يلزمها الحارس المدنى بدفع غرامة. كانت الألمانية ريتشيل ضخمة طويلة القامة جدًا لدرجة أنَّه كلَّما اسمرت بشرتها

ازدادت جودة العينين الفوسفورية مثل عينى فهد. أصبحت الفتاتان صديقتين لهم. فى بعض الأمسيات بينما كان الشّاعر ينام القيلولة، كانتا تذهبان لزيارتهم. تضطجعان على أريكة فى الطّابق العلوى فهو المكان الرّطب فى المنزل كلّه، كان العرق يتلألأ فى الوجه، وكانت بلوزتاهما مفتوحتين قليلاً، كانتا ضعيفتين شهوانيتين كالقطط، وكانتا تثيران رغبة غامضة لدى إيرنستو. كان الحرّ مهولاً فى شهر أغسطس ذلك، ففى خارج المنزل كانت التّلال والشّمس مستعرة، بينما كان إيرنستو يتناول مع الفتاتين كأسًا تلو الآخر من الخمر ماركة خيريث وهم يتحاورون. كانت المحادثة دائمًا عن موضوعات شهوانية تقريبًا ولم يكن يعرف لماذا. قالت ريتشيل إنّها قضت بضعة أسابيع فى اليونان محاصرة بشكل مخيف من الرجال ، كانت تشتكى من عدم وجود أىّ منهم فى مايوركا. فالرّجال الذين يهموننى ليسوا أحرارًا، كانت تقول ذلك وهى تضحك، وعيناها أكثر بريقًا فى وجهها الذى لفحته حرارة الشّمس، كانتا تتحركان بسرعة كفنارة ترسل إشارة. كانت ميتسيل إلى جوارها تتحدّث دائمًا عن الشّاعر. كانت تقول ذلك أحيانًا، وهى تحملق بعينيها الواسعتين السّوداويين فى ماريا لدرجة أنّ هذه كانت تشعر بالقلق. كانت ماريا تهمس بقولها: إنّ تلك المرأة تصيبنى بالتّوتر. إنّها امرأةٌ غريبةٌ ومنذ تلك اللحظة بدأت تتحاشاها. ولكى لا تلتقى بها وتعانى من حصار نظراتها الصّامتة تخلّت عن مرافقته لحضور حفلة نظمها الشّاعر ليناريس بمناسبة عيد ميلاده.

كانت حفلة خالدةً على حدِّ قول إيرنستو. اتَّسمت الحفلة بالخلاعة والمجون ولذلك قال الشَّاعر إنَّه دعا خوليا ولم يدع والديها. على كل حالٍ اجتمع فى الحفلة ثلاثة رجال وثلاث فتيات الشَّاعر وإيرنستو وشابٌّ أرجنتينىٌّ صامتٌ وشاحب اللون وقد جعل من شعره ضفيرةً رفيعة إلى الخلف مثل ذيل فارٍ، كان فنانًا على ما يبدو لكنه كان يعمل نادلاً فى لندن. أمَّا الفتيات فهن ريتشيل وميتشيل وخوليا. قدَّمت له خوليا أوَّل سيجارة ماريجوانا. كانت ترتدى فستانًا طويلاً به خيوطٌ للزِّينة ونجوم، كان يبدو وكأنَّه العلم الأمريكى، كانت تراه يُدخِّنُ بتعبيرٍ تهكمىٍ ساخرٍ وسارٍ. كانوا يجلسون على ضوء الغسق فى المطبخ. ويساعدون الشَّاعر الذى كان يشرف على عمليات إعداد الطعام، والذى كان يتصبَّبُ عرقًا وملابسه ملتصقةٌ ببدنه من جراء ذلك، كان يصبُّ كل تركيزه على الخلِّ والزَّيت والخمر والبصل والطَّماطم. كان هناك إحساس بقرب عاصفةٍ نتيجة لوجود الهواء السَّاكن والخانق أظلمت السَّماء التى كانت تُرى من النافذة بسبب الغيوم. كانت هناك موجات برقٍ بعيدةٍ تسطع فوق البحر. كانت ريتشيل تقوم بتقشير بصلة وعيناها مغمتان بالدُّموع. كانت ترتدى أفارولاً ذا لون كاكى له سوستة فى الأمام، مفتوحة بلا اكتراث عند البدن. يتذكَّر إيرنستو حينذاك أنَّه كان يدخِّن سيجارة ماريجوانا وهو ينظر إلى ريتشيل وهى تتصبَّب عرقًا وترتدى ذلك الأفارول وتمسك بالسِّكين والبصلة فى

يديها فأحس برغبة تجاهها جعلته يرتعد. كان يجلس على مقعد بالقرب منها فى عتمة المطبخ الخانقة. كان يبدو له أنّه يشمّ رائحتها المالحة والقوية. كان الشّاعر مشغولاً بطهى الدّجاجة وصدرت عنه بعض العبارات الموحية عن إيرنستو وتدخّلت الفرنسية أيضًا فى الحوار بينما كان الأرجنتينى ذو الضّفيرة جالسًا على الأرض وقد قبل سيجارة الماريجوانا وأخذ يدخنها وهو مغمضٌ عينيه.

بدأ المطر يتساقط فى تلك الليلة. كان الهواء الذى يدخل من الباب مشبعًا بالرّطوبة والسّخونة. يذكّر إيرنستو أنّها كانت ليلة حافلة بالطّعام. أكلوا جميعًا كالبرير الجائعين. لقد وجدوا الدّجاجة المسلوقة بالأعشاب وعليها صلصة غليظة القوام داكنة اللون والمتبّلة بالشّطة أحد أسرار الشّاعر ليناريس وجدوها شهيةً لذيذة الطّعم. وقد باغتتهم ميتشيل بطبق من الخشب به قالب كبيرٍ من الجبن الدّسم. احتسوا خمر المنطقة فى سهولةٍ ويسرٍ كانوا يأكلون ويضحكون على أىّ شىءٍ. كان الحرّ قد ألصق الثّياب بالأجساد وأعمى العرق العيون. فتحت ميتشيل بلوزتها قليلاً، وكانت خوليا تُنظّف أنفها أمّا ريتشيل فقد كان بريق عينيها شيطانى حقيقةً. ظهر الأرجنتينى ومعه سيجارة أخرى من الماريجوانا وقد نقلها من يدٍ إلى أخرى.

كانت خوليا تريد اسطوانة لبينك فلوريد بينما وضع الشّاعر ليناريس فى جهاز تشغيل الاسطوانات

أغنيةً شعبيةً للمطربة تونيا لاتيجرا (تونيا الزّنجية).
قضوا ليلة سعيدة كلها سكرٌ ومجون. اصطحبت ريتشيل إيرنستو إلى منزلها دون أنْ يدرى الآخرون الذين كانوا يضجون بالضحك وقد استحوذ عليهم السُّكر. وعندما وصلا إلى منزل ريتشيل صعدا إلى الطّابق الثّانى. ذهبت ريتشيل إلى الحمام بينما غطَّ إيرنستو فى نوم عميق حتى بدأ النهار يرسل بخيوط ضيائه الأولى. استيقظ إيرنستو وتناول طعام الافطار مع ريتشيل لكنه كان مشغولاً لأنّه قضى الليلة خارج المنزل وترك ماريا وحدها تعانى بمفردها فى بيت الأشباح.

قامت ريتشيل بتوديعه هادئة سعيدة مطمئنة بينما كان إيرنستو قد استحوذ عليه القلق بسبب ماريا. توجّه إيرنستو إلى منزله وقد بدا له أنَّ جميع هؤلاء العجائز اللاتى كن يجلسن على عتبات منازلهنّ كنَّ يتابعنه بنظراتهن المرتابة وكأنّهن على علمٍ بكل ماحدث من هذيان تلك الليلة. فكّر فى أنْ يحكى لماريا الحقيقة بحذافيرها ،فبعد كل هذا كان دربًا من العبث أنْ يشعر إلى هذه الدّرجة بأنّه مذنبٌ. كان أمرًا بغيضًا أنْ يشعر أنّه زوج نام خارج منزل، كان زوجًا خائنًا.

لم يجد ماريا. دفع الباب المطلّ على الشّارع ونادى عليها لكن لم يرد عليه أحد. كان المنزل خاليًا ومرتبًا، لم يكن به سوى دقّات ساعة البندول الموجودة فى الفناء. كان هناك طنين الذُّباب فى النّافذة، وكانت

هناك بعض الزُّهور في دورق على وشك الذُّبول. لقد رحلت، كم أنا مجنونٌ، لقد رحلت. كان عاجزًا عن البقاء في الفناء يسمع دقَّات السَّاعة وطنين الذُّباب. خرج إلى الشَّارع من جديد. طاف بالقرية بحثًا عن ماريا. وفي نبرةٍ حاول فيها ألاَّ يظهر قلقه سأل عنها إيريك وماريانا. لكنَّهما لم يكونا قد رأياها. فكَّر في أنَّها قد تكون في منزل أسرة أثويلا التي كان أفرادها يتناولون السَّردين والطَّماطم في شرفة منزلهم، وقد احمَّرت وجوههم من الشَّمس، فاستقبلوه بالمزاح وسألوه كيف انتهت السَّهرة في منزل الشَّعر. كانت سهرة حمراء. قال إيرنستو وعلى الفور لاحظ على خوليا مشاعر قلق سرعان ماتبددت وتحوَّلت إلى وقاحةٍ هادئة. فلا ينبغي على والديها أنْ يعرفا شيئًا عن سلوكياتها. تركهم واعدًا إيَّاهم بالمجيء بالليل. وواصل بحثه اليائس عن ماريا. لم تكن موجودة في اللوكاندة الصَّغيرة بالشَّرم كما توقَّع ولا في المقهى ولا في أيِّ مكان. تبدَّدت بادرة الأمل في العثور عليها بالمنزل عندما عاد ولم يجد سوى دقَّات السَّاعة في الفناء والضوء الخافت والأحمر يضيء النَّافذة التي كانت تُطلُّ على التِّلال. وبإمارات من الهدوء والتَّروِّي صبَّ لنفسه كأسًا من مشروب الخينيبرا وماء الصُّودا، تجرَّعه بتؤدة وهو يجلس على مقعد كبير في الفناء وحيدًا وحزينًا مثل أرملٍ حديث التَّرمُّل وهو يفكِّر في ماريا. إنَّ فكرة رحيلها وأنَّها هجرته كانت تغرقه في الذُّعر. لم تكن هناك وسيلة لتحديد ذلك الخوف الذي

غزا نفسه، لذلك الشّعور الذى كان يجيش فى صدره. كان يحتاج إلى ماريا، كان هذا واضحًا. لم يكن يعرف لماذا، ولكنّه كان فى حاجة إليها وفكرة رحيلها (لكن كيف، والى أيّن؟ فلازالت ملابسها فى الدّولاب)، كان ذلك مستحيلاً بالنّسبة له. كان مجنونًا، طائشًا غير مسئول، هكذا فكّر فى أنّه عاجزٌ عن الاختيار، فى اتخاذ كلّ خطوة فى الحياة حتى النّهاية. كان يتصرّف كالأطفال كان طفلاً الطّفل الأنانى الذى يريد كلّ الحلوى الموجودة فى الوعاء الكبير وفى النّهاية لايأخذ أيًا منها.

شرب كاسًا آخر من مشروب الخينيبرا وأعقبه بكاس آخر حتى أصبح الفناء مظلمًا. فى النّهاية، كانت هناك حاجة للقيام بشىء، لمواصلة البحث عن ماريا مما اضطره للخروج لكنّه لم يكن يدرى إلى أيّن يتجه. كانت ليلة الصّيف مليئةً بضجيج الأعياد. تأمّل القرية من أعلى شارع الرّاهبات كانت هناك أضواء متفرّقةٌ فى التّلّ والوادى وعلى طول السّاحل. فى مكان ما، ربّما فندق إيسمولى، الذى كان دائمًا مكتظًا بالألمان، كانت تسمع موسيقى جوانتميرا وجد شرفة المقهى ملآنة عن آخرها بالنّاس. كان يشعر بأنّه مخذولٌ وجائع فى وسط تلك الضوضاء للرجال والنّساء الشّابات، إنّه الجنون المألوف لفصل الصّيف. مرّ الشّاعر ليناريس فى سيّارة لاندروفر وهو يصيح من النّافذة الصغيرة قائلاً : إنّ هناك حفلةً فى منزل النّوافذ الزّرقاء. وتوجّه إلى هناك خلف الأنوار الخلفية للسيّارة التى كانت تسير ببطءٍ فى الشّارع.

شقَّ طريقه عبر الجمع الغفير من النَّاس الذين كانوا يملأون الصالة والمطبخ وشرفة المنزل فضلاً عن الموسيقى الصَّاخبة التى كانت تدوِّى فى أرجائه. كان دربًا من الجنون أنْ يتخيَّل أنَّ ماريا يمكن أنْ تكون موجودةً هناك، لكنَّه كان يفاجأ أنَّ ماريا يمكن أنْ تكون موجودةً هناك، لكنَّه كان يُفاجأ بأنَّه يبحث عنها بين النَّاس التى كانت ترقص. حينئذ وجد الشَّاعر وريتشيل التى كانت كانت ترتدى فستانًا أحمر وقد وضعت زهورًا فى شعرها، رآها قادمةً وقد ركَّزت مقلتيها الفوسفوريتين بصورة خاصة عليه. لم يقل شيئًا عن ماريا. تناول معها كأسًا من مشروب الخينيبرا، كان قلقًا من جرَّاء ذلك السُّلوك الحميمى والسِّرِّى الذى كانت تسلكه ريتشيل معه. فابتعد عنها قدر استطاعته. التقى مع خوليا عند الباب المطلُّ على الشَّارع. قالت له ماذا بك يارجل فوجهك يعلوه حزنٌ شديدٌ. تمتم إيرنستو قائلاً : أبحث عن ماريا رغمًا عن أنفى. ضحكت خوليا ضحكةً هل هجرتك ؟ حسنًا مافعلت، فهذا العقاب هو الذى يستحقه الأزواج الخائنون. يتذكَّر إيرنستو أنَّ نفسه كانت تتوق ليصفعها على وجها.

كانت الليلة مكتظةً بالنُّجوم. بدا له شيئًا محزنًا أنْ يذهب إلى المنزل ويصعد إلى غرفة النَّوم من جديد وقد استحوذ عليه احساس بالذُّعر فى داخله. هل حدث شيءٌ لماريا. ففى قرية كتلك أىُّ حادث يعرف على الفور. لم يرها أحدٌ، كان شيئًا غريبًا. قرَّر

الانتظار حتَّى اليوم التَّالى قبل أنْ يبلغ عن اختفائها. كان ينتظرها منتبهًا لأى ضوضاء عارضة لسيارة فى الميدان وحتى لوقع الأقدام، خلع نعليه واضجع فى الفراش. غلبه النَّوم. استيقظ على زقزقة العصافير مع أوَّل خيوط لضوء النَّهار. كان مرتديًا ملابسه. حلَم بماريا. كانت ماريا وجدتها فى حديقة يتلقطان صورة، كانتا بعيدتين ولم يتمكَّن من الاقتراب منها. فالحنين الذى كان فى ذلك الحلم جعله ينهض مرتعدًا. كان عاجزًا عن أنْ ينام من جديد فانتعل نعليه وخرج إلى الشَّارع. كان الوقت مبكِّرًا والقرية مازالت تتدثَّر بضباب الصَّباح والعصافير والدُّيوك بالمنازل البعيدة تبدو وكأنها هى التى استيقظت فقط. بدأ يسير فى الطَّريق السَّريع على غير هدى، كان يسير بسرعة والسَّماء صافية جهة البحر. سيكون يومًا حارًا جدًا. كان يفكِّر فى ماريا بنوعٍ من اليأس الغاضب والمتسرِّع عندما رآها تجلس فى هدوء على حافة حجرٍ بالطَّريق ترتدى فستانًا بنفسيجيًا وقد شبكت بين يديها شاردةً فى تفكيرها. ابتسمت له لكن عينيها كانتا تبدوان هادئتين وغائبتين، لم يعبرا عن شيءٍ. كما أنَّها لم ترد عندما سألها مرتعدًا أين كانت.

نهضت وتبعته بسلاسة إلى المنزل. لم تتكلَّم. كانت تبتسم عندما يسألها عن شيءٍ كانت عيناها غير معبرَّتين. اصطحبها مباشرة إلى غُرفة النَّوم. طلب منها أنْ تضطجع فى الفراش. بعد ذلك نزل إيرنستو إلى المطبخ وسخَّن ماءً لكى يقدِّم لها فنجانًا من الشَّاى

السّاخن جدًا، فى النّهاية كان لها ردُّ فعلٍ. بدأت ترتعد وسكبت جزءًا من الشّاى على الملاءات وانفجرت فى النّحيب. قالت: كنت أريد أنْ أنتحر ولكنّنى لم أستطع. تناولت ستّة كئوس من مشروب الخينيبرا فى فندق كوستا دى أور كنت أفكّرُ فى أنْ ألقى بنفسى من فوق صخرة. وكنت هناك على الصّخرة. طوال ساعات. لكنّنى لم أستطع، لم أستطع.

- ٨ -

كانت مارجى وكريستينا تتحدَّثان بجوار النَّافذة، وقد جلستا فوق وسادتين : كانتا شاحبتين، إحداهما ترتدى ملابس سوداء والأخرى ملابس بيضاء، كانتا تبدوان وكأنهما شخصيتان من المسرح اليابانى. وكان فرناندو مضجعًا إلى جوارهما على الأرض فى هدوء، يسبح فى بحيرة من الأحلام الهادئة.

قالت كريستينا لإيرنستو عندما جلست إلى جواره بعد عودتها من الحمَّام: إنَّ صديقتك تدعونا إلى مكانٍ موبوءٍ.

ردَّ إيرنستو قائلاً: إنَّنى أتخيَّل ماهو، حيث فكَّر فى ملهى كاتامندو الذى ترتاده سيدات سيئات السُّمعة وتعتبر مارجى ملكةً متوجَّة ولا يدخل أىٌّ من الرِّجال هذا الملهى إلا من كان بصحبة مارجى على حدِّ قولها.

قالت كريستينا بصوتٍ أجش ومنخفض: يالها من امرأةٍ فاسدةٍ ومفسدةٍ. رآها إيرنستو من جديد وهى

ترتدى تنّورتها الصيفية الرّقيقة التى كان قد رآها بها فى منزله ذلك المساء فاهتّز قلبه لها. وكانت لهفته عليها تنبض فى حلقه.

قال لها أنت تثيرننى وتوقظين فى رغبات قديمة بسبب تلك التّنورة المفتوحة التى ترتدينها.

قالت مارجى التّنورة وكلّ الأشياء الأخرى.

قالت كريستينا أنتما تُخجلاننى فمن فضلكما أرجو منكما تخفيف حدة مشاعركما.

سمعوا فى تلك اللحظة دوّى زجاج قد انكسر وصيحةً فى الممرّ.

قالت مارجى إنّها جاكلين. وأسرعت صوب الممرّ.

فتح فرناندو عينيه

ماذا حدث ؟

نهض إيرنستو وأجابه قائلاً: إنّها مشاجرةٌ استطاع أنّ يرى عند الخروج الآنسة كولميناريس جاثية على ركبتيها بفستانها الأحمر بين النّاس الذين تجمّعوا حولها وكانت جاكلين تمسك بيدى كولميناريس التى كانت تحاول التّخلص والفكاك منها.

كانت كولميناريس تصرخ قائلة: اتركينى.

وكانت لويسا زوجة فرناندو تحاول تهدئتها. بينما كانت مارجى تمسك بقدميها.

ياعزيزى إنّ كولميناريس دخلت الحمّام على

جاكلين شرحت ذلك مارجى وهى ترفع نظرها صوب إيرنستو صرخت كولميناريس قائلةً: إنَّها أكاذيبٌ.

قالت جاكلين: هذا حقيقى، وأخذت تداعبنى بطريقة سيئة، ولم أكن أريد ذلك.

قال لهم إيرنستو : دعوها. سننصرف.

جلس القُرفصاء مستندًا على الجدار. كان فرنادو يبدو أنَّه متردِّد بين الحلم والحقيقة.

سأل من جديد : ماذا حدث ؟

إنَّ فتاتنا الشَّابة من فتيات الهوى.

أطلق فرناندو ضحكة صامتةً تحوَّلت إلى سعالٍ. جلس إيرنستو القرفصاء لكى يتحدَّث معه.

لقد صدُعت يا أستاذى. هل أكيدٌ أنَّك سترحل ؟

هذا أكيدٌ يا أخى. سأذهب إلى جزر البهاما. كانت نظرته الآن لها بريق جلىٌّ وحزينٌ. لقد يئست ياأخى فهذه المدينة... إنَّنا فى ورطةٍ. هل تعرف ؟ ليس لدينا مخرجٌ.

تنهد إيرنستو قائلاً: رُبَّما. نظر صوب النَّافذة، كانت أنوار المحراب المقدَّس وكاتدرائية نوتردام مطفأتين، وباريس عبارة عن بحر من الأسطح السُّوداء تحت سماء يونيو المتموِّجة. تذكَّر فى لحظة حفلات أخرى فى ليالى الصَّيف، عندما كان طالبًا، وانتابه إحساس شبه مؤلمٍ وحزينٍ على كلِّ الوقت الذى مرَّ منذ ذلك الحين نظر إلى فرناندو في ودٍ.

هل إلى الغابة إذنْ ؟

إلى الغابة يا أخى. إنَّ هذا هو الأمر الوحيد المتاح لنا.

ذات مرَّة... كانت ذاكرته بسبَّب تأثير الماريجوانا تبدو وكأنَّها تفسح المجال لنفسها بصعوبة عبر شقوق فى جدار النِّسيان -أراد والدى أنَّ أتولَّى أمر الاشراف عى المصنع. كانت أوَّل مرَّة عدت فيها من أوروبا بعد أنْ تزوَّجت لويسا. لكنَّنى... أنا الذى ترك المنزل فى سنِّ العشرين، عزف على القيثارة فى محطات المترو، ولم أفلح حتَّى فى ذلك يا أخى، كيف أنجح كرجل صناعة معلَّبات اللحوم. بزغت بين لحيته طيف ضحكة -قمت بمضاعفة رواتب العمال... وهنالك انتهى كلُّ شىء مع والدى ـ فجأة اغرورقت عيناه بالدُّموع ـ الغابة يا أخى، فلا يوجد غيرها.

وضع إيرنستو يده على كتفه وقال له : كل واحد يبحث له عن مخرج. وإذا فشلت فى ذلك فإنَّ زوجتى الجليقية وأنا فى انتظارك. أنت تعرف بورتو اسكونديدو.

فجأة يا أستاذى.

نادت عليه كريستينا ومارجى لدى الباب.

حلَّ خريفٌ آخر يخيِّمُ عليه الضَّباب، كانت هادئة وباردة جدًا، هجرها السِّياح، وصلت إليه رسالةٌ غير منتظرة من لينارد. بدا له فى الوهلة الأولى أنَّ مايقوله له كان وهمًا. يتذكَّر إيرنستو أنَّه احتفظ بالرِّسالة فى

يده (صفحتان من الورق الأزرق بخط صغير ومنمّق ومنسّق) حائرًا وهو ينظر عبر النّافذة إلى البساتين والتّلال التى يكسوها الضباب. كانت جارته السّيدة ماريا تنشر الملاءات على حبل. كان ليناارد يتحدّث له عن مشروع قديم يبدو الآن أنّه بدأ يتبلور بفضل ناشر من سويسرا، مجموعة تهدف إلى تقديم وثائق عن الواقع السّياسى فى أمريكا اللاتينية نظرًا لأنّ انتصار سلفادور الليندى فى شيلى جعل هذا الواقع هدفًا للاهتمام العام فى الدّرجة الأولى الإدارة والاعداد سيتمّان فى لوزان، لكنّ اختيار النّصوص والتّنسيق سينجزان فى باريس. قال ليناارد إنّ العمل سيكون مكثفًا فى البداية لكنّه مهمّ. لقد اقترح أنْ يكون إيرنستو منسّقًا (وإنْ كانت بعض النّقاط المعيّنة مثل الرّاتب على سبيل المثال) سيتمّ تحديدها مع السويسريين، كان الموضوع يبدو أكيدًا. هل يهمك ذلك؟

أذهله أنّه اكتشف أنّ ذلك الاقتراح لم يسبّب له سعادةً بل استياء مبهمًا. لم تعد باريس تجذبه الآن. ظلّ يتذكرها بتلك الصّور والمشاهد الحزينة فى ذلك الشّتاء الماضى عند مجيئه إلى مايوركا، عندما كان يبحث عن عمل مع ماريا، كانت الشّوارع قارسة البرودة والمكاتب حزينةً، مياه غزيرة فى النّعال. انتهى به الأمر فى مايوركا إلى أنّه أصبح ريفيًا من جديد. كان يعجبه ذلك الهدوء للعصافير وأشجار الزيتون فضلاً عن أنّه كان يعمل بشكلٍ جيد. كان كتابه فى

مرحلة متقدِّمة. ربما كان على وشك الانتهاء منه خلال أشهر الشِّتاء. لم يكن يدرى ما أهمية صفحات الذِّكريات القديمة تلك، عن حياته فى بوجوتا عندما كان طفلاً، لكنَّه كان يشعر بالارتياح وهو يكتبها : لأوَّل مرَّة لم يكن يشعر بداخله أنَّه جزوعٌ ومتلهفٌ وحزين. لكن كانت هناك مشاكل مالية، فالتوقعات بالحصول على ترجمات جديدة كانت مشكوكًا فيها. كان قد أكَّد له الشَّاعر ذلك. كانا يعيشان فى شظفٍ من العيش يأكلان مرَّة واحدةً فى اليوم (فى الليل قهوة باللبن وخبز وقليلٌ من الجبن) لكن الأمور قد تزداد سوءاً. من وجهة النَّظر هذه كان اقتراح لينارد مهمًا بالنِّسبة له. ومن المنطق أنّ يقبله. ومع ذلك (وفى تلك اللحظة ظلَّ ينظر عبر النَّافذة إلى التِّلال المكسوة بالضَّباب) ففكرة ترك عمله وهجر هذا الملجأ المطل على البحر المتوسط كان يسبِّب له ازعاجًا وقلقًا لا يمكن وصفه. فالقرار الذى سيتخذه سيكون مهمًّا. كان يُحسُّ بذلك. قرَّر انتظار ماريا التى كانت تقوم بعمليات الشِّراء من محل بيع التَّبغ لكى يعرف ماهو ردُّ فعلها.

لم يكن ينتظر هذا التعبير التلقائى بالسرور الذى أضاء وجه ماريا عندما قرأت السُّطور التى خطَّها لينارد. أبعدت الورق سعيدة. قالت له إن هذا رائع. كانت سعادتها تلقائيةً جدًا، كانت سعادة حقيقية لدرجة أنَّه لم يجرؤ على خذلانها.

كان من القسوة بمكان أن يجعلها تشاركهً شكوكًا لم تكن من شأنها. تتذكر كيف أنَّ الفستان الذى ترتديه

الآن زهيد الثَّمن، متواضع. كان يفكر: الآن يمكنها على الأقل شراء نعلين عاليين. إنَّه لنبأ عظيمٌ، ابتسمت له وقالت إنَّه لنبأ عظيمٌ جدًا.

لقد فعل كلَّ مافي وسعه لكي يتحكَّم أو يخفي مشاعر التَّوجس لديه، في الوقت الذي كان يتبادل فيه الرَّسائل مع ليناردو وكان السَّفر وشيك الحدوث جدًا. كان في أيام الاشتياق تلك يقوم بنزهات مع ماريا على الطَّريق في المساء المبكر وهو يتأمَّل أشجار الزَّيتون في الضَّوء الرَّمادي، والبحر الرَّمادي أيضًا والبعيد، والعصافير وهي تطير أسرابًا من فوق برج أجراس الكنيسة ومن فوق أشجار السَّرو الباسقة في الجبَّانة، وهو يفكر في الوداع، ويقول عجبًا : انتهى هذا. وخلال وقتٍ ما بلغ به التَّفكير أنَّه كان سيبقى هنا إلى الأبد مثل إيريك وماريانا. إنَّه مثلهما كان قد رأى مرور السِّنين دون قلقٍ، في تجويف تلك التِّلال، بمنازلها المشيدة من الأحجار والتي يسكنها الأشباح وخرير الماء الذي كان يُسمع دائمًا في الهواء النَّقي جدًا وأجراس الكنيسة والرِّياح في بعض الليالي تهزُّ درف النَّوافذ والأبواب. كان يؤلمه أنَّه سيغادر قرية ديًّا لكنَّه لم يقل شيئًا لإيريك وماريانا اللذين كانا يبدوان أنهما يشاركانه توجسه. لم يقولا شيئًا، لكن كان من الواضح أنَّ باريس، شأنها شأن نيويورك ومدنٍ كبيرة عاشوا فيها لم تجلب لهما السَّعادة. ذات ليلة بالضَّبط الليلة التي كانا يودِّعانهما، أخرج إيريك صورة له من محفظته وأعطاها لإيرنستو. كان وجهه في صورة

جواز السّفر تلك حزينًا، عجوزًا غاضبًا من كثرة التّوترات. قال له هاهنا ترى باريس فى وجهى، كانت العينان الزّرقاوان تبرقان لديه بشكلٍ غريب، شبه حزين على ضوء المدفأة. تلك الليلة، بينما كانوا يتناولون الطّعام فى مطعمٍ فى سولير، يتذكّر إيرنستو أنّ المحادثة كانت تهيمن عليها لحظات صمتٍ كثيرةٌ وكمن يقذف أعواد الحطب على نارٍ تنطفئ، كانت ماريا تتحدّث عن طفولتها فى نيكارجوا، عن مدرسة راهبات، وكيف تعرّفت على إيريك فى نيويورك. كان إيريك يلوذ بالصّمت. هل رأيت أنّه برج الحوت الذّكى، يتوقع الأمور بذكاء، يُحرّك أجنحته فى الظّلام عند الهواجس السّيئة ؟ فالحقيقة أنّ ماقاله مع آخر كأس كونياك هو : حسنًا، إذا حدث أمر سيئٌ فى باريس فإنّ هذه الجزيرة هنا ستكون فى انتظاركما دائمًا.

وعند العودة فى الطّريق السّريع، كانت مايوركا تغوص فى هدوء تام فى ليلة مليئةٌ بالنّجوم وحقول الزّيتون الفضية فى ضوء القمر.

وفى اليوم التّالى فى وقتٍ مبكّرٍ جدًا سلّما مفاتيح المنزل للسّيدة ماريا. وقد ألهما أنّ يتركا القرية فى ضوء النّهار البارد والبحر يُرى بين فراغات أو تجاويف التّلال.

فصل صغير بين فصلين

عندما أغلقت الجدَّة الباب ظلَّت الغرفة مظلمةً. أسمع صوت قبقابها يبتعد فى الفناء. كانت الأرضية الباركيه تُطقطق بالقرب من الفراش. أيوجد فئران ؟ كنت أرتعد وأكوِّم نفسى بين الملاءات الباردة جدًا. ياله من بردٍ قارسٍ ! فالليلة عبر النَّافذة حالكة السَّواد كالحِبْر الصِّينى. وفى الخارج فى الظَّلام المشَّبع بالرُّطوبة حول اصطبلات الخيول المحيطة، كان الضَّباب يطفو.

فى ليلٍ كهذه، تخرج الأرواح.

كانت أورورا تجلس على مقعد فى المطبخ وهى تضع فوق رأسها قطعة كبيرة من القماش، وشعلة الفرن تُشعُّ فى وجهها الدَّاكن والمدبوغ مثل إناء من الفُّخار، كانت تتحدَّث عن الأرواح : أرواح قريتها التى تتسكع فى حقول القمح والتى تدخل صوامع الحبوب والغلال والتى تترك أنوارًا زجزاجية تشير إلى المكان

الذى يوجد فيه هنودٌ حمرٌ مقبورورن. كان هؤلاء يئنون أحيانًا وأحيانًا يتنهدون. وأحيانًا أخرى كانوا يقذفون قراميد ساخنةً على أفنية المنازل.

لقد رأيت هذه الأرواح المسكينة التّعيسة والبائسة. هل سيدخلون إلى الغرفة ؟ كانت أكفانهم البيضاء تصعد السّلالم كانوا صفًا يئنون، يتوجّعون دائمًا، يؤدّون صلواتهم. كانت أيدى باردة تجرّنى من قدمى. إنّهم يتنهّدون، إنّهم يتألّمون. تدثّرت بالألحفة. كنت أرتعد فجأة، ياله من ارتياحٍ، دقات ساعة فى مكانٍ ما بالمنزل، أو ضوضاء آلة كاتبة. كانت والدتى تعمل. كانت والدتى كما هو معهودٌ عنها دائمًا تظلُّ حتى وقتٍ متأخّرٍ جدًا فى غرفة الصّحف تكتب على الآلة الكاتبة تاك، تاك.

ماذا تفعل هنا وأنت حافٍ ؟

كان صوتها رقيقًا، لكنّها كانت مذهولةً إلى حدٍ ما. كانت تجلس خلف المكتب المكتظ بالصّحف، ترتدى صديريًا أبيض من الصّوف وقد زرّرته حتى العنق، وعيناها السّوداوان تنظر إلىّ بلا انتهارٍ، عينان ودودتان بل مسلّيتان، تحت خصلة شعر داكنة، كان ملمس سترتها ناعمًا مثل جلد أرنب، ويدها تداعب رأسى.

إنّى خائفٌ ياوالدتى.

من أىّ شىءٍ تخاف، هيا بنا لنرى.

قلت لها: من الأرواح. ضحكت والدتى. وقالت لى: إنّها أفعال أورورا. فناس الرّيف طيّبون ولكنّهم جهلاء.

إذا رأيت كيف أنَّها ركعت عندما جعلناها تركب التّرام لأوَّل مرَّة. يالها من فضيحة، كان النَّاس يضحكون. الا ترى أيضًا أنَّ هذا الأمرَ يضحكك ؟ إنَّ الأرواح والشياطين ليسوا موجودين. إنَّها أمور يخترعونها لكى يُخوِّفوا بها النَّاس الجهلاء.

لكنَّ الغرفة مظلمةٌ جدًا ياوالدتى.

تعال سأرافقك حتَّى تنام.

إنَّها متفهمةٌ، كانت تتفَّهم ذلك جيدًا.

كان الضَّوء الرَّمادى للصَّباح يُرى خلف السَّتائر الرقيقة وفى مكان ما بعيد تدوِّى صفَّارة قطار. كان الصَّباح باردًا والشَّبُّورة كثيفةٌ. فجأة كان هناك إحساسٌ بأنَّ شخصًا يتحرَّك بصوت خافتٍ فى الغرفة. التفتُّ فوجدت والدى بالرُّوب ولم يحلق ذقنه حتى ذلك الحين وفى يده قميص. يافتى، هل أنت تُحبُّ التَّبكير أيضًا ؟ إذا أسرعت ستأتى معى. سأصطحبك إلى صالون الحلاقة، أعتقد أنَّ كلينا فى حاجة إلى حلقةٍ جيِّدة. كانت نظرته عجيبة وقد توقَّفت عند الكومودينو الذى كان يئنُّ من سجلات القدِّيسين. ماهذا ؟ لا شىء ياوالدى، إنَّها سجلات القديسين أهدتها لى راهبات دير المسيح الملك(*) عجبًا، عجبًا أعتقد أنَّه سيكون لدينا هنا أوَّل قسيس فى الأسرة.

كان يضحك دائمًا فى مرحٍ رائعٍ.

(*) Cristo Rey، بالفرنسية فى الأصل.

كنت أرتعد من البرد، خلعت البيجاما فى الحمَّام بينما كان والدى يحلق ذقنه أمام المرآة الموجودة فوق الحوض، الذى يغطِّيه الصابون، كان لها حفيفٌ خشنٌ وكأنَّك تستخدم ورقة سنفرة. ماذا تفعل لكى تجرح نفسك ؟ ماذا سأفعل أنا ؟ ياوالدى ماذا سأفعل لكى أحلق ذقنى عندما أكون كبيرًا ؟ إنَّها مشكلةٌ كبيرةٌ يا أيُّها الشَّاب. ستكون كثيف اللحية مثل تشيللى(*) .

بينما كنا نسير بالسَّيارة صوب وسط المدينة، كانت الشَّوارع تبدو وكأنَّها متجمِّدة من البرد فى ضوء الصَّباح الذى يكسوه الضَّباب. كانت عربات الترام تسير مترنِّحة بين منازل ذات أفاريزٍ عريضة. عندما توقَّفت السَّيَّارة عند إشارة مرورٍ، ارتفعت الأيدى والذَّقن فوق ياقة المعطف الرِّيفى العريضة، تعرَّفوا على والدى، وخلعوا قلنسواتهم وحيوه. تركنا السَّيَّارة أمام منزل ذا شرفات من الخشب عليها غبارٌ. وعلى امتداد الدِّهليز والسَّلالم التى كانت تطقطق والدَّرابزين الحديدى شديد الصَّدأ كنا نقابل أناسًا يحيُّون والدى وهم يخلعون القبَّعات. كيف حالك ياصديقى، كيف حالك. كان والدى يقول ذلك على عجلٍ، دون أن يتوقَّف حتى الوصول إلى مكتبه، حجرة بها مكتبٌ مكتظٌ بورق الطِّباعة وأربعة مقاعد من الجلد كانت تُصفِّر مثل كير الحدَّاد كلما جلس الشَّخص عليها. وفى الطَّابق السُّفلى كانت هناك آلة الطِّباعة فوق الباركيه.

(*) Cinelli، بالفرنسية فى الأصل.

بمجرَّد أنْ جلس والدى على المكتب، دخل رجل قصيرٌ يرتدى صديريًا وبدون سترةٍ ونظّارة من الثيلويد فوق عينيه ومعه بعض أوراق الطِّباعة فى يديه. كيف الحال ياريس. لقد كنت رائعًا الليلة البارحة. لقد سمعتك فى الاذاعة. لم يعره والدى اهتمامًا. يامونكاديتا اتصل بثينثيلى. ابتسم الآخر، لاتكن دمويًا، ياريس إنَّ ثينثيلى ينبغى أنْ يكون قد استيقظ. كان ينظر إلى والدى بفضولٍ. كيف تنام حضرتك ثلاث ساعات فقط وتستيقظ نشيطًا جدًا ؟ قال والدى : إنها عادات رجلٍ ريفى عندما كنت فى عمر هذا كنت أرعى الغنم فى الصحارى. ثم فى نبرةٍ ملحَّةٍ : يامونكاديتا، ساعدنى بالهاتف. هيًا لنُطيِّر النَّوم من وزيرين.

إلى منزل أسرة نوجاليس. كان والدى يرتدى حُلَّةً رمادية فاتحةً، أمام السِّياج الحديدى. نهضت واقفًا حتى أصبح وجهى على ارتفاع وجه والدى. كان الاحتكاك الخشن لخده هو آخر احتكاك. كانت والدتى تجلس فى السَّيَّارة، تضع على رأسها قُبعةً مستديرةً بيضاء شبه طفولية وقد ارسلت لبياتريث ولى بقبلة بطرف القُفَّازين. كان ثينثيلى يمسك بعجلة القيادة وغمزته المزحة تُطلُّ فوق اللحية الحمراء قام بتوديعى : مع السَّلامة ياكابتن. ذهبوا فى رحلةٍ إلى الأرض الحارة إلى توكايما. لن أراهم بعد ذلك قط.

يا إيرنستو، يا إيرنستو. كان الصوت الهامس والخائف لشقيقتى بياتريث ينادينى فى تلك الليلة.

كان ذعرى كبيرًا عندما وجدتها فجأة إلى جوار الفراش، كان قميص نومها أبيض ويشبه الشّبح فى ظلمة الغرفة. كنت مازلت غارقًا فى خيوط النّوم وكان ينتابنى إحساس بأنّ هناك مصباحًا قد أضىء فى الفناء، وهناك وقع أقدام، وأصوات طارئة. كان المنزل مستيقظًا على غير المتوقع عند الفجر. كانت بياتريث ترتعد.

حدث شىءٌ ما، كانت الجدّة تُقبِّل صليبًا، وكان الهاتف يرن فى كلّ لحظة.

دخلت أورورا الغرفة على عجلٍ. فتّشت فى الدّولاب بيدين متسرّعتين، خرجت فيما بعد وفى يديها معطف جدتى. اصمتا، ناما وبعد ذلك زمّارة سيّارة* أجرة فى الشّارع، كانت فوانيسها تضىء فى المطر. رأينا طيفين عبر النّافذة، طيف الجدّة وطيف رجل يرتدى معطفًا يمرّ بالحديقة تحت واقية المطر. ركبا السيّارة الأجرة. عندما تحرّكت السيّارة (تلاشت الأنوار الحمراء لفوانيسها الخلفية وهى تسير فى الشّارع إلى أسفل). بدا المنزل تخيّم عليه السّكينة. أُطفئت الأنوار، تزايد عبر زجاج النّافذة خرير هطول المطر.

قالت بياتريث : سأبحث عن أورورا.

اختفى طيفها النّحيف والذى كان مايزال يشبه الشّبح لدى الباب.

كنت أسمع خطواتها الحذرة وهى تنزل على السلّم. كان بوسعى أنْ أتخيّلها فى الظّلام وهى تتحرّك

بالمنزل فى صمت. وفى الظّلام. انتظرت كان هناك نقيق الضّفادع فى اصطبلات الخيول، وكان هناك كلبٌ ينبح. عادت بياتريث فيما بعد صامتةً وسريعةً. كان صوتنا منخفضًا مثل همسة.

كانت أوروا وإيرنستينا قد أضاءتا شمعةً فى المطبخ وكانتا تُصلّيان.

وكان قلبى ينبض بسرعة. قلت لها ابقى معى يابياتريث كن هادئًا، كن هادئًا. لكنّها أيضًا كانت ترتعد.

استيقظت والشّمس فى وجهى. كانت بياتريث عند النّافذة تنظر جهة الشّارع. قالت بياتريث: توجد سيّارات يوجد ناسٌ. أطلت. بالتّأكيد : توجد سيّارات، سيّاراتٌ كثيرةٌ وهناك أناسٌ فى الحديقة، على الرّصيف، أمام الرّواق : هناك حشدٌ كبيرٌ من الحلل والقُبّعات السّوداء يتحرّك ببطء ويفسح الطّريق لرجلين يسيران فوق المشب يحملان تاجًا من الزّهور. فجأة دخلت أوروا الغرفة كانت ترتدى معطفًا أسود بدلا من المريلة البيضاء التى كانت ترتديها فى كلّ الأيّام، كانت جفونها متورّمةً وأنفها أحمر. كانت تبكى. اصطحبتنا إلى الحمام وهى تبكى، غسلت لنا أيدينا ووجهينا بإيماءات فظّة كما لو كانت غاضبةً. جاءت العمة أميليا، شقيقة والدى لتبحث عنّا. كانت شاحبةً جدًا وعيناها حمروان جدًا. سألت هل فطرتما ؟ مرّرت يدها على رأسى وهى تتأمّلنى بطريقة غريبة.

بدأت تقول ينبغى عليكما الآن أنْ تحبَّا بعضكما البعض أكثر من أىِّ وقتٍ مضى، لكن ذقنها بدأت ترتجف فالتفتت إلى الخلف.

نزلنا مع بياتريث على السُّلَّم وقد أمسك كلٌّ منَّا بيد الآخر لم نر مطلقًا المنزل هكذا، مليئًا بالزُّهور زهور وشرائط زينة بنفسجية اللون أسفل السُّلَّم، والصَّالة والفناء مكتظَّان بالرِّجال والنِّساء كانوا يرفعون وجوهًا حزينةً نحونا ثم تلقَّفتنا دوَّامةٌ من السَّواعد والأصوات الهامسة. وصلنا إلى الصَّالة مدفوعين بتلك الدَّوَّامة. حينئذ سمعنا صرخات وعويل الجدَّة. كانت تجلس على أريكة الصالة، بين سيدتين كانتا تمسكان بذراعيها حتى لا تخدش وجهها. يا إلهى، يا إلهى ! هكذا كانت تصرخ. كانتا تحاولان إعطاءها كوبًا من الماء.

أجهشت أنا فى البكاء خائفًا.

ياله من مسكين، أعطوا ماءً للطِّفل أيضًا. لا، أخرجوه من هنا، فليذهبا إلى الفناء. إنَّهما مايزالان صغيرين لكى يشاهدا هذا.

كان العم إدواردو فى المطبخ دون أنْ يحلق ذقنه وكان ينظر بإمعان إلى مقدمة نعليه. وكانت هناك امرأة ريفية تبكى. كانت الشَّمس تغمر الفناء، النَّحل يطنُّ حول أصص زهور الجيرانيوم أو إبرة الرَّاعى. وكانت تُسمع من بعيد كما هو مألوف كلَّ صباح صفارة الرَّجل الذى يسنُّ المقصَّات.

قالت بياتريث : دعك من البكاء. هيَّا بنا نوزِّع الرِّيحان.

قالوا لنا إنَّ والدتنا ووالدنا سافرا وسيتأخَّران فى العودة. أخرجت العمَّات الآلة الكاتبة من غرفة الصُّحف ونقلن هناك ماكينة الحياكة ماركة سينجر لكى يعددن لنا أفارولات ومرايل سوداء. أدخلن الملابس فى صناديق وحقائب، كما غطَّين التَّسريحة التى كانت والدتنا تُمشِّط شعرها كلَّ صباح أمامها، كما غطَّين أيضًا جهاز تشغيل الإسطوانات ولففن إسطوانات رابسوديا المجرية وموسيقى التَّانجو لجارديل وفى الصَّباح الذى فككن فيه السَّراير، جاءت عربة نقل الأثاث القديم. قدَّمت لنا الجدَّة فنجانًا من الماء بالسُّكر فى المطبخ، وقالت لنا : الآن سنذهب لنعيش فى منزل العمَّات فى سانتا باربرا.

يالهذا المنزل الحزين ! ياله من منزلٍ كبير وياله من منزلٍ باردٍ ! له فناءان، به بستانٌ، به غرفة سفرة بزجاج لونه لون القلب المقدَّس على باب الدَّهليز. أمام المنزل فى الشارع المرصوف بالأحجار، كانت هناك قوافل من البغال تحمل الحطب وكأنَّنا فى قرية. كانت عربات التِّرام تئنُّ على النَّاصية : مازلنا نسمع عربات التِّرام فى وقتٍ متأخرٍ من الليل عند مرورها متجهة إلى ميدان سيمون بوليفار أو صوب ميدان الصُّلبان فى غرفة النَّوم ذات الأسقف المرتفعة التى زُيِّنت بالكرانيش والأشكال من الجصِّ. فى تمام السَّادسة، مثل الآن، يدوى صدى صوت أجراس كنيسة سانتا

باربرا بقوة فى المنزل. تحلّق طيور السُّنونو أو الخطّاف فوق السَّطح، تنبح كلبةٌ، كانت عماتى جالسات فى غرفة الحياكة، كنَّ يُصلِّين. كانت العمة روساريو نحيفةً ومعتلَّة المزاج دائمًا، نهضت من فوق مقعدها.

قالت لها العمَّة إميليا : افتحى عينيك جيدًا. سأغطى عصافير الكنارى.

كانت تتحدَّث إلى العصافير بصوت ودِّى هامس. كانت تقول لهم يالكم من مساكين، كم أنتم فى غاية الجمال، لقد تجمَّدتم من البرد. أمَّا الخادمات فعلى العكس من ذلك كانت تنادى عليهم بالصيحات والصُّراخ. كانت تأمرهم بالاستيقاظ فى الصَّباح، فى وقت مبكِّر جدًا، وتقتحم عليهنَّ حجرتهن المليئة ببراز اليمام وتقول لهنَّ : حتى لو كنتن ملكات لما كان بوسعكن أنْ تنمن فى هذا الوقت. كانت الجدَّةُ تقول : إنَّها أخلاقيات عانسٍ. كانت العمَّة أميليا أرملة. وكان زوجها يُدعى خائينتو سانشيث، أطلق على رأسه رصاصةً عندما كان يلعب وهو سكرانٌ ثملٌ الرُّوليت الرُّوسية(*) تقول الجدَّةُ إنَّها كانت جميلة جدًا وهى شابةٌ. كان وجهها لا يزال ناضرًا، ولكن كان يقلقها بدء ظهور تجاعيد بجوار عينيها فضلاً عن الشَّعرات البيضاء التى كانت تكتشفها فى شعرها. كانت كلَّ صباح بعد الإفطار تضرب ذقنها ألف ضربة حتى لايتكوَّن لها لُغدٌ. كانت قبل أنْ تنام تدهن وجهها بكريم تُعدُّه بنفسها. هكذا كانت بوجهها الأبيض والمتشنِّج

(*) لعبة من ألعاب القمار.

مثل قناع من الجصّ، تستمع مع العمّة روساريو إلى قصّة كولجات وبالموليف التى كانت تبثّها الإذاعة.

وكانت تقدّم لنا فنجانًا من الماء بالسُكر مع رغيف من الخبز ثمنّه سنتيان. كانت العمّتان تذكراننا بأنّنا الآن فقراءً وأنّ العم إدوارد و الذى ينفق على المنزل. كانت بياتريث وأنا نخشى أنْ تقوم العمّتان بإدخال الجدّة ملجأ للمسنّين. إنّهما كانتا تهدّدانها بذلك فى كلّ مرّة يتشاجران معها. إنّهما لا يُحبّانها. فى الواقع ليست والدتهما. لقد أخذوها من باب فعل الخير والإحسان. لأنّ إدواردبتو شخصٌ طيّبٌ جدًا على حدّ قولهما. فلم يكن يحظى بإعجابهما أنْ ندخل حجرة الجدّة. فالعجوز تدخّنُ بشراهة والدُخان يصيب الرئتين. لكن بياتريث كانت متمرّدة ولم تكترث بذلك. فبمجرّد أنْ العمّتين كانتا تحتسبان للاستماع إلى القصّص الإذاعية كنا ندخل غرفة الجدّة صامتين كما هو الحال الآن.

كانت ترقد فى سريرها من البرونز وتغطى ساقيها بلحاف، كانت الجدّة تبعد الصّحيفة التى تُطالعها وتنظر إلينا من فوق نظّارتها قائلة لنا صه صه وقد وضعت السبّابة على شفتيها. اذهبا إلى الصّالة وانتظرانى.

كان هناك صقيعٌ مصحوبًا برائحة قديمة للزُهور الذّابلة، كانت الصّالة تُثير دائمًا الذُعر. كانت أوورورا تقول : إنّ رجلاً يرتدى ملابس بنفسجية اللون يظهر هناك ليلاً.

ظهرت الجدَّة وعلى كتفيها شالٌ قالت : يالشدَّة البرد هذه الليلة. أغلق الباب كي لا يسمعونا. فبياتريث تريد تشغيل إسطونة كشفت القماش الذى يغطى جهاز تشغيل الإسطوانات ثم قامت بتشغيله ببطءٍ بعد أنْ لفَّت ذراع تدويره.

سمعنا الأنغام الأولى لآلة الكمان، ثم بعد ذلك صوتًا قديمًا حزينًا قويًا يغنِّى رامونا، رامونا، بدونك لاأستطيع الحياة. رفعت الجدَّة نظَّارتها ببطء ثم اتَّسمت عيناها بالحزن. كانت تقول إنَّ هذه الأغنية تذكِّرها بوالدتها فى الفترة التى كانوا يعيشون فيها فى لوكاندة بيتوليا سانشيث. كان يغنيها موسيقارٌ فى الغناء على أنغام قيثارةٍ. كانت تحكى لنا الموضوع نفسه: كانت والدتى تعمل فى البنك وكان والدى طالبًا بالحقوق ويقيم فى اللوكاندة نفسها. وكان كلٌّ منهما يُحبُّ الآخر حبًا جمًا وكانا يذهبان إلى ريتز ليرقصا.

ماذا تفعلون هناك ؟

كانت العمَّة روساريو تتدثر روبًا عليه زهور، وتقف لدى الباب وتنظر الينا بوجهٍ حزين.

وارفعوا هذه الإسطوانة فهذا المنزل فى حالة حداد. أغلقت بياتريث غطاء جهاز الإسطوانات ثم وضعتْ عليه القماش. كان جانبًا أنفها يهتزان من الغيظ. أمَّا الجدَّة فكانت تعضُّ شفتيها. عندما تركتنا الجدة بمفردنا، نظفت نظَّارتها بظهر المريلة ببطء جدًا. قالت العمَّة روساريو ينبغى أن نتحلَّى بالصَّبر.

عندما ينتابنى التَّعب سأصطحبكما إلى قريتى إلى سيسكيلى. ستريان كم هى جميلةٌ فى وسط حقول القمح، بالطبية النَّاس هناك، لازالوا يتذكَّرونَّنى أصبحت عيناها أشدَّ حزنًا، وكانت دمعة تتراقص فى رموشها.

سنعيش سعداء نحن الثَّلاثة، سترون ذلك.

اعتادت الجدَّة على أنْ تُحدِّثنى عن الحرب، كانت تستحضر لى المشاهد المشئومة، واورسو مدينة أنقاض، كان الألمان يتساقطون كالخفافيش فى معسكرات زهور الخزامى فى هولندا وبروكسل، وكارثة دونكيركى. لكنَّها فى هذا المساء لم تقل شيئًا، لقد ظلَّت مذهولةً، ونظَّارتها على جبهتها، وكانت الصَّحيفة أشبه بشىءٍ ميِّتٍ بين يديها.

"سقطت باريس" قالت فجأةً، وكان صوتها بعيدًا رطبًا من الحزن. وخلال الصَّمت الذى أعقب ذلك، سمعت من جديد دقَّات أجراس السَّادسة، لم تكن فى هذه المرَّة أجراس سانتا باربرا بل كانت لكنيسةٍ لأخرى أكثر بعدًا منها. كانت ذبابةٌ تطنُّ على الزُّجاج. كانت هناك أيضًا دقَّات ساعة المنزل. "يبدو أنَّ رجلاً انتحر هذا الصَّباح فى بوجوتا عندما علم بالنَّبأ. كان فرنسيًا.

كان مكتب المدير يتَّسم برائحة غرفة المقدَّسات فى الكنيسة، كان المكتب صامتًا مثل صمت غرفة المقدَّسات ولم يخترق هذا الصَّمت سوى دقَّات ساعة

بندول على الحائط. فُتح بابٌ فجأةً ولم أر سوى ذيل ثياب قسيس فوق جوارب طويلة سوداء ونعلين بإبزيم من الفضّة قبل أنْ أدرك أنّ الكاهن الذى دخل توًا وقد خلع قلنسوته ووضعها على الطّاولة، وترك جمجمة مستديرة ذات شعر صغير عارية، كان هو المدير.

نهض العمُّ إدواردو واقفًا. يا أيُّها الأب إنّنى أحضر لكم هذا الإبن وهو نجل رجل ليبرالى يمقت القساوسة.

تفحصنى المدير من خلف نظارته ذات الشّمبر الصُّلب بنظرة باردة ومهنية لطبيب أسنان. قال القسيس إنّه لا يزال صغيرًا ماعمره ؟ أجاب العمّ : عشر سنوات. فى عمره كنت أنا ووالده نصطحب الماشية إلى الأسواق. انظر أيُّها الأبُ : أفضّلُ أنْ تحافظوا عليه حضراتكم. إنّنى سأذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية ولن أستطيع ترك هذا الصّبى مع عمتيه : إحداهما مريضة بالقلب وأنا مضطرٌّ لإرسالهما إلى مكانٍ حارٍ لكى يعيشا هناك. نظر إلىَّ المدير من جديد متردّدًا وقرّر فى النّهاية. حسنًا يادكتور اتركوه. سنجعل أبناء النّمر هؤلاء أفضل الخراف الوديعة (أىّ سنجعل من أبناء الوحش الضّارى حيوانًا أليفًا وديعًا ومستأنسًا)

استيقظت على دوى قرع جرس فى الممرّ، أضيئت الأنوار، طُرِقَتْ الأبواب: السّاعة الخامسة صباحًا هى ساعة النُّهوض من الفراش. كانت غرفتى صغيرةً غير

مزخرفة وبها سريرٌ سفريٌ أبيض، وحوض لغسيل الأيدى وأيقونة على الحائط. كان النُّعاس مايزال يداعبنا، وحتى نرتعد من البرد، اصطفَّ طلاَّب الدَّاخلية فى صف بالممرِّ رغمًا عنهم. كان المشرف متشنِّجًا، وكان وجهه عبوسًا صلبًا غير معبِّر مثل حجرٍ، ضرب المشرف على المجموعة ضربة قوية على كتاب الصَّلوات. تحرَّك صفُّ التَّلاميذ، نزلوا السَّلالم كدودةٍ طويلة ودخل المصلَّى ذات القباب الرَّنانة. سعال، طقطقة المقاعد رائحة البخور على الرِّيق، الملمس الخشن للوح الخشبى مع الرُّكبتين، كان صوت المشرف فى ظلِّ المصلَّى ينشدُ ويترنَّم فى حزنٍ: ياإلهى لا تجعل روحى تضلُّ مع الكافرين ولا حياتى مع الرِّجال الدَّمويين الذين لا يُرى فى أيديهم سوى مزيدٍ من القلق وفى يمينهم سوى الرَّشاوى. ضرب على كتاب الصَّلوات بكفِّه مرَّةً أخرى لكى نركع على ركبتينا عند رفع القربان المقدَّس وضربةً أخرى ينبغى أنْ نخرج فى نظام صوب غرفة الطَّعام. كانت الممرَّات فظَّةً على جانبيها أقواسٌ من الأحجار، والسَّلالم، والأبواب، وبلاط الأرضية، وفناء قارس البرودة وحزين به سلتان لكرة السَّلة : إنها المدرسة الدَّاخلية. وأنا أسأل نفسى والبرد يغزو نفسى، أين توجد الجدَّة، أين بياتريث، وكم يومًا وشهرًا وسنوات ماتزال فى ذلك العالم.

الفصل الثانى

- ١ -

إنّ القدوم من الطّقس الصّحو للبحر المتوسط، حيث العصافير السّعيدة والرّوائح الذّكية لكى يجد المرء نفسه فى تلك الشّقّة المتهالكة التى استأجرها ليّنارد والمليئة بفظاعات لا جدوى منها (كان فيها بيانو لا فائدة منه فى الصّالة، ويتذكّر أنّ البيانو كانت تفلت منه أحيانًا مقطوعة موسيقيةً فى دجى الليل دون أنْ يلمس أحدٌ مفاتيحه) كان هذا القدوم بالنّسبة لإيرنستو أمرًا يبعث على الحزن. كانت ماريا قد حاولت إصلاح ذلك المكان حيث حملت قطع الدّيكور الكارثية وأودعتها غرفة المهملات (شمعدانات، أدوات صيدٍ حيوانات، طفايات سجائر رديئة جدًا كانت على شكلٍ نصل أو سيف) كان كلٌّ ذلك بلا جدوى. وكان ليّنارد يصرٌّ على أنّ كلَّ هذه الفظاعات لها علاجٌ، تحدّث بإسهابٍ عن أقمشةٍ وستائر، عن أوراق حائط جديدة، وانتهى به الأمر إلى أن أشار عليها بأنّ كان من الصّعب الحصول على مكان فسيح كهذا فى

باريس بسعر زهيد. قرَّرت ماريا عدم بذل مجهود، واقتصرت على شراء منظِّفات صناعية قوية لتنظيف القاذورات التى تراكمت خلال كثير من العقود. اشترت أيضًا عصفور كنارى أسموه فيدل أدخل البهجة بتغريده على ذلك المكان الذى يشبه الضَّريح، وكان يتحرَّك دائمًا فى قفصه، إلى أنّ جاء يوم، بعد مجيئهم بشهور فلقى حتفه مسمومًا نتيجة تسرب الغاز فى المطبخ. كانت ماريا تقول على الرَّغم من ذلك كلّه: إنّ الشَّقة لها طابع خاصّ "الفن الجديد" الذى كان موضة فى ذلك الوقت. ظلَّت ماريا على مدى أيَّام كثيرة دون أنْ تتمكَّن من أنْ ترسم شيئًا. كانت تقضى الوقت وهى تُطلُّ من النَّافذة على طريق مكفهر كانت تمرُّ به دائمًا قطارات الضَّواحى. وعندما يحلُّ الليل كان الجانب الآخر من الطَّريق يضاء بلافتة من النِّيون الأخضر كتب عليها : "موقف سيَّارات" كانت اللافتة تضىء بشكل متقطِّع وترسل إلى الصالون بضوئها الوهمى.

ومما زاد الأمر سوءًا أنَّ العمل الذى اقترحه لينارد ليس مضمونًا. فدار النَّشر الشَّهيرة المعروفة باسم "العالم الجديد" سرعان ماتقلَّصت وانحصرت فى غرفتين فقط غاصَّتين بالكتب ومضاءتين على الدَّوام بنور الكهرباء ولا يعمل فيها سوى محاسب وسكرتيرة. كانت الفتاة ذات مظهر قاس وبارد كأنَّها مربيَّة. والمكاتب فى شارع القدِّيس ألبرت، وهو عبارة عن شارع متعرِّج وضيق وبه كثير من المطاعم العربية ومنازل متهالكة أشبه بالأطلال. لم يكن المحاسب، وهو

رجلٌ عجوزٌ مرهقٌ يعرف شيئًا عن مجموعة ليناردالجديدة. كما نبَّه إيرنستو إلى أنَّه ليس معه تصريح عمل فى فرنسا وهو موضوعٌ ينبغى أنْ يتحدَّث بشأنه مع السّويسرى السَّيد كريستوفر عندما يصل إلى باريس، كان يتحدَّث عنه دائمًا بطريقة موقَّرة. ظلَّ ينتظر السّويسرى طويلاً، وكانت الأيَّام تمرُّ وبالتَّالى موارده المالية تتراجع بشكل خطيرٍ. كانت ماريا وإيرنستو يتغذَّيان فقط على الخبز والقهوة باللبن. وكانت التَّدفئة فى الشُّقَّة سيئةً للغاية. وكانت أيَّام الآحاد قارسة البرودة وهما بدون نقود، كانت تلك الأيَّام حزينة اللهم إلاَّ عندما كان الشَّاعر لينارد يظهر ومعه فتاته ذات الشَّعر الأحمر وزجاجة خمرٍ، يتحدَّث إليهما عن تأثيرات الأفلاك والكواكب. كما كانا يرونه دائمًا مولعًا بالتَّحليل النَّفسى وبالأمور الشَّهوانية. أمَّا على مدى أيَّام الأسبوع الأخرى كانت ممرَّات المترو المكتظة بقطعان البشر المرهقة تبدو لإيرنستو حزينةً جدًّا، لذلك شرعا يرتبان لحالهما بمرارة شديدةٍ ويندمان أشدَّ النَّدم على مغادرتهما لقرية ديًّا تنفس إيرنستو الصَّعداء فقط عندما ترامى إلى علمه أن السَّيد كريستوفر وصل إلى باريس.

عندما رآه لأوَّل مرَّةٍ فى بهو فندق مفروش بالبُسط فى شارع فريدلاند أخذ انطباعا بأنَّ رجل الأعمال هذا رجلٌ متسرِّعٌ وباردٌ. كان يلبس نظَّارة ذات شمبرٍ معدنى رقيق، وكانت عيناه الزَّرقاوان تعبِّران عن عدم الثِّقة وعندما التقى بإيرنستو فتح حافظة أوراقه

الجلدية وراجع بعض الأوراق ووجّه إليه بعض الأسئلة بنبرة مأمور شرطة هل حضرتك مكسيكيّ ؟ سأله السّيد كريستوفر آه، لا؟ حسنًا، كولومبى، مكسيكى، أرجو المعذرة، كل هذا بالنسبة لى، سيان. سيان، ثم أردف : أكلمّك بصراحة أنا لا أعرفك. أنا لا أدرى هل أنت الشّخص المناسب، إنّنى أجهل قدراتك، لكنّنى أثق فى السّيد لينارد، فليس أمامى مناصٌ سوى ذلك. لست أديبًا (حاول التّبسّم لكن إيماءاته كانت مؤلمةً وربما تميل إلى السخرية) : إنّنى رجل حسابات وأرقام. ثمّ شرح له فيما بعد أنّ أعماله التّجارية كانت حتى ذلك الحين الإرشاد السياحى والكتب الحافلة بالصّور لتسهيل التّعرف على المناطق النّائية فى العالم. أمّا الآن فإنّ سلسلة "العالم الجديد" تلبيةً لطلب السّيد لينارد تريد أن تُضفى بعداً سياسيًا واجتماعيًا على طبعاتها. تشى جيفارا، حرب العصابات، كلّ هذا نال اهتمام جمهورٍ معين، فالآن تحظى شيلى باهتمام واسع فى الصّحافة الأوروبية، أمريكا اللاتينية محطّ اهتمامٍ كبيرٍ. كما تعرف لست رجل سياسة. إنّنى لست أكثر من رجل أعمال. إذا نجح الموضوع فبها ونعمت. على أيّة حال كانت مخاطرةً محسوبةً. تقتصر على استثمارٍ أساسى. لن يكلّف نفسه الاطلاع على النّصوص سيقوم بنشر مايوافق عليه السّيد لينارد. فالأعداد والمبيعات هى التى ستحدّد معدّلات النّجاح. فيما يخصّ تصريح العمل، عليك حل هذا الأمر. فهذه ليست مشكلتى. ينبغى أنّ

تراعى بنود القانون فى هذا الشأن. هل كنت واضحًا؟ قلت له: كلُّ شىءٍ واضحٌ ياسيد كريستوفر.

عاد إيرنستو إلى شقَّته بطعم المرارة فى فمه. قال لماريا عندما سألته عن الرَّجل السَّويسرى: إنَّه بائع سجق يتذكَّر إيرنستو أنَّهما كانا جالسين فى الفراش. كان ضوء أصفر يتدفَّق من مصباحٍ بالسَّقف. كانت ماريا قد تدثَّرت بالألحفة والأغطية لتحمى نفسها من البرد. وإيرنستو يحسُّ بأنَّ نعليه مفعمان بالرُّطوبة. سرعان مادعته الضَّرورة لكى يكون له ردُّ فعلٍ على ذلك الاحساس بالاكتئاب الذى كان يستحوذ عليه. قال لماريا : انظرى إنَّنى أريد أنْ أرسل السَّويسرى وكل ذلك إلى الجحيم ولدى رغبة محمومةٌ للعودة إلى مايوركا. نظرت إليه ماريا فى جدِّية. قالت منذ أيَّام وأنا أفكِّر فى ذلك لكنَّنى لم أجرؤ على أنْ أقول لك شيئًا. إنَّ باريس بلا نقودٍ فظيعةٌ. فأنا عندما أتوقَّف أمام واجهات المحلات وآراها مليئةً بالأشياء المعروضة.. يا إيرنستو لم أشعر قط بإغواء السَّرقة : أمَّا هنا فقد انتابنى هذا الإغواء. نظر إليهما فى ذهولٍ قبل أنْ يضحك. قال لها فيما بعد : لا شىء من ذلك خطيرٌ. سنعود إلى مايوركا.

ويتذكَّر إيرنستو أنَّه كان قد عزم على أنْ يتحدَّث مع لينارد فى تلك الليلة ذاتها. وسرعان ماساده انطباعٌ من أنَّه تخلَّص من عبءٍ كبير كان يثقل كاهله ولاسيما أنَّه الآن يستعد للعودة إلى قرية ديًّا ففى نهاية المطاف كان همه الوحيد هو إنهاء كتابه. أمَّا

ماريا فمن جانبها كانت سعيدة لأنها ستعود لترسم لوحاتها بالألوان المائية بعد أنْ خذلتها باريس. كان إيريك قد عرض عليها أنَّه سيبحث لها عن قاعة عرض في برشلونة، القاعة نفسها التي يعرض فيها أعماله النَّحتية. كانت لوحاتها جميلةً جدًا لعلها ذات يوم تُحقِّق النَّجاح، لم لا ؟ على أيِّة حال كانت الكتابة أو الرَّسم الأمر الوحيد الذي له مغزى بالنِّسبة لهما، وفي باريس على الرَّغم من كلِّ الصُّعوبات لكي يظلاً على قيد الحياة، لم يكن هناك وقتٌ لأيِّ شيءٍ آخر. فالمجموعة السِّياسية لم تكن إلاَّ صفقة لتاجرٍ صغيرٍ. عجبًا، في أيِّ شرك وقع إيرنستو، هكذا كان يفكِّر، وهو يتوجه في المترو حيث يجلس كان يرى إعلاناتٍ كثيرة معلَّقةً في كلِّ محطة عن الغسالات، وصلصة الخردل والمياه ماركة إيڤا(*) التي تجلب السعادة.

وجد أسرة ليـنارد ترتدي ملابس كأنَّهما في حفلةٍ، كان أفرادها ينتظرون أناسًا آخرين. ألحُّوا عليه لكي يبقى معهم دون أن يعرفوا لماذا أتى إيرنستو. قدموا له كأسًا من الويسكي بكثير من الثلج وقرَّبوا إليه طبقًا به زيتون. كانت نار المدفأة لطيفة. وكانت أونا ترتدي حُلَّةً خضراء رقيقةً من الحرير. ضحكت أونا كثيرًا عندما حدَّثها عن مقابلته مع السويسري واصفًا إيَّاه بأنَّه رجل يهمُّه ما يوزعه كتاب عن تشي جيفارا، ومتابعات السُّوق القوية التي أنجزها ريجيس ديبراي أو الوحدة الشَّعبية الشيلية. لكن أونا لم تشأ

(*) Evian، بالفرنسية في الأصل.

أن تأخذ بجدية قراره بالعودة إلى مايوركا. قالت له: أنت مجنونٌ، لا يمكنك أنْ تعود فقط بسبب هذه السَّفاهة. كان لينارد يبدو قلقًا. قال له: دعني أتحدَّث مع الإسكندنافي. فلأنه رجل أعمال ممتاز فإن لديه من الحيل ما لا تجده عند أيّ شخص من الغجر. لكن من الممكن إقناعه بأنْ يدفع لك راتبًا جيِّدًا وأن يجد حلاً لمشكلة تصريح العمل. هكذا يكون التصرف، قالت أونا وهي تنظر إليه بفضول . أمرت زوجها بأن يصبَّ كأسًا آخر من الويسكي لإيرنستو ذلك الشُّجاع البوجوتي (نسبةً إلى بوجوتا عاصمة كولومبيا) الذي يبدو أنَّه بردان جدًا ويعاني من الكبت. هل قرأت عن العظيم ويليم؟ لم يكن إيرنستو يدري عن ماذا يتكلم؟ كرَّرتها أونا مرَّةً أخرى. ويليم ريتس. مطلوب جدا بالنسبة لمواطن بوجوتي مثلك. قال إيرنستو ضاحكًا على العكس تماما. ففي هضبة الإنديز تسبَّب ريتس في تلفيات كارثية. دون أنّ نذهب بعيدًا ضرب عرض الحائط بنوعٍ من الزَّواج كان موجودًا في بوجوتا. قالت أونا ضاحكة: هذا أمرٌ عجيب. رجلٌ عاقبته زوجته. هل هذا حدث ؟ قال إيرنستو : فعلاً كانت بيننا خلافات. أنا أفكِّر مثلما يفكر أحدهم في أن المرأة يجب أن تكون حالمة، مدلَّلة، ومتوهمة، يجب عليها أنّ تزجَّ بنفسها في حب متأجِّج. وهنا وافق لينارد قائلاً أنا متفق معك بالكامل فقالت أونا: إنكما رجلان مرعبان.

بعد ذلك بقليل بدأت تلك الشَّقة تعجُّ بالنَّاس، نفس نوعية النَّاس الذين كان قد قابلهم هو وماريا

قبيل سفرهما إلى مايوركا والفارق الوحيد هو أنَّ كثيرًا من الحاضرين اقتربوا منه مهتمين بمشروع طبعات "العالم الجديد" قالوا له من الضَّروري إصدار تصريح أو بيان مسبق ذي نوايا سياسية يتم التَّعبير فيه عن تأييد صريح لكوبا وللعمليات الثَّورية في أمريكا اللاتينية. كان ينبغي تبديد كافة الشُّكوك عن دار النشر تلك في أنَّها ليست مدعومة أو تتلقَّى مساعدات من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. أدرك إيرنستو على وجه السُّرعة أنَّ أصدقاء لينارد من أمريكا اللاتينية الذين يقضون حياتهم في مؤتمرات أدبية وفي مؤتمرات مناصرة لقارتهم كانت لديهم عن بعدٍ نظرةٌ سطحيةٌ وانفعالية عن حرب العصابات التي كانوا يكتبون عنها قصائد كثيرةً. أمَّا رفاقهم الفرنسيون فلم يكونوا على دراية ببواطن الأمور مثلهم تمامًا. ويتذكَّر إيرنستو أنَّه وجد نفسه أمام فتاة فرنسية في غاية الجمال، ذات عينين خضراوين وأناقةٍ صارخة، كانت قد تعرَّفت على تشي جيفارا في هافانا وكان تشي جميلاً بحق هكذا قالت متنهدة. لحسن الحظِّ إنَّ الكفاح المسلَّح الذي كان يدعو إليه اشتدَّ في جميع الأرجاء، أليس كذلك ؟. أمَّا هو فقد كان على استعداد لكي يلقي ماءً باردًا على كل هذه الاعتبارات الورعة ؛ أدرك أنَّ الكفاح المسلَّح دخل مرحلةً من التَّراجع. ربَّما تكون قد حانت اللحظة لإعداد تحليل نقدي لهذا النَّمط من الكفاح ؛ سيكون ذلك إحدى النِّقاط القوية في السِّلسلة الجديدة.

لاحظ على الفور أنَّ هذا الرأى سبَّب حيرةً للفتاة الفرنسية، وأثار عند مرافقيها نوعًا من الرفض البارد. تبادلوا النَّظرات فيما بينهم. تدخَّل فى النِّهاية شخص ذو صدغين فضيين ويدلُّ وجهه على أنَّه سينمائىٌ كان يجلس إلى جواره: اختلف مع الصَّديق، كان الشَّخص يرتدى بليزر بزراير ذهبية، وكان يضع تلفيحةً من الحرير ويتكلَّم بلكنةٍ أرجنتينية. قال لنفترض أنَّ وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أصدرت شهادة وفاة للحركة الثَّورية فى أمريكا اللاتينية. أنا أعتقد أنَّ الكفاح المسلَّح شديد الثراء، وبه كثيرٌ من التَّغييرات وماعلينا إلاَّ أنْ نمده بتأييدنا بلا تحفظات. وافق الآخرون على ذلك: هذا بلا شك هو المطلوب. تدخَّل لينارد بنبرة مصالحة وقد هزَّ كأسه من الويسكى فى يده: إعداد تقرير نقدى لن يتعارض مع تأييد ومساندة القاعدة العريضة وهذا بالتَّأكيد هو ما يقصده إيرنستو. صدرت عن الأرجنتينى إيماءةٌ من التَّشكك السَّاخر. لم يرد إيرنستو أنْ يظلَّ صامتًا وقال: أعتقد أنَّ حرب العصابات هى وسيلة مثل أية وسيلةٍ أخرى، أحيانًا تصلح، وأحيانًا أخرى لا تصلح، فكلُّ شىءٍ يخضع لظروف معيَّنةٍ لكلِّ دولة. إنَّنى لا أتحدَّث عن المشاعر بل عن الواقع الموضوعى. بعد ذلك نلوِّح بالعلم الأحمر، من على مسافةٍ معقولةٍ، سيكون أمرًا سهلاً للغاية.. أحسَّ حوله بجليدٍ من الصَّمت الرَّافض، كسرته أونا بدعوتها للأرجنتينى لكى يرقص رقصة

التَّانجو، وسرعان ما تشكَّلت حولهما حلقةٌ صاخبةٌ. كانت أونا شقراء متألقةٌ تحاكى الرَّقصة بشكلٍ ساخرٍ ومسلٍ حيث كانت هى نفسها تتقهقر إلى الخلف بينما كان الأرجنتينى بصورة إنفعالية تتواءم مع قامته يمسكها من خصرها. لاحظ إيرنستو أنَّ أونا لها ساقان جميلتان جدًا. لذلك جملته رقصة التَّانجو مضطربًا. فجأة أدرك أنَّ لينارد إلى جواره يتحدَّث معه. قال له: أنت على صواب، لكن ينبغى عليك أنْ تكون حذرًا، فالجميع لا يثقون كثيرًا فى دار النَّشر هذه. ردَّ عليه إيرنستو: انظر يالينارد إنَّنى دبلوماسى، لكن فى النِّهاية سأعود إلى مايوركا، فالموضوع محسومٌ. لم أتحمَّل على الاطلاق ثوار الصَّالونات. ابتسم لينارد وقال له : لا تكن مندفعًا طائشًا سنتحدَّث غدًا.

عندما كان يستعد للانصراف تقدمت أونا إليه وسألته: والآن، ياسيدى، هل فقدت مالديك من محرَّمات ؟

رد إيرنستو: سياسيًا نعم، وجنسيًا لا أدرى.

نظرت إليه فى دلالٍ. كانت تقضم بأسنانها مكعَّبًا من الثَّلج. سألها إيرنستو أخبرينى ما اسم هذا الثَّورى الأرجنتينى ؟ ذلك الذى كان يرقص التَّانجو معك .. يرتدى بليزر وتلفيحةً من الحرير. بلعت أونا مكعَّب الثَّلج من الضَّحك وقالت : يالك من شخصٍ لعوبٍ! إنَّه متيَّمٌ بى. رد إيرنستو هذا ملحوظٌ. إنَّه أوَّل المعجبين

بي... في هذه اللحظة. قال إيرنستو موافقًا : هذا أمرٌ رائعٌ. قالت أونا : إنَّه شاعرٌ كبيرٌ، ألم تسمع عن إسترادا أويوس، يا أيُّها الشُّجاع البوجوتي (نسبة إلى بوجوتا عاصمة كولومبيا). ردَّ عليها إيرنستو قائلاً : مطلقًا. إنَّه ليس شاعرًا فقط بل موظفًا كبيرًا في منظمة اليونيسكو. قال إيرنستو : أرى أنَّه يعيش حياةً خطيرة جدًا. برقت حدقتا أونا بين جفنيها الرَّطبين بسبب طلاء الجفون وقالت له لا تكن سيئًا إنَّني أحبُّه.

قال إيرنستو لماريا إنَّ الحفلة في منزل لينارد كانت مقزِّزة. فالمشكلة الوحيدة تكمن في إيجاد نقودٍ للعودة إلى قرية ديَّا لكن في اليوم التَّالي حينما كانت ماريا تضع ملابسها في الحقائب، اتصل لينارد بإيرنستو وقال له كلُّ شيءٍ جاهز، السُّويسري يريد أنْ يراك. فكلُّ شيءٍ جاهزٌ بالفعل. سيدفعون لك ألف دولارٍ شهريًا اعتبارًا من اليوم الذي وصلت فيه إلى باريس. قدَّموا له مبلغًا لتجهيز مسكنه، لكن في المستقبل سيحصل على النُّقود في لوزان لتفادي المشاكل مع الضرائب الفرنسية ومع تصريح العمل الأمر الوحيد (وهنا كان كلام السُّويسري مثل طبيبٍ يسوق تحذيرًا خطيرًا لمريضه) هو أنَّه لن يكون هناك ضمانٌ اجتماعيٌّ. ضحك إيرنستو. لم يكن لي ضمانٌ اجتماعيٌّ على الإطلاق، ولا شيءٌ من هذا القبيل. إنَّه العالم الثَّالث ياسيد كريستوفر. نظر إليه السُّويسري في حيرةٍ وقال له : هذا صحيح، فأنت مكسيكيٌّ...

ولكن المسئولية سوف تقع على عاتقك. وأنا أنبهك لذلك من الآن.

عندما عاد إلى الشّقة قال لماريا: علّقى الملابس مرّة أخرى وسوف نذهب لنشترى لك حذاء ومعطفًا. وبعد ذلك سنذهب إلى السّينما ونأكل فى مطعمٍ: ألا توحى لك السّيارة النوريندو بشىء ؟

لم تستطع ماريا أنّ تصدّق أنّ هذه العملات الورقية التى كان يطلعها عليها حقيقةٌ بعد أنّ خرجوا من منزل فرناندو، ذهبوا فى سيّارتين إلى منزل مارجى. كانت مارجى بالتّأكيد تريد تذكرة هيروين. كان هذا عادة عندها، يتطلبها الانتقال إلى هذيان الفجر. وبينما كانوا يستقلون السّيّارة فى الشّوارع الخالية والمظلمة فى حى مارايس تساءل إيرنستو عمّا إذا كانت كريستينا التى كانت تركب بجواره نحيلةً ومتألّقةً فى فستانها من الحرير، مدمنةً مثل الأخريات. لم يكن يبدو له ذلك. كانت مختلفةً عن باقى صديقاتها. كانت فى الثّالثة والعشرين من العمر ولكنّها ترتدى ملابس سيدةٍ فى الخامسة والثلاثين بشكل أنيقٍ ومتطوّرٍ، كانت تحب الملابس الجلدية الفتحات، والنّعال ذات الكعب العالى، وكانت لها طريقة فى النّظر مستفزّة وازدرائية، بتحريك بطىء ومبهم لرموشها، وكأنّها عانت من تأثير ممثّلات من عصر والدتها أو من خطيبها الحالى، وهو فرنسى أكبر منها سنًا بكثيرٍ.

سألها إيرنستو : ماعمر خطيبك ... زوجك القادم ؟

من فضلك دعه وشأنه. لماذا تريد أن تعرف ذلك.

إنَّه فضولٌ بسيطٌ.

بدأت تظهر بواكى المحلات المظلمة والواجهات الفخمة التى تشبه بعضها البعض فى بريق الفوانيس أو مصابيح الاضاءة في ميدان بوسجيس. لم يكن هناك ضوء فى أيَّة نافذة، كانت باريس فى هذا القطاع تعطى الإحساس بأنَّها مدينةٌ ميّتةٌ.

هذا الميدان هو أقدم ميادين باريس. ينبغى أنْ يرجع إلى عصر الفرسان.

قالت كريستينا بسخريةٍ: شكرًا على هذه المعلومات. إنَّ جيرارد فى الخمسين من عمره ويكبرنى بسبع وعشرين عامًا.

على فكرة، إنَّه ليس سمسارًا فى البورصة ؟

إنَّه مصممٌ أزياء.

سألها : هل هو شاذ جنسيًّا؟

من فضلك كن أكثر وقارًا.

معذرة ألف مرَّةٍ. فى الواقع إنَّنى أعرفك منذ وقتٍ قصيرٍ. أعتقد بالمعرفة ماجاء فى الإنجيل.

إنَّ حضرتك كنت دائمًا بغيضًا بالنِّسبة لى.

وهل غيرَّت رأيك ؟

كانت كريستينا تحملق بعينيها فى الشوارع النائمة وفى الأضواء الخافتة التى كانت على مايبدو تركض لكى تقابل السيّارة. ابتسم ببطء

هل يشبعك عاطفيًا وتأكّدت من ذلك.

إنّنى فخورة به تمامًا.

ضحكت كريستينا وقالت : إنّنى معجبة أيضًا بصديقتك.

لم أعرف عنك تلك الهوايات.

أعرف جيّدًا فيما تفكّر ولكنك مخطئٌ فى ذلك. إنّنى متيمةٌ بالرّجال.

اقتربوا من ميدان باستيلا(*)

على العكس من ذلك ـ قالت كريستينا ـ إنّك معجبٌ بمثل هؤلاء النّساء. إنّك سوقىٌّ.

لدى كثير من الصّديقات وهذا أمرٌ أكيدٌ. إنّهن يشعرن بالارتياح معى. إنّنى أصادق جميعهن فى مختلف أنحاء العالم. توقف قليلاً بينما كان يبحث فى ضوء الفوانيس عن المكان الذى اتفقوا على اللقاء فيه بالميدان فى شارع هنرى السّابع. إنّها أفضل طريقة لكى لا يتقدّم السّنّ بالانسان وتصيبه الشّيخوخة.

قالت كريستينا: إن هذا هو مايعجبنى فيك.

خيّم صمت طويلٌ. عبرت السّيارة نهر السين من فوق كوبرى سولى. كانت كاتدرائية نوتردام مظلمةً

(*) Bastilla، بالفرنسية فى الأصل.

وحركة السَّير خفيفةٌ. وكان هناك فى الليل فوق النَّهر والكبارى والقباب الشَّاهقة عن بعد تموجٌ ضوئى شعر إيرنستو لبرهة بإحساسٍ من الحنين. كان نهر السِّين وليالى الصيف تذكُّرانه، ولاً يدرى لماذا، بزمن الدِّراسة.

تنهَّد : أتساءل أحيانًا لماذا يأتى الشَّخص إلى باريس وعمَّا يبحث. هل هى الحرية ياكريستينا ؟

أنا لم آت. لقد وضعونى فى طائرة.

وجَّه لها إيرنستو نظرة فضوليةً. كانت كريستينا تباغته دائمًا وكانت أضواء الجسر تضىء أعالى وجهها، إنَّ وجهها جميلٌ جدًا.

قالت كريستينا : كنت فى عيادة طبية للنقاهة.

انهيارٌ عصبىٌّ ؟

للعلاج من الإدمان.

لم تكن تدرى ماتقول له. أخرجت كريستينا سيجارةً من حقيبة يدها. كانت هناك ساعة فى الجانب الآخر من الجسر تشير إلى الثَّانية والنِّصف فجرًا.

كيف كان ذلك ؟ سألها إيرنستو.

أجابته كريستينا قائلة وهى تُشعل السِّيجارة : افراط فى تعاطى الكوكايين. كانت هناك فترة فى بوجوتا أذهب فيها كلَّ ليلة لأرقص رقصة الرُّومبا. كنت أتعاطى الكوكايين والأحماض. كان ينبغى علىَّ أن أتعامل مع جميع رواد ملهى أونيكورنيو.

الأونيكورنيو ؟

إنّه ملهى رقص فى بوجوتا. أحسّ إيرنستو بأنّ نظرتها أصابت وجهه. هل أفشى هذا.

لا شيء من ذلك.

لكن إذا كان يهمك أنْ تعرف الموضوع، لقد كنت طفلةً محترمةً كما ينبغى.

فى تشاينا بايتا ؟

فى لاخابيريانا. كنت أدرس الفنّ والدّيكور. وكان لى خطيبٌ جادٌ رجل اقتصاد ذو مستقبل باهر. كان عضوًا فى مجموعة جون(*) كان ينتعل نعلين لامعين وقبضته قوية. لم يكن يجرؤ على أنْ يمسك بيدى فى السّينما ـ ضحك إيرنستو وماذا... ؟

انتهى هذا الحب الرّومانسى فى مزرعة بأرض حارة أثناء حفلة أقاموها لنا قبيل الزّواج. لقد أعجبنى شابٌ كان موجودًا هناك وكان متزوّجًا. كانت فضيحةً كبيرة. اكتشفوا وجودنا فى غرفة بمفردنا كسروا الباب. أراد ابن عم خطيبى إخراج المسدّس، سبّنى شقيقى. لكن هل تعرف شيئًا ؟ لم أدر أبدًا لماذا أقدمت على ذلك.

أعتقد أنّها رغبات نساءٍ متحرّرات. لقد أنقذوك من مصيرٍ محتملٍ فى حى تشيغّو.

قالت كريستينا: كان أمرًا مهولاً. إنّها محادثات ودردشات عن خادمات ورفاهية العيش منذ نعومة الأظفار.

(*) Gun، بالفرنسية فى الأصل.

سوق كاروبيا. أطفالٌ ولدوا فى عيادة كنترى وتعلَّموا فى الأنجلو، أجازات فى قرطاجنَّة ومن حين لآخر رحلة إلى ميامى. يالهذا المستقبل!

هل بوسعى أنْ أعرف إلى أين تصطحبنى ؟

إلى حيث توجد مارجى. أم أنَّك غيَّرت الفكرة ؟

لا، إنَّنى توَّاقةٌ للذهاب إلى الملهى الذى تذهب إليه مارجى.

وبعد أن سارا عدة أمتار شاهدا سيارة مارجى البيجو تقف بشكلٍ تعسفيٍ جدًا على الرَّصيف.

كان الشِّتاء لطيفًا جدًا، وحلَّ الرَّبيع بسرعةٍ فائقة وكان متألِّقًا بضوءٍ قويٍ وباريس بأسرها يلفها عبق الزُّهور لدرجة أنَّ شارع الشَّهيد ألبرت المعهود عنه أنَّه رطبٌ معتمٌ ومظلمٌ كان يغمره الضَّوء. كان يظهر هناك كلَّ صباح عازف أورج يضع فوق رأسه دائمًا قُبَّعةً باهتةً وبها ريشةٌ زرقاء. كانت هناك أغنية تعتبر موضة فى تلك الفترة تقول "سنذهب جميعًا إلى الفردوس" وكان عازف الأورج يعزفها مرارًا وتكرارًا، وكانت الموسيقى تبدو ملتفةً ضعيفة فى ريشة قُبَّعته قبل أنْ تصعد فى سعادةٍ إلى السَّماء الزَّرقاء بين واجهات المبانى العالية فى الشَّارع. كانوا يتواعدون مع ماريا كثيرًا عند خروجها من العمل فى مقهىً صغيرٍ بجزيرة سان لويس. كانوا يعبرون كوبرى أرشيبتشى عند الغسق ويهيمون فى شوارع الحىِّ الذى كانت تخرج من مقاهيه وأفنيته أغان عربية تتكرَّر إلى مالا

نهاية وتشبه ابتهالات حزينة قبيل الأعياد. دخلوا إلى سينما ما في شارع الهارب لكي يشاهدوا فيلمًا قديمًا لشارلي شابلن أو يطوفوا بأكشاك بائعي الكتب على نهر السِّين التي كانت تحظى بإعجاب ماريا.

تغيَّرت حياتهما فهما الآن لا يعانيان من ضوائق مالية. كانوا يعرفون كثيرًا من الكتَّاب والفنَّانين من أمريكا اللاتينية حيث يلتقون في اجتماعات أو موائد أو لقاءات عمل. في تلك الأيَّام كانوا قد اعتقلوا الشَّاعر إيبرتو باديا في هافانا، وقد أرسل كثيرون من المفكّرين من أمريكا اللاتينية رسالة إلى فيدل كاسترو بهذه المناسبة وبالتَّالي كان موضوع باديا والرِّسالة يطغيان تمامًا على كل الأحاديث. كان معظم أصدقاء لينارد ينتقدون الرِّسالة من ناحية تضامنًا مع كوبا، ومن ناحيةٍ أخرى نكايةً في كُتَّاب أمريكا اللاتينية اللامعين الذين كانوا يثيرون أحقادهم كان أكثرهم تعنتًا الأرجنتيني إسترادا أويوس. اعذرني حضرتك كان تشي جيفارا يقول في كلِّ خطوة: إنَّ أيَّة ثورةٍ مهدَّدة ينبغي ألا تُهادن أعداءها، أنا شاعرةٌ، لكنَّني ينبغي أنَّ أعترف أنَّ مصير شاعر ليست له أهمية كبيرة بالمقارنة مع عملٍ ثوري، كان يؤكد ذلك بابتسامة شزراء أثارت غضب ماريا. إنَّ كثيرًا من التَّهويل الثَّوري كان يتناقض مع تلفيحاته الحريرية ونعاله الإيطالية وحبُّه الرَّاقي للقواقع والخمر الجيد.

لم يستطع الشَّاعر ليناريس (الذي كان يغتابه الشَّاعر الأرجنتيني ويلقِّبُ إيَّاه بالشَّريف) تحمل

إستردا أويوس ولا باقى أصدقاء لينارد. قال ليناريس إن يساريتهم حزينة على الإطلاق. إنَّهم يتبنَّون مواقف طليعية مريحة من قبيل الإنتهازية. إنَّ كوبا ومؤتمراتها تحل مشاكل الوعى لديهم، يالهم من شجعان. ويتذكر إيرنستو أنَّ ليناريس كان يصطحبهم ذات مساء إلى منزل الكاتب خوان جوتيسلولو الذى كان يشرف فى ذلك الوقت على مجلة تسمَّى "الحرُّ" وكان يعيش آنذاك مع زوجته مونيك لانجى فى شقَّة بشارع بوسونيرى. فى الصَّالة المليئة بالكتب، وبها نوافذ تُطلُّ على الغسق الرَّبيعى وغرف السُّطوح الصَّغيرة فى باريس، كان يجلس خورجى سيمرون وإسبانى آخر يُدعى فرناندو كلاودين والكوبى كارلوس فرانكى. كان إيرنستو يعرف سيمبرون. لكنَّه كان قد تغيَّر كثيرًا منذ الفترة القديمة لسان جيرمان دى برس إبَّان الخمسينيات لم يره قط. كان حينذاك شيوعيًا حديديًا، يصافح النَّاس باليد بحرارةٍ وقوة، ولم يكن يبتسم أبدًا. أمَّا الآن فشعره أبيض، أبيض قبل الأوان لكن وجهه كان مايزال شابًا وكان فكاهيًا مرحًا. عجبًا قال له إيرنستو مازحًا، يالفائدة الطَّرد من الحزب الشُّيوعى. كان قصير القامة هادئًا تظهر منه طيبته الصامتة فى عينيه الزَّرقاوين، فاجأه كلاودين تلك الليلة بالحديث عن سنوات منفاه الطَّويلة فى موسكو، وكيف أنَّه قضى ليلةً ما فى الاستراحة الشَّخصية لستالين على البحر الأسود وكذلك فى استراحة ميركادير الذى اغتال تروتسكى. كان قد تعرَّف على

ميركادير فى موسكو قبل الاغتيال. كما كان قد رآه أيضًا فى موسكو بعد أمضى عقوبة بالسّجن مدتها عشرون عامًا فى المكسيك، حيث أصبح رجلاً فظًا ومهمّشًا، كان يقضى وقته يلعب الشّطرنج وكان الشّيوعيون الإسبان يعتبرونه مجرّد قاتل عادى. وقد نبّه كلاودين ببريق خطير فى عينيه الزّرقاوين قائلاً : لكن هل كان أىّ منّا يستطيع أن يفعل مافعله إذا أمرونا بذلك. كنّا حينذاك مقتنعين بصراحة بأنّ تروتسكى كان أسوأ أعداء الاشتراكية والاتحاد السّوفيتى. كان فرانكى يستمع إلى كلاودين باهتمام، وكان يبتسم أحيانًا، وكانت ابتسامته أحيانًا حزينة للغاية.. عندما رآه إيرنستو فى تلك الصّالة نحيفًا وبنعلين متهالكين وملابس متواضعة تعرّف بالكاد على الزّعيم الثّورى الذى كان قد رآه فى هافانا منذ سنوات طويلة مضت يرتدى الزّى العسكرى وقد أطلق لحيته إلى جوار تشى جيفارا. كان يتحدّث بطريقة بطيئة وإيقاعية بطريقة كوبية صرفة، بغمزاته وبطريقته فى التّبسم، كانت تنطوى على كثير من المقاصد وكذلك على مزاج حزين. كانت نوادره تقول الكثير عن كوبا وفيدل أكثر من الكلمات الثّورية الرّنانة لأصدقاء لينارد. أخذ إيرنستو وهو يستمع إليه فى تلك الليلة انطباعًا مؤدّاه أنّ البيروقراطية وأجهزة الأمن وهيئاته التى نقلوها نسخة طبق الأصل من الاتحاد السّوفيتى هى التى حجبت وألقت بظلالها على تلك الثّورة والذى كان قد شارك فى هذيانها بالحبّ إبّان السّنوات الأولى.

خرج من منزل جويتسولو مضطربًا ومليئًا بالشُّكوك كان سيمبرون وكلاودين وفرانكى طوال حياتهم ثوريين كانوا يؤمنون بالاشتراكية. أو ربّما على أمل فى إشتراكية لا تؤدّى إلى عمليات قمعٍ بيروقراطية كانت خبرته تفوق كلّ التّفسيرات والإيضاحات النَّظرية.

تلك الليلة بعد أنّ استمع إليهم، كان لديه انطباعٌ أنَّه حتى ذلك الحين كان يتحرَّك بين أفكار ساذجة تقريبًا وبدائية عن الثَّورة. كان فرانكى أمينًا، لم تكن هناك شكوكٌ فى هذا الشَّأن. كان فرانكى يعرف كيف ولماذا تفشل ثورة ما، لكنّ حقائقه كانت غير مريحة بالنّسبة للذين أيَّدوا كوبا والاشتراكية بدون تحفظات. لقد قال ذلك للشّاعر ليناريس فى تلك الليلة بينما كانا يسيران بحثًا عن سجائر. عجبًا لم يبق لى فى سنى هذا سوى تأكيد شكوكى عن الثَّورة الكوبية. انطلق ليناريس فى الضّحك كان قد دعاه لتناول كأس من البيرة. وبينما كانا يتناولانها، كانا ينظران إلى الجماهير الغفيرة التى كانت تخرج من دور السينما والمسارح فى تلك الليلة الدَّافئة والتى تغمرها أنوار النّيون تحدّث إيرنستو إلى الشّاعر عن خبراته فى كوبا حيث استحضر رحلاته الكثيرة إلى هافانا كمندوب للتّنظيمات الثَّورية والاخاء الصّاخب فى الاستادات الرّياضية والميادين المكتظة بالشّعارات والأعلام، فيدل، أغانى كارلوس بويبلا، رجال الميليشيا، فتيات وفتيان متحمسّون جدًا وهم يرقبون

دائمًا البحر والسّماء خشية حدوث غزو أمريكى. تحدّث إليه كيف أنّه كان قد اعتقد أنّ تلك الثّورة ممكنة أيضا فى كولومبيا. كان لدى الشّاعر طوال الوقت ابتسامةٌ حزينة وهو يستمع إليه. كان قد نظّف لحيته وشاربه من رغوة البيرة التى علقت بهما، وكان صوته قويًا وساخرًا، وباغته قائلاً وأنا أيضًا رجل عرفت كلّ ذلك. لكنّنى ذهبت أبعد منك فى هذا الشّأن فقد تدرّبت فى كوبا، وشاركت فى حرب العصابات أنت ؟ نعم، يارجل، نعم أنا. هل هو الخجل أو الذكرى الهادئة التى لم يرد التّوقف عندها ؟ لم يرد إعطاء مزيد من التّفاصيل. تحدّث إليه عن محاربى الـ «مير»[1] فى منطقة ميسابيلادا[2] فى أطراف مدينة كوثكو المكسيكية. لقد مزّقنا الجيش شر ممزّق. قضيت عامًا فى ليما مختبئًا. خرجت من الإكوادور بمستندات مزوّرة. كان هذا هو كلّ ماذكره لإيرنستو، شرب ماتبقى من كأس البيرة وظلّ بعض الوقت بابتسامته تلك التى كانت بمثابة تكشيرة حزينة وهو ينظر إلى النّاس التى تمرّ بمنطقة الأشجار الكثيفة.

كان إيرنستو قد أدرك لماذا حكم ليناريس بهذه الطّريقة الازدرائية على لينارد وأصدقائه. قال له عن لينارد إنّه أحيانًا يعانى من عقدة التّلذذ بالألم. كانت أونا تخونه مع إسترادا أوبيوس ومع ذلك كان لينارد باردًا رابط الجأش. كان الثّلاثة دائمًا يحضرون

(١) MIR، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Mesa Pelada ، بالفرنسية فى الأصل.

الاجتماعات والحفلات. كانوا يسافرون معًا إلى لندن وسويسرا يكوّنون ثلاثيًا غريبًا. في الواقع كان كلّ ذلك يهم إيرنستو قليلاً. وكان يقول للشّاعر إنّ المعاصى والرّذائل أمورٌ مقدّسةٌ بالنّسبة له. بالطّبع أدرك أنّ أونا والأرجنتينى إسترادا أويوس كانا عاشقين. كانت تجلس دائمًا بجواره يتبادلان المزاح والنّظرات الوقحة أمام لامبالاة ليناردا الهادئة وعندما كان إسترادا أويوس ينصرف كانت أونا ترافقه حتى بسطة السلّم وتتأخّر كثيرًا لتتحدّث معه وقتًا طويلاً وسط التّوتر العام، التّوتر الذى كان ليناردا هو الوحيد الذى ينتبه له. كانت أونا تصيب إيرنستو بالعصبية عندما تظهر في مكاتب دار نشر "العالم الجديد" الأمر الذى كان يحدث بكثرة حيث كانت تحضر دورات دراسية فى الضّواحي. كان يراها تدخل وتترك قلنسوتها وسترتها أو حقيبة يدها بلا اكتراث في أىّ مكان لكى تثير حفيظة السكرتيرة والسّيد بيرديير المحاسب. كانت ترتدى دائمًا تنورات قصيرةً للغاية ونعلين طويلين من الجلد وبلوزات شبه شفافة. كانت تحبّ الجلوس بلا اكتراث وبصفاقة على حافة المكاتب وتنادى على الأرجنتينى بوقاحة لكى تتحدّث معه بصوت هامس مفعمٌ بالدّلال، وكانت تداعبه دائمًا فى كلّ خطوة تضع ساقًا فوق أخرى أو تُنزّلها أمام إيرنستو، إنهما هاتان الساقان الطويلتان الجميلتان وقد انتعلتا نعلاً طويلاً.

كانت ماريا تبغضها، وتقول لإيرنستو كثيرًا: أنا لايمكننى أنْ أطيق تلك المرأة. كما كان يغضب إيرنستو

أيضًا ولاسيما عندما كانت أونا تتحدَّث عن نظريات لا مبرِّر لها عن التَّحليل النَّفسى لكى تشرح له لماذا هو السَّيد المرفوض جدًا. فالحقيقة أنَّ الربيع وأونا كانا يُضعفان أعصابه، وكانت تلاحقه بكثرة المشاهد الغرامية التى لا تحصى أثناء تنقلاته بالمترو وكأنه مراهق. وكان يقول فى نهاية الأمر إنَّ المعاشرة الجنسية ليست لها أهمية كبرى وأنَّ مايجب عليه القيام به هو إنهاء كتابه الذى توقَّف عن الاستمرار فيه الآن. لم يكن يدرى ماذا يحدث مع هذا النوع من القصِّ. لقد بدأ الرِّواية بمزيد من الحماس فى مايوركا لكنَّها ماتت على الآلة الكاتبة، كانت الكلمات تُدوَّن على الورق دون يقين أو اقتناع وكأنَّها واجب مدرسى يقوم ببساطة بأدائه إجباريًا. كانت ماريا تُطلُّ على الباب أحيانًا وتقول له : هل تريد المجىء إلى السِّينما؟ كان يقف فى الطَّابور أمام مسرح فى حدائق الإليزيه، عندما كان الضَّوء وذلك الهواء الدَّافئ وشذا ثمرات القسطل المزهرة والفتيات اللاتى يرتدين التَّنورات القصيرة جدًا يظهرن أمامه ويوعزن له بكل الغوايات والإغراءات، كان كلُّ ذلك يثير حفيظته ويوتر أعصابه. أدركت ماريا ذلك وقالت له: ماذا بك ؟ كان يقول لها وهو يداعب خدَّها : لا شىء ينبغى أن يكون بسبَّب كتابى المتعثِّر. كانت ماريا تراقبه قلقةً. وكانت تسأله فى بعض الليالى وهما مضطجعان وفى الظَّلام: يا إيرنستو، هل أنت تُحبُّنى حقيقةً ؟ نعم، نعم يا امرأة، كان يخفِّف من قلقها. وكانت تنام واثقةً مطمئنةً، لكنَّه

كان يظلُّ مستيقظًا إلى جوارها طوال ساعات، كانت هناك لهفةٌ تنبض فى جسده. كان يسأل نفسه عن هذا القلق المحموم وكان يحلم بسكرتيرة دار نشر العالم الجديد ويحلم كثيرًا بأونا. ذات ليلة استيقظ وهو يرتجف وجسده ساخنٌ وكأنَّه محمومٌ، ارتدى ملابسه بسرعة، وفى حالة هياج تقريبًا، ونزل إلى الشَّارع. كان يسير بسرعة إلى أنْ وصل إلى منطقة كليشى ذات الأشجار الكثيفة والتى تكثر بها أماكن اللهو والملذَّات فضلاً عن الكباريهات.. دخل خمَّارة معتمة. كانت هناك نساء الهوى شبه عاريات وقد تزيَّن بإفراطٍ، كن يجلسن عند منصَّة الخمَّارة ثم اصطحب إحداهن إلى فندق مجاور. كانت المرأة ذات شعر لونه لون النَّار ضخمة الصَّدر، لم تكن فرنسية الأبوين بل كانت مولَّدةً، استغربت استعجاله وعنفه. عاد إيرنستو إلى المنزل خاويًا حزينًا عندما بدأ النَّهار يرسل بخيوط ضوئه الأولى. كانت قطارات الضَّواحى قد بدأت تعبر الجسر.

- ٢ -

فتحت لهم مارجى الباب بنظرة أكثر شيطانية من أى وقت مضى قائلة : تفضلوا.

فوجئت كريستينا بتلك الشقّة الحديثة جدًا، فيها لوحة متحرّكةٌ متماوجةٌ بالصالون: إنّها لوحة للرّسام سوتو. كانت جاكلين تقف عند جهاز الإستريو تفحص الإسطوانات.

قالت مارجى: إذا أردتم استعراضًا فتعالوا إلى الحمّام.

رفضت كريستينا.

أفضّل الحشيش.

طلب إيرنستو كأسًا من الويسكى ماركة بلاك أند هوايت بكثير من الثّلج.

توجّهت مارجى إلى المطبخ ضاحكةً.

كانت تسير بخطىً بطيئةً نظرًا لضيق الفستان الذى كانت ترتديه، كان يجسّدُ جسمها، قامت

كريستينا بجولة فى الشقة. كانت هناك غرفة نوم مجاورة للصالون شبه مظلمة بها مصباح صغيرٌ على الطاولة. وهناك لوحة تُمثل الأفلاك والأبراج الغريبة وفوق الفراش قطٌ أسود كبيرٌ. عندما دخلوا الغرفة، فتح القطُ عينيه الواسعتين الناعستين الحمراوين.

همست كريستينا بكلمات وكأنها أمام المحراب الكبير فى إحدى الكنائس.

قال إيرنستو هاهنا رائحة بخور هندية وقد توقف يتأمل لوحة الأبراج وكان بها رجل يبسط ذراعيه بين عدد كبير من الكواكب والنجوم التى كانت تملأ الفضاء الفلكى وكأنها ذباب تعجب إيرنستو قائلاً : انظرى إلى التلفيات التى تُسببها المخدرات.

دخلت مارجى غرفة النوم فى تلك اللحظة وأحضرت كأسًا من الويسكى أشعلت الضوء لكى تريهم اللوحة قالت مارجى وهى تقدم كأس الويسكى لإيرنستو ، إنها لوحةٌ هائلةٌ رسمها صديقٌ لى فى جزيرة إيبيثا (جزيرة إسبانية بالبحر المتوسط). .

اقتربت من الحائط. كانت اللوحة عند مقدمة السرير قالت مارجى : إنَّ هذه الدوائر تمثل الموت وتلك تمثل الحياة التى يُرمز إليها بالمتع والملذات.

يالها من لوحة قذرة !

انتهرته كريستينا لكن بكلمات مهذبة.

قالت مارجى بكل اعتزاز: أنا وجاكلين فى هذه اللوحة.

وضعت كريستينا إحدى ركبتيها على الفراش لتتفحّص اللوحة. وقالت لمارجى فى دهشة بالفعل أنت وجاكلين فى اللوحة.

اهتزت مارجي من الضّحك. فالكوكايين كان ينعشها دائمًا ويجعلها خفيفة الحركة مثل بهلوان يلعب بثمار البرتقال.

إنّه رسّام هائل، وقد كرّرت كلمة هائل بإصرار مدهش سأقوم بتقديمه فى النّادى الثّقافى فى بلنسية. إذا ذهب هذا الرّسام إلى النادى الثّقافى فى بلنسية. إذا ذهب هذا الرّسام إلى النّادى لن يكون هناك موضع لقدم.

تخيّل إيرنستو وهو يتسلّى هؤلاء الرّجال من موزعى السّيارات الفورد وأصحاب البنوك وصناع المياه الغازية والألياف الصّناعية وهم يملأون منازلهم ومكاتبهم بمثل تلك الهراءات الفلكية التى يرسمها أحد الهيبز فى جزيرة إيبيثا. ينبغى أنْ يقولوا فى باريس إنّ هذا هو آخر صيحةٍ فى عالم الرّسم. فكّر إيرنستو فى عناوين صحفية : معدة الرّأسمالية تهضم فن التّشريح النفسى.

سأذهب إلى الحمّام لأتبوّل. تذكّر إيرنستو بعض الضّرورات الفسيولوجية الفورية.

عندما عاد من الحمّام وجد الفتيات الثلاث يدخّنّ سيجارة ماريجوانا. عرضن عليه مشاركتهن فرفض.

اتفق الجميع على الذّهاب إلى ملهى كتامندو الرّاقص تلبية لرغبة كريستينا.

نهضت مارجي واقفة وقالت في إصرار فجائي:

هل سنذهب في سيارة واحدة أو في سيّارتين ؟

قال إيرنستو متعقّلاً : في سيارتين.

ظهر في تلك الفترة بينياس، صديقه القديم والشّهير الآن (الذي نشرت له مجلة التّايم الأمريكية مقالاً عن معرضه الأخير الذي أقامه في نيويورك) لقد أسعده أنّ بينياس جاء ليقيم في باريس بصفة نهائية، وأنّه اتصل به فور وصوله وأنّ صوته في الهاتف كان ودودًا، أجش، وودودًا دائمًا دعاه إلى منزله ليلاً. اصطحب ماريا متخيلاً منه أنّ بينياس سيكون بمفرده وأنهم سيتحدثون إلى وقت متأخر جدًا من الليل، كما في أوقات أخرى، وهم يتناولون زجاجة خمر. لكن عندما فتحوا لهما الباب ظلاّ حائرين بسبب هذا الجو الذي لم يتوقّعانه : كثير من النّاس وخدم يرتدون السّترات الأنيقة وكئوس برّاقة لامعة في الصّواني الفضية، كانت ظهور السّيدات عاريات، والفساتين طويلة فاخرة، ضحكات وأصوات قوية. لحسن الحظّ وجاء بينياس لمقابلتهما بسرعة وفتح ذراعيه قائلاً أهلاً يا أستاذ. كان ناضجًا ومازالت لحيته سوداء جدًا، كان يتّسم بالحيوية الهادئة والمتوهجة، ويتميّز بنوع من القوة، بالثّقة الحديدية والطمأنينة الرّاسخة. كانت هذه الصّفات جديدة عليه.

كان يرتدى ملابس غالية الثّمن وغير رسمية (بنطلون رمادى وقميص أزرق من الحرير عليه بعض الرسومات البحرية البيضاء يتذكّر إيرنستو أنّها كانت مثار دعابات مستمرة). تبادل معهما بعض الكلمات بالكاد عندما حضر آخرون مما اضطره للعودة لكى يستقبلهم ويرحّبُ بهم.

تأثّر إيرنستو عندما رأى بينهاس فى هذا الجو الهابط وخاصةً فى باريس لأنّهما كانا صديقين حميمين فى فترة أخرى. لم يكف إيرنستو عن التّفكير عندما رأى بينياس محاطًا هكذا برجالٍ ونساءٍ وكأنّهم فى ليدو، فى ميامى أو فى ليلة منافسة فى لونج تشامبس، لم يتخلَّ إيرنستو عن المقارنة بين وضع بينياس الحالى ووضعه منذ عشرين عامًا فى سان جيرمان دى برس وهو يعزف على القيثارة فى بارٍ معتم فى شارع داوفين عندما تعرّف عليه نحيفًا وهو يرتدى صديريًا ممزّقًا عند الكوعين. كان إيرنستو يتذكّر الغرفة التى كان يعيش فيها فى الشّارع نفسه: سرير سفرى من الحديد وحوض لغسيل الأيدى يخفيه بساترٍ معدنيٍ. تذكّر بينياس وهو مازال يجلس على السّرير ووجهه يغلب عليه النّعاس عندما كان يأتى إليه السّاعة الثّانية مساءً لكى يتناولا طعام الغذاء. لم يكن معه نقود أبدًا. كان يعزف على القيثارة فى بارٍ بالليل أمّا باقى وقته فقد كان يشغله فى الرّسم فى غرفته غير المرتّبة والبائسة والباردة جدًا فى الشّتاء. لم يكن يجمع الزّجاجات الفارغة. ولم يعمل مع تجار

الأقمشة فى إيماوس كما نشرت مجلة التَّايم. كان ببساطة يعزف فى ذلك البار فى شارع داوفين، كان البار وضيعًا حقيرًا وكان صديرى بينياس ممزَّقًا باليًا، ورأسه وتجاعيد شعره مترية، كانت رأسه تنحنى على القيثارة تحت ضوء مصباح أحمر، أو أخضر لم يكن إيرنستو يتذكَّر ذلك جيدًا. كانت هناك لافتة فوق المنصَّة بالقرب من الباب مكتوبٌ عليها: "لا تنس الموسيقيين، شكرًا" كانا فى كثيرٍ من الأحيان ينتظران لحظة إغلاق الحانة. كان بينياس يحمل قيثارته على كتفه، ويتوقف أمام الخزينة لكى يتلقَّى عملة ورقيةً من صاحبتها فضلاً عن بعض العملات المعدنية. لم يطلب منه نقودًا على الاطلاق، كما أنَّه لم يكن يقبل أنْ يعيره إيَّاها. كان يقول له فى وقتٍ لاحقٍ: كان فخورًا ذا إرادة حديدية، لطيفًا ويعانى كثيرًا من الجوع، كانت تفاحة آدم أسفل الشَّارب الكثيف تعلن عن جوع شديد، كانت هناك أيَّامٌ بائسة لا يتناول فيها اللحم قط، ويقول فى وقت لاحق يا أخى وكان أقصى ما يمكن أنْ يقدِّمه له الشَّخص فى فصول الرَّبيع البعيدة تلك، فى فصول الصَّيف تلك ذات الضوء المشع المبهر، هو الذَّهاب إلى غرفته، التى كانت مظلمةً دائمًا ومفعمةً برائحة سجائر كثيرة، وإيقاظه بدعابةٍ وأن أفتح درفتى النَّافذة لكى أريه ضوء الشَّمس المبهر واقترح عليه الذَّهاب لتناول طعام الغداء كان بينياس أخًا أكثر من كونه صديقًا. لقد سافرا مع خابيير إلى بولندا لم يتذكَّر إيرنستو مؤتمر الشَّباب الذى حضروه. كان

الفقراء السُّعداء الثلاثة يسافرون واقفين يرتجفون من البرد وكان يغلب عليهم النُّعاس فينام أحدهم فوق كتف الآخر أو يتأمَّلون عبر النَّوافذ الجليد المتراكم على الأرض. إنَّها مرحلة شبابهم. الأيام الصَّاخبة وأيَّام لا حصر لها فى الصَّباح الباكر يتناولون فيها الجعَة فى مقهى ما، وهم يستمعون إليه وهو يُغنِّى تلك الأغانى المكسيكية والشِّيلية والأرجنتينية والكولومبية. وفجأة وخلال الحفلة، يحل التَّوتر الفجائى على المحيَّا محل اللذة والمتعة القصوى، ثم القرار الهادئ : الآن سأذهب للعمل. كان خابيير يقول دائمًا : إنَّه من غير الإنسانى أن أسير معهما دائمًا، عندما كان إيرنستو يراه وهو يبتعد عنهما فى ظلام الشَّارع.

كان بينياس ذا إرادةٍ حديدية، كان هكذا على الدَّوام. فالطَّريقة التى هجرَ بها تلك الفتاة الأرجنتينية على سبيل المثال. ما اسمها ؟ مارتا. مارتا ماذا ؟ لم يتذكَّر إيرنستو. مارتا وخلاص. كانت هوايتها المسرح. كانت طويلة القامة جدًا وذات رموش خضراء فى وجه أبيضٍ شاحب، لم يستطع الشَّخص أنْ يُحدِّد ما إذا كانت جميلةً أو دميمةً، على أيَّة حالٍ، كانت قد خلقت لكى تُرى فى ضوء مصابيح وهى تؤدى دورًا تراجيديًا مأساويًا على مايبدو وكانت طفولتها قاسيةً فى ضواحى بوينوس أيرس. اضطرتها محاولة انتحار إلى دخول مستشفى سالبترير. كان حبُّها لبينياس صامتًا وعنيفًا وفوريًا، دون أنْ يتبادل معها كلمةً واحدةً بل نظرات طويلة وقاسية فى عتمة البار. استطاع بينياس

على إثرها اصطحابها إلى المنزل. كانت غرفة بينياس مفعمة برائحة وشذى امرأةٍ : رائحة قوية ومستفزة لامرأة، أحسَّ بها إيرنستو ذات صباحٍ عندما جاء لإيقاظه كالمعتاد، ورآها وهى تتدثَّر بملاءة، كانت دائمًا شاحبةً وهى نائمة. كانت تذهب للحانة كل ليلةٍ. يتذكَّر إيرنستو: كان بينياس ينحنى على قيثارته تحت ضوء مصباح، وكانت هى تجلس فى ظلمة ركن، وقد استحوذت عليها حرارة الانتظار وهى تنظر إليه. كانت تخرج معه من الحانة إلى المنزل وترافقه فى الفراش دون أنْ يتبادلا كلمةً واحدةً. كانا نحيفين، متوترين وعدوانيين عنيفين فيما بينهم عند برودة الفجر القارسة، لكنهما كانت تهيمن عليهما الرَّغبة الحسيَّة. نظرًا لأنَّ إيرنستو كان يعتبر نفسه غريبًا ودخيلاً لم يعد يذهب إلى غرفة بينياس لكنَّه كان يتساءل طوال الوقت ماذا يفعلان لكى يأكلا. كان يفكر فى أنَّ الإرهاق والجوع ستكون عاقبتهما الاصابة بالسُّلِّ فيما يتعلَّق بالاجهاض لم يعرف به إلاَّ بعد ذلك بكثير، وربَّما بعد أنْ ظهر بينياس فى الفندق الذى كان يعيش فيه إيرنستو لكى يعطيه عنوانه الجديد، غرفة فى نويلى وطلب منه ألا يعطيه لمارتا خاصةً. وجاءت مارتا بعد ذلك. كانت شاحبة الوجه يائسةً. أريد أن أرى بينياس، هكذا قالت لإيرنستو، فى نبرةٍ لم تكن نبرة توسلٍ أو رجاء، بل كانت ببساطة بمثابة أمرٍ. كذب إيرنستو عليها وقال لها إنَّه لا يدرى أين يسكن. لقد أمعنت النَّظر فى إيرنستو بعينيها البَّراقتين القويتين الهادئتين

لإنسانة مجنونة قالت لإيرنستو : أخبره أنّنى سأرحل عن باريس وأريد رؤيته للمرّة الأخيرة. أخبره بأنّنى أنتظره غدا فى المساء فى ريلايس أوديون. وقد أضافت فيما بعد فى نبرة هامسة من فضلك. قالت ذلك مرّةً واحدة حيث كانت هناك نبرة رجاء وتوسل وشبه سرّية قد بدت على عينيها التى إغرورقت بالدمع لأوّل مرّة. يا إيرنستو أخبر بينياس بذلك. أبلغه الرّسالة لكن بينياس لم يذهب. لم يذكر بينياس شيئًا. ظلّ مع إيرنستو فى وقت الموعد بغرفته فى نويلى، كان مضطربًا ويائسًا تعيسًا مثل إيرنستو يحتسى الخمر ويدخّن السّجائر ويتحدّث معه عن أمور تافهة ودون أنْ يكترث - فى الظّاهر - بالمنبّه الموضوع فوق الكمودينو والذى كانت عقاربه تتقدّم بنوع من البطء المؤلم. لم يذكرها أو يتحدث عنها مع إيرنستو. أمّا هى فكانت فى تلك اللحظة تتابع مرور الدّقائق ببطء فى ساعة ميدان أوديون عندما كانت السّاعة الرّابعة أظلم وجه بينياس فقط. قال لإيرنستو فى صوت هامس: لقد رحلت الآن. لقد رحلت الآن. كان وجهه غريبًا للغاية. لماذا فعلت ذلك معها ألا تهمك؟ سأله إيرنستو. أجاب بينياس بحزن قائلاً : على العكس إنّها تهمنى جدًا. وقام بتغيير الموضوع.

وهاهو بينياس، بعد مضى عشرين عامًا تقريبًا وفى يده كأس ويسكى ويتحرّك بحرية بين أناس من الطّبقة الدّنيا فى باريس، أناس كانت لديهم حاسة شم قوية وأكيدة للاقتراب من الفنّانين الذين كانت

قيمتهم الفنية فى تزايدٍ مستمرٍ، لكنهم كانوا عاجزين بكلِّ تأكيدٍ عن معرفة قيمة لوحاتهم عندما كانت هذه اللوحات تتراكم فى حجرةٍ بالطَّابق السَّادس فى شارع دافوين. كان يراه يتوقَّف أمام امرأتين طويلتين وشقراوين وكأنَّهما توأمان ورجلين كهلين يرتديان أيضًا ملابس فاخرة لحضور منافسة كبيرة فى لونجتلامبس[1] أطلعهم على شيءٍ مذهبٍ. سمع بينياس صوتًا قويًا ناضجًا من إحدى هاتين المرأتين : هل أصبحت من هواة التجميع الآن ؟ فرد قائلاً : نعم، لقد انتابنى هذا الهوس. وأمَّا الأخرى فقالت : هل رأيت معرض سوتو[2] الأخير ؟

لم تتحرَّك أو تهتز لحية بينياس، كان صوته خشنًا كنُباح : إنَّنى لم أذهب أبدًا إلى المعارض. ويأخذوننى مكبَّلاً إلى معارضى. ضحكات وهنا سأله أحد المرافقين للمرأتين الشَّقراوين عن رأيه فى أعمال سوتو. إنَّها لوحات حديدية، هكذ ردَّ بينياس. ضحك الآخرون من جديد، وقالت امرأةٌ: يالك من جاحدٍ هل يمكن أن أنقل لسوتو رأيك فيما يفعله؟ عندئذٍ ردَّ بينياس : الأمر لا يستحق، لقد قلت له ذلك. إنَّنا أصدقاء. إنَّها إجاباته المعتادة. اقتربت بعد ذلك منهم، اقتربت منه ومن ماريا. آهه يا أستاذ. كانت تتأملها بحبٍ هادئٍ شبه أبوى وهو دون أنَّ يدرى لماذا، ربَّما استجابةً لرغبةٍ فى الاقتراب من بينياس مثل فترات

(١) Longctlamps، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Soto، بالفرنسية فى الأصل.

أخرى : ماهؤلاء الذين لديك هنا. لاحظ ظهور حذر تلقائي ولحظي في عيني بينياس، رغبة في الابتعاد عن أيَّة علاقة حميمية خاصة. دون أنْ يأخذ التَّعليق في الاعتبار، التفت بينياس إلى ماريا: من هذه المرأة الحسناء ؟ احمَّر وجه ماريا خجلاً. كانت ترتدي فستان خروجٍ بسيط غامق اللون وتلفيحة من الحرير لونها خمري أحمر، كانت تُرى جميلة جداً في الواقع. أجاب قائلاً : إنَّه حبٌّ نهائيٌّ. ابتسم بينياس وقال : إنَّها إحدى الحقائق التي لا ينبغي أنْ تُقال أبداً. توقَّف لبرهة، وكان يعلو لحيته السَّوداء جداً تعبير حدقتيه الغائرتين الهادئتين شبه الملولة وهو يرمقها بعاطفة أبوية مبهمة... حينئذ يا أستاذ : كيف حال باريس معك ؟ إنَّها نظرةٌ تشبه نظرة عمه إدواردو، عندما كان يلتقي به صدفةً في بوجوتا. كانت تنطوي بشكلٍ ما على حكم أو تقويم رزين متزنٍ. ترك إيرنستو لنفسه العنان مؤقتًا لكي يشرح لبينياس بإسهاب ويبرِّر ما كان يقوم به في دار النَّشر (يشرح لبينياس دور عمله في دار النَّشر) وهو على يقين من أنَّ ذلك سيولِّد لدى الآخر مزيداً من الارتياب والتَّشكك. حينئذ سيحدث ردُّ الفعل المضاد والحتمي. حدث أيضًا الأمر نفسه، حيث قطع شرحه قائلاً : إنَّ كلَّ ذلك لم يكن في نهاية المطاف إلا عملاً يكفي لتناول الغداء: كان يعيش في باريس وهذا هو أهم مافي الأمر. قال بينياس : بالنِّسبة لي هي مدينةٌ مشئومةٌ، فمنذ أنْ نزلت من الطَّائرة أظنُّ أنَّ كارثة ما ستحدث لي. احتجت ماريا

وقالت له : إنَّ قرطاجنَّة هى المشئومة لماذا ؟ كان بينياس يتأملَّها بفضول وقال : عندما يوجد بحرٌ وضوءٌ ساطعٌ لن يكون هناك شيءٌ. ردَّت عليه ماريا باسمة عش هناك وسنتحدَّث فى وقت لاحق.

رنَّت مارجى الجرس. اضطروا للانتظار وقتًا طويلاً حتى فتح الباب فى صمت، وتعرَّفت المرأة التى أطلَّت برأسها على مارجى فورًا، لكنَّها اعترضت على دخول إيرنستو. قالت بفظاظة: ممنوع دخول الرِّجال، وقد ابتعدت بالكاد لكى تدخل الفتيات إلى صالة كُسيتْ باللون الأحمر. كانت تسمع موسيقى هادئةٌ فى الدَّاخل.

قالت مارجى قبل أنْ يغلق الباب خلفها: انتظرنى. انتظرها إيرنستو هادئًا جالسًا على رفرف سيارته. وكانت لافتة ملهى كتاماندو تضفى على الرَّصيف المهجور ضوءًا خافتًا بنفسجى اللون. تراجع حرُّ الليل وكان النَّسيم الذى يهب فى تلك الآونة عليلاً وذو أريجٍ صيفى رائع. فى النِّهاية فُتح باب النَّادى الليلى من جديد ثم ظهرت مارجى كطيف على العتبة الحمراء مثل فُوَّهة جهنَّم وهى تومئ بإشارات. كان كلُّ شيءٍ قد وجد حلاً على مايبدو.

وبمجرد أنْ دخل إيرنستو فى هذا الظَّلام السِّرِّى ذى الملمس البنفسجى النَّاعم والشَّذا الأنوثى القوى الذى يمكن أنْ يُشمَّ فى محل لبيع العطور، أدرك إيرنستو أو بمعنى أصحَّ أحسَّ بالبديهة أنَّه لا يوجد

هناك بالداخل رجالٌ بل كلُّهن سيدات. كن سيدات طويلات القامة أنيقات كأنَّهنَّ عارضات أزياء شهيرات، كنَّ ينتعلن أحذية طويلة في سيقانهن، يتحرَّكن في ذلك الضَّوء الخافت كأطياف تُرى في حلم. كان البعض منهن يدردشن عند منصَّة البار، وبعضهن يجلسن على الطَّاولات في وضع استعداد خاص بينما كانت أخريات ترقصن في النِّهاية متجاورات بعضهن من البعض الآخر في جو صالة الرَّقص الزُّرقاء. فجأة ظهرت امرأةٌ ذات شعر فضِّي في العتمة. كان إيرنستو يتتبَّع مارجي، رأى الطَّاولة حيث كانت تجلس جاكلين وكريستينا.

كانت زجاجة الويسكي التي وضعتها فتاة على الطَّاولة على عنقها بطاقة باسم مارجي. بدا لإيرنستو من طريقة تقديم الفتاة للويسكي على سبيل المثال وهي تلبس ساعة رجل فوسفورية في معصمها أنَّ تلك الفتاة تتسم بطابع الرُّجولة. جلست الفتيات إلى جواره، كانت جاكلين وكريستينا تبدوان جميلتين بشكل مفرط في فيلم طغى فيه جمال البطلة على جمالها.

قالت مارجي : إنَّ صاحبة الملهى الليلي شخصيةٌ عجيبةٌ. كانت تتحدَّث مع إيرنستو حديث النِّدِّ للنِّدِّ، حديث رجلٍ لرجلٍ دون أنْ تكترث بوجود الفتيات هكذا اعتقد إيرنستو بروح الدَّعابة أو المزاح.

قال إيرنستو: الآن أدرك لماذا لا تريدين العودة إلى وطنك اعتقد أنَّ مكانًا كهذا في كاراكاس سيكون عرضة للهجوم.

قالت مارجى: لا تعتقد ذلك فأماكن اللهو المشابهة فى كل مكان.

امتعضت كريستينا التى كانت تشعر بالملل والضّجر لأنَّها لم تكن تقبل على الإطلاق ألا تكون لب اهتمام الجميع.

لكن مارجى لم تعرها حتى ولو بنظرة ملاطفة. كانت تشرب كأسها من الويسكى ببطء، كانت تعبيراتها تعبيرات الواثقة من نفسها، وكان وميض ساعتها الفوسفورية يتلألأ فى معصمها، بينما كانت ترمق بعينيها الطّاولات الأخرى. عرفت شخصًا ما على منصّة البار وأشارت إليه.

قالت وهى تنهض واقفةً : اعذرونى. سأجىء حالاً تتبعها إيرنستو بنظراته وهى تبتعد صوب منصّة البار. كانت مارجى تسير الهوينا، بخطوات وئيدة، وكان نعلاها من الجلد طويلين، وكانت ساقاها مقوّستين قليلاً: كانت توحى بأنَّها راعى بقر يدخل حانة قرية ما. حيَّت محاورتها بأن ربتت على كتفها، كانت الفتاة قصيرة الشّعر وذات طابع رجولى تجلس عند منصّة البار ظلَّت تتحدَّث معها بعض الوقت وقد وضعت مرفقها على المنصّة وقبضة يدها على ردفها.

توجَّه إيرنستو إلى كريستينا.

أنت الآن فى كهف خطيئتك. هل تشعرين بالخذلان ؟

قالت كريستينا : إنَّ هذا يبدو لى هائلاً، وقد كرَّرت ذلك وهى تُشدِّد وتُفخِّم نطقها للكلمات

ومقاطعها لدرجة أنَّها كانت تنطق كلَّ مقطع على حدة وكأنَّ كلَّ مقطع كلمةٌ بمفردها.

قالت جاكلين: أف، لم يعد أمامنا إلا عدد محدود من الدقائق.

سُمعتْ موسيقى صاخبة من جهاز الإستريو صادرة عن آلة السَّكسفون. كانت هناك امرأتان ترقصان ببطء لدرجة أنَّهما كانتا لا تتحركان. انتاب إيرنستو إحساسٌ بخيبة الأمل والخذلان أثَّر على معنوياته : كان كلُّ همه هو إخراج كريستينا من هذا المكان لكنَّه لم يكن يدر كيف يفعل ذلك. كان هذا المكان يصيبه بالملل. اقتربت مارجى مثل قط من الطَّاولة فى صمت.

هل تسمح لى بهذه الرَّقصة يا إيرنستو. سألته بلا اكتراث فى الوقت نفسه الذى مدَّت يدها إلى كريستينا تدعوها للرَّقص.

إذا كانت هى توافق على ذلك.

كانت موافقة تمامًا، كان ينبغى عليه أن ينتظر، كان هذا واضحًا من الابتسامة الوديعة، وكذلك من بريق عينيها عندما نهضت من مقعدها. مرَّت إلى جواره وانتقلت إلى صالة الرَّقص بلا مبالاة قطَّة بين الهمس اليائس لفستانها الحرير الذى كان يجسِّد فخديها. كانت جاكلين تنظر إليها بعدوانية.

اقترح عليها إيرنستو الرَّقص عندما أصبح بمفرده معها، أنا لا عرف الرَّقص.

مع هذه الموسيقى يكفى تحريك القدمين.

ماذا، لكن هذا يظهرنى أبله.

ضحك إيرنستو. لكنه فى الواقع كان مضطربًا. كان يتذكَّر كريستينا فى ذلك المساء، والطَّريقة التى كانت تجلس بها فى شقَّته بفستانها الصَّيفى الفاتح، وكانت تمسك فى يدها بكأس مارتينى أبيض، وهى تعلم ما سيحدث، وتستجيب له فى صمت حيث كانت تشعر بنفس صداع اللهفة وهى تتزايد فى أعماق معدتها. كانت كريستينا من هذا النَّوع من النِّساء التى يمكن للإنسان أنْ يقيم معها علاقة جادة.

قالت جاكلين : انتظر.

أشارت عليه بإيماءةٍ للتوجه إلى صالة الرَّقص. وعندما التفت إيرنستو ونظر صوب ذلك الاتجاه انتابه اضطرابٌ فظٌّ. لقد رأى طيفى كريستينا ومارجى، كانت إحداهما ترتدى فستانًا أسود، والأخرى فستانًا أبيض وهما متعانقتان فى ضوء صالة الرَّقص. أبعد نظره بهزَّةٍ فجائية. قال فى نفسه اهدأ وقد صبَّ كأسًا من الويسكى لنفسه. اهدأ يارجل. اهدأ. تأمَّل مبهورًا تدفق الويسكى وهو يتزلج بين قطع الثَّلج حتى ملأ نصف الكاس. ووضع ماءً وتجرَّع جرعةً وفكَّر فى أنَّه ينبغى عليه أنْ يتصرَّف بتؤدةٍ كأنَّه لورد إنجليزى. أو كمستبد من أهالى بوجوتا الأقدمين على حدٍ سواء. أحسَّ بنكهة الويسكى وهو ينزلق فى حلقه، أحس به فى صدره، أحسَّ به فى المعدة. كان يشعر بالارتياح،

كان شبه متماسك، وحينئذ تملّكته الشّجاعة ونظر صوب صالة الرّقص من جديد. كانت كريستينا ماتزال تعانق مارجى، كانت تُقبّلها وقد غاص وجهها فى شعرها كما تفعل ذلك فقط حبيبةٌ ولهانةٌ، كانت يد مارجى تنزلق عند خصر كريستينا إلى أنْ وصلت ببطءٍ وتؤدة إلى ردفها. كانت مارجى وكرستينا لاتتحركان تقريبًا.

التفت إيرنستو ووجد نظرة جاكلين السّاخرة.

قالت جاكلين أنا أشك،

قال إيرنستو: أنا لا. إنها مفاجأةٌ فظّةٌ.

- ٣ -

كانت خوليا نجلة أسرة أثويلا هى المسئولة عمَّا حدث بعد ذلك لأونا بطريقة لا يمكن شرحها ولعلها كانت الشَّرارة، العنصر الفجائى الذى أدَّى إلى وقوع الكارثة. إنَّ وصولها إلى باريس كان مثيرًا لقلقها وربَّما منذ تلك اللحظة التى نزلت فيها من القطار ووجدها إيرنستو إلى جواره وهى تسير على الرَّصيف متعلقة بشنطتها، وكان شعرها يتدلَّى على وجهها، كان يتحدَّث إليها باضطراب. لم تكن تستطيع أنْ تتحمَّل العيش فى مدريد أكثر من ذلك، كانت تقول له: إنَّ أخوالها وخالاتها وأعمامها وعمَّاتها وكذلك أبناءهم يعتبرونها فتاةً ضائعة هالكةً فقط لأنَّها كانت تفعل ماكانوا يتوقون إلى القيام به لكنهم كانوا يفتقرون إلى الشَّجاعة للإقدام عليه. جاءت لتدرس فى باريس، لتستنشق قليلاً من الهواء النَّقى. كانت تأمل أنْ ترى فى باريس أناسًا متحرِّرين أكثر من المجانين والمسنِّين من أعمامها وأخوالها. استقرت فى شقَّةٍ لزوجين من

أصدقاء والدها بالقرب من الجبّانة. كان الزّوج رسّامًا رومانيًا، أمّا الزّوجة فكانت إسبانيةً فاسدة وثرثارةً هى قريبة لأثويلا، كانت تعيش منذ أن كانت شابةً فى باريس. كان ذلك الرّومانى قد شاب قبل الأوان، ذا شعرٍ رمادى وعينين صفراوين دامعتين، يرتدى قمصانًا عسكريةً قوقازية، وكان يداعب زوجته بضربات حنونةٍ على ردفيها، الأمر الذى لم يحظ بإعجابها من البداية كما لم تعجبها شقتها، كانت قديمةً متهالكةً مليئة بالأيقونات واللوحات وأغراض من الخشب، وكانت رائحتها ثومًا وبصلاً محمّرًا طوال الوقت. كان الرّومانى يقضى وقته يتجرّع المشروبات الكحولية القوية المخلوطة باليانسون ويوجّه من خلال أسنانه الملطخة دائمًا الدّعابات التى تنطوى على التّورية إلى كلٍ من زوجته وخوليا، والتى كان يتتبعها بوميض عينيه الصّفراوين، كان يقول لها إيرنستو : لقد أرسلك والدك إلى منزل رجلٍ شهوانىٍ، عندما كانا يخرجان إلى الشّارع. كانت خوليا تضحك وتقول : إنّ المسكين لاديسلاو ينبح ولا يعض. إنّه المكلّف برعايتى.

وفى أوّل يوم أحدٍ اصطحبها إيرنستو إلى المنزل أدرك على الفور أنّ خوليا كما كان يحدث فى ديًا لم تكن تستلطف ماريا. كانتا على طرفى نقيض. فالأسئلة المهذّبة لماريا والملاحظات التى كانت تبديها لها فى التّوّ واللحظة كانت تثير لدى خوليا ردودًا جافةً وفظّةً فمثلاً وقت تناول الحلو (كانت ماريا قد أعدّت كيكةً فى الفرن وقدّمتها بكل ذوق ورقّةٍ) لم يكن يسمع سوى

ضجيج الملاعق والأطباق وكان الجميع يبدون قلقين. ربما أنّ الجو كان لطيفًا فاقترح إيرنستو القيام بنزهة في غابة (*) . لم ترد ماريا مرافقتها. قالت له معذرة إنّ هذه الفتاة الشّابة تصيبني بالتّوتر، قالت له ذلك عندما ذهبت خوليا إلى الحمّام، لقد قلت لك ذلك دائمًا. لم يكن إيرنستو يدري ماذا يفعل، لكن ماريا الحّت عليه بالذّهاب إلى الغابة. عندما خرج إيرنستو إلى الشّارع مع خوليا أحسّ بأنّه مكتئبٌ ومستاءٌ. كانت خوليا تستنشق الهواء بصوت مزعجٍ. قالت أفٍ ياله من طعام غداءٍ، يالهوى وقد تأبطت ذراعه وجعلته يركض تجاه المترو. كانت الشّمس لطيفةً تتسلّل عبر أوراق أشجار غابة ميدون وكان الهواء ذا شذًا طيّبٍ تغلب عليه رائحة الزّيزفون بينما كانا يسيران الهوينا يتحدّثان عن كلّ شيءٍ: تحدّثت له خوليا عن حبّها المثير للمشاكل لأستاذها في مدريد الذي كان متزوّجًا، وكان هذا هو سبّب سفرها. وحكى لها إيرنستو عن الفترة التي كان فيها طالبًا، وعن منزل كاتب كان صديقًا قديمًا له على ضفاف نهر السّين حيث كان يقضي أيام الآحاد. قال إيرنستو: عجبًا يبدو لي أنّ ذلك كان بالأمس القريب. ضحكت خوليا وقالت: أنت تتحدّث وكأنّك عجوزٌ. وبينما كانا يعودان في القطار إلى باريس وهما يتأمّلان غسق الرّبيع المضيء والمنازل الحزينة في الضّواحي، أحسّ إيرنستو فجأة بأنّه حزينٌ. قال فجأةً : أنا لا أدري ماذا يحدث لي. فهناك

(*) Meudon، بالفرنسية في الأصل.

فى كولومبيا كنت أشعر بأنّنى محبوسٌ فى صندوق أحذية. أمّا هنا... هنا، قاطعته خوليا بابتسامة أنت تشعر بأنّك ضائعٌ هالكٌ، ياللك من مسكين يتيم، أليس كذلك ؟ نظر إليها إيرنستو بفضول. كان آخر وميض للشمس قد غمر وجها. ماعمرك الآن ياخوليا؟ عشرون عامًا. وماعلاقة ذلك بما نحن فيه الآن ؟ لاشيء يا امرأة، إنّنى أفكّر بصوت عالٍ. لقد أكملت عامى الأربعين، وهو وقت لمراجعة الحسابات، ومازال رصيدى صفرًا. قالت : هذه سفاهاتٌ. إنّ مشكلتك شيءٌ آخر. ماهى ؟ سألها إيرنستو أجابته قائلةً إنها شيءٌ آخر، أفصحى عنها إذنّ. حسنًا: أعتقد أنّك مكبوتٌ لكن لماذا أنا مكبوتٌ إذا أمكن معرفة ذلك؟ لقد أدركت ذلك من طريقة تناولك للتُّفّاحة وقت الغداء. قال إيرنستو إنّ استخدام أطقم السُفرة قديمٌ قدم الزّمان. لا تكن سفيهًا. وكان إيرنستو يتأمّل الضّواحى الحزينة التى كانت تُرى فى الضّوء الخافت، وقال لخوليا: لعلّك على صواب .. قالت خوليا بفظاظة: دع الاكتئاب جانبًا وأخبرنى هل أنت مرتبطٌ فقط بماريا ؟ لماذا لا تتركها؟ اترك ماريا؟ هل أنت مجنونة! إنّها تصيبك بالاكتئاب لقد أدركت ذلك. إنّها مثل العنكبوت التى تحيطك بخيوطها. قال إيرنستو: إنّنى أحبُّ هذا العنكبوت. إنّك تُحبُّها كوالد حنونٍ وهذا ليس حبًّا، لعله الخوف فقط. سألها إيرنستو الخوف من ماذا يا أيّتُها الإسبانية المتوحّشة؟ ببساطة إنّه الخوف فقط. وأنت ياخوليا ألم ينتابك الخوف أبدًا ؟ لماذا أخاف منها ؟

أنا لا أدرى، كما يخاف الإنسان فى الليلة الظلماء من الذئاب .. لا يوجد ذئب يخيفنى وسأبذل مافى وسعى لقتله. ضحك إيرنستو يالك من متوحشة، يالك من إسبانية. (قلد إيرنستو لكنتها الإسبانية) : إذا آلمتنى إحدى ساقىَّ سأبترها. انطلقت خوليا فى الضحك، بالضبط عندما كان القطار يدخل المحطة.

كانت تذهب للبحث عنه فى وقت الزوال تقريبًا فى مكاتب شارع الشهيد ألبرت. كانت أونا تلتقى بخوليا كثيرًا. كانت ترشقها بدعابات كثيرة عن لوليتا تلك. لم تكن خوليا تضع فى اعتبارها زوجة ليناردو. ذات يوم سألت هل ارتبط بأونا. قال لها : لا تقولى فظاعات. إنها متزوجةٌ من صديقى. وماذا يعنى ذلك ؟ نظرت إليه خوليا بوقاحة إنَّ المرأة تتدلل معك، إنَّها تكشف لك صدرها... أعتقد أنَّها لا تخفى شيئًا آخر. قال لا إيرنستو؛ أنت مخطئةٌ. إنَّ أونا هذه طبيعتها مع كلّ النَّاس، إنَّ هذه طبيعتها إنَّها غندورةٌ متدلِّلةٌ حتى مع ساعى البريد. آهه بالفعل ؟ فكرَّت خوليا لبرهة إذن فما هى إلا مستفزَّة بسيطة، إنَّ إسبانيا مكتظَّةٌ بنساء من هذا النوع. إنَّنى أكرهن قالت خوليا. وبعد ذلك بيومين عندما جلست أونا معها لكى تتناول فنجانًا من القهوة فى ميدان ماويرت بدأت خوليا توجِّه إليها أسئلةً وقحةً فجَّةً. كم عاشقًا لديك؟ سألتها ذات لحظة بكل هدوء. كانت أونا باردةً : لدىَّ عددٌ كاف. قالت خوليا : بالنِّسبة لى واحد يكفينى وقد اقتربت بأنفها من عنق أونا مما جعلها تحمر

خجلاً. قالت أونا غاضبةً: ياللفظاعة! نهضت بعد ذلك بقليل وتملت بأىّ شىء ونظرت إليها شزرًا وقالت لها إلى اللقاء. انطلقت خوليا فى الضحك. هل أدركت يا إيرنستو؟ قالت خوليا. إنّ سيدات مثل هذه كنّ دائمًا طفلات مدلّلات لابد من انتقادهن والإساءة إلى ذاتهن وكبريائهن. إنّهن لا يتحمّلن المنافسة. تعلّم يا أيُّها اليتيم.

كانا يلتقيان كثيرًا. ولقد أظلم وجه ماريا قليلاً عندما علمت أنّ إيرنستو قضى المساء مع خوليا. وقالت له ماذا ترى فى تلك الفتاة. كان إيرنستو يمزح قائلاً : رُبّما أكون قد أصبت بعقدة أوديب. إنّه شيطان ميدى الرّهيب بالفعل، بالفعل، من المحتمل أنّ تكونى بلغت سن اليأس، كان إيرنستو يتأمّل ماريا جادًا للغاية. أوه يا امرأة لا تكترثى. إنّ خوليا مثل ابنتى. إنّك تذكّريننى بإستيلا المجنونة. لم يرد بخاطرى على الإطلاق أنّ تكون له علاقة بخوليا، كان هذا أكيدًا. ولكن فى الوقت نفسه كان يشعر بحاجة غامضة لكى يراها. وفى حفلة فى منزل الشّاعر ليناريس أثارت حفيظته الطّريقة التى قام بها ليناريس بوضع يده على خصرها. كان إيرنستو فى أيّام الآحاد يتخيّل أنّ خوليا بمفردها ملولةً فى منزل الرّومانى لاديسلاو، فى تلك الشّقة التى كانت تغمرها دائمًا رائحة الثّوم والبصل المحمّر، كان إيرنستو يخترع أيّة أعذار لكى يذهب إلى هناك لقضاء بعض اللحظات. كان يستاء كثيرًا عندما يجد الرّومانى دائمًا يوجّه الدّعابات الفظّة كالأحجار

إلى خوليا وأحيانًا كان يمسك بخصرها ويجلسها على ركبتيه وسط ضحكات عالية وحادة من احتجاجات وبذاءات وفظاعات باسمة لزوجته، هيًا هيًا يافتاة ستنتزعين زوجى منّى. كانت خوليا تقول دائمًا إنّ لاديسلاو كان كطفل كبير، لكنّ إيرنستو كان يرى الرّومانى وكئوس المشروبات الرّوحية المختلطة باليانسون لا تفارق يده وكذلك نكاته الخارجة الوقحة ذات التّورية الفجّة، كان إيرنستو يقول لخوليا: إنّ الرُّومانى ليس أىّ طفل بل إنّه عجوزٌ وقحٌ. كان إيرنستو يشعر تجاهه بالنُّفور الشّديد. لقد أدهشه أنّ سمع ذات مساء أنّ الإسبانية ستذهب فى أجازة إلى بلباو تاركة الزّوج وحده مع خوليا. كانا يتلفّظان بدعابات بذيئة فى هذا الشّأن. كان لاديسلاو يقول انتظرى حتى تسافر العاهرة وهو يوجه ضربات حنونة للفتاة فى ردفيها وسط سرور وبهجة زوجته. كان إيرنستو يقول لا : سيصطحبك إلى الفراش وهو يشعر بالفضيحة والخزى، سيغتصبك. كانت خوليا تضحك وتقول: إنّ لاديسلاو ينبح ولا يعض.

وفى تلك الليلة التى وجد فيها خوليا والرُّومانى وحدهما (بعد أنْ استقلت الزوجة القطار منذ بضع ساعات) انتابه إحساسٌ بالغضب وعدم الارتياح يشبه إلى حد كبير الغيرة. أو كان الإحساس ببساطة هو إحساسٌ بالغيرة تمامًا ولم يرد الاعتراف بذلك. كانت خوليا تجلس بلا اكتراث على أريكة فى الصّالة تقرأ مجلةً. وكان الرُّومانى يطبخ أرنبًا فى المطبخ. لم يكن

سعيدًا بوصوله على مايبدو. لم يكن يرتدي سترة عسكريةً بل صديريًا من الكشمير له فتحةٌ كانت يرى منها شعر صدره الرَّمادي، وقد وضع على عنقه منديلاً مذهلاً من الحرير. كان على المائدة مكانان فقط وزجاجة شمبانيا في دلوٍ معدنيٍ وشمعدانان بهما شموع مضاءة. تعجَّب إيرنستو وقال: زفتٌ هل هذا عيد ميلاد، وقد توجَّه بالحديث إلى خوليا. أظهرت صفي أسنانها الجميلة في ابتسامةٍ رقيقة، كان وميض الشَّاشة يضفي على وجهها مسحةً من الثِّقة والحماس وكان صدرها يرى من خلال البلوزة التي كانت ترتديها والمفتوحة قليلاً. قالت إنَّها حفلةٌ خاصةٌ أقامها لي لاديسلاو.. ردَّ إيرنستو إذا كانت حفلة خاصةً سأنصرف، قال ذلك في نبرة فظَّة أكثر ممَّا كان يريد، وقبل أنْ يدرك ذلك كان قد ودَّعها فجأةً وأغلق الباب خلفه بقوةٍ. كان إيرنستو يرتعد، لم يكن يفهم لماذا.

اتصلت به خوليا في اليوم التَّالي. ينبغي أنْ نتحدَّث معًا، قالت له ذلك في نبرة حادةٍ. وبمجرَّد أنْ جلسا وجهًا لوجه بين المرايا الكثيرة والأضواء الكثيفة والسِّحرية في مطعم باجنيندي حيث كانا يذهبان كثيرًا، تحدَّثت إليه بفظاظةٍ وهي تنظر إلى عينيه مباشرةً بتعبير جادٍ وحاسمٍ قالت له: أعجبني ردٌّ فعلك الليلة البارحة. لقد باشرني لاديسلاو هل تريد أنْ تعرف ذلك كان قويًا جدًا.. أحسَّ إيرنستو ببردٍ في فَمِّ معدته. تسارعت نبضات قلبه. كان يحتاج إلى تناول

كأس من الخمر على وجه السُّرعة. قال لها بشكلٍ فجٍ تهانئَّ. تأملته دون أنْ ترمش عيناها بتعبيرٍ باردٍ وعجيب في الوقت نفسه. أحقيقة يزعجك معرفة ذلك؟ قال إيرنستو: إنَّ هذا يزعجني كثيرًا. إذنْ سأقول لك لماذا قالت خوليا: أنت كنت تتمنَّى أنْ تفعل ذلك أيضًا، لكنك لم تجرؤ على مجرَّد اقتراح ذلك عليَّ. أحسَّ إيرنستو في تلك اللحظة بأنَّه أعزل بلا حمايةٍ وغير مرتاحٍ تمامًا كما لو اكتشف متلبسًا بارتكاب عملٍ فاضحٍ وإزاء النَّظرة الهادئة والوقحة المليئة بالاستفزاز من جانب خوليا، اقترح عليها تغيير الموضوع حيث أحسَّ بأنَّ تلك المحادثة كانت ستضعه وسط رمال متحركة خائنة. قالت خوليا لا، لا وهي عنيدةٌ، أريد أنْ نتحدَّث، أريدُ أنْ نتحدَّث، دخل النَّادل في الوقت المناسب حيث وضع في أيديهما قائمتين كبيرتين من الطَّعام وقد غُلِّفتا باللون الأحمر اختارا على وجه السُّرعة وجبة اليوم وزجاجة نبيذ أحمر. ثمَّ ظلاَّ قلقين ينظر كلٌّ منهما للآخر دون أنْ يقولا شيئًا. في النِّهاية ابتسمت خوليا. يا أيُّها الحنبلي قالت له خوليا وقد لمست يده بأصابعها بلطفٍ. تمتم إيرنستو وقد بذل جهدًا لكي لا ينجرف في هذا الإحساس الاكتئابي والمؤلم الذي انتابه منذ دقيقةٍ كالمطر. قال لها لا أدري ماذا حدث لي ياخوليا، لكنْ يبدو لي أنَّه من العار أنك عاشرت هذا العجوز الوقح. إنَّني أراك كابنة لي.. ضحكت خوليا وهي تعض بأسنانها قطعة خبزٍ دون أنْ تبعد نظرها عنه. قالت بروية: إنَّ

لاديسلاو لطيفٌ جدًا كانت تنتظر بفضول وبسوء نية ردَّ فعله. إنَّ هذا يسيئك أحقًا ذلك ؟ إنَّنى أعجب دائمًا بالرِّجال الذين يكبروننى سنًا. إنَّنى مصابة بعقدة أوديب... يالك من سفيه يا إيرنستو ! لكن بما أنَّك تصرٌ رفعت الكأس وقالت له فى صحتك ياشقيقى. أم أنَّك تريد أنْ تكون والدى العجوز إيرنستو ؟ دعك من هذا الوجه الحزين يارجل تشجَّع.

كانت لدىَّ الرَّغبة فى أنْ أصفعها على وجهها.

كانا يجلسان بعد ذلك بقليل فى أولدنا فى(*) ولكلٍّ منهما كأس كونياك على الطَّاولة، أحسَّ إيرنستو بذلك الإحساس الاكتئابى ليس كرذاذ خفيف بل كشبورة قوية ونهائية. تحدَّثت له خوليا عن أوَّل شخص أحبتَّه وتُيِّمت به. كان مدرِّسها للقيثارة. لقد جعلها تفقد عذريتها هناك فى المكان نفسه فوق البساط، لقد كنت طفلةً، كان رجلاً وقحًا... كان المساء قد حلَّ عندما خرجا إلى منطقة كثيفة الأشجار وارفة الظِّلال. بالنِّسبة له لم يقل لها شيئًا عن الذَّهاب إلى المكتب ودَّع خوليا مكتئبًا للغاية دون أنْ يعرف إلى أين يتوجَّه كما بدا له أيضًا حزينًا أنْ يذهب إلى المنزل ويجلس مع ماريا فى ضوء غرفة السُّفرة. كانا سيشاهدان نشرات التِّليفزيون الإخبارية مثل جميع الليالى. كان له ردُّ فعلٍ فظٍ. دخل مقهىً طلب كأسًا من الكونياك وضرب رقم هاتفٍ دون أنْ يفكر سمع صوت

(*) Old Navy، بالفرنسية فى الأصل.

أونا على الجانب الآخر من الخط. قال لها: اسمعي هل تعزميني على كأسٍ؟ قال لها إنَّني أعاني من آلام وأحزان الحبِّ... حسنًا قالت له ضاحكةً: إذن تعال يا إيرنستو.

وجدها بمفردها تطلي أظافرها. كان بالنِّسبة له غريبًا قلقًا أنْ يجد نفسه معها في تلك الشَّقة المظلمة وكانت ترتدي روبًا خفيفًا جدًا.

أصرَّت: والآن، احك لي عن أحزانك

وهي تنظر إليه بينما كانت تضع الطِّلاء على أظافرها بحذرٍ شديد. أوه ليست لديَّ مشاكل محدَّدة، بل مشاكل غامضةٌ مبهمة وهذا أسوأ ما في الأمر. وفي الوقت الذي كان يتحدَّث إليها فيه كان يقول لنفسه لا أدري لماذا أكلمها عن ذلك، إنَّني مجنونٌ. ولكنَّه واصل الحديث بصورةٍ عبثيةٍ ينبغي أنْ أفعل شيئًا لتحرير ذاتي يا أونا... وفي الكأس الثَّاني من الويسكي تناقشا بشأن وحدة الزوجة أو الزوج وكوارثها كانت أونا تقول: إن لينارد هو الزَّوج المتحرِّر الذي يمكن أنْ يوجد في هذه الدُّنيا. لقد أعطى كلٌّ منَّا الحرية للآخر في هذا الصَّدد. قالت كلٌّ الحرية. قال إيرنستو: عجبًا وقد فكَّر بصوت عالٍ أنا لا أدري ماذا يفعل بحريته أوه، ياروبيرت ضحكت أونا، إنَّه لايفكُّر إلاَّ في أعماله البحثية. فيما يتعلَّق بي أنا لاأفكر إلا في هذا قال ذلك بسرعةٍ وهو يصبُّ كأسًا جديدًا. ضحكا معًا. غمرته لهفةٌ في فمٌ معدته من

الإثارة فى كلّ مرةٍ كان الرُّوب يفتح عندما تضع أونا ساقًا فوق الأخرى أو تضع ساقيها متجاورتين كان يودُّ أنْ يلقى بوعاء الطِّلاء من النَّافذة ويطرحها على البساط. كانت تتحدَّث له الآن عن ليناردِ، وكيف أنَّ زواجهما كان تقليديًا. كنت فتاة لأسرةٍ أمريكية لاتينية ممتازةٍ ومرموقةٍ، لم يباشرنى أحدٌ. لقد حدث ذلك بعد خمس سنواتٍ من الزَّواج أنّ... حسنًا، أنت تعرف ذلك. رجل قال إيرنستو ذلك. كان رجلاً واحدًا لا، قالت أونا. ثلاثة رجالٍ فى ليلةٍ واحدة. لقد كنت كالمجنونة.. فى تلك اللحظة قطع حديثهما جرس الهاتف.. نهضت أونا واقفةً. كانت تتحدَّث بصوتٍ هامسٍ وهى تمسك الهاتف بوجهها، كانت تطلق الدُّعابات وتضحك مع شخصٍ ما. وفى الضوء العاكس كانت ترى ساقاها الطويلتان تحت الرُّوب وكانت تقول نعم إن معى هنا شخص قالت ذلك وهى توجه نحوه نظرة مغازلة فردَّ عليها: من، لعله رجل جاد جدًا. كانت تلتف بسلك الهاتف، تلتف أحيانًا وتعطيه ظهرها، كان تقويس ساقيها يرى عبر الرُّوب الشَّفاف تقريبًا بصورةٍ استفزازيةٍ. كانت شبه عاريةٍ وتنتعل نعلين بكعب عالٍ، هكذا كان يفكِّر إيرنستو، كانت يداه ترتعدان فكَّر فى أنَّه ينبغى أنْ يرحل. يرحل سريعًا. أريد أنْ أستنشق هواءً نقيًا مثل مجنون. عندما عادت أونا إلى المقعد تغيَّر شىءٌ بينهما بشكلٍ جوهرى. لم يستطع إقناعها بأنْ تحكى له قصَّة الرِّجال الثَّلاثة فى ليلةٍ واحدة لقد تفادت ذلك قائلة لا تصدِّقنى فى ذلك، إنَّنى مولعةٌ

بالأساطير. عندما ودّعها قبّلها فى خدّها. وللحظة ما التقت نظراتهما عن كثب، لقد كان مسرعًا كالبرق الخاطف، ساده انطباع بأنّها كانت فى انتظار شىء ما. لكنّه دفعها بلطف وقال لها وداعًا وأوصدت الباب فى وجهه.

عندما نزل إلى الحمّام على السّلالم المكسوة بالبسط أدرك أنّه كان سكرانًا وبدا له مسليًا أنْ يشاهد سيدتين تمشّطان شعرهما أمام مرآة واحدة.

إنّك تمتلك شجاعة فائقة أيها الرّجل.

شجاعة.

نعم، لمجرّد أنْ تأتى إلى هنا.

حقًا، هكذا قال وهو يدخل دورة المياه.

تبوّل بغزارة. إنّنى سفيه. هكذا كان يفكّر وهو يتأمّل زبد البول الّذى تكوّن فى المرحاض. كرّر العبارة نفسها بعد ذلك : إنّنى غبىٌّ عندما كان يغسل يديه بكرة من الصّابون لونها بنفسجىّ زكيّة الرّائحة. بدا له أنّه عاش ذلك الإحساس فى طفولته. كان فى الحمّام يعانى من جرّاء امرأة. هل سأكون مستوجبًا للعقاب لو كرّرت ذلك؟ نظر فى المرآة. كانت بعض الشّعيرات البيضاء قد ظهرت فى وجنتيه. فكّر قائلاً : لا يمكننى أنْ أفكّر كمراهق.

عندما عاد إلى الطّاولة وجد مارجى وكريستينا قد جلستا من جديد عليها. لم تنظر كريستينا إليه. كانت قد أمسكت يد مارجى وكانت تقبّلها.

قال لهما: إنَّنى مرهقٌ. سأذهب لأنام. هل ستبقين ياجاكلين أم ستأتين معى ؟

قالت جاكلين وهى تنهض : إنَّنى سأنصرف.

تنفسًا فى الشَّارع هواء الفجر العليل.

قال إيرنستو لم يكن هناك ما ينبغى أنْ يفعله الإنسان شغَّل سيارته. كان فى حاجة لكى يستنشق هواءً جديدًا. كانت المنطقة ملتفة الأشجار وارفة الظِّلال مهجورةً. لم يعر اهتمامًا لإشارات المرور كان سعيدًا لسيره بسيارته فى الطَّريق السَّريع على ضفاف نهر السِّين. كانت أعمدة ضوء كوبرى الإسكندر الثالث ترتفع فتكسر حدَّة الظَّلام.

نبَّهته جاكلين باللغة الفرنسية قائلةً : لقد تجاوزت إشارتين حمراوين.

لم أنتبه لذلك.

عبروا جسرًا، وقد تسلَّلت الأنوار من خلال الأشجار، وكانت واجهات المحلات ناعسةً فى مدينةٍ نائمة، وكانت حواجز الإعلانات على يساره، وجد فجأةً على يساره لوكاندة الإذاعة، كانت مستديرةً كتورتة عيد الميلاد، كان يمرُّ بكلِّ ذلك وهو فى حالة دوار، كانت باريس مهجورةً خاليةً سيشرق الصَّباح بسرعة. أذهله وجوده فى الضَّواحى وهو يسير فى طريق الغرب السَّريع الذى كان هادئًا وخاليًا أمامه، كانت هناك بعض اللافتات الدِّعائية تشعُ ضوءًا من جرَّاء نور الفوانيس. بدأت جاكلين تضطرب.

إلى أين تذهب -سألته- أدرك فى نبرة صوتها خوفًا وقلقًا.

سأذهب بعيدًا.

قالت هى بفظاظةٍ من أجل ماذا. قف سأنزل.

اهدئى ياجاكلين. سأذهب إلى دوردان. إنَّها على بعد أربعين كم تقريبًا. فبعد كلِّ شيءٍ لا يمكننا أنْ نستيقظ فى باريس.

بدت جاكلين وكأنَّها تُفكِّر. كانت تنظر أمامها فى خط مستقيم. ومن حين لآخر كانت أنوار سيارات النَّقلِ تظهر فى الحارة الأخرى بالطَّريق السَّريع بطيئةً وسط الشَّبورة الزَّرقاء فى وقت الفجر.

قالت جاكلين بحزمٍ: إنَّنى لا أفكِّر فى معاشرتك، وأنا أنبهك من الآن لذلك.

أنا أعرف ذلك ياجاكلين. لا توجد مشكلةٌ.

فتح لهم بوَّاب فندق بلانش كاستيا الباب وعيناه يغلب عليهما النَّعاس. كان بدون سترةٍ.

كذب إيرنستو قائلاً: لدى حجزٌ هنا.

أعجبته غرفة النَّوم ذات الأثاث المتواضع والأضواء الخافتة كان هناك سريرٌ واحدٌ كبيرٌ جدًا. لقد بدا له من باب الخيال والوهم أنْ يلتقيا هناك بعد وقت طويل .

فى أىِّ جانب تحبين النَّوم ؟

قالت له جاكلين بالنّسبة لى سيان وقد خلعت فستانها الأحمر.

اقترب إيرنستو من النّافذة وفتحها لأنّ الحجرة كانت حارة دفع مغلاق النّافذة فدخل نسيمٌ لطيفٌ يحمل فى طيّاته رائحة الرّيف، بلغ هذا النّسيم رئتيه بدأ النّهار يشرق. كان لدى إيرنستو إحساس بالخيال أو الوهم.

سمع من خلفه صوت جاكلين.

قالت له تصبح على خير، ليلة سعيدة، وقد ودّعته لتنام وصاح ديكٌ من بعيد.

- ٤ -

يتذكر إيرنستو أنّ أونا قضت اليوم التّالى فى مكاتب دار نشر "العالم الجديد" وعند إغلاق المكاتب طلبت من إيرنستو أنْ يرافقها لحظة إلى جامعة السّوربون قالت له لقد حلمت بك الليلة البارحة وهما يسيران فى فناء الجامعة الرّنان. كنّا نذهب معًا فى السّيّارة إلى تيرول. إلى تيرول ياله من شيء غريب. بعد مراجعة بعض قوائم الأسماء المعلقة فى لوحة سرنا بلا اتجاه فى جنبات سانت سيرفين. توقّفت أونا أمام إعلانات دار سينما وقالت له هل ستعزمنى أم أنّ المدام تحرِّم عليك ذلك؟ سألت أونا ضاحكةً. بدا له أنّه من المضحك أنْ يرفض ذلك. انتابه إحساس غريبٌ جدًا أنّ يكون إلى جوارها فى ظلام وعتمة الصّالة، كان مرفقاهما يتلامسان تقريبًا. وهو يتابع ذلك الفيلم بلا اكتراث حيث كان يحكى قصّة إضراب فى إيفرى. كما لم يفهم حتّى لماذا كانت تدوّى فى جنبات الصّالة ضحكاتٌ. إنّنى أتصرّف مثل فتى مع أوّل خطيبة له،

هكذا كان يفكِّر غاضبًا. كانت هناك بقايا ضوء النَّهار عندما خرجا إلى الشَّارع. كان الشَّباب يتنزهون فى الفسق الهادئ. وكانت رائحة شواء اللحم تنبعث من المطاعم المعتمة وبها شموعٌ مضاءةٌ فوق الطَّاولات وكان هناك على النَّاصية اثنان من الهيبز يغنِّيان على أنغام قيثارات. توقفا لمشاهدتهما. كانت أونا ترتدى حُلَّةً صيفية بيضاء، حُلَّةً رقيقة تُجسِّد خصرها، كانت تُرى جذَّابةً للغاية لم تكن تنتعل نعلين طويلين، بل نعلين رقيقين بكعب عالٍ. كانت تسير بلا اتجاه، تتوقَّف كل لحظة لتتفرَّج على واجهات المحلات. يالها من ليلة تنتظره، قال إيرنستو فجأةً وهو يرفع عينيه إلى السَّماء التى بدأت تُظلم، ولكنَّها على الرَّغم من اقتراب الليل ظلَّت صافيةً جدا قالت له: إنَّنى لم أرغب فى أنْ تدخل معى ياسيد. كانت تنتظر من إيرنستو أنْ يدعوها لتناول العشاء. لكنَّه كان يشعر بشلل التَّفكير وهو يفكِّر فى ماريا. لابد أنَّها بمفردها فى الشَّقة تنتظره. كانت أونا هى التى عزمته لتناول كأس من الكونياك عند العودة فى مقهى يدعى البار الصَّغير(*).

ظلَّ يشعر بأنَّه مذنبٌ فى الوقت الذى كان يتصل بماريا هاتفيًا. آلمه ذلك الصَّوت المرح عندما ردَّت عليه يافتاتى لن أستطيع المجىء. إنَّنى برفقة أصدقاء. كانت هذه أوَّل كذبة يكذبها عليها. كان يفسح المجال لنفسه بين النَّاس لكى ينضم إلى أونا. كان يشعر بالحزن فى

(*) Petit Bar، بالفرنسية فى الأصل.

داخله. كانت أونا قد طلبت كأس كونياك وهي تجلس في الشُّرفة على طاولة، تتحدَّث مع زنجيٍ يضع على رأسه قُبْعةً برتقالية اللون وقد انصرف عندما رآه يصل إلى الطَّاولة سألها إيرنستو من هذا؟ إنه عاملٌ صرفٍ محترف كان يعرض عليَّ اقتراحات بذيئة آثمة، ضحكت أونا. قال لها في جرأة: في الحقيقة في داخلك شيءٌ من الإثم اليوم. يهتز جانبا أنفك وتتلألأ عيناك كثيرًا. لا تقل سفاهات، ردَّت أونا ضاحكةً. كانت طريقتها في الضَّحك مثيرةً. ففي المكان الذي كانا يجلسان فيه كانت تُرى أبراج كاتدرائية نوتردام المضيئة وبريق الأقواس الكهربائية من خلال أوراق شجر القسطل على ضفاف النَّهر. كان داخل المقهى مليئًا بالدُّخان والنَّاس. إنَّ هذا المكان يذكِّرني بمرحلة مضطربةٍ من حياتي قالت أونا بعد أنْ تناولت جرعةً من الكونياك. سألها إيرنستو بمزاح قائلاً: هل توجد في حياتك لحظة لم تكن مضطربة ؟ وبالطَّبع... لقد قلت لك، لقد كنت امرأةً وفيَّةً، كنت ساذجةً. إنَّ لديك حب استطلاعٍ شديدٍ، يامحترم. احكي لي يا أونا، فالفضول يقتلني. أحقيقة يقتلك الفضول ؟ نعم يا أونا، احكي لي. كانت مغامرةً من مغامرات الرَّبيع. أو ربَّما من مغامرات الصَّيف.

كان يحسُّ بأنَّه مضطربٌ جدًا وهو يسير إلى جوارها في الهواء العليل والذي تغمره الأنوار الليلية في كودي كونتي(*) ظلا يسيران حتى وصلا إلى

(*) Quai de Conti، بالفرنسية في الأصل.

ميدان ڤيرجالان(*) يتذكّر إيرنستو لكي يريا النّهر. كانت مياه نهر السّين تتدفّق ببطء عكرة كالزّيت تعكس أضواء جسر نيوف. كانت بعضُ القوارب تتحرّك بالقرب من الرّصيف. كان الليل فسيحًا ومتذبذبًا، كان له ضجيجٌ ويغمره أريج الصّيف، كان الليل يطلّ فوق الجسر، وكانت المياه تغمرها الانعكاسات الضّوئية. توقّفت عند طرف ڤيرجالان أمام النّهر. رفعت أونا ذراعيها كي تستقبل النّسيم العليل. التصق فستانها الأبيض بجسدها. أحسّ آنذاك بأنْ يمسكها من بدنها لكنّه لم يجرؤ. كان متوترًا. بالرداءة هذا الطّقس الذي يجعلني متوترًا. لدى الرّغبة في... أنْ أشمّ شعرك. قال لها ذلك وقد لمست شفتاه خدّها. أحسّ بلمس البشرة اللطيف، وكذلك برائحة شعرها. لا تقل سفاهات، قالت له ذلك وهي تبتعد عنه وتنظر إليه. انطلقت أونا في الضّحك. كان ينظر إلى اهتزاز تنورتها البيضاء وكعبيها وهما يصعدان درجات الجسر أمامه. توقّفت أعلى الجسر والتفتت إليه دعك من هذا الوجه العبوس انظر كم هو جميل هذا العجوز هنري الرابع. كانت تشير إلى التّمثال فوق الجواد الذي أقيم وسط الجسر. إنّني متيّمةٌ بالجياد.. بدأت أونا تقول متى سيتوجّهان إلى مدخل المترو. لا أدري ماذا حدث لي. أحيانًا أنسى أنّك زوجة لينارد. ضحكت أونا. آوه، إنّك تتحدّث وكأنّك شخصية مسلسل تليفزيوني. أو دي كورين تيّادو. ألم تقرأ أبدًا لكورين تيّادو ؟ في كوستاريكا تقرأ له كلُّ بنات عمومتي حسنًا

(*) Vert Galant، بالفرنسية في الأصل.

ياسيد، لا ينبغى أنْ تنسى أنَّى امرأةٌ حرَّةٌ. وعلى غير المنتظر دارت نصف دورة: يالك من سفيه أنا أحبُّك وقد قبلته فى خدِّه وهى تتمتم بهذه الكلمات. وقبل أنْ يقول إيرنستو شيئًا انصرفت أونا وهى تنزل درجات سلَّم المترو.

كانت ترتدى فى اليوم الثَّانى بنطلونًا مجسمًا وضيِّقًا، من الجلد الأسود وبه سوستٌ كثيرةٌ وهما يسيران فى جنبات محطة كونتر سكارب[١] وتوقَّفت أمام عشرة مطاعم على الأقَّل قبل أنْ تقرِّر دخول أيٍّ منها. كان إيرنستو أكثر اضطرابًا عن ذى قبل. لم تجد بالنِّسبة له زجاجة الخمر التى طلباها عند تناول الغداء لكى تطلق العنان للدَّردشة. كانت مليئة بالتَّوقُّفات، ولحظات الصَّمت المفاجئة والفظَّة دون أنْ ينتهيا من تناول طعامهما. إنَّنا سفهاء وهذا ما لا أطيقه. إنَّ الذَّنب ذنبى قال إيرنستو. إنَّنى لا أستطيع نسيان أنَّك زوجة لينارد. قالت أونا أف أمًّا روبرت... هل تعرف ماذا قال لى عندما علم أنَّنى سأتناول طعام الغداء معك اليوم ؟ قال لى تسلَّى معه نعم، إنَّه رجلٌ متحرِّرٌ قال إيرنستو. أمَّا أنا فلا. لقد ربتنى عمَّاتى ونشأت على مترو جولدن ماير. ضحكت أونا وقالت: لا تكن حيوانًا خذنى إلى حديقة بوا[٢] بحيرة بوا دي بولونى[٣] البط الذى يسبح فى الماء. ويتذكَّر إيرنستو الفخذين الطويلين لأونا داخل البنطلون الجلد وقد

---

(١) Contrescarpe، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Bois، بالفرنسية فى الأصل.

(٣) Bois Boulogne، بالفرنسية فى الأصل.

دخلنا فيه بالكاد، والطَّريقة التى أبعدت بها يده عندما مرَّر لها جزءًا من العشب عند ذقنها وشحمة أذنها. رأى من خلال جفونها مقلتيها الواسعتين المليئتين بالضَّحك.

لقد تفادى ذلك عدَّة مرَّات. لقد استغرق هذا اللعب من الاستفزازات وحركات العبث هذه أيامًا كثيرةً أسابيع وربَّما كان هذا يغيظ خوليا التى كانت تدرك كلَّ ذلك. كانت تقول لإيرنستو إنَّ هذه المرأة ماهى إلاَّ سوقية، إنَّها تعتبرك سفيهًا. إنَّك لا تفعل لها شيئًا سوى أنَّك تنظر إلى مؤخرتها بعينين محتضرتين. كان يضحك وهو يستمع إليها. أنت على صواب، كان يقول لها. لكن يبدو أنَّ أوبا كانت تسخر منه وتستهزئ به. كانت تطلب منه أنْ يرافقها من مكان إلى آخر. كانت تدخل محلات العاديات والبوتيكات تسأل عن سعر كلِّ شيء دون أنْ تشترى شيئًا. كانت تتحدَّث له عن عشاقها القدامى. عن الكاتب الذى كان يعيش فى شانتيلى(*) عن الجناينى الذى رأته ذات ليلة فى كوستاريكا بين المروج بينما كان الجميع يبحثون عنها داخل المنزل، مع مواطن أمريكى، لكن فى باريس على بسطة السلَّم وفى كلِّ مرَّة يتركها عند المترو بعد قضاء مساء مضنٍ كان يُقسم ألاَّ يراها بعد ذلك.

كانت ماريا مذهولة لاعتلال مزاجه. كان إيرنستو يشعر بأنَّه مذنبٌ لمجيئه متأخِّرًا لكنَّه فى الوقت نفسه كان ينتهرها لأنَّه كان يجدها دائمًا فى المكان نفسه

(*) Chantillhy، بالفرنسية فى الأصل.

وهى ترسم زهرياتها التى تقوم بكسرها فيما بعد لأنّها كانت تراها ليست جيدّة كما ينبغى أنْ تكون. كما يقول لها يجب أنْ تخرجى وأنْ يكون لك أصدقاء. أنت لا تعتمدين على أكثر من اللازم. قبلت ماريا أنْ تدرس بعض الدّراسات عن تاريخ الفنّ فى متحف اللوفر، لكن باستثناء شخص نمساوى كان قد عزمها لكى تتناول القهوة، فإنّها لم تتحدّث بكلمة واحدة مع أحد. أنا لا تهمنى المغامرات هكذا كانت تردّ عليه بلطف وهى تفتح عينيها السّوداوين، عندما كان يذكّرها بأنّ علاقاتهما فى نهاية المطاف علاقة حرّة. لكنّ ماحدث فى مايوركا عندما ذهب مع ريتشيل كان يجعلها تُفكّر فى أنّ ذلك لم يكن حقيقيًا، كانت ماريا ضعيفةً للغاية. كما أنّ أونا كانت تثير حفيظتها. كانت تقول له مرارًا وتكرارًا، إنّها نمط من النّساء تبغضه. لم يكن يتحدّث معها عن أونا. من أجل ماذا ؟ فبعد كلّ ذلك لمَ لا ؟ كان يتساءل كلّ صباح وهو يحلق ذقنه إلى أىّ مكان يمكن أنْ يصطحبها. كانا دائمًا يتردّدان على مقاهٍ وأماكن عامة. ذات مساء بعد أنْ خرجا يغلب عليهما النّعاس بعد تناول الغداء فى مطعم كيه دولاتورنل(*) بعد أنْ تناولا زجاجة خمرٍ قال لها فى مزيج من المزاح والجدّية: يا أونا لم ينقصنا إلاّ مكان لا يرانا فيه أحدٌ. أدخلت أونا يدها فى حافظة أوراقها وأخرجت منها مفتاحًا فضيًّا صغيرًا. قالت له: لدى مكان، كانت شقة صديقة أرجنتينية لها، كانت فى ذلك الوقت فى كوبا

(*) Quai de la Tournelle، بالفرنسية فى الأصل.

مدعوة من جانب الحكومة. يوجد في الشقّة اسطوانات... وأغانٍ شعبية وأشياء أخرى من جيلك يا أيُّها الشهم من بوجوتا. كان إيرنستو ينظر إليها غير مصدِّق. هل بوسعنا أنْ نذهب الآن ؟ (كان قلبه ينبض بجنون.) نعم، لكن عدني بشيء. وعدني به حقيقةً : هل ستسلك معي سلوكًا حسنًا. ردَّ عليها رافعًا ذراعيه قائلاً : سأكون كالقدِّيس.

كانت الشقّة تطل من جميع جوانبها على حقول مارت(*) يتذكَّر إيرنستو أنّه صعد سُلَّمًا مظلمًا يستحوذ عليه اللهفة. ولا مراهق كما كان يعتقد. كانت تلك الشقّة مليئة بالكتب، كانت الشقّة معتمة، وكان يرى خلف ستارةٍ يابانية من البامبو، سريرٌ وجدا في مكانٍ ما زجاجة ويسكي بكاردي. وضعت أونا إسطوانة لفرقة بانشوس. كان كلُّ شيء مهيأ كما يتذكَّر إيرنستو: الإسطوانة المقبضة بما في ذلك حرُّ ذلك المساء والضوء الشديد الذي يتخيّله الشخص خلف الستائر المغلقة. اضطجعت أونا ناعسةً على الأرض وقد وضعت رأسها فوق وسادةٍ وكانت تستمع للإسطوانة. كان من العجيب بعد بضعة أسابيع من انتظار تلك اللحظة، أنّه لم يجد بداخله إلاَّ لهفةً وتوترًا وعقلاً شاردًا أشار عليه بضرورة أنْ يفعل شيئًا حتّى لا يضيِّع الفرصة المبهرة. وضع إلى جواره كأس الروم، اضطجع إلى جوار أونا. كان يرى في نفسه ربوتًا يتحرَّك بطريقة آلية سريعة. فهدأت من روعه

(*) Marte، بالفرنسية في الأصل.

وقالت له إنَّ هذا يحدث أحيانًا. هل تعرف ذلك؟ أنت متوتّر إلى حدٍ ما. فلنتحدثْ عن شيءٍ آخر قال لها إيرنستو. هل تريد أنْ نخرج سألته أونا. وعندما كانا يعبران منطقة الأشجار الكثيفة والظِّلال الوارفة فى مونتبارناسى فى سيَّارة أجرة قبَّلته أونا فى خدِّه. إنِّى أحسُّ كثيرًا بالشفقة عليك أتعرف ذلك؟ غضب إيرنستو. إنَّ هذا ماكان ينقصنى هو أنْ تشفق علىَّ الآن.

قرَّر فى تلك الليلة اصطحاب ماريا إلى السِّينما. كان فى غاية الحنان معها. شاهدا الفيلم وكلٌّ منهما ممسكٌ بيد الآخر وعندما عادا إلى الشقَّة قال لها إنَّه اتخذ قرارات جادةً بدلاً من أنْ يضيِّع الوقت سيستأنف تأليف كتابه الذى كان قد توقَّف منذ وقت طويل. كان سيغير مواعيد عمله وسيجلس على الطَّابعة فى الرَّابعة مساءً. لقد كنت أتصرَّف كطفل، هل تعرفين؟ كانت ماريا تنظر إليه مذهولة. إنَّك غريب. هذه الليلة وقالت له، لكنَّنى أرى من الأفضل أنْ تكتب. عندما وصل إلى مكتبه فى اليوم التَّالى كان قد قرَّر ألا يرى أونا مرَّةً أخرى. وكأنَّها عرفت ذلك فلم تأت إلى المكتب فى وقت الظُّهيرة. اتصل إيرنستو بخوليا. وأخذ منها موعدًا لتناول الغداء. قالت له خوليا ياشقيقى عندما خرجا إلى شارع الشَّهيد البرت ماذا حدث لك ؟ قال لها : لا أدرى، أعتقد أنَّنى عبارة عن زكيبة من الاحباطات والفشل. تأمَّلته خوليا قالت له : أنت مقزِّزٌ. هذا جديرٌ بالملاحظة. انظر، اشرب واسكر واذهب حيث فتيات الهوى لكن لا تظل هكذا

محبطًا. فما بين تلك المستفزة الفاسقة وبين العذراء الموجودة لديك فى المنزل ستكون نهايتك. أضحكته يالك من متوحّشة، لكن ربما تكونين محقّةً فى ذلك يا أيتها الإسبانية.

فى ذلك المساء كان المحاسب السيّد فيرنيير قد غادر المكتب وكانت السكرتيرة تغلق المكاتب وفجأةً ظهرت أونا على عكس المتوقّع. حيّته بتحية فاترة قائلة أهلاً كيف الحال وطلبت منها كما فى فترات أخرى أنْ تعيرها الهاتف. تركت نفسها تجلس على الكرسى الدوّار حيث اعتاد إيرنستو الجلوس وسجّلت رقمًا. وضعت قدميها فوق المكتب وانتظرت حتى يردّوا عليها. وكان الضّوء الوحيد بالغرفة هو ضوء مصباح طاولة. كانت أونا ترتدى نفس فستان السّهرة الأبيض الذى كانت قد تنزّهت به فى فيرجالان .جلست على المقعد وقدماها فوق المكتب، كان قدماها متباعدين كثيرًا، وكانت ساقاها الطويلتان النحيلتان تظهران من نسيج الفستان الرّقيق الشّفاف. أحسّ إيرنستو بالشّحوب والضّعف. كانت أونا تتحدّث مع شخصٍ بصوتٍ هامسٍ، أدرك، لكن لم يدر كيف، أنَّ محاورها كان إيستّرادا أويوس. وأحيانًا كان صوتها الهامس الخفيض تقطعه ضحكةٌ. كانت تسند ظهرها إلى الخلف عندما تضحك، أحسّ بالغضب. فكّر فى أنْ يأخذها ويطرحها أرضًا ويؤذيها.

جاءت أونا فى اليوم التّالى قبيل الظّهيرة. توقّفت إلى جوار المكتب. كانت تنظر إلى إيرنستو بعينين

برأفتين باسمة. أنت مجنون. قالتها كذلك بالفرنسية هكذا قالت له بصوتٍ هامس حتى لا يسمعها السيّد فيرنيير.

فصل صغير بين فصلين

أنت حزين، يا إيرنستو.

لا، ياجدَّتى.

لقد خرجنا من المدرسة الدَّاخلية ونسير صوب محطة الحافلات. كان يرى على يسارنا فى ضوء الشَّمس الخافت أشجار الصُّنوبر والكافور فى الحديقة الوطنية. مرَّ رجل بعنقود من البُمب الملوَّن كان يتمايل مع النَّسيم. كان يوم أحدٍ. وكانت الجدَّة تسير إلى جوارى وتتوقَّف كلَّ لحظةٍ. لمْ تبد لى مسنةً لهذه الدَّرجة مثل ذلك اليوم، كانت نحيفةً مسكينةً فقيرةً بمعطفها الأسود الذى بدأ يتغيَّر لونه إلى الأخضر عند ياقته وكان حذاؤها ذو الإبزيم متهالكًا باليًا.

هل أنت مرهقةٌ ؟

أى يابُنى الشَّيخوخة غزت عظامى. فبالأمس عندما خرجت من معهد رايدوم كنت على وشك الإصابة بالغثيان فى التِّرام.

سنذهب إلى اللوكاندة التى تعيش فيها.

كانت الحافلة صفراء قديمة متهالكة، كان يسير بين المنازل القديمة المشيَّدة من الأحجار فى بيرسيبرانثيا. كانت أكشاك المقليات على النَّواصى، وكان الرِّجال يرتدون معاطفهم الرِّيفية يتناولون الجعَّة على أبواب الحانات. حكت لى الجدَّة أنَّ العمَّ إدوارد تزوَّج فى نيويورك. ينبغى أن أطلعك على صورة خطيبته، إنَّها جميلةٌ جدًا، إنَّنى سعيدةٌ من أجل إدواردو، تنهَّدت الجدَّة ولولاه لكنت الآن فى ملجأ.

لا تقولى ذلك ياجدَّتى.

إنَّها الحقيقة الخالصة.

كنا نسير الهوينا ونتوقَّف من حين لآخر، اجتزنا حديقة لاريبيكا. تركنا خلفنا التِّمثال الأبيض للمرأة التى بسطت ذراعيها تجاه البطِّ الذى يسبح فى مياه الحوض، سرنا فى الطَّريق ١٢ لنتوجَّه إلى لوكاندة الجدَّة. كانت بيتوليا صاحبة اللوكاندة ترفى مرتبةً فى الفناء. كانت أشعة الشَّمس تضىء من خلال السُّتارة أصص زهور الجيرانيوم وكان بعض الرِّجال يجلسون فى بهو اللوكاندة يطالعون صحيفة (الوقت)(*) حيَّتنا بيتوليا بتحيةٍ حارة. كانت بيتوليا قصيرة القامة صغيرة البدن مليئة بالحيوية، كان شعرها رماديًا وقد جعلت منه كعكة فى مؤخرة رأسها، كان لها حسنةٌ فى حجم حبة عنب فى ذقنها. قالت للجدَّة كان ينبغى أنْ

(*) El Tiempo، بالفرنسية فى الأصل.

تظلّي في الفراش. ففي عمرك هذا ينبغي ألاّ ترتكب أعمال طيش. ثم بدأت بيتوليا تنظر إليّ وقالت : عجيبة إنّك يزداد شبهك لوالدتك كلّ يوم. خلعت الجدّة المعطف وعلّقته على شمّاعة بالمدخل. قالت بيتوليا انظر إليها كم هي نحيفة. هذه المرأة لا تهتم بنفسها.

الآن كما اعتدنا في كلّ أيّام الآحاد كنا نجلس في ظلال زجاج حجرة الطّعام الملوّن لكي نتناول الغداء. كان الجميع يُحيّون الجدّة عند دخولهم ويلقبونها بالسّيدة ماريا ويسألونها عن صحتها. كان هناك محاسبٌ ولا أدري لماذا يلقّبونه بالقنفذ(*) . اقترب من طاولتنا ياسيدة ماريا اسمحي لي أنْ أحييّ هذا الشّاب. عرفت الآن فقط أنّه ابن الزّعيم، عجبًا وكل العجب. ابتسم الرّجل. كانت عيناه تتسعان بسبب عدستي نظارته السميكتين من الزّجاج، وكانت عيناه تبدوان مليئتين بمزيج من الدّهشة والحزن. كم كان والدك عظيمًا. لو أنّه بقي حيًا لكان في منصب الرّئاسة. كان وجهي يتّقد. لم أكن أدري على الإطلاق ماذا أقول عندما يحدّثونني عن والدي. عندما ابتعد الرّجل أخبرتني جدّتي بأن هذا الرّجل مثقّفٌ للغاية، يقضي الوقت يستمع إلى أخبار الحرب في الإذاعة. قالت لي جدّتي إنّ زوجته هجرته ويأتي أبناؤه فقط أواخر كلّ شهر لكي يطلبوا منه النّقود بعد ذلك، وبينما كانت تتناول بعض ملاعق الحسّاء بعد أنْ تنفخ

(*) Erizo بالفرنسية في الأصل.

فيها لكونها ساخنةً تحدَّثت لي الجدَّة عن بياتريث. يالها من فكرة عظيمة لعماتك الحاقها بمدرسة داخلية لكي تتعلَّم. إنَّ الرَّاهبات يجبرنها على أنْ تستحم باللوفة حتى قدميها. سنذهب فيما بعد لزيارتها.

ياجدتي رُبَّما لا يتحتَّم عليك الذَّهاب فأنت مرهقةٌ.

ياللسفاهات إنَّ الفتاة تنتظرني.

ميدان الشُّهداء. أمام المدرسة التي كانت عبارة عن منزلٍ كبيرٍ ذي نوافذ مسدودة وباب كبير وقد طليت أسقفه باللون الفضِّي، كان بالميدان أثرٌ على جانبيه أربعة أسود من البرونز. وكانت الرَّاهبات المقيمات بالمدرسة لا يسمحن بدخول أيِّ رجلٍ. لذلك تحتَّم عليَّ أنْ أتجوَّل بالميدان أنتظر الجدَّة دون أنْ أدري ماذا أفعل، كنت أشوط الأحجار الصَّغيرة. توقَّفت لكي أتأمَّل أحد الأسود من البرونز. وضعت يدي في حلقومه الذي أصابه الصَّدأ. كان الميدان خاليًا. وكان هناك مصوِّرٌ ينام إلى جوار آلة تصويره. يبدو أنَّ يوم الأحد ترك الشَّوارع مهجورةً. وبين الحين والآخر يدوِّي ضجيجٌ قويٌّ عندما يمرُّ ترامٌ بالطَّريق السَّابع.

لقد مرَّ وقت طويلٌ، وبعدها رأيت باب المدرسة مفتوحًا وطيف جدتي النَّحيف بمعطفها الدَّاكن تخرج من الباب ماذا حدث لك ؟ خطت خطوات على

الرّصيف ثم توقّفت وهي تستند إلى الحائط. اقتربت منها ركضًا. كانت الجدّة شاحبةً جدًا. كانت ذقنها ترتعد. استندت على كتفي وقالت ابحث عن سيّارة أجرة بسرعة. لدى غثيانٌ. نظر إلينا رجلٌ أنيق بفضول كان يمرُّ في ذلك الوقت يضع قُبعةً ويمسك بمظلة واقية من المطر. توقّف الرّجل : ماذا حدث للسّيدة ؟ وبمساعدته استطعت أنْ أسندها. رفع الرّجل المظلة وأشار إلى سيارة أجرة. رُبّما ينبغي عليكم استدعاء طبيب. قالت الجدّة الأمر ليس جد خطير، إنّه غثيانٌ بسيطٌ. لكن لم يكن هذا صحيحًا. فبينما كانت السّيارة الأجرة تسير في الشّوارع المشمسة والمهجورة في وسط المدينة، كنت أرى الجدّة غاضبةً، كانت تنقبض وتنبسط قائلة يامسيح النّاصرة يا أيّتها العذراء البتول، أنت لا تدرين ماهذا يا أيّتها العذراء البتول.

قامت بيتوليا وطالب باللوكاندة بإخراجها من السّيّارة الأجرة وحملاها إلى غرفتها. أصدرت بيتوليا تعليماتها بسرعة. أحضروا زجاجة ماء وكحول واستدعوا طبيبًا. كانت الجدّة تئنُّ وتتقلّب في فراشها. وسرعان ماتركزت نظرات بيتوليا عليّ. تعال هنا يابُنيّ لا تخف. أخذتني إلى المطبخ وقدمت لي فنجانًا من الكاكاو مع بقسماط. قالت لي : من الأفضل أنْ تعود إلى مدرستك الدّاخلية. إنّها أزمة فقط. إنْ شاء الله ستكون بصحة جيدة الأحد القادم. سلّم عليها وودّعها. وأمام صورة لوجه السّيد المسيح معلقة على الحائط

فوق السَّرير قاموا بإشعال مصباح زيت. فتحت الجدَّةُ عينيها، وتعرَّفت عليَّ. مدَّت يدًا صفراء مرتعدةً تجاهي. يالك من مسكين ماذا سيحدث لك، كيف يكون مصيرك، ومن سيرعاك. خرجت إلى الشَّارع وأنا أشعر ببردٍ مرعبٍ في معدتي. لم يكن الليل قد أرخى سدوله تمامًا، فلازالت أضواء الشَّمس الخافتة والأخيرة تضيء جوانب مونسيرَّاتي، وكانت أجراس كنيسة القدِّيس دييجو تدقُّ بقوةٍ. كنت أفكِّرُ في المدرسة الدَّاخلية التي تنتظرني بممراتها الطَّويلة وأنوارها الحزينة الكئيبة، وقاعاتها الواسعة الباردة جدًا. لا ينبغي عليَّ أنّ أبكي، فالرَّجل لا يبكي. لكن صورة الشَّارع وعربات ترامه البطيئة تسير في وقت الغسق بدأت تتلألأ أمام عينَّي مثل انعاكاسات الضوء على الماء.

اسمع، إنَّ نعليه جائعان.

مابهما ؟

يشعرن بالجوع، ياغبي.

أسمع ضحكات، بما أنَّ نعل حذائي كان مفتوحًا، كنت أسير بصعوبة أجرُّ القدمين جرًا حتى لا يُرى ذلك. انتبه ريستريبو عندما دخلت الفصل. كان روبيو بوجهه العريض والشَّقي المليء النَّمش يشغل الدَّرج الموجود خلف درجي. كان يتحدَّث بصوتٍ هامس، لكن بقدر يستطيع أنّ يسمعه القريبون منه قل لوالدك لاتكن شحيحًا وليشتر لك نعلين.

اسمع من جديد ضحكات حولى وقد توهّج وجهى من الخجل.

وأخبره أيضًا يشترى له قلم حبر باركر بدلاً من هذه الريّشة وتلك المحبرة اللذين يبدوان وكأنّهما لموثق عقود القرية.

التفت بيداليس جارى على اليمين تجاه ريستريبو.

إنّه فتىً جادٌ وشاحبٌ ذو عينين زرقاوين جاحظتين.

إنّه حُرٌّ فى أنْ يكتب بما يحلو له.

إنَّ المزاح أو السُّخرية لا يتعلّقان بك.

إنَّ مايوجّه له موجّه لى أيضًا.

آهـ، هل هذا بالفعل ؟ هل أنتما أبناء عمومة أم ماذا ؟ أو أنكما تعويان بنفس الطّريقة.

شحب وجه بيداليس.

عند الخروج أرجو أنْ تكرّر ماقلته.

وتحت ضوء نجفة زجاجية والبهو مكتظٌ بالنّاس وعند الباب وقد تلفعنا بالخجل، كانت العمة أميليا وقد زيّنت وجهها بالمساحيق ووضعت فرائى ثعلب على فستانها اشترتهما بالتّقسيط أمّا أنا وبياتريث فكنا بزيّنا المعتاد. وكان العم إدواردو أنيقًا للغاية، يتمتّع بصحةٍ جيدةٍ، قام باستقبالنا عند الباب.

تعالوا كى تتعرفوا على كريستينا.

دفعنا العم إدواردو بلطف بين النَّاس إلى نهاية الصَّالون كانت هناك مدفأةٌ مشتعلةٌ. وكانت كريستينا تجلس على مقعد بجوار النَّار. إنَّها أجمل بكثير من الصُّور التى نشرتها مجلة "الوقت" يوم زواجهما؛ كان شعرها كستنائيًا فاتحًا، وكانت عيناها فاتحتين أكثر من شعرها، وقد ارتسمت على شفتيها الرَّقيقتين ابتسامةٌ خفيفةٌ.

قالت لنا فى ألفةٍ بصورةٍ غير متوقَّعةٍ يا أحبابى، يا أحبابى، وكأنَّها كانت تعرفنا منذ الأبد... كانت نظراتها البرَّاقة تتوجَّه إلىَّ قائلة يالشعرك الجميل. حقيقة سنحبُّ بعضنا حبًا جمًا ؟

ودارت بوجهها الذى بدا عليه التَّأثر تجاه العم إدواردو وقد تحرَّك جانبا أنفها بلطفٍ فى وجهها الرَّقيق.

كم أنا غبيَّة، لكنى أشعر والدُّموع تتراقص فى عينىَّ لم أتمكَّن من تفاديها، إنَّنى سعيدةٌ، هذا المنزل، وأثاثه كلُّ شىءٍ يبدو لى حلمًا، إنَّ إدواردو حلمٌ حقيقىٌّ.

ابتسم العم مسرورًا.

أخذتنا كريستينا من أيدينا إلى الطَّابق الثَّانى تعاليا معى، تعاليا معى، لدى هدايا لكما. أخرجت من حقيبة فتحتها على السَّرير كانت تطغى عليها رائحة النفتالين، ساعة يد أعطتها لبياتريث وساعة جيب بلون النَّيكل ولها غطاءٌ بلون أحمر كريزى وسلسلة أعطتها لى.

هل تعجبك ؟

نعم ياخالتى.

ثمَّ عادت لكى تمرِّر يدها على شعرى قائلة لى :
لا يعجبنى أنْ ينادونى هكذا، لأنَّها تشعر بأنَّها كهلةٌ عجوزةٌ عندما ينادونها بخالتى. إنَّها تريد أنْ تكون صديقةً لنا، إنَّها على علم بذلك الحادث المروِّع، ياله من كابوسٍ، ياللذعر، وأنَّهما أصبحا يتيمين وهما صغيران جدًا.

لحسن الحظ تركتنا بسرعة لأنَّ مدعوين جددًا وصلوا وقد انضممت إلى العمة أميليا، التى تبدو حزينة فقيرة مسكينة وسط أناس فى غاية الأناقة. كانت بياتريث أكثر جرأة فاقتربت من العم إدواردو وأصدقائه.

كانت العمَّةُ تتحدَّث لى عن فيتا(*) عن بئرٍ فى النَّهر سيحظى بإعجابى عندما أذهب فى الأجازة، وفى ذلك الحين ظهر إلى جوارنا رجل مسنٌّ طويل القامة جدًا، كان وجهه أحمر للغاية وذا حاجبين أبيضين رائعى الجمال. كان يمسك فى يده كأسًا من الويسكى.

هل حضرتك صاحبة المنزل ؟

ظهر الغضبُ الشَّديد على وجه العمَّة.

لا ياسيدى، إنَّنى شقيقة صاحب المنزل.

(*) Villta، بالفرنسية فى الأصل.

تفحصها الرَّجل العجوز رابط الجأش، وقد ترنَّح على قدميه قليلاً ثمَّ تمتم باعتذارٍ وانصرف.

اقترب منَّا بعد ذلك العمُّ الذى كان يبدو سعيدًا للغاية.

كيف حال تلك المدرسة يا أيُّها الفتى ؟ آمل ألاَّ يجعل القساوسة منك راهبًا.

لا أعتقد ياعمِّى.

ضحك العمُّ.

إنَّ شقيقتك بياتريث يقظةٌ. لقد أضحكتنا عندما حكت لنا حكايات عن الرَّاهبات فى مدرستها. ينبغى عليكما أنْ تأتيا لزيارتنا أيَّام الآحاد. ماذا تفعل أيَّام الآحاد ؟

لا شىء ياعمِّى.

كيف لا تفعل شيئًا ؟ ألا تلعب كرَّة القدم، أو تذهب إلى السِّينما مع أصدقائك ؟

منذ أنْ مرضت الجدَّة وأنا أظلُّ فى المدرسة مع الطلاب الذين لا يخرجون منها.

هذا شىءٌ سيئٌ، هذا أمر سيئٌ جدًا. لابد أنْ تخرج وتلعب فى الهواء الطَّلق. تخرج فى نزهةٍ من حينٍ لآخر، هكذا تُصبح رجلاً.

أريد أنْ أرى الجدَّة ياعمِّى.

أظلم وجه العمِّ. تبادل النَّظرة مع العمَّة.

إنَّ جدتك مريضةٌ للغاية. وينبغى عليك أنْ تفكِّر فى أنَّها قد تموت فى أيَّة لحظةٍ.

ظلَّت العمَّة تنظر إلى نار المدفأة فى حزنٍ.

أنت يا أميليا ماذا بك ؟

لا شىء يا أخى. إنَّ ذلك العجوز اختلط عليه الأمر واعتقد أنَّنى خادمةٌ.

إنَّه حماى. فهو يعتقد بأنَّ كلَّ النَّاس كانوا سائقين لدى أسرته.

قالت العمَّة إذنْ هو رجل عجوزٌ. لا يعجبنى النَّاس عندما يصبحون أكثر صلفًا وكبرياءً.

أطلق العمُّ إدواردو قهقهةً مدوِّيةً.

كبرياء أو صلف. لقد نسيت تلك الكلمة (كانت صالة اللوكاندة مظلمةً بأثاثها الباهت ورائحتها التُّرابية القديمة، وصراصيرها وزهور السَّوسن الذَّابلة. وعلى الحائط صورة للسَّيد المسيح فى بستان أشجار الزَّيتون. كانت تجلس على الأريكة، وكلُّ ملابسها سوداء، وكانت عيناها صغيرتين وبرَّاقتين كأنَّهما عينا فأرٍ، كانت بتوليا تتحدَّث إلينا أنا وبياتريث تحاول أنْ تتذكَّر ماتحكيه لنا.)

كنَّا نجلس هناك دائمًا كلَّ مساء، هناك فى المكان نفسه إلى جوار أصص الزُّهور. كنَّا نتحدَّث، كنَّا نحيك الملابس مع ماريا إيجناثيا جدتكما ننتظر خوليتا التى جاءت من البنك فى تمام السَّاعة السَّادسة مساءً.

كانت تشبهك كثيرًا، وتشبه والدتك أكثر. كنت أراها وهى طفلةٌ تجرُّ عربةً صغيرةً من الصُّفصاف لونها أحمر. لقد نشأت وترعرعت فى هذه اللوكاندة. كانت عيناها مثل عينيك تمامًا يابياتريث. أو بمعنى أصح أنت أخذت منها الكثير. إنَّك ذكيةٌ جدًا، إنَّك يقظةٌ للغاية كانت فى الخامسة عشرة من عمرها، كانت أحسن موظَّفة فى البنك الفرنسى الإيطالى. كان مدير البنك السَّيد داسولت يقدِّرها و يُجلُّها كثيرًا. كانت فتاةٌ مابين الخامسة عشرة والسَّادسة عشرة نحيفةً جدًا، ولنحافتها المفرطة كاد جسدها أن ينشطر لكنها كانت حيويةً سعيدةً تُحبُّ العمل كأنَّها نملةٌ وهى التى كانت تدفع أجرة اللوكاندة. كانت تعول الجدَّة، ولم تكن تتقاضى مرتَّبًا كبيرًا. وكلُّ ما استطاعت أنْ تقدِّمه ماريا إجناثيا عامين بالمدرسة وبعض الدَّورات الدِّراسية فى الآلة الكاتبة والتِّجارة فى مدرسة آنسات كماراجو. لكنَّها كانت تدرس كثيرًا من جانبها. اشترت آلةً كاتبةً مستعملة بالتقسيط ماركة ريمينجتون لكى تتدرَّب عليها فقط. كنت أقول لها إنَّك لا تتغذِّين، لاتنامين كما ينبغى، وعندما كنت أراها تذهب إلى البنك بفستانها الذى اشترته أيضًا بالأجل، لكنَّه كان نظيفًا جدًا ومكويًّا على أفضل مايكون، كانت دائمًا ذات مزاجٍ مرحٍ. أتذكَّر جيدًا كيف أنَّها كانت تُقلِّد لنا خطوات تشارلستون الذى كان الموضة فى بوجوتا. كان لديها حسٌ مرهفٌ تجاه الموسيقى.

(كانت يدا بيتوليا أثناء حديثهما تهذِّب طيَّات تنورتها وكانت عيناها تبرقان وهى تتذكَّر وتتحدَّث.)

عندما تزوجت والدك فعلت ذلك دون علم الجدة ماريا إجناثيا. لقد كنت والدتها في الزواج والسيد داسولت والدها. تناولنا القربان معًا. وعند الخروج دعانا السيد داسولت على الإفطار في فندق غرناطة. بعد ذلك تناولنا الطعام سريعًا، انصرف والدك إيرنستو إلى الصحيفة ووالدتك والسيد داسولت إلى البنك. أتيت إلى اللوكاندة وأنا أفكر في أنه ينبغي على أن أقص كل الحقيقة لماريا إجناثيا. لكنني لم أجرؤ على ذلك. لم أجرؤ، لأن ذلك سيصيبها بالإغماء. كانت الجدة مصممة على تزويج خوليا من محامٍ من الساحل شخص يُدعى دكتور سالجادو وهو الآن موثق عقود في بارانكيا. لم تكن تثق على الإطلاق في والدك. كان يبدو لها رجل نزوات محبًا للهو، إلى جانب أنه كان يقضي وقته بالتظاهر ضد الحكومة في الشوارع. ومنذ تلك اللحظة ووالدك كان صديقًا للزعيم الكولومبي اليساري جايتان. وكان يأتي به إلى هنا (لكن الحقيقة أن خورخي إليثير (جاتيان) لم يحظ بإعجابي، كان يبدو لي رجلاً أسمر مغرورًا أو صلفًا) من الذي كان يفكر في أن هؤلاء الفتيان، الفقراء جدًا سيصبحون بمرور الوقت أناسًا مهمين. وأما والدتك خوليتا فقد طبقت على السياسة أساليب تنظيم البنك الفرنسي، و.... يالها من دراسة شاقة أعدتها. إنها مكافحة كبيرة. كانت دائمًا تقف إلى جانب الفقراء، وكيف كان هؤلاء يحبونها. لقد شهد هذا البلد نسوة قلائل مثلها، إنها مكافحة، لا تكل

ولا تملّ، كانت تعمل دائمًا. تكتب باستمرار، وترسل بالخطابات التّمميمية، كانت تقضى الليالى دون أنْ تنام. وعندما فاز، فى النّهاية الحزب الليبرالى، كم كان نجاحها باهرًا. لقد استشهد بها أولا ياإيرنستو فى خطاب له. لقد ماتت فى ريعان الشّباب ! إنّ منزلكم كان دائمًا به كتابٌ كثيرون، وشعراء وسياسيون شبان وكل النّاس اليساريين. كان الجميع يقولون : إنّ مارتين سيصبح رئيسًا لكولومبيا. أنتما لا تتخيّلان كيف كانت جنازته. حشود كاملة وجماهير غفيرة من النّاس المتواضعين. إنّنى أتذكّر ذلك كما لو كان بالأمس نفسه عجبًا كيف أنّ الزّمن دوّار. عندما حملت خوليتا كان والداك ما يزالان يعيشان فى هذه اللوكاندة ولم تكن ماريا إيجنانيا تعرف حتى أنهما قد تزوّجا. لقد أخبرتها بذلك فى النّهاية. كانت على وشك أنْ تصاب بالإغماء! لم تصدّقنى، واضطرت إلى أن أظهر لها قسيمة الزّواج. بكت بكاءً مريرًا ولكن فى النّهاية عانقت والدتكما من الذى كان يتخيّل أنّ الأمر سينتهى بها إلى أنْ تحبَّ زوج ابنتها حبًا جمًا ! اصطحباها إلى تونجا عندما أنهى دراسته. وعادا من هناك مظفّرين اختير والدك رئيسًا للبرلمان. ذهبت لرؤيتهما، كيف تغيّرا، ياللإحساس العظيم بالقوة، ياللإحساس الكبير بالثّقة من كليهما فى الحياة. كانا يعيشان فى منزل فى نوجاليس بالقرب من المنزل الذى كان يعيش فيه الرّئيس أولايا. وفى اليوم الذى ذهبت فيه لأراهما كان يوم أحد وقد اشتريا بعض اللقيمات من محلٍّ كلّ

شيء على مايرام" وكانت تعزف في مكان ما موسيقى كانت منتشرة في ذلك الوقت. أمّا أنتما فكنتما تلعبان في الحديقة مع كلب يسمّى كارول. كنت يا إيرنستو قد تعلّمت المشي حديثًا، أما أنت يابياتريث فقد كان على رأسك توكة كبيرة، كانت تشبه الفراشة. وفي ذلك المساء عندما كنّا وحدنا مع ماريا إيجنائيا في غرفة الخياطة قلت لها عجبًا : إنّ الرّب عادلٌ جدًا، إنّ الرّب عادلٌ جدًا لأنّه منّ عليك، في النّهاية، بالأمان والسّعادة بعد بؤس شديدٍ وحزنٍ كبيرٍ. أتذكّر وهي تجلس على ماكينة الخياطة (كانت تخيط ذيل مريلة) وقد اغرورقت عيناها بالدّموع وقالت لي : إنّني يابيتوليا أشعر بذلك وأشكرك عليه. كانت لها غرفة نظيفة جدًا، بها سريرٌ جديدٌ وماكينة خياطة سنجر. كانت تُرى عبر النّافذة حقول السّافانا وأشجار الكافور والقطار.

كيف يتخيل أحدٌ أنّها عادت إلى هذه اللوكاندة لكي تموت كنت مضطرة لكي أقدّم لها بيزو لتشتري سجائر وأنّها سينتهي بها الأمر في مستشفى خيري في أورتوا. كان لديها ورمٌ كبيرٌ مثل بيضة حمامة في المثانة. كان ورمًا خبيثًا. عندما وافتها المنية أرسلت برقيةً إلى عمتيكما في فيتا لكن لم يأت أحد. وذهبنا فقط إلى الجنازة أعني نزلاء اللوكاندة وأنا والسّيد فونسيكا سكرتير عمكما.

وكلّما ذهبت إلى الجبّانة أضع لها زهورًا على قبرها. لم يبق فقط إلاّ شاهد القبر. كم كانت مسكينة

ماريا إجناثيا. لم يبق لى منها سوى ألبوم صور وعلبة خياطة بها كستباناتها ومقصّان. هذا هو حال الدُّنيا. لكنّنى أحيانًا أُفكّرُ أنَّ أفضل شىء هو أنَّها وافتها المنية. إنّها الآن لا تُعانى، إنّها الآن فى الجنة، تسهر على راحتكما. بالتّأكيد إنّها هناك فى الجنة ولا تعانى الآن، الآن لا تعانى، الآن هى سعيدةٌ، إنّها فى نهاية الأمر سعيدةٌ.

إنَّ التّبعة كل التّبعة على حضراتكمْ أيُّها الليبراليون لقد أطلقتم العنان للسُّوقة والغوغائيين.

كان السّيد إيميليو حمو العم إدواردو يجلس على رأس المائدة، وكان يقطّب بفظاظة حاجبيه الكثيفين الأبيضين. لقد كان مستاءً إلى أقصى درجة لأنَّ سائق السّيارة الأجرة رفض النُّزول منها لكى يفتح له الباب. ماذا تريد ياسيد إيميليو، ردَّ عليه العم إدواردو فى سرور، إنَّ سائقى السّيّارات الأجرة لا يفكّرون مثل سائقى العربات فى زمنكم. إنّهم جميعًا من أنصار ومؤيّدى الزّعيم جايتان. قال العجوز بالنّسبة لى فإنَّ هؤلاء ماهم إلا زمرة من الفلاحين الأجلاف أما جايتان فهو حقودٌ.

من فضلك ياوالدى !

كان وجه كريستينا يبدو عليه الغضب من خلال ضوء المطر المعتم الذى كان يتسرّب من نافذة غرفة السّفرة. ياوالدى إنّك عندما تتناول جرعتين من الويسكى تتشاجر مع كلِّ النّاس. فقد ضربت البّواب

بملهى الجوكى التفت العجوز إليها: أنا يا سيدتى لاينبغى علىَّ أنْ أقدّم إيضاحات لأحد وخاصة إليك لأنك على الرَّغم من أنَّك تزوجت وكلُّ شىء إلاَّ أنَّك مازلت صغيرةً. عضت كريستينا شفتيها. واغرورقت عيناها بالدُّموع. سكت الجميع دون ارتياح. إنَّها أوَّل مرَّة نأتى فيها أنا وبياتريث لكى نتناول الغداء فى منزل العمّ إدواردو، ومنذ الوهلة الأولى ونحن نشعر بأنَّنا مكبوتان بسبب الجو العام فى حجرة السُّفرة، والحوائط المكسوة بالخشب، والنُّجف الزجاجى، وأطقم السُّفرة والخواتم الفضية التى تحيط بفوط السُّفرة، وعلى وجه الخصوص بسبب وجود الرَّجل العجوز من جرَّاء صلفه وهوَ يجلس على رأس المائدة. كان العم إدواردو يحاول تلطيف الجو العام بمدحه للعجوز. لكن لم يعره أحد اهتمامًا. وفى صمت رهيب تناولت الطَّعام لم يكسره سوى صوت الملاعق وهى تصطدم بالأطباق وهمس تساقط المطر على النَّافذة. وسرعان ما أحسست بنظرة العجوز سريعةً وحادةً مثل منقار طائر.

هل تعرف شيئًا يا إدواردو ؟ لقد انتابنا خوف كبيرٌ فى الأسرة خشية أنْ تكون شيوعيًا مثل والد هذا الفتى.

يا سيد إيميليو إن مارتين لم يكن شيوعيًا.

ياوالدى لا تقل تُرَّهات.

إنَّها ليست أيَّة تُرَّهات. إنَّ شقيق إدواردو ووالد هذين الشابين كان شيوعيًا. أو كان مناصرًا للشيوعية،

وهما أمران سواء. أمَّا والدى فقد كان مقامرًا (يلعب القمار) ولا أشعر بالإهانة عندما يذكِّرونِّى بذلك.

كانت كريستينا على وشك الانفجار، بدا ذلك واضحًا جليًا على وجهها. لاحظ العم إدواردو العاصفة فى الجوّ فتدخل لتهدئة الموقف : بما أنَّ الأمر كذلك ياسيد إيميليو فإنَّك لم تحك لى أبدًا أنَ والدك كان مقامرًا. لقد كان كذلك، قال العجوز وهو يتوجَّه إليه ببريق الارتياح فى عينيه. لقد سمعت حضرتك بلا شك عن أناس كانوا يغسلون جيادهم فى باريس بالشُمبانيا. إنَّ هذه ليست حكايات، كان والدى يفعل ذلك. لقد خسر كل أمواله فى كازينو مونتكارلو فى لعبة الرُّوليت ولا أدرى كم مزرعة للتُّبغ. كان أحمق وزير نساء لكنَّه كان رجلاً بمعنى الكلمة، هل تعرف ذلك ؟ كان رجلاً بمعنى الكلمة. يجمع بين الأصل والأناقة.

هل كانت السُّلالة مثل سلالة الجياد؟

لقد وجَّهت بياتريث السُّؤال بسذاجة لكن عينيها كانتا تتلألآن بجراة تدل على العمد والقصد.

نعم يا آنسة سلالة مثل سلالة الجياد. فللناس سلالة مثل الجياد سواء أخذ ذلك فى الاعتبار أم لا. أنا لا أعتقد ياسيد إيميليو.

كيف ؟

أقول إنَّنى لا أعتقد ذلك: فمهما بلغ بالإنسان الأمر لن يكون إلاَّ أحد أمرين: إمَّا أنّ يكون جدُّه هنديًا

احمر أو سجينًا إسبانيًا. ليس أكثر من ذلك. برق الضحك فى عينى العم إدواردو. قال السيد إيميليو: فى زمنى كان الفتيان يطلبون الإذن لكى يتحدَّثوا مع الكبار. لقد توهَّج وجه العجوز من الغضب، بدأ لغده يرتعد. وبالإضافة إلى ذلك، أعرف شيئًا: كان جدِّى إنجليزيًا. كانت بياتريث تستمع إليه فى رباطة جأشٍ مسلِّية. إنجليزىٌ وهذا لا يعنى بالضَّرورة أنْ يكون لوردًا. فالقراصنة كانوا إنجليزًا أيضًا. ألقى العجوز فوطة السُّفرة على المائدة غاضبًا، كان على وشك أنْ يصاب بنوبة، والآن كريستينا هى التى تتدخَّل بصوت هادئ: كلٌّ ذلك ياحبى ممكنٌ ولكن أسرة ساينث كُنَّا دائمًا مهذَّبين، تحرَّك العم إدواردو فى مقعد بلا ارتياح. عندما نهضنا على المائدة نادى علينا العمُّ على انفرادٍ وقال لنا من الأفضل أنْ تذهبا إلى السِّينما وقد أخرج لنا من حافظته عملةً ورقيةً فئة عشرة بيزو. فهنا توجد عاصفةٌ. إنَّ لقب أسرتهم أمرٌ لايمكن التَّطرق إليه أبدًا.

قال بيداليس: لقد سمعنا الآن صوت الكهف. فمنذ برهةٍ فى بهو مدرسة الليسيه، سمعنا الخطبة الحتمية لنهاية العام التى يلقيها المدير، وهى عبارة عن موعظة دينية مليئة بالكلمات الرَّنانة والمقاصد النَّبيلة والحكم والمواعظ مثل أبنائى المؤقَّرين، أبنائى الأحباء (كان طيفه الطويل خلف الحاجز الحجرى فى البهو واليدان شاحبتان وقد وضعتا بجلالٍ واحترام على الصَّدر، وأشعة الشَّمس تتلألأ على نظارته)

ستـرون السّخرية والتّهكم، إنّهم يريدون إقناعنا بأمور عبثية مثل هؤلاء الكفّار ساعة احتضارهم، إنّنى أؤكّد لكم أنّهم يطالبون بقسيس اعتراف مثل الفيلسوف فولتير.

وحوله كان مدير الفصول حزانى، يعلوهم الغبار مهابين، وهم ميدرانو وسابوجال وبيثيريتا وبوبيدا وجرانادوس وروساليس مارين بحللهم القديمة المكوية فضلاً عن شارة الحداد التى كانوا يضعونها أحيانًا على ياقاتهم.

كان بيداليس يسير معى بين حشود التّلاميذ الذين يرتدون الزّى الأزرق ثم تفرقّت هذه الحشود فى الشّارع وهم يضحكون. وكأن صوت الكهف كان يسأل : هل رأيت وجه ميدرانو ؟ فمنذ أنْ خسر الألمان الحرب وهو فى غاية الحزن أعتقد ذلك. هيهات. هيهات إنّه حزين لكونه أعزب. إننى أفكر فى وجهه الإسبانى الحزين وحاجبيه البارزين وأصابعه الملطّخة بالنيكوتين وهو يرسم لنا على السّبورة، على مدى أمسيات ناعسة تقدم روميل فى الصّحراء. وإذا تمتم أحد منا بكلمة بذيئة وهو يرسم كان يتكلم بفظاظة. ويلقى بالطباشير على الأرض أخرج من هنا ياولد. كان يغلق الباب بقوة مدوّية ويظلّ يرتعد فى الصّالون عاجزًا عن مواصلة الفصل الدراسى. الآن يسير منكّس الرأس يقول لايوجد هذا الانتصار من جانب الحلفاء، وأنّ البلشفيين سيلتهمون العالم.

قال بيداليس : ياله من فاشي. لا أدرى لماذا ادخلونا فى هذا الكهف.

بعد ذلك بعام.

فكّر بيداليس فى أنّ يدرس الحقوق. وأنا أيضًا لكن العمّ ادواردو قال: إنَّ المستقبل دائمًا للدراسات التّقنية : الكيمياء الصّناعية أو إدارة المؤسّسات سأقضى هذه الأجازة فى منزله، وهذا يصيبنى بالقلق. إنَّنى أتمكّن من رؤية بيداليس من حين لآخر. سألت بيداليس ماذا ستفعل أنت ؟ ارتسمت الجدّية على وجهه فجأةً : لا شيء يارجل فأنا طهقان. قال لى إنَّه سيبقى فى بوجوتا ليعمل من أجل أن يساعد فى نفقات المنزل. لقد وفّر له أحد أعمامه عملاً فى الجمعية الخيرية. ينبغى انّ يشرف على التذاكر المبيعة أمام باب دور السّينما، وإذا رآنى هؤلاء الأطفال الأثرياء سيموتون من الضّحك معتقدين أنّنى أعمل بوّابًا. حكيت له أنّنى سأعمل أيضًا ساعيًا فى مكتب عمّى : مقابل عشرة بيزو فى الأسبوع فى البداية. وجّه لى بيداليس نظرةً حادةً ساخرةً: إنَّ عمّك بما أنّه ثرىّ يعرف كلَّ شيء. وعلى فكرة إنَّ عمّتك، كما رأيت صورتها فى الصّحيفة، فى غاية الجمال. وعندما قلت له لا تتكلّم عنها هكذا لكن بيداليس كان خبيثًا وقال لى : إنَّ سيدّات المجتمع هؤلاء يحببن الفتيان أحيانًا.

لا تزعجنى بهذه السّفاهات.

أطلق بيداليس ضحكة مدوّية:

لا تحزن يارجل. لقد ضبطونى فى العام الماضى وأنا أتلصَّصُ على عمَّتى من خلال زجاج مكسور فى الحمَّام. كانت رائعة الجمال، كان صدرها جذابًا باختصار كانت مغرية للغاية.

كانت كريستينا تصبُّ القهوة فى فنجانٍ لعمِّى بينما كان قد حلق ذقنه توًّا وقد وضع رباط عنق أنيق من الحرير لونه بلون النبيذ وكان يرتدى حُلَّةً رمادية، كان يتصفَّح على وجه السُّرعة العناوين الرَّئيسية فى الصَّفحة الأولى بصحيفة "الوقت" بينما كانت تتلألأ فوق مفرش المائدة أطباق البورسيلان وأطقم السُّفرة من الفضَّة. إنَّنى محرجٌ، محرجٌ للغاية لأنَّ هذه أوَّل مرَّةٍ أتناول الإفطار معهما.

هل نمت جيدًا ؟

نعم ياكريستينا.

لم تشعر بالبرد ؟

لا.

إنَّك فى أدفأ غرفة بالمنزل. إنَّها فوق المطبخ. هل تفضِّل القهوة أو الكاكاو ؟

قهوة باللبن.

كانت كريستينا ترتدى روبًا خفيفًا من الحرير، رقيقًا للغايةً وشبه شفَّاف. وعندما كانت تنحنى إلى الأمام لكى تقدِّم لى القهوة، كانت حلمتاها تبدوان تحت الرُّوب. كانت يداها رقيقتين للغاية، وكانت

أظافرها صغيرتين طويلتين. كانت بلا أية زينة، وكانت عيناها تبدوان فاتحتين جداً.

كان الفنجان مملوءاً جداً ومقبضه رقيق للغاية، وكان يرتعد في يدي. لم أستطع الإمساك بالفنجان جيداً، اصطدم الفنجان بالطبق وانسكبت القهوة. أبعد العمّ الصحيفة مستاءً.

عجباً إنّ هذا الفتى لم يعلّموه كيف يأكل حتى الآن.

شعرت بالخزي يغطّي وجهي حتى أذنيّ.

إنّه الفنجان، قالت كريستينا. إنّه رقيقٌ للغاية، لكنّه غير مريح.

من الممكن، لكن على الرّغم من ذلك، لقد أدركت أنّه لا يعرف استخدام طاقم السّفرة. وأنّه خجولٌ جداً. لم يتقمّص شخصية مارتين. أتمنّى أنّ يكون أكثر يقظةً وأن يرتدي ملابس أفضل من هذه ربّما يكون من الضّروري أنّ نشتري له ملابس...، أحذية ونقدّم له فتاةً كي ترافقه إلى السّينما. أليس لك خطيبة ؟

لا ياعمّي.

قالت كريستينا إنّه مشغولٌ بالمذاكرة.

هذا ليس سيئاً، قال العمّ. حسناً، ربّما يصبح عالماً. سيكون الأوّل في الأسرة.

كان الضوء يرسم مستطيلاً بنفسجياً على النّافذة والغسق يرسل بأشعته الملوّنة ببطءٍ بآخر خيوط

الضوء فى الأحياء البعيدة. كانت ساعة الكومودينو تدقّ. وفى المطبخ كانت ضوضاء الخزف النّفيس تصل إلى أعلى. وفى الصّالة كان ضجيج الحفلة صاخبًا. كنت أستطيع مواصلة القراءة. اقضى أمسيات السّبت والأحد أقرأ. لكن فى هذه الليلة كانت سطور الكتاب قد اختلطت وتشابكت بسبّب أحلام وصورٍ غامضة. كنت أشعر باللهفة والاشتياق. إنّها بالطّابقِ السّفلى: لقد رأيتها تنزل من سيّارةٍ وتعبر الحديقة. هل سيكون ذلك هو الحبّ ؟ هل هو البلوغ ؟ يالها من كلمةٍ.

(كان بيداليس يقول لى : ستنمو وسينبت لك شعرٌ فى أماكن حسّاسة وتحت إبطيك وفى شاربك وذقنك ستكون قادرًا على أنّ تكسر بابًا، ستكون قادرًا على المعاشرة الزوجية).

كانت هناك لمبة نيون تضىء فى الحمّام بشكلٍ متقطعٍ. يالوجهى الحزين. كان وجهى حزينًا مثل هندى أحمر صغير فى الصّحراء هكذا كان يقول لى عمّى إدواردو. إنّها لن تنظر إلىّ على الإطلاق. إنّنى فقط فى الخامسة عشرة من عمرى. من الأفضل أنّ أظلّ فى الغرفة، ليس لدى ما أفعله مع هؤلاء النّاس. كان ينبغى علىّ أنّ أفكّر فى أمور أخرى، القراءة. كان بهو المنزل مظلمًا. وكانت بعض أصوات الضحكات لسيدات (هل ستكون هى ؟ هل سيكون صوتها؟) عبر البهو كان باب الغرفة مواريًا ينتظرنى بسريره الضّيق ورف الكتب. إنّنى مثل عصفورٍ حبيسٍ فى قفصه.

وبدافع فجائى قرَّرت النُّزول. نزلت درجة سلَّم ثم أخرى، كانت ركبتاى ترتعدان. أرجو ألاَّ يلاحَظ علىَّ شيءٌ. آمل ألاَّ ترانى شاحبًا وأنا أحيِّيها.

كان زحام الصَّالة والجو العام بها أشبه ببخار الماء. كانت هناك وجوهٌ حمراء فى كلِّ مكان، دُخَّان، كئوس الويسكى، وطاولات مكسوَّة بمفارش خضراء وحولها نساء يلعبن بصوتٍ صخَّاب إحدى ألعاب الورق. (كان العمُّ إدواردو وكريستينا وأقاربهما وكلُّ هؤلاء النَّاس الذين يغزون المنزل كلَّ يوم سبت.) وبسرعة بالقرب من المدفأة حيث يشتعل الحطب، كانت تحكى لهم شيئًا، كانت نبرتها شبه غنائية، وكان شعرها يتطاير بشكل خاطفٍ كالبرق، إنَّها إيلينا بيهار.

كانت ساقاها طويلتين وفستانها بلون التَّبغ والتلفيحة صفراء. أمَّا شعرها فقد كان أشقر إنَّها مواطنة شيلية. فتاةٌ متحرِّرةٌ جدًا تعلَّمت فى باريس، هكذا كانت كريستينا تتحدَّث عنها أحيانًا. يا لأخى من مسكين فمدينة بوجوتا بأسرها تطلق عليه لقب الشَّهير. كانت ترقص التَّانجو لدرجة أنَّها..

يا حبِّى، تعال هنا.

نادت علىَّ، وكان قلبى وأنا اقترب منها، يتزايد خفقانه بسرعة. كنت أحسُّ برائحة شعرها، كان صوتها هامسًا، صامتًا كالثُّعبان تقول لى فى أذنىَّ : أين أنت ياروحى ؟

فى بهو المسرح الذى كان رطبًا وتنبعث منه رائحة البول كانت هناك لمبة نيون تضىء بشكلٍ متقطِّع. كان

بيداليس ينحنى فوق طاولة فى جانب المدخل يحصى التّذاكر المباعة. ثم يقوم بتسجيل بعض الأرقام فى جدول مربّع الخانات وبعد ذلك يوقّعها. وكان يقول كلٌّ شىء تمام فى النّهاية ويضع قلمه الحبر فى جيبه. كان يتوجّه إلى بوّاب المسرح الذى كانت ورديته قد انتهت أيضًا ثم يستعد للانصراف. ماذا تقول يارجل، هل هذا الفيلم جدير بالمشاهدة؟. كان البوّاب ينظر إلينا بسخرية. ويقول لنا ستمتلئ أجسادكم بالقمل (كان يضرب بيده وينطق الكلمات بشكلٍ متقطع بلكنة من سمات أحياء بوجوتا.) وهكذا سترى عمّا إذا كان سيستفزك أنّ أصطحب فتاةً ألمانية معى. إنّنى سأقدّمهن لك.

إذا قلنا له لا سوف يغضب ويشعر بالإهانة، كان بيداليس يقول لى ذلك فى أذنى عند الخروج إلى الشّارع.

كان بوّاب المسرح قصيرًا يشبه أحد الهنود الحمر، وحلته الدّاكنة المتهالكة عليها قشر فروة الرّأس، كان يسير بسرعة أمامنا. تعاليا، تعاليا لاتخافا منّى. كانت الشّوارع قَذرة حزينة فى حى لاس كروثيس. كانت هناك كلابٌ نحيفةٌ تعبث فى سلال القمامة. دخلنا لوكاندة ما كانت رائحتها رائحة طعام، كانت بها شموع من الدّهن وورق الحائط بالسّقف به صمغٌ لكى يصطاد الذّباب. طلب البوّاب ثلاث زجاجات بيرة وأخرج من جيبه علبة حمراء مجعّدةً من الجلد. قبلت السّيجارة. ماذا سيقول العجوز إيميليو عندما يرانى هنا ؟ وكريستينا ؟

قال البوّاب على غير المتوقع :

هذا ليس ملهى الجوكى. إذا لم تشعرا بالارتياح أخبرانى بذلك.

كان بيداليس مبتسمًا وكان يخرج الدُّخان من انفه الصّغير. ألم أقل ذلك من أجلك بل من أجل صديقك الدكتور الصّغير فبالنّسبة لى لا يهمنى أن اقول ذلك وقد احمرّ وجهى خجلاً. قال بيداليس إنّ هذا من أنصار الزّعيم جايتان مثلنا. أحقيقة ذلك ؟ كان البوّاب يشمّ، كان غير واثق أنّها دعابةٌ. لقد ابتسم توًا وأظهر نابين بالكاد فى فم بلا أسنان. عجبًا عجبًا إنّنى لم أكن أعرف أنّ الدُّكتور جايتان لديه كثيرٌ من المثقّفين. أصابت بيداليس غصّةٌ من الضّحك بينما كان يتناول البيرة. ثم حكى للبوّاب فيما بعد من كان والدى. نظر إلىّ الرّجل مذهولاً وفجأةً أصبح وقورًا. عجبًا، عجبًا، كان ينبغى أنّ تذكر لى ذلك من قبل. مدّ إلىّ من فوق الطّاولة والكئوس يدًا ذات أظافر قذرة.

ميجيل إيسبيتيا تحت أمركما.

ضرب بيده حافة الطّاولة مناديًا على النّادلة. يابنيتى. خذى هذه الفوارغ وأحضرى لنا مانعرفه. كانت النّادلة نحيفةً شمثاء الشّعر، وجّهت إلينا أنا وبيداليس نظرةً سريعةً وغير واثقة. قالت: من ذلك لاأعتقد أنّه يوجد شيءٌ. ألّح إيسبيتيا بصوت هامس ومقنع : لا يهمك المظهر فما من أهل الثقة لم تكن المرأةُ مقتنعة تمامًا، لكنّها عادت بعد كلّ ذلك بزجاجة

خضراء ووضعتها على الطّاولة. لم يكن على الزُّجاجة أيّة ماركة وكان غطاؤها مثبّتًا بالسيزال (وهو نوع من الليف)، إنّها شمبانيا الفقير، قال إيسبيتيا. أمّا عن الأخرى يادكتور فلا نشمُّ حتى رائحتها. اشتّدت قهقهة بيداليس. مزّق البوّاب رباط الزُّجاجة بمطواة فخرج غطاؤها من الفلين وأحدث صوتًا يشبه صوت زجاجة الشّمبانيا عندما ينزع غطاؤها ولكن السّائل الذى تدفق منها وملأ الكأس كان لونه بلون القهوة غير النظيفة. هذا وقد تساقط الزّبد على جوانب الكأس. رفع إيسبيتيا الكأس بيديه بوقار مثل قسيس يرفع كأس الطُّقوس الدّينية. نفخ فيه وقال : لا يُوجد ذبابٌ. شرب وأعطاها لبيداليس الذى احتسى جرعتين كبيرتين. احمرَّ طرف أنفه. إنّها هائلةٌ قال إيسبيتيا وهو ينظّف فاه أيضًا، لكن بظهر يده : إنَّ هذه الزّجاجة ينقصها وضعٌ اجتماعىٌ مثلى. أطلق بيداليس قهقهةً مدويّةً. كنت أحبس نفسى حتى لا أشمَّ الرّائحة، وأشرب عندما يأتى دورى. فالمشروب كان طعمه متخمّرًا، كان مقزّزًا ومقرّزًا. فى الخارج كانت الموسيقى تُسمع من كانتين بالشّارع، كانت تسمع موسيقى لأغنية شعبية بينما كان الكأس ينتقل من يد إلى أخرى. حكى لنا إيسبيتيا أنّه عضو بلجنة أنصار ومؤيّدى الزّعيم جايتان فى الحى، وكيف أنّه مكلّفٌ بالتّمويل وتنظيم مسيرة بالمشاعل ستنفّذ قريبًا جدًا.

إنَّ ما عند هذا الرّجل لا يستطيع أنّ يعرفه أحدٌ. لا أحد، هكذا أكّد بيداليس وهو نصف سكران. كان

وجهه احمر وقد برز له وريدان فى الجبهة. لا أحد، كرّر بيداليس، فى هذا البلد نظّم ثورةً اجتماعيةً، أو تمرّداً كبيراً. قال البواب : هذا هو، هذا هو باريس. إنّنى من الفوغائيين وأعرفهم جيداً. فلا يوجد سائق سيارة نقل ولا سائق ترام ولا خفير غابة إلاّ ويقول ذلك وحتى فتيات الهوى فهنّ من أنصار ومؤيّدى الزّعيم جايتان. سيبقى حكام الأقلية وحدهم فى هذا البلد. نظر إلىّ البوّاب بارتياب. ماذا حدث لك ياريس؟ أنت صامت للغاية. هل لعبت بعقلك الشّمبانيا ؟ لا، يارجل إنّنى على مايرام. (إنّنى أفكّر فى العجوز إيميليو. كان يقول متبجّحاً : إنّ والدى كان يغسل الجياد بالشّمبانيا. فالعجوز وأقارب كريستينا، كلهم من أصلٍ نجيب مثل الجياد الأصيلة، كلهم ذوى الدّم الأزرق وهم لا يساوون خردلة. لا، فأنا مع هذا الرّأى.)

أنا معكما فى رأيكما.

هكذا ينبغى أنّ يكون طالما أنّ والده كان كما تقول. ولو لم توافه المنية لكان السّاعد الأيمن للدكتور جايتان. مارأيكما هل نتناول الزّجاجة الأخرى ؟

رفض بيداليس : إنّنى نصف سكران. لقد شحُب وجهه. وأنا بالتّأكيد لن أتناول. فأشعر بأنّ ركبتى ضعيفتان فضلاً عن أنّ العرق البارد بدأ يخرج من جبهتى. سأنهض بحثاً عن الحمّام فالكأس الخشبية مليئة بالذّباب فى الغرفة أصابت أمعائى بالتّقلص. لى

رغبات غامضةٌ فى أن أتقيأ. أضع أصابعى فى فمى، لكن كلَّ ما يتحقَّق لى هو لعابٌ حزين. اغرورقت عيناى بالدُّموع من جرَّاء المجهود. كنت أفكِّر فى أنَّنى سكران فى محلٍ بحى لاس كروثيس. رأى بيداليس وإيسبيتيا وصولى بشكل غامضٍ. قال لى بيداليس : اسمع، هل تريد المجىء معنا إلى حيث فتيات الهوى ؟ خفق قلبى مضطربًا أنا لن أذهب أبدًا.. لكن إيسبيتيا نهض وأظهر نابيه الذين يشبهان نابى دراكولا. تعاليا تعاليا فقد حان الوقت لكى يغيِّر هذا الكتكوت ريشه ويصيح كالدِّيوك.

وفى ظلمة الشَّارع كانت موسيقى الكانتينات تبدو وكأنَّها رعدٌ مدوٍ. لدى قشعريرة اللهفة أو الاشتياق وألم فى فم المعدة. حاولت أنْ أتحدَّث إلى بيداليس على انفراد. اسمع، أنا لن أذهب أبدًا.. إنَّه أمرٌ فى غاية الخطورة. إنَّنى أخشى من الاصابة بالقُرح التناسلية، من الأمراض المرعبة. (إذا لم تكن تخشى الله فخف من الزُّهرى.) دعك من السَّفاهات يارجل، قال لى بيداليس. سنذهب لنتفرَّج فقط. وكان البوَّاب يسير أمامنا، وهو يلتفت إلينا ويقول : ماذا حدث للدكتور الصَّغير ؟ هل قال بيداليس إنَّه خائفٌ. قلت لاتجبن (أعتقد أنَّ الرَّجل لا يبكى، فالرَّجل الذى يذهب إلى حيث فتيات الهوى ينبغى عليه ألاَّ يظهر الخوف فهذا أمرٌ مهمٌ جدًا.) تتبَّعنا إيسبيتيا ودخلنا فى منطقة مكتظة بالسُّكَّان وحزينة، كانت بها بعض المصابيح الخافتة التى كادت تحتضر، كانت تُضىء

على استحياء وسط الظّلام الدّامس. كانت زمر من الرّجال تسير ببطء وفى غموض أمام الصّالات والنّوافذ المضاءة بالأنوار الحمراء. وكانت النّساء يرتدين ملابس فاخرة ملساء تغطّى الفخدين فقط. كنّ يجلسن فى الضّوء الخافت لدى الأبواب وهنّ يضحكن وأحيانًا يتحدّثن بصوت عالٍ من رصيف لآخر. مرّت إحداهن بالقرب منها وقد كانت حاملاً، كانت تنتعل صندلاً فضّيًا. اقترب منها إيسبينيا وقال لها شيئًا، ولكنّها تحوّلت إلى وحشٍ بأسنانها الذّهبية التى كانت تتلألأ فى فمها وقالت: قل ذلك لوالدتك، ياجبان. واصل إيسبينيا طريقه ضاحكًا. لقد قلت لها سنلتقى عندما تفرغين التّنك. ضحك بيداليس أيضًا. أنا لاأستطيع، لقد كنت بعيدًا، وانتابتنى نوبةٌ من الحزن والإشمئزاز. كنت أرى إيسبينيا قصيرًا متسرعًا عازمًا وهو يعبر الشّارع لكى يتكلّم مع امرأة ترتدى فستانًا أحمر وكان شعرها أصفر مصبوغًا، كانت تستند إلى باب. أشار علينا البوّاب مناديًا علينا. كان حلقى جافًا وقلت لبيداليس: اذهب أنت. الآن كان بيداليس هو الذى يعبر الشّارع حُرًّا طليقًا. تحدّث بسرعة مع إيسبينيا والمرأة. رأيتهم يضحكون ثمّ عاد إلىّ. إنّها قبلت عشرة بيزو من الواحد منّا. قلت له: لا، لا سأذهب إلى المنزل. نظر إلىّ بيداليس بسخرية متهكّمًا متردّدًا. قال لى انتظرنى فى هذا المحل حتى أعود.

طلبت كوكاكولا بصوت مرتعد. كان بعض الرّجال يجلسون على أجولة البطاطس يتجرّعون الجعة. نظر

إلىّ البائع ببرود تحت معطفه الريفى بشكل سيئ. يابنىّ، إنّك مازلت صغيرًا لكى تسير فى هذه الأحياء. إنّنى أنتظر صديقًا لى. ارتعدت يدى التى كنت أمسك بها الزّجاجة. إنّ كلّ هذا الحى مقزّز. كنت على وشك الذّهاب إلى المنزل، لكنّنى رأيت بيداليس قادمًا شاحبًا للغاية. قال لى إنّ إيسبيتيا ظلّ هناك. هيًّا بنا من هنا. كنّا نسير فى الشارع بسرعة وفى صمت جنبًا إلى جنب. كانت الأسئلة تدوّى فى رأسى مثل الذّباب.

هل فعلت فعلتك الشّنيعة ؟

بصق بيداليس على الأرض بازدراء. وقال كلّ شىء قذرٌ. لم يكن هناك حتى سرير معدنى، بل ورق جرائد على الأرض. وعند وميض باب رأيت وجهه الحزين الشّاحب وعينيه الشّاحبتين القلقتين، خجلانًا لا يريد أنّ ينظر إلىّ.

هل كانت المرّة الأولى ؟

نعم يارجل وأسوأ شىء أنّ العازل الطّبى الذى أعطاه لى إيسبيتيا تمزّق.

الفصل الثالث

- ١ -

استيقظ متأخّرًا ولديه انطباع أنّه موجودٌ في مكان مجهول وغريب لدرجة أنّه لم يكن يعرف حتى رائحة الغرفة ولا النّور ولا الأصوات القادمة من الخارج : خطوات وئيدة، أصوات، ومن بعيد كانت تسمع دقات جرس. حاول التّخلص من نوبات النّوم التي كانت تستحوذ عليه بصعوبة بالغة دون أنْ يتعرّف على شيء موثوق فيه، اكتشفت عيناه ستارةً صفراء يغمرها الضّوء وتحركها الرّياح، كان هناك توترٌ ينبض بألم في صدغيه. شيء ما من الحرّ والضّوء ربّما يشير إلى وقت الظّهيرة. أرسل له مخّه اسمًا هو دوردان، وعلى الفور أحسّ بالفتاة التي كانت تنام إلى جواره في الفراش وهي تتنفّس بهدوء وشعرها الأشقر على الوسادة. وقد أدرك كلّ شيء بعد أنْ ورد على ذهنه اسمها، حيث كانت مارجي وكريستينا في الحفلة ترقصان متعانقتين في ملهى كتاماندو. أغمض عينيه. انتابه صداعٌ في رأسه. فكّر مليًا وقال: إنّه ليس إلا ألمًا

بسيطًا. روم أم ويسكي. إنَّني أرتعد، عجبًا لذلك. وكانت هناك أصوات العصافير مميَّزة ومعروفة خارج الغرفة إلى جانب أصوات أخرى هادئة كانت تتسلَّل عبر النَّافذة. رأى من جديد كريستينا في ضباب النُّور الأزرق في ملهى كتاماندو وهي تُقبِّل يد مارجي خاضعةً ولهانةً. وقد حرقته هذه الذِّكرى مثل ملحٍ وضع على جرح حديث. يالهنَّ من سيدات لديهن مطاو في أظافرهن. فكَّر قائلاً: كفي اضطرابًا وتوترًا، تخلَّص من هذه الذِّكرى، اطردها من ذهنك، امسحها إنَّها لا توجد الآن، انتهى كلُّ شيء. اطردها من ذهنك.

كان هذا هو الحل في مثل هذه الأمور. كان هذا هو الشيء الوحيد الممكن. مرَّر يده على اللحية الخشنة وبدأ عقله يعمل بسرعة في أمورٍ محددة وفورية: أن يأخذ حمامًا ساخنًا مليئًا بفقاعات الصَّابون ويجفِّف جسده بفوطٍ نظيفة كانت في متناول يده، وفي غسل أسنانه بالفرشاة وحلق ذقنه بماكينة حلاقة وتناول طعام إفطاره مقترنًا بالقهوة السَّاخنة والمخبوزات وربَّما بضع بيضات وعصير برتقال، من ثمار البرتقال الطَّبيعية. ثمَّ يتصل بباريس بعد ذلك. كان مريضًا، وفي فترة نقاهة من الحبِّ وخيبات الأمل، لقد قرَّر الاستراحة والاستجمام قليلاً. هكذا قرَّر ذلك بشجاعة. لدرجة أنَّه سيتصل بباريس بمصوِّره ليو وسيطلب منه الذَّهاب إلى متحف الفن الحديث لكي يلتقط صور معرض براكي. وجاكلين؟ لم يكن يرى

وجهها بل رأسها وجسدها تحت الغطاء. لم يكن يشعر تجاهها بأيَّة رغبة، في تلك اللحظة. كان بوسعه أنْ يظلَّ بجوار فتاة كشقيق لها. كان القليلون من جيله يستطيعون خوضَ هذه التَّجربة، اللهم إلاَّ إذا لم يكونوا رجالاً، هكذا اعتقد إيرنستو ذلك بمزاح. وكان هذا أحد الأشياء التي تعلَّمها في باريس خلال السَّنوات الأخيرة: معاملة النِّساء والتَّعرف عليهن. كان يتعامل معهن على المكشوف وبنقاء. دون أنْ يزج بنفسه في مبارزة. من امرأة إلى أخرى هكذا كان يقول ذلك أحيانًا. أو من رجلٍ إلى آخر. ومن العجيب أنَّه بسلوكياته هذه غير المكترثة، كان ينتهي الأمر بما يريد هو. كانت مارجي تقول له: أنت مثلنا تمامًا. إنَّك في كلِّ يومٍ أقلُّ فحولة ورجولة، يالحزن عمِّي الشَّديد إذا علم بذلك.

نهض في صمت كي لا يوقظ جاكلين. اقترب من النَّافذة وعندما أبعد السِّتارة بيده في لطف غمرته أشعة الشَّمس وهيمن عليه تغريد العصافير. كانت العصافير تطير في حديقة الدَّير الكائن أمام الفندق. وكانت تمتد في الأفق أسطح منازل من حجر الإردواز وأشجار الحور والتِّلال البعيدة، كانت زرقاء كدخان الغابة، والأشجار تتمايل في الضوء الشَّديد والمكثَّف. وكان إيرنستو عندما ينظر إليها يشعر بأنَّ الذكرى مبهمةً غامضة لفصول صيف أخرى عندما كان شابًا. إنَّ فرنسا الجميلة خلال مرحلة مراهقته كان قد اكتشفها في فصل الصَّيف: لقد وصل في الصَّيف

لأوّل مرّةٍ كانت فرنسا تثير غريزته بقوة مثل فتاةٍ يجدها الشّخص فى حقل قمح. كان يتأمّل السّماء الصّافية وحتى حقول أشجار الزّان والتّلال، أحسّ بأنّ عاطفة حزينةً كانت تحزن قلبه. فكّر قائلاً : كلّ شيء زائلٌ. وسرعان ما تذكّر ماريا. كانت ماريا تضطجع فى سرير وكان معصماها مربوطين وملابسها باهتة لالون لها، أمّا صوتها: صوتها فقد كان ضعيفًا يرتعد، أثّر فيها مرور الزّمن، لقد فوجئت بمرور ملاك فى نفس ذلك المكان وفصل الصّيف أيضًا بينما كان الغسق يرخى سدوله، وكانت العصافير تطير أمام النّافذة. قال إيرنستو : ياهول الوحدة. أحسّ بحزنٍ شديد إنّه الآن طفل يريد أنّ ينادى عليها، طفلٌ خائفٌ مذعورٌ : ياماريا، ياماريا، لا تهجرينى. ترك السّيارة تهوى ببطء، كان مذهولاً، وكان غاضبًا تقريبًا: ياللخزى تتساقطُ دموعى.

كانت يداه مازالتا ترتعدان عندما أمسك بالهاتف لكى يطلب الإفطار.

ماذا تريد؟ سأل جاكلين التى بدأت تستيقظ بتنهيدات وزفرات.

لا شىء أكثر من قهوة سادة. قالت ذلك بصوتٍ مايزال يستحوذ عليه النّوم.

يتذكّر أنّها كانت مضطربة لفترة. فلهفة الاقتراب من السّاعة السّادسة مساءً وألف حجة واعتذار قدّمها للسّيد بيرنيير والسّكرتيرة لكى يبقى وحده مع أونا،

واحتجاجات هذه، الآن لا، أنت مجنون، من فضلك اتركني، لكن كما يتذكّر إيرنستو كان هناك شيء ما في طريقة نظرها إليه كانت تسمح له في صمت بأن يفعل كلّ شيء. عندما كانا يخرجان كان غسق الصيّف يغمر شارع الشّهيد ألبرت، وكانت النّوافذ تهيمن عليها الموسيقى العربية وكان هناك شيءٌ في الجو المضيء، في الشّهب المبكرة التي كانت تظهر في الفضاء وفي الرّائحة التي كانت تفوح في الشّوارع وكانت تمثّل قمة الكمال والهدوء اللانهائي للدّم الإنساني. وبعد مداعبات غرامية لا حصر لها كانا يظلاّن كأنّهما مخدّرين يرتعدان ينظران من فوق الشّمعة المضاءة والمفرش المربعات في مطعم ما. لم تكن لي شهيةٌ مثل تلك في ذلك اليوم. لقد أعجبتني نكهة السلمون المدخّن والخمر الأبيض الجيد من السافيا والخسّ الطّري النّضير والجبن والحلوى بالشيكولاتة وأيضًا رائحة التسطل الهندي وسحر الجسور والأفنية القديمة، والحانات المهجورة في العطوف الضّيقة المتهالكة التي كانت تصطحبه إليها أونا. كانت أونا تعرف كلّ دروب ومسالك باريس. كانت البوتيكهات تحظى بإعجابه وكذلك العطور والمصنوعات الجلدية، وبهذه الأذواق الرّاقية كان يقول إنّه ليست لديه أفكارٌ برجوازية. إنّني أصوّت لصالح اليسار لكن اليمين يثيرني ويستفزني كان يضيف هذه المقولة أحيانًا وهو يضحك كانت تبدو مقولة مواطن أرجنتيني.

ومن المفارقات أنّه لم يحب ماريا أبدًا كما في ذلك اليوم، بتلك الشّفقة الحزينة والمذنبة لأنّه تركها

بمفردها وقتًا طويلاً منتظرةً إيَّاه. كان يفكِّر فى نفسه قائلاً لها : ياحبيبتى، ياحبِّى إذا استطعت أنْ تفهمى ذلك، إذا تمكَّنت من أن أشرح لك ذلك دون أنَّ أسبِّب لك ضررًا، وإذا عرفت أنَّ شيئًا ما قد انفتح فى داخلى، شيئًا ظلَّ هناك بدا بداخلى منتظرًا دائمًا مطالبًا بنصيبه فى الحياة مثل نبات يحتاج إلى هواء وماء وضوء. إنَّها سعادة الجسد ولكنَّها أيضًا تعذيبٌ للرُّوح فى كلِّ مرَّةٍ كان يجد فيها ماريا حزينةً كان على وشك أنْ ينفجر فى دموع أمام الطَّبق الذى شوت فيه لنفسها فقط قطعة من اللحم. أخبرنى بالحقيقة يا إيرنستو، هل أنت تُحبُّنى ؟ كانت تسأله عند كلِّ خطوة.نعم، نعم، كان إيرنستو يجيبها، ولا حتى أستطيع أنْ أتخيَّل الحياة بدونك. وكان ذلك حقيقيًا. ذات يوم ذهبا لمشاهدة فيلم قديم لأجنيس باردًا بعنوان السَّعادة. قال لها بعد ذلك إنَّ شخصًا واحدًا بوسعه أنْ يهتم بسيدتين فى آن؛ فلا شىء ينبغى أنْ يعوق انفتاح الحبِّ فى جميع الاتجاهات؛ فالسَّعادة هى القدرة على المتعة. لكنَّها لم تكن توافقه على ذلك على الاطلاق. كانت تقول له: إنَّ فيلم أجنيس بارد كان يُروِّج لفلسفة حياة أنانية ولا أخلاقية تمامًا، لكن الشَّخص الناضج ينبغى عليه أن يختار خيارًا واحدًا ويتخلَّى عن الآخر. إنَّنى أعرف جيدًا فلسفة الصَّبر تلك، كان يبرهن إيرنستو على ذلك، فمنذ أنْ كنت طفلاً كانوا يسقونى إيَّاها بالملاعق، وكانت بالنِّسبة لى لها رائحة الموت.

ومع ذلك فقد أحسّ بالذّنب فى علاقته تلك مع أونا. كان مذنبًا إزاء ماريا وليناردـ على الرّغم من تأكيدات أونا فى أنّها وزوجها كلٌّ منهما يتصرّف كما يحلو له. ياله من أمرٍ غريب، إنّ ليناردـ يبدو الآن صديقًا لإيرنستو أكبر من أىّ وقتٍ مضى، فقد كان أكثر وقارًا وليِّنًا للجانب مع إيرنستو كما كان من قبل مع إسترادا أويوس. كان يتصل به لكى يتناول كأسًا، وعندما تأتى أونا كانت تنتظر إيرنستو معه. لم تكن أونا تعاملهما على أن أحدهما هو الزّوج والآخر هو الخليل بل كانت تعاملهما على قدم المساواة بنفس الخيارات. كانت تمسك بيد ليناردـ على الطّاولة فى الوقت الذى تمتدّ ركبتها إلى إيرنستو تحتها وعندما كانا يودّعانه عند باب الشّقّة كان ليناردـ يضع يده على جسدها كان ذلك يزعج ويغضب إيرنستو. كان إيرنستو يتذكّر دائمًا عبارات الشّاعر ليناريس. كانت أونا تظهر فى مكاتب دار نشر العالم الجديد تحت أىّ عذرٍ أو حجّةٍ وكانت طريقة إيمازاتها وإيحاآتها ونظراتها تصيب السّكرتيرة الآنسة ماريان بالخجل التّام رغم أنّها كانت باردةً وتلبس نظّارةً مثل المربية، وكانت تتبادل النّظرات المهينة مع السّيد فيرنيبر المحاسب. بالنّسبة لإيرنستو كان من الصّعب عليه الاستمرار فى العمل عندما تظهر أونا هناك. كان يغضبه كثيرًا أنّه ليس لديه مكان لكى يصطحبها إليه. كانت أونا تكره الفنادق وتقول إنّها تشعر فيها بأنّها فتاة هوى، هذا إلى جانب أنّها كانت ترفض المعاشرة

الجسدية دائمًا لكن كان يتمُّ اغتصابها. كانت تقول لإيرنستو إنْ وصولى إلى غرفة والقيام بخلع ملابسى كما لو كنت سألقى بنفسى فى حمَّام السبَّاحة لم يكن له أى معنى بالنِّسبة لها، إنَّنى أقسم لك. فقط ذات مساء بعد أنْ تناولت زجاجة خمر وبعد لمسات الأيدى واحتكاكات الرُّكبتين طوال الوقت قبلت الذَّهاب معه إلى فندق الرِّياح الأربع. كان الفندق يبدو وكأنه بيت هوى من الزَّمن الجميل كانت أضواؤه حمراء وكانت هناك مرايا بنفسجية فى غرفة. وفى غرفة مجاورة كان أنين امرأة مسموعًا. لقد عادا إلى الواقع منهكين يرتعدان فى المقهى الكائن على النَّاصية أمام زجاجة ماء صودا. وفى لحظة ما نظرت إليه أونا بطريقة غريبة وقاسية. قالت له بصوت أجش : إنَّنى أكرهك ثم تراجعت وقالت: لا أدرى لماذا قلت ذلك، إنَّنى مجنونة.

لقد بدا له من الغريب أنْ يتصل به لينارد يوم أحد ليطلب منه معروفًا : توصيله بسيَّارته إلى محطَّة القطَار: كان ليناردسيذهب إلى تولوز لمدة ثلاثة أيَّام. بالشَّكل الذى سيترك له سيارته وأيضًا أونا. يتذكَّر إيرنستو المشهد العبثى: كان ليناردثابت الجأش وقد ترك لحيته للرِّياح، وكان يضع منديلاً من الحرير الوردى حول عنقه قام بتوديع إيرنستو وأونا عبر نافذة عربة القطار الذى بدأ فى السَّير والابتعاد عنها، بينما كانت أونا وإيرنستو المذنبان يودِّعانه خجلانين. لقد ظلاَّ لأوَّل مرَّة فى باريس وحدهما. شرحت له أونا

قائلة: إنّ ليناردو يفعل ذلك دائمًا وكأنّها تُفكّر فى نفسها وهى ترى القطار يبتعد فى ضوء يوم الأحد ذلك. كانت تتصل قبل ذلك بتيستور (إسترادا أويوس). أمرٌ غريبٌ هكذا فكّر إيرنستو بصوت عالٍ وبإيماءة، ربَّما تكون الإيماءة نفسها التى يمكن أنْ تُسبّبها قطعة جبن متعفّنة. انفجرت أونا باكيةً، أىُّ أمرٍ غريب فى هذا؟ إنّ ما يحدث هو أنّ ليناردو رجل راقٍ، إنّه أكثر تحضُّرًا ومدنية منه وكل فحول أمريكا اللاتينية. كانت أونا معجبةً جدًّا بليناردو، وبشكل فظٍ أعطت لإيرنستو ظهرها وانصرفت دون أنْ تطلب منه مرافقتها. تركها تذهب هادئًا فى أعماق نفسه. فالجدال قد يُسبّبُ له مشاكل، إنّه بوسعه الآن اصطحاب ماريا إلى السّينما، فقد كان الأحد يومها، وكان إيرنستو ملكًا لها فى ذلك اليوم.

بعد أنْ ذهبا إلى السّينما وبعد أنْ اضطجع إيرنستو هادئًا فى فراشه وأطفأ الأنوار، وكانت ماريا قد نامت إلى جواره، فى تلك اللحظة ساورته الشّكوك والظّنون. أرادت أونا أنْ تظلّ بمفردها. لقد كانت بالتّأكيد مع شخصٍ آخر، مع الأرجنتينى ,لقد تشاجرت عن عمدٍ مع إيرنستو لكى تتخلّص منه. يالها من امرأة عاهرةٍ يالها من عاهرة، ظلّ هكذا يجادل نفسه يكرّر العبارة نفسها فى غضب صامت. قالت أونا ذات مرّة إنّ الرّجال لا يشكّون أبدًا فى إمكانية وجود رجل آخر فى حياة زوجاتهم. إنّهم بذلك سفهاء. كان من الواضح أنّها لم تبق بمفردها فى منزلها. أيّة

امرأة، نعم لكن أونا لا. كانت أونا فى حاجة دائمة إلى أنْ يكون معها رجالٌ حولها. رجلٍ، اثنان، ثلاثة عاشقين. إنَّها عاهرةٌ. نهض من فراشه واقفًا وهو يرتعد. ارتدى ملابسه بسرعة أراد التَّأكد نهائيًا من ذلك لكي يعرف كيف يتصرَّف. قرَّر ببرود تشغيل سيَّارة ليناردٍ الذى كان قد ركنها أمام المنزل. كانت شوارع باريس مهجورة فى ليلة الصَّيف الفاترة. صعد السَّلالم درجتين درجتين فى المنزل الذى يسكن فيه ليناردٍ وأونا. رنَّ الجرس. وفى الوقت الذى كان ينتظر فيه لدى الباب دون أنْ يسمع أيَّة ضوضاء مما أكَّد له شكوكه. كان ذلك واضحًا : إمَّا أن تكون مع شخصٍ وإمَّا أنَّها قضت ليلتها خارج المنزل. لم يتحرَّك من هنا، سأنتظرها، أقسم فى غيظ. كان ضوء السلَّم ينطفئ كلَّ لحظةٍ. رنَّ الجرس مرارًا وتكرارًا. سرعان ما سمع وقع أقدامٍ وصوتًا، كان صوت أونا يغلب عليه النُّعاس. من بالباب؟ أنا. ماذا تريد ؟ افتحى لى. قالت له : اذهب غدًا سأراك. لا، لن أنصرف. أنت مجنونٌ قالت أونا. خيَّم صمتٌ طويلٌ ثمَّ انطفأ ضوء الممر من جديد. لم تشعله مرَّةً أخرى. ظلَّ وقتًا طويلاً دون أنْ يتحرَّك فى الظَّلام وهو يرتعد من الغيظ. أنت إيرنستو؟ لم يرد. مرَّت بضع دقائق من الصَّمت قبل أنْ تُقدِم على فتح الباب قليلاً بحذرٍ وهى تفكِّرُ فى أنَّه قد انصرف. أطلقت صيحةً عندما دخل إيرنستو كالسَّهم دافعًا إيَّاها. كان يهمُّه فى المقام الأوَّل التَّأكد من أنَّ إستراداً أوبيوس موجودٌ هناك أم لا. لم يكن يريد إلاَّ ذلك فقط.

عبر الممر وتوقف عند باب غرفة النوم. لم يكن هناك أحدٌ سوى دمية سفهاء وعيون زرقاء مفتوحة تمامًا على الكمودينو. كانت أونا تقف خلفه بروبها الشفاف ويوجه مليء بالغضب: الآن انصرف من فضلك، انصرف ولا تعد هنا مرةً أخرى. كرر إيرنستو العبارة نفسها لا أعود أبدًا، كان عاجزًا عن التحكم في نفسه وأحس بأنَّ غضبه ودفاعه الوحيد ضد هذه الغيرة التي لا أساس لها.

شعر بنوع من الحقد والنفور من جانبها، وعندما أشرق الصباح في النافذة حلق ذقنه بالصابون وماكينة حلاقة ليناردِ. قال وهو ينظر في المرآة لا ينبغي أنْ يرى هذه المرآة أبدًا. إنَّها سامةٌ، إنَّها تزعجني. وعلاوةً على ذلك فأنا أحبُّ ماريا، إنَّني أحبُّ ماريا حبًّا جمًّا، لا أستطيع أنَّ أفعل بها ذلك كان يسمع صياح أطفال قادمًا من الخارج في ضوء الصباح، صياحٌ بعيد في الحديقة. كانت أونا قد استيقظت وتُعدُّ القهوة. ارتكب خطأً عندما قبل تناول القهوة معها وجلس معها في الصالون، أمام طاولة متنقلة لكي يتناول الإفطار. كانت ذكور الحمام تُحلِّق خارج المنزل. كان ضوء الصيف يرسم خطوطًا حيويةً قويةً على الستائر. كان الحرُّ شديدًا وموسيقى موتسارت تسمع في الإذاعة، وكانت أونا تتناول قهوتها وتقضم بعض قطع الخبز المحمص. حدثته عن طفولتها في كوستاريكا، عن عربات كبيرة مطليةً باللون الأحمر تجرها الثيران، وعن والدها الذي كان يمتلك مزارع بن.

كانت ابنةً وحيدةً. وافت والدتها المنية عند وضعها. كانت هى التى تجلس منذ أنّ كانت طفلةً إلى جوار والدها على المائدة الكبيرة بحجرة السُفرة فى المنزل، كانت هى التى ترافقه فى أسفاره وكم كانت غيرتها إذا نظر والدها إلى امرأةٍ ! ياوالدى، ياوالدى الحبيب، كانت تقول له فى يومٍ من الأيَّام ينبغى أنّ تعرف ذلك.

كان يستمع إليها دون أنّ يعيرها اهتمامًا، يتأمَّلها وهى تتناول القهوة. كانت قميئةً، لكنها جذَّابةً بسبب أوقيات من مساحيق الزِّينة، وبالملابس التى ترتديها الآن. كانت تلعق أصابعها وبظهر يدها تبعد الشَّعر عن وجهها. كانت أونا ترقب إيرنستو وقالت: ماذا بك ياسفيه، لماذا تنظر إلىَّ هكذا. بدأ يشعر فى أعماق نفسه بتلك اللهفة. عندما عادا إلى المنزل وكذلك كلمَّا التقيا بنفس هذه الطَّريقة الوحشية والغاضبة. لم تكن أونا تتركه يذهب إلاَّ عند الفجر. كان اليوم يشقق عندما يصل إلى منزله. وجد ماريا مستيقظة ومصباح الكمودينو مضاءً كانت عيناها حمراوين كانت تبكى. ترتعد. قالت له أعتقد أنَّ لدى حمَّى. كانت جبهتها تتقد فعلاً. أمسك بيدها وبدأ يقبِّلها بينما كانت دموعها تتساقط على خدَّيها. كان فى صوتها رعبٌ وذعرٌ. قالت له : يا إيرنستو إنِّى خائفةٌ. لدى خوفٌ مهولٌ. لقد مكثت طوال الليل ساهرةً أرتعد. لقد رأيت كلَّ شىءٍ بوضوحٍ. أعتقد أنَّ لديك امرأة وستهجرنى، أنت مجنونةٌ، تمتم إيرنستو وهو يداعب شعرها : إنَّنى

لن أهجرك على الاطلاق، كانت تنظر إليه من خلال دموعها. قالت له إنّ لديك امرأةً أخرى. قال لها : نعم، إنّها تجربةٌ عارضةٌ، فى نهاية المطاف لا أهمية لها. انظرى، دعينى أحضر لك قرص إسبرين أنت ترتعدين من الحمّى. وعندما عاد من المطبخ بكوبٍ أذاب فيه قرص الإسبرين سألته من هى تلك المرأة. إنّك لاتعرفينها هكذا كذب عليها إيرنستو. إنّها فتاةٌ... من البرازيل. فى النّهاية إنّه موضوعٌ أوشك على الانتهاء فلا تنزعجى.

فى منتصف النّهار جاءت أونا إلى مكاتب دار نشر العالم الجديد.

كانا قد وضعا الصّينية فوق مفرش السّرير وتناولا طعام الإفطار على ضوء النّافذة القوى.

لقد أدركت منذ أوّل وهلة ما سيحدث.

كانت تجلس فى الفراش فى وضع ممارسة رياضة اليوجا ولم يكن على جسدها سوى سليب أبيض صغير نظيف للغاية تتناول القهوة. وكان صدرها يطل من بين شعرها الذى كان ينزلق من فوق كتفيها، كان صدرها صغيرًا ومتماسكًا تذكّرها فى مايوركا منذ سنوات مضت. كانت تنزل من فوق الصّخور بسرعة مع خوليا أمامه. كان قد نسيها تقريبًا. كان أمرًا عجيبًا هكذا فكّر إيرنستو. كانت باريس دائمًا هكذا : أناس قريبةٌ من الشّخص تختفى فجأةً لبضع سنوات ثمّ تظهر من جديد دون أنْ تفقد

هذه الصّداقة، لم يكن هناك شيءٌ مستقرّ. لم يعد يرى خوليا أبدًا. كانت تعيش فى طنجة. لقد تزوّجت، من الذى كان سيفكّر فى ذلك. كانت تتحدّث كثيرًا عن حريتها. هذا ماحدث أيضًا مع كريستينا، ربّما مع مرور الوقت، لن تكون كريستينا سوى ذكرى خاطفة فانية ومسلية ذات ليلة فى ملهى كتامندو.

قالت له جاكلين إنّ مارجى هى التى خطّطت لكل ذلك.

هل قالت لك ذلك؟

لا، لكنّنى أعرفها جيدًا، إنّها عندما تدعو فتاة إلى ملهى كتامندو فإنّها تريدها حقًا. ألم تطلعك صديقتك على اللوحة الفنية فى غرفة نومها ؟

تلك اللوحة المخيفة ؟ نعم.

ابتسمت جاكلين

إنّها تفعل ذلك دائمًا فهذا يثيرها.

لكنّنى لم أكن أتصوّر أبدًا أنّ كريستينا كانت أيضًا كذلك.

قالت جاكلين من المحتمل ألاّ تكون كذلك. لكنها اهتمت بمثل هذه الخبرة النّسائية، لم لا ؟ فأنا لست كذلك فى الواقع. ولذلك فكلاهما بالنّسبة لى سواء.

قال لها إيرنستو وهو يأكل خبزةً : أنت ذات بثٍ مزدوجٍ كما يطلقون عليه فى بلدى.

ظلّت جاكلين فى صمت تُفكّرُ. تأمّلها إيرنستو. كان شعرها ذهبى اللون يتلألأ، كان طويلاً وناعمًا كالحرير. كانت بشرتها داكنة وعيناها فاتحتين جدًا.

تمتمت جاكلين قائلةً: إنَّها تعرف لماذا أقدمت مارجى على ذلك.

لماذا ؟

لأنّنى كنت سأهجرها. إنَّ مارجى لا تطيق أنْ تظلّ وحدها. إنّها تحبُّ التّملك جداً. إنَّها ينتابها الخوف وأسوأ شىءٍ يمكن أنْ يحدث لشخصٍ هو أنْ يتصرَّف بوازع الخوف. إنَّها تخشى أنْ تفقد فتاة صديقة لها كانت تسلّيها طوال الوقت. ثمَّ فجأةً تفقدها، هذا أمرٌ مشئومٌ لا يطاق. كان الشّىء نفسه يحدث دائمًا. فهى عندما تحظى فتاةً باعجابها تدعوها إلى البارات والمطاعم الفاخرة وكذلك إلى ملاهى الرَّقص. ينتاب الشّخص الاحساس بأنَّها تعيش فى رغدٍ من العيش. ورويدًا رويدًا دون أنْ تدرك الفتيات يخضعن لها بلا مناصٍ. يخضعن لمارجى تمامًا. إن مارجى غيورةٌ تحبُّ التّملك.

ألم يحظ بإعجابها شخصٌ أبدًا ؟

أنت تتحدّث ! إنّها تكرههم.

أحقًا ذلك ؟

أقول لك : إنّها تكرههم. إنّها كادت أنْ تكون مثل الرِّجال، لكنّها تكرههم.

هل صحيحٌ أنَّ جنابنيًا اغتصبها وهى طفلة ؟

لم يغتصبها ولكنَّه أظهر عورته أمامها.

أهكذا الأمر ؟

هكذا. إنَّه كان متيَّمًا بشقيقة مارجى الكبرى.

ظلاً صامتين يستمعان إلى طنين الذُّباب عند النَّافذة. عاد إيرنستو يفكِّر فى كريستينا . تخيلها الآن مع مارجى فى غرفتها التى تفوح منها رائحة البخور الهندية، وكان يجيش فى صدره إحساس. هل كانت تعجبك كثيرًا ؟ كانت مارجى من واقع الخبرة الكبيرة تعرف أنَّ كريستينا نمط من النِّساء لا ينبغى أنْ ترتبط بها كثيرًا لأنَّ كلَّ مافيها كان يشير إلى الخطر. لعلَّ مارجى كانت حذرةً جدًا فى ذلك.

لقد تصرفت جيدًا هنا تنهَّدت جاكلين وقد فردت جسدها. أودُّ أن آخذ حمَّامًا. هل تريدين العودة إلى باريس فورًا ؟

إذا كنت لا تريدين البقاء هيًا بنا. فاليوم ليست لدىَّ رغبة فى الذِّهاب إلى العمل.

لعل أخذى حمَّامًا يصلح أمرى أيضًا. لدىَّ خفقان حتى فى صدغىَّ. مرَّر يده على ذقنه. لقد أحضروا له فى صينية الإفطار ماكينة حلاقة وفرشتين للأسنان لكنَّهم لم يحضروا له كريم حلاقة. فكَّر قائلاً ينبغى علىَّ أنْ أحلق ذقنى على النَّاشف.

اختفت الحرارة فى اليوم التَّالى لكن ماريا لم ترد النُّهوض من الفراش. ظلَّت يومين فى حالة من الاجهاد

وظلَّت عيناها تنظران إلى ورق الحوائط دون أنْ تتناول شيئًا أكثر من فناجين الشَّاى، لم ترد أنْ يستدعى إيرنستو طبيبًا. قالت له إنَّها بخير، كانت تقول له ذلك وهى تنظر إليه بعينيها الجميلتين مثلما كان يحدث فى مايوركا عندما هجرت منزلها. حاولت أنْ تبتسم له ولكن غضبًا خفيفًا كان يكتنف ذقنها كما أنَّ التَّوتر الذى كان يرى فى نظرتها كان يشير إلى أنَّها فى أيَّة لحظة يمكن أنْ تنفجر فى البكاء. فى اليوم الثَّالث استيقظت بروحٍ جديدةٍ. وعلى غير المتوقَّع جاءت فى وقت الظَّهيرة إلى مكاتب دار نشر العالم الجديد. لقد أذهلته طريقة زينتها وقد ركَّزت على لون خدَّيها ورسم حاجبيها وشفتيها. كانت تعبيراتها حيويةً. قالت له ادعنى على الغداء، قالت له ذلك بطلاقة لم تكن مألوفة فيها من قبل. وعندما وجدا نفسيهما فى مكان معتم فى ركن بمطعم شارع القديس جينفيفى طلب مشهيًا لم يطلبه من قبل قط. نظرت إليه بتعبير مباشر وقالت له لقد اتخذت قراراتٍ مهمةً. أريد البحث عن عمل، أريد الخروج، أريد تغيير حياتى... لقد اكتشفت أنَّنى أقوم بنفس الدَّور الذى كانت تقوم به والدتى. لم تكن تفعل شيئًا سوى رعاية محظيات والدى والاهتمام بالمشاكل المادية. لقد ربونا فى كولومبيا على أنْ نكون فى رعاية رجلٍ وهذا لا يمكن أنْ يكون. إنَّ الواحدة منَّا يُداسُ عليها لأنَّها تسمح بذلك... إنَّنى لا أقول ذلك لك، أوضحت هذا على الفور. فى النَّهاية إنَّ قصتك مع

تلك الفتاة البرازيلية أمرٌ طبيعيٌ. لقد وافقتها على ذلك، ولم يذهله كثيرًا ما كانت تقوله له وقد لوّنت رموشها باللون البنفسجي، ولون شفتيها الحمراوين والكلمات المفخّمة التى كانت تخرج من فيها. كان هناك انطباع بأنّها تطلق العبارات والمقاصد الحيوية لكى تخفى شيئًا كان فى عمق مقلتيها مازال يرتعد مذعورًا. كانت تذكّره بإيستيلا (وكان هذا السبّب الذى اكتشفه الآن، لقلقه وهو يستمع إليها) قبل انفصالها الشّائك بقليل. بدأت إيستيلا تتحدّث بنفس الطّريقة الطّلقة والمتحدّية، ولتدخين الماريجوانا، والبحث عن شعراء أكثر فقرًا على موائد الأوز المراقى الحزينة، وكانت تعبيراتها لها نفس المعانى المتعدّدة والذّعر والجرأة التى تتّسم بها ماريا الآن. إنّ ماريا لم تكن تشبه إيستيلا فى شىء. كانت لمظاهر معيّنة على طرف نقيض من إيستيلا. كانت هادئة لطيفة ورزينة. إنّ الشّخصية التى كانت تتقمّصها لم تكن شخصيتها. لكن ماكانت تقوله كان واضحًا، لقد تحدّثا فى ذلك عدّة مرّات. كان يؤيد قيامها بالبحث عن عمل، أو رسم لوحاتها المائية، لكن بكلّ جدّية، بدون تلك الرّوح الانهزامية للنّقد الذّاتى التى تنمّ عن فقدان الثّقة بالنّفس. لعلهم فى يوم يستطيعان إطلاع بينها على هذه اللوحات، وسيقوم بينيا بتسهيل الاتصالات لعرضها فى مكان ما. وعلاوة على ذلك ينبغى عليك التّحرّر من الاعتماد المبالغ فيه علىّ. إنّنى أحبك ياحبيبى، ولكن.. ذات يوم ستريننّى مثل الرّجل البغيض الذى يعيش فى المناطق المدارية. إنّ الثّقة

والحرية ياماريا هما أقدم مشكلة فى العالم. إنَّ كليهما من القيمة نفسها، ودائمًا هى صفقة كاسدة.. إنَّنى أعتقد ذلك أيضًا، قالت ماريا. سرعان ما أدركت أنَّنى كنت متشبِّثةً بك كما كنت متعلِّقةً بوالدتى عندما كنت خائفة من المدرسة. أف ينبغى أنَّ أغيِّر ذلك. اطلب زجاجة أخرى يا إيرنستو.

خرجا من المطعم وقد أحسَّ بأنَّهما متحدين بمشاركة جديدة وغريبة. كان سيضعان صيغةً جديدةً مشتركةً للحياة موضع التَّنفيذ بحيث يظلُّ أحدهما إلى جانب الآخر لكى يمنح كلٌّ منهما الآخر حريَّات متبادلة. ألن تكون غيورًا فى اليوم الذى أقوم فيه..؟ سألته ضاحكةً بالتَّأكيد سأكون غيورًا. ردَّ عليها مبتسمًا. ستظلُّ أحشائى أحشاء رجلٍ لينينى لا مناص من ذلك. لكن إذا تمتَّعت بحريةٍ فليس من العدل ألاَّ تتمتَّعى بها. لقد عشنا يا ماريا حياةً ضنكًا معذَّبين. إنَّ باريس تعنى الحرية، فلنتمتَّع بها بكلتا يدينا. فلنسرَّ عن الرُّوح. فلتنبت ألف زهرة.. إنَّك سكران يا إيرنستو. وأنا أيضًا سكرانةٌ. عجبًا كم كنت سفيهةً لقد فكَّرت فى أنَّنا سنتزوَّج وسننجب طفلاً ...

وفجأةً عندما أدركت أنَّ هناك امرأةً أخرى... لم أعد أفكِّر فى ذلك قال إيرنستو وقد توقَّف أمام بوتيك. نظر إلى ماريا. يالها من جميلة. لقد كنت أنانيًا معها بفظاعة. قال لها لقد كنت أنانيًا معك. انظرى ياحبِّى، فلنقدم على أمرٍ جنونيٍ. اشترى ملابس ياحبِّى.

كان قد تركها فى المترو وهى مثقلة بالطرود. أمَّا هو فقد رجع إلى مكتبه. لقد أحسَّ بأنَّه أفضل من قبل. وفوق الآلة الكاتبة وجد ورقة حاقدةً من أونا. "لم أجدك فلا تنتظرنى" أونا. فكَّر إيرنستو فى هذه المرأة التى لا تطاق. قرَّر ألاَّ يفكِّر فيها ويشغل نفسه فى مراجعة بعض النُّصوص الأصلية التى تراكمت فوق مكتبه. كانت السَّاعة تقترب من السَّابعة ليلاً، عندما ظهرت أونا إلى جواره. سألته بفظاظة: مع من كنت وقت الظُّهيرة ؟ ردَّ عليها قائلاً: مع ماريا. قالت أونا هذا كلُّ ما أردت معرفته وقد لفَّت نصف دورة لحق بها فى شارع كارمز. كانت تسير بسرعة. قالت له: دعنى دون أنْ تتوقَّف عن السَّير. ظلَّ يسير إلى جوارها دون أنْ يعرف ماذا يفعل. إلى أين تذهبين ؟ سألها. كان رنين صوتها قاسيًا حاقدًا على أنغام ضوضاء إيقاع نعليها السَّريع. لدىَّ موعدٌ مع... شخص. ابتسمت بشكلٍ انتقامى وهى تسير دائمًا بسرعة. إنَّه مواطن أمريكى. آهه، هل هكذا؟ ضحكت أونا. يالذاكرتك القوية ياسيدى. لم يعرف فى أىِّ ساعة أمسك بمعصمها بقوة. اتركنى، صاحت أونا وتوقَّفت عن السَّير. كانت تنظر إليه بكراهية. توقف رجلٌ لكى يراهما. ترك إيرنستو يدها. قالت له : أنت زفتٌ. أعطته ظهرها ثم سارت فى الشَّارع إلى أسفل، لكن بطعم المرارة فى فمها. أنا مجنون. فكَّر فى أنَّه مجنونٌ وهو يجلس فى المترو. ينبغى علىَّ أن أنسى هذه المرأة. تذكَّر ماريا، رآها فى خياله وهى تقوم

بجولة سعيدةً أمام مرآة، وهى تجرِّبُ فستانًا فى المحل. لم تكن العلاقات الغرامية إلاَّ هروبًا فلديه ماريا وعمل فى باريس وقد بدأ بالإضافة إلى ذلك تأليف كتاب. وبوسعه أنْ يُعدِّل مساره ويقومه فى الأربعين من عمره. بينما كان يجلس على درج عالٍ جاء مفتِّشٌ ملثَّمٌ ويرتدى الملابس السَّوداء، ظهر فى الضَّباب الأحمر لرموشه التى أغمضها. ماذا فعلت فى حياتك يا إيرنستو ميلو ؟ فتح عينيه لكى يرى عبر زجاج المترو اللافتات الدِّعائية وهى تجرى. ضحك إيرنستو، كانت الجدَّة هى التى أمامه، تُغطِّى وجهها تجاعيد زينتها بالمساحيق كانت تنظر إليه فى انعدام ثقة صريحٍ. هكذا ينبغى أنْ يبدأ الجنون، فكَّر إيرنستو فى مرح.

أصابته الحيرة عندما وجد الشَّقة خاليةً. كانت هذه المرَّة الأولى التى يحدث فيها ذلك. لم تكن ماريا موجودةً حمَّر بضع بيضات وأكل فى ضوء المطبخ الخافت الحزين. ثم جلس إلى جوار النَّافذة يقرأ صحيفة لوموند(*) يبحث فى المقام الأوَّل عن أبناء أمريكا اللاتينية (برقيات سريعة وقصيرة بطبيعتها المألوفة التى يكتنفها الذُّعر: اعتقالات، قتلى ومفقودون)، لكن السُّطور كانت تنزلق من أمام عينيه. كان مضطربًا لغياب ماريا. أيْن كانت؟ ماهى الأهمية العبثية التى كانت ماتزال فى حياتها على الرَّغم من

(*) لوموند: جريدة فرنسية شهيرة تعنى العالم، بالفرنسية فى الأصل.

كلّ شيء. إنّه لم يتخيّل نفسه أبدًا يقطن هذه الشّقة بمفرده. كان زجاج النّافذة يهتزّ كلما مرّ القطار في الطّريق. فكّر في مشاعر وأحاسيس ماريا وهي تنتظره وحيدةً أمام تلك النّافذة خلال أمسيات لا حصر لها. ما الذي كان يدور في ذهنه؟ أسلاك كهربائية، قطاراتٌ صامتةٌ بلون الحديد: أمام هذا المنظر، كان يرى عن بعد عالم قرطاجنة. كم كانت كولومبيا بعيدةً في الواقع تذكّر تلك الفترة البعيدة عندما عاد من باريس. النّشاطات السّياسية الغزيرة في ذلك الوقت المليئة بالإيمان والحبّ شوارع سيجوبيا الموحلة أثناء إضراب عمال المناجم، أيّام كانت تكسوها الشّبورة في الصّباح في القطار وهو يسير بسرعةٍ واللافتات الدّعائية على جانبيه. الطّريق إلى ثيناجا والكثبان الرّملية وجذوع الأشجار العفنة على شاطئ البحر، ودائمًا الرّفاق النّحفاء ينتظرون في مخزنٍ حارٍ، والمحامون الفاشلون من الأقاليم وهذيانهم وهراءاتهم الثّورية. كم كان كلّ ذلك بعيدًا.

كان في غرفة النّوم عندما سمع وقع أقدام على السّلّم وصوت مفتاحٍ في مغلاق باب المدخل. كانت ماريا. كنت في السّينما، قالت له ذلك بنفس التّعبير الشّجاع كما حدث من قبل في ذلك اليوم. لم يستطع إيرنستو أنّ يتفادى سؤالها مع من كانت. تحدثت له ماريا عن صديقها النّمساوي نفس الشّخص الذي كان يدرس في مدرسة اللوفر والذي كان قد دعاها ذات مرّةٍ لتناول القهوة. كان ينبغي عليه أنّ يخفي شعورًا

تلقائيًا من اللوم أو التأنيب قال لها إنّه لمن العبث أنْ أضطرب عندما لا أجدك هنا. أحقيقة أننا نُحبُّ بعضنا بعضًا مهما حدث ؟ قالت ماريا: دائمًا. كرَّر ذلك إيرنستو ذهنيًا دائمًا، وللمرَّة الألف قرَّر فى تلك الليلة وضع نهاية لورطته مع أونا. كان يرى أنَّه مؤشرٌ حسنٌ ألاَّ تظهر أونا مرَّة أخرى فى مكاتب دار نشر العالم الجديد وعلى الرَّغم من القلق والاضطراب اللذين كانا ينخران بداخله، لم يفعل شيئًا لكى يراها. لكنَّ كل مقاصده الحسنة انهارت بعد ثلاثة أيَّام فى حفلة بييناس.

تذكَّر تلك الموسيقى المدارية الصَّاخبة، وكان كلُّ اثنين يرقصان، وكانت هناك مجموعات غير متجانسة من الأمريكيين اللاتينيين والفرنسيين فى كلِّ مكان. يتذكَّر إيرنستو الاضطراب الشَّديد والصَّامت الذى نجم لديه عندما رأى أونا وشعرها الأشقر الحر الطَّليق وهى ترقص مع رجلٍ عملاق عريض المنكبين وهى ملتصقة بجسده تمامًا. وفى ركن من الصَّالون كان بينياس يقوم بأعماله الوحشية المعهودة وسط هذيان الحاضرين. وخلف الشَّخصية التى كان يمثِّلها كان بيناس الحقيقى على مايبدو قد ملَّ تمامًا من القيام بمثل هذه الأدوار وخلال تلك الأسابيع حاول مرارًا وتكرارًا أنّ يراه، أنّ يرى صديقه القديم ذا الشَّرز الممزَّق. كان ذلك بلا جدوى. فكلُّ محاولة كان يقوم بها للاقتراب منه كانت تفشل مثل فراشة تصطدم بزجاج تلك الشَّخصية الليلية. لكن فى الوقت

نفسه كانت تغضبه الانتقادات التى تقال من ورائه والتى كانت أونا وأصدقاؤها يطلقونها ومصدرها الحقد فقط. فاليثيا يتيس، على سبيل المثال، الأرجنتينية صديقة أونا والتى وصلت توًا من سفرها إلى كوبا، اقتربت منه تلك الليلة وقالت له انظر إلى السَّجاجيد التى تستهلك، ياله من سفيه، إنَّه ليس إلاَّ سفيهًا. كان إيرنستو يرفض مثل تلك الانتقادات من جانب اليسار الذى كان أفراده يكيلون الانتقادات لبينياس فيما بينهم. كان يودُّ تحفيز افرازاته السَّامة. كان يريد أنْ يحفزَّها مع بينيس على سبيل المثال. قال لها دعك من المزاح. إنَّ بينياس شخصٌ شهمٌ، وما العيب فى لِنَّه يريد أنْ يعيش حياة التَّرف فقد ربح أموالاً من رسوماته. هكذا تكلَّم معها حتى اختفت ابتسامته الأرجنتينية كالجسد البالى. ردت عليه بينيس قائلة اشربوا ويمكى بينياس إذا أردتم لكن لا تقولوا مثل هذه الهراءات. قبل أن يرى نفسه قد انزج فى نقاشات معهودة عن الفنَّ الملتزم والفن من أجل الفنّ، فإنَّ باديا النَّاجح وكوبا والباقين جميعا استطاعوا أنْ يجروها للرَّقص على أنغام تلك الموسيقى المدارية الصَّاخبة والتى كانت أكثر دويًا من ذى قبل بسبب جهاز إستريو هائل. لم تكن بينيس القرين المثالى لذلك الرَّجل وقد اكتفى فقط بمشاهدتها وهى تهزُّ ردفيها وكتفيها كان أحيانًا يرى عينى ماريا الحذرتين التى كانت تتحدَّث مع ليناردو. ينبغى أنْ يتخيَّل أنَّ ماريا هى حبيبتى هكذا فكَّر إيرنستو.

إنَّ ذلك الرَّجل ينتقم الآن. دون أنْ يدرى، عندما يتحدَّث عن الحبِّ الجديد لأونا مع ذلك الشخص البرازيلى الذى يرقص معها الآن والذى كان فدائيًا فى ساوباولو ألا تعرف بينوريو؟ لا، لم يسمع قط عن بينوريو ذلك، ولكى يتفادى استمرار المرأة فى الحديث عن مزيدٍ من التَّفاصيل فقد جذبها إليه لكى يقتصر الأمر فقط على احتكاك الفخذين. إذا لم تعتدلى فى عواطفك سيطردانا من الحفلة قالت الأرجنتينية لكن شيئًا ما فى ابتسامتها كان يسمح بكلِّ شىءٍ. لقد تخيَّل فى ذعرٍ تلك الابتسامة على الوسادة فى الفندق فى اليوم التَّالى. كان يبحث عن أونا بنظراته وعندما أدرك أنَّها اختفت أحسَّ بلهفة شهوانية كبيرة تنبض فى معدته. كان مهتمًا للغاية بالأرجنتينية بينيس، كان مهتمًا بها بشكل آلىٍ، وكان يوجِّه لها أسئلة خبيثةً عن دار نشر العالم الجديد التى كانوا يطلقون عليها ظلمًا دار النشر المتطفِّلة. وذات لحظة توقَّف عن الرَّقص لكى ينضم إلى لينارد وماريا. قدم لها بينيس على أنَّها صديقةٌ قديمةٌ عادت من كوبا توًا. بعد ذلك بلحظة تحدَّثت بينيس عن مؤتمر ثقافى عقد فى هافانا عن ردِّ الفعل العام لهؤلاء الملائكة الغاضبين ضدَّ كتَّاب الازدهار اللاتينى الأمريكى المعروف بالـ بوم(*) وكانت ماريا إحدى المتحمِّسات لجابريل جارثيا ماركيز وكورتاثار وكارلوس فوينتيس وبارجاس يوسا وكانت تضيف لبارجاس يوسا مزيدًا من النِّقاط لصالحه

(*) Boom، بالفرنسية فى الأصل.

نظرًا لأناقته، بدأت بينيس تغضب، كان ذلك ملحوظًا أومأت إليها بأنَّها ستعود وذهبت إلى الحمَّام.

عندما عبر الممَّر رأى أونا مع فدائي البرازيل في المطبخ. فكَّر وهو يتبوَّل في الذَّهاب دون أن يراها، دون أنْ يراها على الاطلاق. وفي صمت قرَّر استعادة كل أشيائها المقزِّزة في غرفة نوم بيناس. بحث عنها بين أكوام من الملابس كانت على الفراش، عندما سمع صوت أونا يقول من خلفه هل ستذهب ؟ كانت قد أغلقت باب غرفة النَّوم وتقدَّمت تجاه إيرنستو وهي تنظر إليه بطريقةٍ وحشيةٍ. هل ستذهب مع أليثيا بينيس؟ هل ستختارها ؟ من المحتمل، قال إيرنستو. لقد اخترت البرازيل وأنا الأرجنتينية، فالقسمة عادلةٌ إذن. صفعته فجأة على وجهه. أحسَّ بأنَّ وجهه يتوهَّج. كانت أونا تبدو خائفةً مذعورةً ممَّا فعلته توًا. لمست خدَّيه بشفتيها. كانت شفتاها أشبه بجذوات من النَّار المستعرة. ولم ينتبها إلى طرقات الباب ولا إلى الضحكات والصيحات القادمة من الجانب الآخر، لم ينتبها إلى ذلك إلاَّ في وقتٍ متأخِّرٍ. عندما فتح الباب وجد نفسه أمام بيناياس ومقلتيه القاسيتين فوق لحيته. قال له بيناياس: توجد الفنادق من أجل ذلك يا أستاذ، جرحته العبارة. بدا له أنَّ النَّاس جميعًا كانوا ينظرون إليه وعند مروره كان هناك صمتٌ شديدٌ. رأى من بعيد وجه ليندرِّد لأوَّلِ مرَّةٍ مكفهرًا حزينًا. لم يجد ماريا. يا أخي إنَّ فتاتك عرفت كلَّ شيءٍ وانصرفت قالت له بينيس. باللفضيحة التي ارتكبتها. نزل على

السُّلَّم وهو يفكِّر في كم كان مجنونًا! كم كنت مجنونًا! يا إلهي. أخرج رأسه في الهواء الفاتر وقد ابتل بالمطر في الشَّارع. في نهاية شارع كليبر المزدحم بالمرور رأى صرح قوس النَّصر مضاءً، رآه من الجانب. لم ير ماريا في أيِّ جانبٍ. فكَّر إيرنستو قائلاً ياللفظاعة التي ارتكبتها.

- ٢ -

كانت يده ترتعش وهو يمرّر ماكينة الحلاقة المليئة بالصابون على خدّيه. كانت بعض وخزات الألم لا يزال يشعر بها في صدغيه وكان قلبه يخفق من القلق. رأى عبر المرآة كيف أنّ جاكلين خلعت سروالها ودخلت عارية البانيو المملوء بالماء ذي الزّبد الأزرق. جمعت شعرها على رأسها بدبوس شعر. كان موضوع السروال يختلف تمامًا عن باقي جسدها المدبوغ الداكن. كانت ذات ظهرٍ طويلٍ جدًا ونحيلٍ كفتاةٍ عاشت في اتصال طويل بين الماء والشمس. كانت تبدو وكأنّها منحوتةٌ في خطوطٍ وأجزاءٍ متناسقةٍ ورقيقةٍ.

التفت إيرنستو نحوها بماكينة الحلاقة المليئة بالصابون في يده.

قال لها : ليس فيك شيء سيئ على الاطلاق، أتعرفين ذلك ؟ يبدو أنك من البرونز.

انغمست جاكلين فى الماء السّاخن ذى الشّذا الزكى للبانيو، كان ثدياها يظهران فوق الرّغوة ويختفيان كأنّهما سمكتان.

سألها هل يمكنه دخول البانيو أيضا ؟ عندما انتهى من حلاقة ذقنه.

بالتّأكيد. لكن كن حذرًا ولا... كما يقال حتى لايقع الماء خارج البانيو.

نزع لباسه ودخل البانيو أيضًا الذى لم يكن كبيرًا جدًا. استطاع أنْ يجلس دون أنْ يصطدم بساقى جاكلين. لمس بقدميه فخدى جاكلين وكأنّهما فخدى فرسة. غمر الزّبدُ شعر صدره، وقد أحسّت مسامه باللذّة عند اتصالها بالماء السّاخن.

قال لها : لولا أنّنى اليوم غير مستريح النّفس لكان ذلك الموقف فى غاية الرّوعة.

أطلقت جاكلين ضحِكةً مدوّية. كانت عيناها فاتحتين جداً، وقد امتلأت بنقاطٍ برّاقة.

ياعزيزى إيرنستو قالت له وهى تنظر إليه متأثرةً.

أنا سعيدة جدًا برؤيتك من جديد.

لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ دون أنْ يرى أحدنا الآخر ؟

أربعة، أو خمسة أعوام. لا أتذكّر جيداً. لقد تزوّجت خوليا هل تعرف ذلك ؟

نعم، تزوجت من مهندسٍ وتعيش فى طنجة. يالهذه الحياة الغريبة. تنهَّد. فهناك لحظات أثقل من

جهاز بيانو. جهاز بيانو من الأفضل أنْ يحمله شخصان.

أف قالت جاكلين.

ألهذه الدّرجة؟

بمجرّد أنْ دخل سمع فى مكان ما بالشّقة المعتمة بكاء ماريا. لم تكن فى غرفة النّوم. لم تكن أيضًا فى الصّالون، كانت فى البانيو، تجلس فى الظّلام على حافة البانيو وهى تبكى. صدرت عنها إيماءة رفض عندما همَّ بأنْ يلمسها. قالت له دعنى بصوت مزّقه النّحيب. توجّه إلى المطبخ بعد أنْ تأمّلها بحزنٍ، بحث عن إناء فى دولاب الأوانى الزّجاجية وأخذ إناءً به الفاليوم وعاد إلى الحمّام ومعه حبّةٌ وكوبًا من الماء. تمكن بعد مجهودٍ ما من إقناعها بتناوله. الآن عندما أشعل الضّوء تمكّنَ من رؤية وجهها الذى أتلفه البكاء وكانت عيناها حمراوين حيث نظرتا إليه بقسوة. كانت تتحدّث ببطء، فى ضغينة وقالت له : أنت أنانىٌّ. إنّنى كنت أعتقد أنّك طيّبٌ، ولكن... بدأت تنهمر دموعها على خدّيها من جديد. اهدئى ياماريا، ينبغى أنْ نتكلّم. لقد هزّت رأسها بإيماءة قاطعة قالت ليس لدينا ما ينبغى أنْ نتحدث عنه. إنّ احتباسك أمام كلّ النّاس مع امرأة. وعلى التحديد والدّقة مع تلك... لن أعيش أبدًا معك. قبل ذلك أفضّلُ أنْ أكون فتاة هوى. لا تكونى مجنونةً قال إيرنستو. لن أعيش معك أبدًا، سمع ذلك جيدًا، قالت ماريا : لن أعيش معك أبدًا.

ويذكر إيرنستو أنَّه في تلك الليلة اضطر للنَّوم في الصَّالة. ظلَّ مستيقظًا لساعات طويلة. كان ضوء القمر يدخل من النَّافذة وهو يرسم على الحائط، وقد تعمق ظلُّ البيانو. كان كلُّ ذلك حلمًا سيئًا، كان كابوسًا حزينًا، هكذا كان يفكِّرُ إيرنسو. إنَّه كان في حاجة إلى ماريا، إنَّه يُحبُّها. هل كان مهولاً مافعله إيرنستو؟ تذكَّر عيني بينياس القاسيتين وهو يحكم عليه. توجد فنادق في باريس من أجل ذلك يا أستاذ. رُبَّما كان محقًا. فالتَّصرف كما حدث له في كثيرٍ من الأحيان بدافع من الغرائز، كان كارثةً دائمًا. قال الشَّاعر ليناريس إنَّ هذا تصرفٌ أصيل لبرجه الحمل. لم يكن يرضى بمواقف معتدلة ولم يكن يقبل أنْ تكون لكل الأمور حدودٌ، وكان كلُّ شيء ينتهي بفضيحة. كيف كان والده؟ أو كيف كانت والدته ؟ كان من الغريبِ ألاَّ يعرف ذلك، لم يكن يحتفظ لهما بذكرى مبهمة. أيًّا كانت الأمور فإنْ إيرنستو لم يرد حتى مجرَّد التفكير فيما سيحدث لو هجرته ماريا.

تذكَّر أنه استيقظ في ذعرٍ مريرٍ حزين. كان مايزال الليل يرخي بسدوله. وفي جزءٍ ما من حلمه كان مع والده. كانا يسيران في طريق تغمره الشَّمس بين أشجار الكافور التي يغطِّيها التراب. كان والده يتحدَّث له عن المستقبل.

ستفعل ما لم أستطع القيام به، إنَّني سأموت، كذا كان يقول له... كان يقول له بطريقة مازحةٍ مرحة إنَّه سيموت وإنَّه يعتبره رجلاً ويعتمد عليه. سأعتمد

عليك، ظلَّت العبارة ترنُّ فى ذهنه الآن وقد اضطجع فى الفراش يغمره إحساس بالحزن. كان ذلك عندما سمع أصواتًا فى المطبخ. كان نور الممَرّ مضاءً. نهض من الفراش. وجد ماريا فى المطبخ عاريةً وهى تبحث فى خزانة الأوانى الزُّجاجية. كانت عيناها متورمتين من البكاء قالت له عندما رأته لدى العتبة لم أستطع النَّوم. إنَّنى فى حاجة إلى فاليوم آخر، أشار لها على مكان إناء الفاليوم. رآها كيف تتناول قرصين بيدها التى كانت ترتعد. بينما كانت تنتظر مفعول الفاليوم أشعلت سيجارة وجلست إلى جوار طاولة. نظرت إليه بطريقة شبه رحيمةٍ. لماذا كذبت علىَّ ؟ أنْ تقول لى إنَّها فتاةٌ من البرازيل. لم أرد إلحاق الأذى بك يا ماريا، أو بمعنى أصحَّ لم أرد إخبارك بذلك هكذا شرح لها الموقف. لاذت ماريا بالصَّمت. كانت تدخِّن بتعبير لم يره منها من قبل أبدًا، كانت قاسيةً شبه حزينة. هل أنت متيمٌ بها ؟ أوه، لا ياماريا فأمرى معها لا يتعدى الرَّغبة الجسدية. هذا كلُّ ما فى الأمر. أشارت بإيماءة احتقار وازدراء. إنَّ الرِّجال يصيبوننى بالاشمئزاز والنُّفور وكلهم سواءٌ. إنَّهم على استعداد للتضحية بكلْ شىء عندما تريهم امرأةٌ ساقيها. ظلَّت تتأمله بنوع من المرارة الحزينة وقالت له ستصيبك الشَّيخوخة بسرعة. ابتسم إيرنستو لكنَّ ابتسامته ينبغى أنْ تكون سخريةً حزينةً. هذا بالفعل ستصيبنى الشَّيخوخة. أنت تثير شفقتى تمتمت ماريا فى نبرة من الاقتناع الحزين. لن تؤلف كتابك أبدًا... لقد

هجرته. وأنا لن أقيم معرضى أبدًا... ويبقى رعب العودة إلى كولومبيا. تمزّق صوتها. كانت تبكى من جديد. ينبغى الاَّ يؤذى أحدنا الآخر ياماريا. أعتقد أنّه ينبغى علينا أنْ نتحدّث. هزّت ماريا رأسها بشكل رافض لا يلين. لا يوجد ما ينبغى أنْ نتحدّث بشأنه. فالآن لا أريد هذا الشئ نفسه الذى حدث لى ذات يوم مع والدتى. لقد تركت حبّها. لا تقولى ذلك ياماريا.

كان غير مجد أن يتحدّث معها. وفى اليوم التّالى كان يوم أحد تركها نائمةً لكى يرى خوليا. كانت قد اتصلت به وقالت له لديها رسالة عاجلة له، وينبغى أن يتحدّثا. كان الهواء مشبعًا بحرارة الصّيف، عندما رأى خوليا من بعيد فى شرفة الـ أولد ناقى ترسل له بإيماءات. قالت له بمجرّد أن جلس إلى جوارها : يا أيّها اليتيم : لدى رسالة من شقراء تهوى الرّجال. لقد اتصلت بى هاتفيًا هذا الصّباح. أخبرنى ماذا حدث، كان صوتها غريبًا جدًا. عندما أخبرها بذلك انطلقت خوليا فى الضّحك. قالت خوليا إنّنى لا أرى فى ذلك أيّة دراما. فكل واحد يستمتع فى الفراش (أو على البساط إن شاء)

كيفما يحلو له، ومع من يحب ويهوى وانتهى الأمر! يا أيّتها العذراء البتول بوسعك أنْ ترسلى لى رجلاً ! لماذا مثل هذه الفضيحة ؟ أوه ياخوليا إنّ الحياة بالنّسبة لك ماهى إلا نفخة... قالت خوليا هى بالفعل هكذا. إذا جاء أحد يحدّثنى عن قصص الغيرة سألقى به فى البحر. إنّ رأيى فى الحب لا أطلب ولا

أعد بالعبودية. ضحك إيرنستو. كانت بشرتها قد لفحتها الشّمس، لذلك كانت أسنانها وعيناها تبرق في الوجه الأسمر. كانت ترتدي ملابس من صوف الفانلة الصّيفي، كان يتناقض مع بشرتها. نظرت إليه بشقاوة هل تعرف شيئًا ؟ إنّني أريد أنْ أجرّب ذلك مع امرأة وإنْ كنت لست من هذا النّوع. هل هذا يُسبّبُ لك فضيحة يا أيُّها اليتيم. هزّ رأسه. بعد الرُّوماني كلُّ شيءٍ جائز. انطلقا في الضّحك. تعال معي يا أيُّها اليتيمُ إلى ديّا اهجر كلَّ نسائك وتعال معي. إنّني مللت من شركة التّحالف الفرنسي ومن اللون البرونزي في حمّام سباحة ديلجني. كم كنت أتمنّى، تنهّد إيرنستو. سرعان ما رأى أمامه منظرًا لشجرة متسلّقة صفراء، رأى الماء الأزرق للبحر المتوسط رآهما من شرفة منزل أهل أثويلا. قال إنَّ باريس سامةٌ.

مازالت ماريا نائمة عندما عاد إلى الشّقة. فضّل ألا يوقظها. نزل إلى الشّارع مرّة أخرى. تناول قليلاً من السُّجق مع كأس بيرة في مقهى بلاش كليشي(*) قرأ صحيفة لوموند وعاد إلى المنزل وهو يسير الهوينا كان الصّيف في باريس يصيبه بالاكتئاب. لم تكن فكرةً سيئة أنّ يذهب إلى ديّا إذا حلّ مشاكله مع ماريا. كانت أونا قد ذهبت إلى اليونان، الحمد لله، سيمضي شهران أو ثلاثة أشهر دون أنّ يراها، وستنسى تلك القصّة. سيكون من الصّعب أنّ يلتقي مع ليناراد. على الرّغم من كلّ ذلك. ربّما يكون كلُّ ما حدث يبدو له

(*) Place clichy، بالفرنسية في الأصل.

شيئًا عاديًا لكن لا، فقد رأى تلك الليلة وجهه حزينًا. كان شخصًا غريبًا جدًا. كان شخصًا لا يسبر غوره. كان الشّاعر يقول إنّها علاقة سادية تتلذّذ بالألم. وبالنّسبة لعلاقته مع ماريا كيف يُسمّيها ؟ كانت حاجته إليها غريبةً جدًا، وفي الوقت نفسه... كان إلى جوار ماريا ينتابه أحيانًا احساس الاختناق. كان يشعر بأنّه مقيَّدٌ. ودون أنّ نذهب بعيدًا كان يتمنّى الذّهاب مع خوليا إلى ديًا لا، من أجل ذلك المشروع الذي يحتاج إلى عشرين عامًا. ياله من أمرٍ غريب، كان أحيانًا لديه انطباعٌ في أنّه يعيش مرحلة مراهقة ثانية ضحك إيرنستو وهو يسير في المنطقة ذات الأشجار الكثيفة وارفة الظّلال. أعيش حياة منتصف العمر.

لقد أذهله أنّ ماريا لم تستيقظ بعد، كانت غرفة نومها معتمةً، كانت السّتائر الحمراء السّميكة تحجب الضّوء. كان يشعر برائحة الحرّ الشّديد، ويشعر بالاحتباس. كانت ماريا في الفراش. أدرك أنّ جسدها كان تحت البطاطين. خرج إيرنستو من الغرفة. قرأ عدّة صفحات في كتاب بالصّالون. ظلّ نائمًا على الأريكة واستيقظ عندما بدأ ضوء الشّمس يحمرّ في النّافذة. حينئذ توجّه من جديد إلى غرفة النّوم من باب الفضول. سمع صوت ماريا خافتًا هل أنت يا إيرنستو ؟ كان صوتها ضعيفًا جدًا. أشعل مصباح السّرير. أذهله شحوب وجهها. هل أنت مريضة ؟ ألم تنامي قليلاً ؟ طلبت منه أن يطفئ المصباح، لقد لطخت الملاءة ببقعة من الدّم. ماهذا ؟ قال ذلك مذعورًا. لقد جرحت وأنا افتح علبة سردين في

المطبخ، قالت ماريا كانت تراه بعينين نائيتين غريبتين للغاية، كانتا مضيئتين، كانت تبدو وكأنّها لا تراه كعينى ضريرة. كانت شفتاها رقيقتين وبلا لون حاولتا الابتسام له. قال لها دعينى أرى أين جُرحت. وفى وداعة ودون أنْ تدرى أخرجت من تحت الملاءة يدها الملفوفة فى فوطة ملطّخة بالدّماء يالفظاعة ! تعجبّ إيرنستو. لابد من استدعاء طبيب هزّت ماريا رأسها. كانت تبتسم له فى ضعف. إنّ الأمر لا يستحق، إنّه جرح ليس خطيرًا. اشتر لى خبزًا فإنّنى جائعةٌ وسجاير. كان صوتها بطيئًا والكلمات تخرج بجهد جهيد. كانت شفتاها ترتعدان.

وجد نفسه يسير بسرعة فى المنطقة كثيفة الأشجار وارفة الظّلال فى كليشى(١) فى ضوء بنفسجى والهواء العليل أثناء الغسق الذى بدأ يملأ المنطقة بنور مصابيح النّيون على واجهات المحلات والكباريهات. كان يبحث فى يأس عن صيدلية. كان يشق طريقه بصعوبة كبيرة بين زحام السيّاح الألمان الذين كانوا يتأمّلون مذهولين الواجهات الزّجاجية متعددة الألوان وخلفها نساءٌ عاريات كما كانت هناك جماعات من البحّارة يتأمّلون حائرين العطوف والحوارى التى كانت تؤدى إلى منطقة الأشجار الكثيفة : وكان على كلّ باب تقف عاهرةٌ. وجد فى بلاس بلانشى(٢) شارة صيدلية مضاءة.

---

(١) Clichy، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Palace Blanche، بالفرنسية فى الأصل.

رجع ومعه خبزٌ وشنطة من الصيدلية فيها شاش وبلاستر لم يفهم ماذا كان يحدث حقيقة ولكن فى اللحظة التى دخل فيها الحمّام بحثًا عن مقصٍ رأى ماء البانيو ملطّخًا بالدّماء. أدرك كلّ شيء فى رعب مهولٍ. عاد إلى حجرة النّوم مذعورًا باردًا جلى الفكر، رفع الملاءة ورأى الفوط الملفوفة حول ذراع ماريا والملاءات ملطّخة بالدّماء سمعت صوته الذى كان هادئًا بشكل عجيب قائلاً: لماذا فعلت ذلك ؟ فى وجه ماريا الذى كان أبيض كالورق وكانت عيناها تبدوان وكأنهما تتحركان تجاهه لكنهما لم تجداه. كانت الشفتان بلا لون تبتسمان له. قالت كنت أريد أن أموت - تمتمت ماريا. يتذكّر أنّه توجه إلى فناء المنزل وقد سجل الأرقام السّبعة لهاتف خوليا بهدوء جليدى وتحدّث معها فى هدوء، اتصلى بإسعاف وأرسليها لى فورًا. لقد قطعت ماريا وريدها. استطاع إخراج حقيبةٍ ووضع فيها قميص نوم لها وفرشاة الأسنان وبعض أدوات الزّينة، قبل أنْ يسمع صوت الهاتف. كان صوت خوليا أيضًا هادئًا قالت له : اسمع جيدًا ستصل سيارة الإسعاف خلال بضع دقائق. اطلب منهم أنْ ينقلوها إلى مستشفى كوتشين.

كان الممرّضان من ذوى السّحنة الريفية، يتميّزان بقوة البنية، كانا اثنين من الجزّارين أحدهما أحمر الشّعر. بدا لإيرنستو أنّهما بطيئان وأنّهما بليدان. كانا يصطدمان بحديد النّقّالة فى الأبواب. هل فقدت كثيرًا من الدم ؟ سأل ذو الشّعر الأحمر بغباء. نعم،

نعم، أسرع أنت. بدا لإيرنستو وقتٌ طويلٌ حتى وضعوا النَّقَّالة داخل سيَّارة الإسعاف. كادت ماريا أن تتلاشى. بدأ الليل يرخى سدوله. جلس إيرنستو إلى جوار السَّائق. فقط بعد سماع ضوضاء السَّرينة والضَّوء الأزرق الذى كان يدور فوق غطاء الإسعاف، وأحسَّ بالسُّرعة التى كانت تسير بها وتشقُّ طريقها فى الشَّوارع، أدرك أنَّ السُّرعة كانت لها مايبرِّرها، كانت لهفته مفهومة فى نهاية المطاف. والتَّوتر يؤلمه مثل مسكِّن فى فم المعدة. كان لديه انطباع بفراغ من الوهم.

كانت خوليا تنتظره فى المستشفى. اضطرا إلى تحمل اللامبالاة والبطء والأسئلة الرُّوتينية للممرِّضين قبل أنْ يعتنى أحد الأطباء بماريا. كان طبيب الدَّاخلية شابًا خجولاً تتقمصه الخبرة. مما اضطره إلى التَّفكير فى أنَّه ممثل سيئ يقوم بدور الطَّبيب. لا ينبغى أنْ تضطربا، لقد فقدت ماريا دمًا كثيرًا. لكنها ستعوضه قال الطَّبيبُ. أمر بنقل دم لها. هل كانت المرَّة الأولى التى حاولت فيها السَّيدة الانتحار ؟ نعم، أجاب إيرنستو إنَّها ستعوضه فلا تقلقا. ستجدانها غدًا فى الإنعاش. قبل الغد لن يعرف شيئًا.

لم يكن أمامهما شىء يفعلانه سوى الذَّهاب والانتظار إلى الغد. فالمستشفيات فى باريس مثل المعسكرات، قالت خوليا. توجَّها سيرًا على الأقدام ببطء تجاه ميدان كونتريسكارب وبعد كثير من التَّوتر، أحسَّ إيرنستو بأنَّه منهكٌ وخاو، دون أية رغبة اللهم

إلاَّ في استنشاق الهواء العليل وتناول كأسٍ من البيرة. كانوا يُركِّبون الأنوار ويختارون الخطباء من أجل عيد ١٤ يوليه. جلسا في الشُّرفة كما يتذكَّر إيرنستو. كان النَّاس يغنُّون في جوقة. كانت خوليا حزينةً. إنَّ كلَّ هذا ماهو إلاَّ ابتزاز من وجهة نظري، تحدَّثت في نهاية الأمر. إنَّني أمقت النَّاس الضُّعفاء. فوالدتي على سبيل المثال... مثل ماريا، عاجزة تمامًا عن الاعتماد على نفسها. إنَّ أناسًا بهذا الشَّكل يجعلونك تشعر بأنَّك سيئ وقاسٍ.. لاذا بالصَّمت من جديد، كانا يستمعان إلى الأغاني خلفهما. قال إيرنستو : لعلك على صوابٍ. لكنَّني لا أستطيع أنْ أهجر ماريا لدرجة أنَّني لا أستطيع أنْ أشرح لك ذلك، إنَّ ماريا هي أنا، مثلما كنت طفلاً. كنت أشعر بالخوف دائمًا. إنَّها نفس الحاجة للاعتماد على شيء، على الجدَّة، على الأخت... لا أستطيع أنْ أهجرها. حتى لو مزَّقني ذلك. أتفهمين ذلك ؟ ابتسمت خوليا وهي تنظر أمامها بثباتٍ. بصراحة يا أخي، لا.

بعد البانيو لفت جاكلين سيجارة حشيش وهي الآن تدخِّنها في الغرفة المعتمة. كانا مستلقيين في الفراش أحدهما إلى جوار الآخر.

هل تريد ؟ سألته جاكلين وقد قدَّمت له السِّيجارة.

شرب نفسًا بحذرٍ وببطء من سيجارة الحشيش تلك لكنَّ الدُّخان تجاوز حلقة ممَّا جعله يسعل.

قالت جاكلين ضاحكةً : حتى الآن لم تتعلّم. سأشرح لك كيف ينبغى عليك أن تدخّن.

أوه، دخّنيها أنت وحدك -قال لها إيرنستو وقد ردّ لها السّيجارة -بالنّسبة لى سيجارة الحشيش لاتؤثّر فىّ كثيرًا. بالنّسبة لمثل هذه الحالة أفضّل مشروب الخينيبرا بماء الصّودا.

اتصل بالاستقبال هاتفيًا. طلب ويسكى بالصّودا، ثم استدرك وطلب زجاجة خينيبرا وزجاجتى شويبس. صفّرت جاكلين دى دوم(*) الاحظ أنّ أمورك تسير على مايرام.

هيهات قال إيرنستو وقد التفت تجاهها مستندًا على مرفقيه، إنّ كلّ ما فى الأمر أنّنى فقيرٌ يستحوذ عليه هوس وجنون شخص غنى. هذا سرٌ صارمٌ وهو أنّنى مهووسٌ بالفنادق الأربعة نجوم.

لكنك تربح مايكفيك فى حياتك

تقريبًا.

خيّم عليهما الصّمت. وفى الضّوء الذى كان يرى على الجانب الآخر من السّتائر، كانت المدينة والعصافير قد لاذت بالصّمت فجأةً. كان بوسع الشّخص أنّ يتخيّل شوارع الأقاليم تغمرها الشّمس وهى خالية ساعة القيلولة، والمتاجر مغلقة، وشدّة الحرّ. وفى مكان ناءٍ دقّ جرسٌ معلنًا السّاعة الثانية ظهرًا.

(*) Dis domc، بالفرنسية فى الأصل.

قالت جاكلين تعجبنى أيام الصَّيف هذه، لكنَّنى كنت أحبُّ أنْ أكون على شاطئ البحر.

أنا لم أفعل شيئًا على مدى أسبوعين ومنذ شهرين تقريبًا كنت أريد أن أغادر والمغادرة نوع من الموت الصغير.

من قال هذه العبارة ؟

أحد الشعراء

بالنسبة لى الأمر بالعكس تمامًا، فالبقاء فى مكان واحد هو الموت بعينه.

لعلك على صواب. أنت تسافرين كثيرًا أحقًا ذلك؟

نادرًا ما أستطيع البقاء فى مكان واحد أكثر من ثلاثة أشهر. ثلاثة أشهر أقصى شيء.

ينبغى عليك أنْ تعطينى طريقة السَّفر بلا نقود.

لا تخف.

عجبًا ياجاكلين فبالشَّجاعة وحدها لا يأكل الإنسان

إنك تخدع نفسك. إنَّك مخطئٌ. عندما أشعر بالجوع أطلب طعامًا. ودائمًا يعطونَّنى كسرة خبزٍ على الأقل. دائمًا هل تعرف ذلك. ذات يوم فى إيران وبعد أنْ قضيت ساعات كثيرة بلا طعام قلت لسائق عربة نقل : إنَّنى جائعةٌ. لم يكن يفهم الفرنسية ولكنه فهم قصدى. اصطحبنى إلى منزله. كان ذلك فى المساء

وكان منزله فى قرية فقيرةٍ وسط تلال صفراء بلا أشجار هناك مع زوجته وبناته، قضيت ثمانية أيام رائعة. اقتسموا طعامهم معى أناس فقراءً. فى كل مكان، فى المغرب، فى جوا، فى الهند، فى كتامندو رأيت أناسا هكذا.

ظلّت تفكّر لبرهة ثم أضافت :

هذه بذاءات، بالتّأكيد

كان دُخّان تلك السّيجارة التى كانت تحترق بين أصابعها يعلو فى سحب حلزونية بطيئةٍ أمام صدرها العارى ووجها الغارق فى التّفكير.

فكّرت فيما بعد قائلة : ينبغى أنّ يحمل الشّخص قليلاً من النّقود ولكن إذا لم يكن معك فلا أهمية لذلك. إنّنى لا أحتاج إلى كثيرٍ من النُّقود لكى أسافر : فقط سروالان نظيفان وجلبابان اشتريتهما من باكستان، ذلك الذى تراه هناك وآخر، وشرز، إذا كان الجو باردًا. وكيس نومى. كلّ هذا تسعه... وكما يُقال، كل هذا فى شنطةٍ صغيرة.

فى شنطتى الصّغيرة. عندما أضعها على ظهرى كأنّنى أحمل منزلى على كاهلى. أحسُّ بالثّقة والأمان، لا شيء سيئًا يمكن أن يحدث لى هل تفهم ذلك ؟

فى تلك اللحظة طرقوا الباب صرخت جاكلين قائلة : "زفت" وقامت بسحق عقب السّيجارة الصّغير بيدها وحركت بالأخرى الهواء لكى تخفى رائحة الحشيش. دخل النّادل الغرفة حاملاً صينية عليها

زجاجة خينيبرا ماركة جوردونس وزجاجتان ماء صودا وكأسان وسطلٍ فيه ثلجٌ وطبق زيتون صغير.

كان النادل بادى الشباب وقد التزم بألاَّ ينظر تجاه الفراش.

عندما خرج النَّادل من غرفة النَّوم، نهض إيرنستو ووضع كثيرًا من الثَّلج فى الكأس وصبَّ ثلاثة قراريط من الخينيبرا بقليل من ماء الصُّودا.

ألا تريدين ؟ سأل إيرنستو جاكلين.

لا أحبُّ أنْ أتناول شيئًا باستثناء الشَّمبانيا.

عجبًا، إنَّها أذواق أرستوقراطية. هل والدك نبيل بالصُّدفة ؟

ابتسمت جاكلين وقالت: إنَّه عامل، إنَّه رسَّام منزلى.

حسنًا قال إيرنستو بعد أنْ تناول جرعة كبيرة من الخينيبرا بماء الصُّودا. كانت الخينيبرا تحظى بإعجابه جيِّدًا. بدأ يشعر بالتَّحسن. وفى لحظة اتقدت فى ذهنه ذكرى كريستينا ضعيفة مثل جذوةٍ من النَّار بدأت تنطفئ. فكَّر قائلاً لقد كانت فكرةً هائلة ألا يبقى فى باريس.

أخذ يد جاكلين وقبَّلها.

إنَّنى أحبك يا امرأة. كان شيئًا مشئومًا أنْ يستيقظ الإنسان فى باريس فقط.

إنَّ صديقتك التى ظلَّت مع مارجى فى باريس تحظى بإعجابك كثيرًا ؟

قليلاً إنها تشبه العاهرات.

قال إيرنستو إنَّها ليست عاهرة، إنَّ لديها الأنا عالية جدًا إنَّنى أسمِّيها المتعجرفة. هزَّ رأسه وقال من الأفضل التَّفكير فى شىءٍ آخر. لم تحك لى عن رحلتك إلى الهند. هل هناك اغتصبوك أيضًا.

نظرت إليه جاكلين فى ذهول.

لماذا تقول ذلك ؟

لا أدرى. أعتقد أنَّك وجدت صعوبةً ما فى المغرب، كان لديك مشاكل، أليس كذلك؟

لم يحدث فى المغرب شىءٌ. لقد دافعت عن نفسى بقضيب من الحديد. لكنَّنى تعرضت للاغتصاب فى تركيا من جانب رجلين.

أهذا ما حدث ؟

كان ينبغى عليها أنْ تقضى فترة انتظار طويلة فى قسم الإنعاش بالمستشفى إلى جانب أناس ذوى مظهر متواضع وعليل. بدأ ينتابه الخوف خشية أنْ يكون قد حدث شىءٌ لماريا، عندما صرَّحوا له برؤيتها. كانت ماريا فى غرفة مضيئة بها سريران فقط، كان السَّرير الثَّانى يشغله رجلٌ وقد وضع تحت خيمةٍ من الأكسجين. كانت ماريا تتحدَّث بهدوء مع ممرضةٍ كانت الأربطة تحيط بذراعيها ومعصميها. عندما رآها

برقت عيناه من السّعادة. أحسّ بها ترتعد بين ذراعيه. قبّلها فى فيها، وفى خدّيها وفى رموشها، كانت تغمره العاطفة، ظلّ فى شفتيه الطّعم المالح لدمعة انحدرت من عين ماريا. كانت الممرّضة من جزر الأنتيل تنظر إليها باستلطاف. وقالت له ينبغى على حضرتك أن تؤنّبها لارتكابها هذه السّفاهات.

عندما انصرفت الممرّضة ظلاّ فى صمت وقتًا طويلاً يتبادلان النّظرات. لم ير ماريا جميلة بهذا الشّكل من قبل. كان وجهها رقيقًا جدًا وذا ملامح رسمت بمنقاش بدقّة بالغة، كانت عيناها سوداوين وواسعتين. كانت ماريا تبتسم له من خلال دموعها، كان صوتها ذا رتم بطىء وحزين للغاية. أنت لا تتخيل مدى صعوبة الموت، يا إيرنستو بالأمس، عندما كنت فى الحمّام، كنت أشعر بأنّنى سأموت، وأنّ كلّ شىء انتهى. رأيتك، رأيتك فجأةً وكأنّك كنت لدى باب الحمّام. كنت وحدك. كنت مثل طفل... فجأة لم أرد الذّهاب وأتركك وحيدًا، اهتزت جفون ماريا وهى تصارع دمعةً. مرّر يده على رأسها بحنان. يالك من مجنونة، يالك من عابثة، كان إيرنستو يقول لها ذلك. ظلاّ من جديد فى صمت وقد أمسك كلّ منهما بيد الآخر. كان هناك عند زجاج النّافذة طنين الذّباب الغاضب، كان الجو مضيئًا وهادئًا، كان وخم الصّيف قد حلّ. ففى بهو المستشفى بين قاعات عالية رمادية اللون كان بعض المرضى يتنزّهون وهم يرتدون الرّوب. وكانت تُسمع فى الشّارع موسيقى من بعيد كان الرّابع

عشر من يولية. فجأةً تذكَّر ١٤ يولية آخر عندما كان إيرنستو طالبًا. حل الغسق، كانت أوركسترا بأجهزة الأكورديون في ميدان سان جيرمان دي برس، كان هناك أناس شباب يرقصون على أنغام الموسيقى. كم كانت حياة ذلك الوقت مختلفة تمامًا، كيف تغيَّرت الحياة. هكذا كان يفكِّرُ إيرنستو. لقد رأى نفسه وقد أصبح رجلاً ناضجًا وحزينًا ينظر عبر نافذة غرفة بمستشفى. سمع صوت ماريا يسأله: فيما تفكِّر؟ ابتسم لها دون أنْ ينظر إليها. قال لها : أفكِّرُ في الحياة.

أمَّا الرَّجل الذى كان فى السَّرير الآخر فكانت عيناه مفتوحتين قليلاً ولم يتكلَّم لابد أنَّه فى الخمسين من عمره، كانت ذقنه قويَّةً، وفمه كبيرًا ولكن شفتيه رقيقتان، كان ذا تعبير فيه قهر ومرارة وحزن وكانوا يُسمُّونه السَّيد ميشيل. شرحت له ذلك ماريا بصوت خفيض. إنَّها محاولة انتحاره الثَّالثة. حاول الليلة البارحة إغلاق مفتاح الأكسجين دون أنْ تنتبه الممرِّضة وفجأة انتبه أدرك أنَّنى كنت هنا أنظر إليه مذعورةً. قال لها : هل هى خائفة. أومأت له برأسها قائلة : بالفعل. حينئذ ظلَّ الرَّجل هادئًا. إنَّنى أعدك بأنْ أفعل ذلك عندما تخرجين، هكذا قال لها الرَّجل فيما بعد. إنَّه مرهق أضافت ماريا إنَّه يريد إنهاء حياته وأنا أفهم ذلك. احتج إيرنستو وقال لها لا تقولى ذلك ياحبيبتى.

كان من الصَّعب عليه إخراجها من المستشفى فى ذلك اليوم. كان رئيس الأطباء رجلاً كهلاً طويل القامة

ورزينًا قال لإيرنستو بما أنّها محاولة انتحار ينبغى على ماريا أنْ تقضى بضعة أيّام فى مستشفى الأمراض النّفسية تحت الملاحظة اللهم إلاَّ إذا قام إيرنستو بتوقيع تعهد بإعفاء المستشفى من أيّة مسئولية لاحقة. وقع التعهد وفى اللحظة التى أراد فيها سداد الحساب، الذى كان باهظًا، اكتشف أنّه ليس معه نقود كافية. لذلك خرج بحثًا عن نقودٍ دون أنْ يقول لماريا شيئًا سوى أنّ كلّ شيء على مايرام وأنّه سيذهب إلى المنزل لإحضار ملابس لها. كان إيرنستو يمشى وقت الزّوال يعانى من شدّة الحرّ يتساءل عمّن يستطيع أنْ يعيره نقودًا. كان جميع أصدقائه فقراء باستثناء بينياس وبينياس ؟ كانت الفكرة تسبّب له نزلة برد فى المعدة. فبعد الذى حدث فى منزله، كيف يطلب منه نقودًا ! فضلاً عن ذلك إنّه لم يفعل ذلك قط. إنّه لم يطلب أبدًا شيئًا من بينياس. بحث ذهنيًا عن حلولٍ أخرى. كانت كلها ممكنة، لكنها تحتاج إلى وقتٍ. توجّه حزينًا إلى مرسم بينياس.

وجده إيرنستو. اتّسم وجه بينياس بالذّهول عندما رآه لدى بابه. وبعد الوهلة الأولى من الدّهشة قال له تفضّل يا أستاذ كان بينياس ودودًا لرؤيته دفعه إلى الدّاخل، كان المرسم واسعًا وذا نوافذ كبيرةٍ يغمرها الضّوء. أطلعه على لوحاته. لقد تغيّر رسم بينياس. اختفت منه الألوان الحزينة والأشكال الغاضبة لفترات أخرى فالآن تفجرّت فيه شهوانيةٌ كبيرةٌ وأشكال كثيرة صفيقة. كان رسّامًا عظيمًا. أدرك

إيرنستو ذلك منذ اليوم الأوّل عندما كانت رسوماته ترفضها قاعات وصالونات الفن. لقد كان بينياس آنذاك ضحيةً للتّأنق والافراط فى الملبس وللجهل، لم تكن رسوماته تساير الموضة فى تلك اللحظة. لكنّه لم يكن قلقًا بسبّب ذلك. انتظر فرصته هادئًا بلا اكتراث وصابرًا. كان يقول : كن هادئًا يا أستاذ ولابد من إعطاء الوقت مزيدًا من الوقت. وبعد ذلك عندما جاء النّجاح انتقم. ظلّ ينتقم من النّاس جميعًا. من النُّقاد والشّخصيات وتجار اللوحات الذين تجاهلوه، كان يتجاهلهم بقسوة. كما انتقم أيضًا من الجوع الذى عانى منه فى باريس بإنفاق النقود ببذخ فى المطاعم والبوتيكات. اشترى سيّارة جاجوار بلون الفراولة تركها للغبار والتّراب فى الشّارع واشترى بالطو من جلد ثعلب الماء كان يضعه فوق قمصانه المزيّنة برسومات العصافير وسراويله الملطّخة بألوان الرّسم. كان يزدرى تفصيل الملابس المفرطة فى التّأنق لهؤلاء الذين كانوا يحيطون به. كان يقذفهم بالدّعابات والسّخريات كمن يلقى بقطعة لحم لكلب كى يظلّ عند عقبيه. كان يقبل الحديث عن الرّسم مع أناس قليلين. كان إيرنستو استثناءً. بالتأكيد كان يعرف أنّه سيجد لديه ردود فعلٍ صحيحة. الآن ولبضع دقائق عاد بينياس القديم إلى كونه أخويًا كما كان فى أيّام آخر عندما كان يعيش ممّا تدره عليه قيثارته فى غرفته فى شارع داوفين. بعد أنّ أطلعه على لوحاته دعاه لتناول الغداء. كان إيرنستو سيسعده تلبية ذلك فى ظروف أخرى، لكن

الفكرة أنّ ماريا تنتظره فى المستشفى لم يدعه ذلك هادئًا. ذكر إيرنستو سبّب زيارته، فأحسّ ببرد مرّةً أخرى فى معدته. كان ردّ فعله فجائيًا مثلما كان يحدث له عندما يستحوذ عليه الخجل. قال له لن أستطيع. لقد أتيت فى الواقع لكى أطلب منك معروفًا. اكفهرّ وجه بينياس فجأةً. فاليد التى كانت تجر قطعة قماش ضد اليد الأخرى لكى تزيل بقايا طلاء أو زيت سرعان ما أصبحت بطيئة ومنهكةً. كان إيرنستو فى موقف الدّفاع قال لبينياس أحتاج إلى نقود. مرّ تعبير بارد بوجه بينياس كان يبدو أنّه معتادٌ على هذا النّمط من المطالب. قال له كم ؟ قال إيرنستو ألف وخمسمائة فرنك. وافق بينياس. هل تحتاجهم الآن ؟ الآن، نعم. أصبح صوت إيرنستو أجش دون أنْ يريد ذلك. توجّه بينياس إلى آخر الصّالة ثمّ عاد بعد ذلك وفى يده ثلاث ورقات فئة كلٌّ منها خمسمائة فرنك. لم يكن هناك شيءٌ آخر سوى أنّه شكره وخرج. لكن كلّفه ذلك مزيدًا من الجهد للإقدام عليه. كان إيرنستو يشعر بالخجل والقلق. كان يفهم بينياس، الذى كان يعيش محاطًا بأناس من ذوى المصالح وقد أغراهم ماله وشهرته. فمنذ انفصاله عن زوجته وعشرات الفتيات يتصلن به هاتفيًا، وكان يعلم أنّهن يردن معاشرته لحل مشاكلهن المادية. كما كان رفاقه القدامى يكتبون إليه مطالبين إيّاه بأنواع عديدةٍ من المساعدة. كلّ ذلك كان يُسبّب لبينياس الحزن. كان ينبغى عليه أنْ يتساءل ما حقيقة وكنه كل الذى يحيط به. كان بينياس بمفرده،

لعله كان وحيدًا أكثر من إيرنستو مدفوعًا بعاطفة فجائية ربت إيرنستو على ساعد بينياس شكرًا يا أستاذ لقد قدمت لى معروفًا كبيرًا. وأضاف فجأةً وعلى غير المتوقع وقد خفض صوته : إنَّ ماريا فى المستشفى. لم أرد إخبارك بذلك ولكن إيرنستو قال ذلك لبينياس. تغيَّر وجه بينياس، ورمقه بنظرة عميقة وغريبة وطيِّبة. اقترح عليه قائلاً : تناول معى يا أستاذ كأسًا من البيرة على الأقل.

اشتدَّ الحرُّ فى ميدان أوديون. وقد ساد الهدوء الشوارع إلى حد ما فقد بدأ نزوح الأجازات وبدأ الناس هجر المدينة فى أيامها الحارة جدًا. دون أنْ ينتبه لذلك كما فى أوقات ماضية منذ عشرين عامًا مضت سارا فى شارع المسرح القديم. جلسا فى مقهى فى أحد أركان هذا الشارع عند التقائه بشارع داوفين. من هناك كانا يرين الحانة التى كانا يجلسان فيها فى أوقات أخرى حيث كان بينياس يعزف على القيثارة وكذلك أطلال فندق الربى العالية. لم يستطع إيرنستو أن يتفادى الحديث عن ماريا. ضحك بينياس وقال إنَّها تعيش الآن فى مدينة أرض النَّار. ينبغى أنْ تهرب يا أستاذ من النِّساء ذوات المشاكل العويصة. تحدثَّا عن نساء أخريات عن فتاة فرنسية كانت متيَّمة ببينياس وكانوا يطلقون عليها فى زمن آخر الدوبارة الصغيرة وعن شابة بيروانية ثرية جدًا قامت باستقبالهما كما ولدتها أمها فى منزلها فى فصل الشِّتاء. كانت تقوم بإيعازات وإيحاءات جريئة لبينياس، كان يغضُّ عنها

الطَّرف، ويظلُّ متدثِّرًا بستراته وتلافيحه. فى ذلك اليوم يا أستاذ لم يكن يهمنا سوى أنْ تقدِّم لنا قليلاً من الطَّعام، كنت صائمًا منذ ثلاثة أيَّام. لقد ضحكا عندما تذكَّرا تلك الفترات وهما يتحدَّثان أمام حرِّ الشَّارع الشَّديد ويتناولان كأسين جديدين من البيرة المثلَّجة وكأنَّ الوقت لم يمر منذ ذلك الحين وباريس تلك النَّاعسة بسبب الصَّيف يمكن أنْ تكون المدينة نفسها منذ سنوات الخمسينات البعيدة. قال له بينياس فجأةً : انظر يا أستاذ خذ هذه النُّقود وأعطاه ألفى فرانك أخرى) ودعك من التُّرهات. اذهب لعدة أيَّام خارج باريس فباريس تهين الإنسان وتجعله حزينًا على المدى الطويل. أشار عليه للوكاندة على جانبى غابة رامبولية. وقد قبل إيرنستو بتأثر فظ العملة الورقية. لو ظللت دقيقة واحدة بعد ذلك لأجهشت بالبكاء هكذا فكَّر إيرنستو وهو فى المترو.

أخذ الملابس لماريا وعند دخوله دفع حساب المستشفى. اختارت ماريا بلوزةً بكم لكى تخفى الأربطة وارتدت سروالاً. ودَّعت الممرِّضة الأنتيلية بقبلة. وقالت لها السَّيدة التى كانت بصالة المناوبة وهى تلعب الكوتشينة: إنَّها لا تريد أنّ تراها هناك مرَّةً أخرى، إنَّها فتاةٌ جميلة جدًا ولها زوج يُحبُّها حبًا جمًا، ولديها كلُّ ما يجعلها سعيدةً. قبل أنْ تغادر المبنى اقتربت ماريا فى دافع فجائى من سرير السيد ميتشيل رفعت خيمة الأكسجين وكلمته فى أذنيه. ثم قبَّلت جبهته. خرجت وعيناها مغرورقتان بالدُّموع، لكنَّها لم تقل

شيئًا. في السَّيارة الأجرة التي أقلَّتها إلى محطة مونتبارناس كان كلٌّ منهما ممسكًا بيد الآخر. وفي الشوارع التي كادت تحترق من شدة الحرِّ كانا يستمعان إلى موسيقى ١٤ يوليه. كانا يتنفَّسان هادئين عندما تجاوز القطار الأحياء الصناعية المترامية الأطراف، ثمَّ رأيا الحقول والأخضر المفضَّض لأشجار الحور وهي تتلألأ في ضوء المساء وحقول القمح الواسعة وبعض البقع الدَّاكنة في الغابة. أحسَّا برائحة الصَّيف الخام واللذيذة عبر النَّافذة المفتوحة، إنَّها رائحة رُبَّما كانت تحدِّثها عن مايوركا، عن أيَّام هادئة يغمرها الضَّوء على شاطئ البحر. أغمضت ماريا عينيها بهدوء. كان طلاء عينيها يبدو قديمًا جدًا. فكَّر إيرنستو قائلاً إنَّ ماريا ليس لها أحدٌ إلاَّ أنا.

لم تكن اللوكاندة في الرِّيف بل في دوردان. نالت إعجابهما المدينة الصَّغيرة شوارعها ذات الهواء الرَّطب وذات الظلال الرَّائعة، كانت شوارعها مرصوفة بالأحجار حول الكاتدرائية ذات الأبراج العالية ومباني السُّوق العام. كانت الغرفة التي قدموها لهما رطبة الهواء وتغمرها الظِّلال. كانت فوط الحمَّام ذات رائحة عطرة كانت رائحتها رائحة زهرة لافاندا وكذلك ملاءات السَّرير وكان هناك راديو على الكمودينو. وعندما فتحا السَّتائر اكتشفا أفقًا هادئًا من الأسطح الاردوازية والحقول الذهبية التي تحدُّها صفوف منتظمة من أشجار الجور. اضطجعا في الفراش منهكين مرهقين. وبما أنَّهما كانا جائعين طلبا

سندويتشات وزجاجة خمرٍ أحمر. كان فى الرّاديو برنامج عن موسيقى الجاز. شربا الخمر ببطءٍ بينما غمر غرفة النّوم ضوءٌ ذهبىٌّ وفى الهواء الحارّ الذى خفّقت منه الرّياح الأولى الرّطبة بالليل، كانت طيور السّنونو أو الخُطّاف تحلق وتغرّد فوق الأشجار. كم أنا سعيدة الآن تنهّدت ماريا. التّفكير فى أننى بالأمس كنت أريد الموت... قال لها إيرنستو : لا تفكّرى فى ذلك لكن عينيها اغرورقت بالدّموع مرّةً أخرى. قال لها اسمعى ياماريا وقد مرّر ذراعه فوق كتفيها، لقد انتهى كلُّ شيء. فنحن الآن هنا جنبًا إلى جنب وسنظلُّ دائمًا معًا. قالت ماريا : إنّها كانت تفكّر فى السّيد ميشيل أعتقد أنَّ هذه الليلة سينتهى كلُّ شيءٍ بالنّسبة له. ففى الصّباح عندما ودّعته قلت له : ذات يوم يا سيد ميسيل سنلتقى فى شارع ما بباريس وسنضحك على كلّ هذا. لكنّه هزّ رأسه عاليًا، قال لى وهو يتحدّث بصوتٍ هامسٍ، سنلتقى هناك، فى المساء توقّفت ماريا عن الحديث قليلاً. دقّت أجراس الكنيسة من بعيد. ظلّت العصافير تطير هناك فى الخارج فوق أسطح المنازل أوه يا إلهى تنهّدت ماريا يالهول الوحدة يا إيرنستو!

- ٣ -

حكت له جاكلين كيف تمَّ اغتصابها فى تركيا.

هكذا كان الأمر - قال إيرنستو - رجلان.

رجلان

لقد كنت مع صديق، ألم يفعل الصَّديق شيئًا للدِّفاع عنك ؟

على أيَّة حال لم يكن بوسعه أنْ يفعل شيئًا. وفى تلك المرَّة أدركت أنَّ رجلاً واحدًا لا يستطيع أن يدافع عن امرأة.

لكن هل أدركت مقاصد الشَّخصين الآخرين ؟

بمجرد أنْ جلست إلى جوارهما. من الطَّريقة التى كانا يتبادلان النَّظرات فيما بينهما. هل تعرف؟ ثم بعد ذلك من الايضاحات التى قدَّماها عند الخروج من الطَّريق كانا يقولان إنَّهما ذهبا للبحث عن بعض الأغطية. ياله من مكان مهجور ذلك المكان! كان قريبًا

من الحدود التُّركية مع إيران. كنت أرى بالقرب نسبيًا جبالاً عليها جليدٌ.

وصديقك، ذلك المدعو جاك.

كان أكثر خوفًا منِّى. عندما رأى المدية فى يد أحدهما فى يد الآخر. ما يسمى بالكريك ؟ فى يد الآخر

إنَّه جبانٌ.

هل هو قطٌ مثل القط ؟

نعم.

لديك ! حسنا، عندما رأى جاك المدية فى يدٌ أحدهما والكريك فى يد الآخر قال لى : لا أستطيع أن أفعل شيئًا. كنت أخاف أن يقتلانى. لأنَّهم فى تركيا يغتصبونك ثم يقتلونك كى لا تقدِّم بلاغًا ضدَّهم. لقد أخبرونى بذلك. لدرجة أنَّنى أخذت الأمر على أنَّه طبيعىٌ للغاية، وكأنَّه دعابةٌ هكذا، هكذا قلت لهم عندما ركَّبانى فى الجزء الخلفى من السيَّارة النَّقل. دون أنّ أظهر لهما خوفًا.

هل تركاكما هناك ؟

لا، فى اليوم التَّالى تركانا فى الطَّريق الرَّئيسى.

فى اليوم التَّالى ؟

عضَّت جاكلين شفتيها.

قالت سأشترى المرَّة القادمة مسدَّسًا، وإذا أراد شخص أن يلمسنى سأرديه قتيلاً. بالنِّسبة لإيرنستو أعتقد أنَّنى أقول ذلك بجدِّية.

عاد وتذكّرها فى مايوركا وهى تصعد الصُّخور بلا تعب ولا نصب، قوّيةً وحيويّةً داخل جلبابها الأبيض واعتقد أنّها ذلك النّمط من النّساء التى تفعل دائمًا كلّ ماتريده.

قدّم لها طبق الزّيتون وهو شارد الذّهن.

إن هذه الثمار لذيذة قال لها ذلك وهو يضع لها زيتونةً فى فيها. اسطانبول، كما ترين فإنها أيضًا متحضرة، ولكنك عندما تخرجين منها تدخلين فى أحراش.

ألقت فيها نواة الزّيتونة فى كفّ اليد.

واستمرت تتحدّث بالفرنسية والقطارات التركية، إنّها مثل الماخور. على الرّغم من أنّها تتحدّث الإسبانية بطلاقة وبلا لكنة غريبة أو على الأصحّ بلكنة فنزويلية. قد تكون تعلّمت الإسبانية مع مارجى. أثناء الأيام الخمسة من رحلة السّفر من اسطانبول إلى طهران كان هناك على الأقل خمسة عشر شخصًا فى المقصورة ينظرون إلىّ ويضحكون. طوال الوقت. وإذا خرجت إلى الممّر يريدون لمسى. وفى النّهاية قرّرت أن أظلّ فى مكانى دون أنْ أخرج، أتناول الفاكهة التى اشتريتها من المحطّات من النافذة وأتناول الشّاى الأحمر أقسم لك أنّ الجنون يصيبهم عندما يرون امرأةً أوروبيةً فى لاهور وبيشاور اضطررت إلى ارتداء جلباب والحجاب لكى أسير فى هدوء.

هل ذهبت حقيقة إلى الهند بألف فرنك فقط ؟

ذهبت بألف فرنك واثنين كيلو جرام من الحشيش.

وعندما انتهت ماذا فعلت ؟ هل بحثت عن عمل؟

فى الهند، هل أنت مجنونٌ. لا يوجد مكان للعمل. ففى الهند عندما يصبح الإنسان بلا نقود لا يوجد إلاَّ احتمالان : أنْ تطلب الصَّدقة أو أنْ تسرق. ولقد فعلت الأمرين.

الصَّدقة ؟ هل حقًا طلبت الصدقة فى بلدٍ ملىءٍ بـ.....

يوجد ملايين، نعم. لقد قلت : ينبغى أنْ أفعل مثلهم أو بوسعى أن أفعل ذلك أفضل منهم، لدى مزيد من الفرص لكى أبقى على قيد الحياة لأنَّنى شابةٌ وصحتى جيدةٌ فكثير من النَّاس ينقصهم سواعد وسيقان أو يعانون من الرَّمد أو الجذام أو قروح فى أجسادهم والنَّاس تنفر منهم أو على أيَّة حالٍ لا يهمهم أنْ ينفجروا.

وفى يوم أحدٍ فى شواطئ بومباى. قمت بتجربة. سرت عشرة كيلو مترات ويدى ممدودة أطلب الصَّدقة.

وماذا ؟

جمعت مايوازى سبعة فرنكات. وهذا كثيرٌ. فالشَّخص المصاب بالجذام يعطونه ثلاث سنتات فقط. وكانوا يعطوننى أكثر من ذلك بكثيرٍ. كان أبناء

الطبقة البرجوازية يسألوننى : كم أقدّم لك ؟ روبيتان أو ثلاث روبيات كنت أجيبهم بالنّسبة لهم هذا كثير جدًا.

هل عشت عامًا هكذا ؟

نعم، إلى أنْ اكتشفت أنَّنى بوسعى أنْ أسرق. لكن كانت البداية قاسية للغاية. ينبغى أنْ تترك جانبا قيمك الأوروبية وأنْ تتعلَّم الحياة مثلهم، مثل الهنود أنْ تكون مثلهم والجسد يرفض ذلك ويتمرَّد عليه. فالرُّوح توافق على ذلك، أمَّا الجسد يرفضه. إنَّ الجسد ينبغى أنْ تجبره على قبول أشياءٍ كثيرةٍ.

على سبيل المثال ؟

الرَّوائح والأطعمة والأمراض. لقد أصبت بالجرب، وهذا ليس أمرًا جد خطير لأنَّك قد تصاب به فى باريس أيضًا، فى المترو. ولكن إصابات وعدوى كثيرة فى الأيدى. ينبغى أنْ تتعود على التَّعايش مع ذلك، أنّ تعرف أنَّه لا يوجد كحول ولا ميكريكروم. فهناك الجذام مثل الأنفلونزا بيننا نحن الأوروبيين، وهو أمر لا يعالج فى المستشفى. لكن هناك أسوأ من ذلك إنَّها الرَّائحة، رائحة الهند التى لا تُشمُّ فى مكان آخر بالعالم. عدم وجود مكان. لم أكن أنا مستعدةً لذلك.

تريدين القول بأنَّ هناك آلاف النَّاس حولك، دائمًا ؟

ملايين. أنت تسير بين الملايين. فالقطارات مكتظةٌ بالرُّكاب حتى السَّقف. لا ينتابك الاحساس أبدًا في أنْ يكون لك مكانٌ لنفسك.

هل تمكنت من العيش مثل الشَّحاذين ؟ هل كنت تنامين في الشَّوارع ؟

هذا لا. لقد استطعت التَّعود على البخور، على الطَّعام، على القروح. لكن لم أستطع النَّوم في الشَّارع بسبَّب الفئران. إنَّها جائعةٌ أيضًا، ستعضُّ قدميك.

كفى ياجاكلين. إنَّك تثيرينني : فلا تنسى أنَّ كل العالم الثَّالث لديه روح الأسرة. فهناك بعض الأشياء في بوجوتا تذكِّرك بكلكتا. ألم تعرفي أمورًا لطيفةً ؟

نعم بالطَّبع. كتامندو.

آه، لا أريد أنْ أسمع شيئًا عن كتامندو.

انطلقت جاكلين في الضَّحك.

وصلت إلى باريس في تلك الأيَّام مارتا إينسيجناريس ابنة عم ماريا. كانت فتاةً قبيحةً، نحيفةً عنيدةً لحوحةً، وكانت نشأتها إلى جوار ماريا تطارد السَّحالي في البستان نفسه وتقضي وقت الفراغ في النَّادي يلعبان أحد ألعاب الورق المملَّة وضوضاء حفلة وداع العزوبية وأحيانًا الدَّردشات الهادئة والخانقة في ليل حي مانجا في قرطاجنَّة. جاءت مارتا بضحكتها المدوِّية وبوقاحة كلامها الكثير وكلماتها البذيئة تملأ الجو الحزين في تلك الشقَّة. وعلى الرَّغم من أنَّها

كانت تعيش فى ميامى تعمل فى شركة سياحة، كانت على علمٍ بكلّ ما يحدث فى قرطاجنّة : من الذى تزوّج وبمنْ، ومنْ الذى انفصل عن زوجته ولماذا، والفضيحة التى فجرّتها صديقةٌ ما حتى ذلك الحين كانت بعيدةً عن الرِّيبة، علاقاتها الغرامية السّاخنة مع شخصية بالمدينة هل مازالت مستمرةً فى نميمتها ؟ كان يسألها إيرنستو مازحًا عندما كان يلتقى بهما فى الأمسيات وهما بالصّالون تتحدّثان دون كللٍ أو مللٍ انصرف يا أيها الصّبى ودعنا وشأننا، كانت ماريا تردُّ عليه ضاحكةً. كانت ماريا تشعر بأنّها على مايرام مع مارتا على الرّغم من أنّ ابنة عمّها كانت تعيد إليها عالمها الذى لم يُمس لكنه كان مسمومًا بالغيبة والنّميمة وفحش القول. أمرٌ غريب قبل مرافقتها فى جولةٍ ليلية فى باريس، فى باريس القديمة أو الكلاسيكية بالنّسبة للسّائحين. كانت مارتا تقول : إنّ ماريا منذ أنّ كانت طفلةً وهى منعزلة، وكان ينبغى إجبارها على الخروج لكى تستنشق هواءً آخر. وبعد ذلك بأيّام ذهبتا إلى فرساى، وذات مساءٍ ظهرتا ومعهما خريطةٌ لهولندا فى أيديهما. أرادت مارتا اصطحابها لمدة أسبوع إلى أمستردام. وربّما تقومان بزيارة لندن هل كان إيرنستو يوافق على ذلك ؟ نعم، بالطبع نعم. قالت له مارتا مازحةً : لا ينبغى عليك أنْ تكون واثقًا بهذا الشّكل. ستتركك ماريا فجأةً مع شخصٍ أكثر شبابًا منك وأقل وقاحةً. إنّنى أقدّم لها نصائح سيئةً. كانت ضحكة مارتا القوية والصّحية معديةً وإنْ كانت ماريا

عندما كانت تسمعها تخجل ويحمرُّ وجهها حتى أذنيها. بينما قرَّر الذَّهاب إلى مايوركا لمدَّة أسبوعين. طالما أنَّ مكاتب دار نشر العالم الجديد مغلقةٌ في الأجازة.

هكذا ظهر إيرنستو ذات يوم في ديَّا مما سرَّ خوليا وأفراد أسرة آلويلا، لإيريك وماريانا وكل القبيلة. لقد أسعده أيمًا سعادة أنْ يجدهم جميعًا في شرفة المنزل ذي النَّوافذ الزَّرقاء وهم يتناولون مشروب الخينيبرا أمام التِّلال التي يغمرها الضَّوء، وأسطح المنازل وحقول أشجار الزَّيتون والطُّيور صافات في جوٍ نظيف وسماء ذات لون بنفسجي. سكروا في تلك الليلة كما في أوقات سابقة، غنَّت كارمن أغاني أندلسية وأعدَّت ماريانا طعام البِهية البيللا وعندما خرج إلى المنزل الذي كان يعيش فيه ـ والذي قبلت السَّيدة ماريا تأجيره له لبضعة أيَّام ـ أحسَّ إيرنستو بأنَّه سعيدٌ للغاية أكثر من أيِّ وقت مضى وهو يسير على ضوء القمر في ديَّا التي تشبه قرية الأشباح. وسُرَّ بأشجار السَّرو الباسقة البارزة في الليل، وبعض الشُّهب التي تهوي أحيانًا مثل حجرٍ من الضوء جنب البحر. كان أفراد أسرة ينتظرونه عند صخور(*) المعهودة في اليوم التَّالي. فرؤية الماء الهادئ والشَّفَّاف من جديد عند الشُّروم على البحر وطيور الزِّيز البحرية تُحلِّق في الجو الحار في حقول أشجار الزَّيتون، كانت بالنِّسبة له استعادة هدوء أيَّام أخر، كان قد نسيها تمامًا. كان يفكِّر وهو يضطجع على صخرةٍ يستمتع بكل حرارة

(*) Lluch Alcari، بالفرنسية في الأصل.

الشَّمس على ظهره. كان مارتين وكارمن سعيدين بالتحدُّث إليه مرَّة أخرى. كانوا يجلسون فى شرفة منزلهما كما فى سنوات أخرى، يتحدَّثون حتى ساعات متأخرة من الليل عمَّا يمكن أنْ يحدث فى إسبانيا عقب موت الجنرال فرانثيسكو فرانكو، عن منظمة إيتا الإرهابية والوضع فى إقليم الباسك. كانت خوليا تملُّ من هذه المحادثات. وتقول دعنى أختطفك يا أيُّها اليتيم، كفى من هذه الدَّردشات لرجل عجوز. قرَّرت أنْ تريه أماكن أخرى من الشاطئ لم يكن يعرفها إيرنستو كانت تأتى كلَّ صباح إلى منزله ترافقها فتاةٌ شقراء ذات عينين فاتحتين، شابةٌ جداً كانت قد تعرَّفت عليها منذ بضعة أيَّام فى ديًّا كانت فرنسيةً وتُدعى جاكلين. كانتا تصطحبانه إلى أماكن وعرةً يتسلقون ويهبطون بنشاط وحيوية بين الصُّخور بحثًا عن شروم وأماكن هادئة. كانتا تتقدَّمان أمامه بقوة سعيدة لا تلين، كان جسداهما الشَّابان النَّحيلان تحت جلبابيهما الرَّقيقين اللذين يحرِّكهما الهواء يلتفتان إليه بنفس الابتسامة لكى يشجِّعانه. سخرتا منه لأنَّه لم يستحم فى البحر كما ولدته أمه مثلهما. سرعان ما اعتاد على أنْ يراهما بلا لباس البحر. كان جسد خوليا قد لفحته الشَّمس تمامًا وكانت تبدو وكأنَّها مولَّدةٌ ذات ردفين عريضين وثديين مستديرين ومتماسكين، أمَّا جسد جاكلين فقد كان نحيلاً، كان ظهرها طويلاً، وصغيرة الثديين، وعندما كان يتأمَّلها وعلى جسدها شعر رقيق أشقر يقوده تفكيره إلى أنَّه

أمام قشرة شجرة دُراق (نبق) ناضجة كانت جاكلين في العشرين من عمرها. وفى الخامسة عشرة عبرت الصَّحراء من المغرب إلى موريتانيا وحدها تسافر فى عربات نقل عبر طرق كانت تختفى معالمها بين الكثبان. حاول أحد سائقى السَّيارات النَّقل أنْ يغتصبها ذات مرَّة لكنَّها دافعت عن نفسها بقضيب من الحديد. قالت جاكلين إنَّ المرأة بوسعها أنْ تدافع عن نفسها إذا أرادت ذلك لقد نالت إعجاب إيرنستو من أوَّل يوم رآها فيه وهى تتحدَّث بطريقة مباشرة وكذلك نظرتها الصَّريحة والودِّية بعينيها الفاتحتين وكانت تحمل معها دائمًا الحشيش فى كيس من الجلد معلَّق فى عنقها بحبل. كانت طريقة اعدادها لكل سيجارة حشيش بمثابة شعيرة من الشَّعائر طبقًا لكلامها ثم كانوا يدخِّنونها جالسين على أحد الأحجار أمام بحر يبدو أنَّه بأسره ملكًا لهم. كانت الفتاتان تغطِّيان جسديهما بفوطة عندما يقترب لنشٌ من السَّاحل. كانتا أحيانًا تتبادلان النَّظرات الموحية بعد تدخين كلّ سيجارة. وفهم بعد ذلك بأنَّهما كانتا تداعب كلٌّ منهما الأخرى وسط ضحكاتهما كانت خوليا تقول له اقترب منها أيضًا وداعبها ودعك من وجه السَّفيه هذا وهى تمسك بيديه وتضعهما على صدر جاكلين. تعلَّم قليلاً يا أيُّها اليتيم، لقد حان الوقت الآن، فالرِّجال لايعرفون كيف يداعبون امرأةً، وخاصة الرِّجال اللاتينيين. أبعدت جاكلين يديه وألقت بنفسها فى الماء. هل سبَّب لك ذلك فضيحة يا أيُّها اليتيم ؟ سألته خوليا. ردَّ

عليها إيرنستو قائلاً : على الاطلاق إنّ المشكلة الوحيدة هى أنّ فتاتك تحظى بإعجابى. إذنّ لا أرى أين توجد المشكلة، ضحكت خوليا ببطء، وقد ظهرت أسنانها البيضاء بين وجهها شبه الأسود من جرّاء الشّمس وهى تنظر إليه بتمعن.

فالحفلات التى اصطحباه إليها بكثرة فى منزل الرّسام الأمريكى اللاتينى كانت تصيبه بالملل تمامًا وكانت تجعله يشعر بأنّه عجوزٌ.

لم يكن أحد يدردش. كانت سجائر الماريجوانا تتناقل من يد إلى أخرى وكان الحاضرون شبابًا من ذوى الشّعر الطويل وفتيات ذوات مظهر هيبز. كانوا يستمعون إلى موسيقى الأجهزة والقيثارات الإليكترونية جالسين على الأرض بنفس جو النشوى أو الطّرب وشرود العقل، المهيب الذى يغلب عليه النّوم أحيانًا مثلما يحضر الشّخص قدّاسًا .

وقالت له : هل أنت أحمق، تعالى.

ظلا يتداعبان عندما عادت خوليا مبتسمة بالفوطة التى كانت تتدثّر بها وقد جعلت منها عمامةً. أحسّت خوليا بأنّها أحسن بكثير. اضطجع الثّلاثة على مراتب على الأرض. لم يكتشف فى نفسه غيرة وهو يسمعهما فى الظّلام يتناقشان بين الضّحكات والتّمتمات والهمس والشّكوى. كانت الشّمس تتسلّل بوضوح وعبر النّوافذ المفتوحة، إلى جانب نسيم عليل عندما استيقظ. كانت طيور الزّيز تغرّدُ على السّطوح.

لم أشعر بالارتياح مثلما أنا عليه الآن، هكذا فكَّر إيرنستو بينما كانوا يتناولون فنجانًا من القهوة بالمطبخ. كان النَّسيم الذى يتسلل عبر النَّافذة يجلب معه شذا البرتقال. هدأت رغبته (فهم الآن فقط الحنين واللهفة اللذين استحوذا عليه وهو يتتبعها بين الصُّخور) أحسَّ تجاه خوليا وجاكلين بإحساسٍ أخوىٍ عميقٍ جدًا. فالطريقة التى تعامل بها مع جاكلين كانت لطيفةً وقويَّة ومكثَّفةً. كان يرمقها وهى تشرب القهوة. تحدثا فى تلك اللحظة عن رحلةٍ تمَّ اقتراحها إلى الهند. كان شعرها أشقر يميل إلى اللون الكستنائى ذى انعكاسات ذهبية أو صفراء. كانت تبعده عن وجهها بإيماءة خفيفة لطيفة وأنثوية إلى أقصى درجة. كانت جاكلين رقيقة ومرغوبًا فيها. كانت مثل شمَّامةٍ حلوة المذاق سميكة ومثلَّجة فى حرِّ الصَّيف، معذرةً لهذا التَّشبيه الرُّجولى، لكنَّك ياجاكلين جعلتينى أفكِّرُ فى شمَّامةٍ. لم تفهم جاكلين شيئًا مما قاله لأنَّ إيرنستو تحدثَ بالإسبانية. أنت مثل شمَّامة هكذا ترجمت لها خوليا إلى الفرنسية ,نظرت خوليا إلى إيرنستو بفضولٍ. اليوم لك وجه آخر مختلفٌ تمامًا يا أيُّها اليتيم. فاليوم لديك أوقابٌ فى خدَّيك فأنت جميل جدًا. اليوم أنت أشبه بطفلٍ رضيع. طفل رضيع ؟ تقولين، قالت جاكلين، وانطلق الثلاثة يضحكون.

يتذكَّر إيرنستو أنَّه كانت هناك حفلةٌ أخرى فى تلك الليلة وجد ريتشيل التى كانت متيَّمة بحب إيطالىٍ الآن وقد حيَّاها بيده من بعيدٍ. اختفت خوليا مع

زنجية من كاليفورنيا أمّا جاكلين فقد ظلّت طوال الليل تدخّن الحشيش أو الماريجوانا مع الرّسام الذى كان رجلاً نحيفًا ذا وجه رقيق ويدين طويلتين وشبه حريميتين كان يضرب على الطّبلة ساعات طويلة.

لذلك عاد إيرنستو وحده إلى المنزل بإحساس شديد من الإحباط لقد أزعجه تماما أنّ يصعد إلى الرّسام السلّم ويختفى ممسكًا بيد جاكلين. لا يمكن أنْ أكون مثلهما هكذا فكّر إيرنستو الوقت متأخر جدًا. إنّنى أقيم علاقات تستند إلى حب التّملك بلا جدوى. كان يبغض الإحساس بالغيرة. ياخسارة إننى لست سويديًا بدلاً من أنّ أكون.. ماحقيقة الأمر إذنْ ؟ مواطن لاتينى أمريكى حزينٌ.. حاول إظهار أنّه متحررٌ وسعيدٌ فى اليوم التّالى عندما جاءت جاكلين لتبحث عنه لكن كان الأمر صعبًا بالنّسبة له. أخبرته جاكلين بأنّ خوليا ظلّت فى المنزل. كانت لديها الطّمث ولم تكن على مايرام. بينما كانا فى طريقهما بضجيج طيور الزّيز الصّاخب حكت له الفتاة بطيش عن الليلة التى قضتها مع الرّسام. لقد شمًا كوكايين. لم يستطع أنْ يفعل شيئًا معى. كان إيرنستو يستمع إليها فى صمتٍ وقد وقف شعره مثل نبات الصّبّار. لم تلاحظ جاكلين ذلك. ماذا بك ؟ كانت تذهب إلى جواره وهى ترتدى فستانها الأبيض المفتوح من الجنب حتى فخدها. قال إيرنستو باللغة الإسبانية : إنّها الغيرة. وبما أنّها لم تفهمه قال لها العبارة بالفرنسية هزّت رأسها فى غضبٍ وقالت : إنّ خوليا على صواب فأنت

حقيقة طفلٌ. لا أحد ينتمي إلى أحد، ينبغي أنْ تعلم ذلك. أقسم لك، كررت له ذلك وهي تجلس على الصَّخرة المعتادة أمام البريق الهادئ للبحر الهادئ، عارية الصَّدر، وقد تدلَّى شعرها فوق كتفيها اللذين لفحتهما الشَّمس بينما كانت تُعدُّ سيجارة حشيش بإيماءات هادئة تشبه الطُّقوس أو الشَّعائر. وكلما كانت تدخِّن كانت مقلتاها تبرقان مثل بريق هادئ ولحظي لعيني قطة يداعبان ظهرها. لقد تفحَّصته بابتسامة بطيئة، وكان جانبا أنفها ينبضان.

- هذا مقدس يا إيرنستو

إنَّني أقسم لك. فالماء باردٌ، ضحك إيرنستو. لكنَّه أحسَّ بتدفق دمه في حلقه وفي طبلتي أذنيه، فلم تحدث له من قبل رغبة مثل ذلك اليوم بهذا الشَّكل القوي والفجائي. كان يريد الاقتراب منها ولكنه كان يخشى أنَّ يظهر في المكان أفراد أسرة أثويلا. قال لها إيرنستو بصوت مبحوح هيًّا بنا إلى منطقة أشجار الصَّنوبر. نظرت جاكلين بلا حماس إلى أشجار الصَّنوبر التي كانت تمتد فوق الصُّخور العارية حيث نزلا من هناك منذ بضع دقائق. إنَّك متوحشٌ إذا كانت لديك رغبة فليكن هنا في نفس المكان وليس عند أشجار الصَّنوبر. قال لها لا، عند أشجار الصَّنوبر فهناك كهفٌ.. كانت جاكلين سلسة، مدَّت يدها وأخذت بشكيرًا. هزَّت رأسها وهي تنظر إليه في شفقة وقالت له : يالك من سفيه.

وصفتهما خوليا بالخائنين عندما رأتهما يصلان إلى المنزل. كانت تضطجع فوق كرسي من الخيش. مدّت يدها لكي تمسك بيد جاكلين. أمّا الأخرى فقد أعطته ورقةً زرقاء. كانت برقيةً نصّها كالآتي : أريد رؤياك إنّنا في برشلونة. اتصل بي هاتفيًا. كان هناك رقم هاتف ثم وقّعت البرقية بكلمة أونا.

جعّد إيرنستو البرقية وألقى بها على الأرض. لم يكن يريد أنْ يعرف شيئًا عن أونا.

هل أنت متوحش. إنّ كتامندو مدينةٌ جميلةٌ جدًا إنّها صغيرة يمكن أن يتجوّل بها الشّخص في غضون ثلاثين دقيقةً هناك كثيرٌ من الزّهور وهدوء شديد وللهواء شذًا عطريّ. شذاها شذى الجبل.

إنّ ذلك أكثر لطفًا.

مينارى مدينة مدهشة. إنّها المدينة المقدّسة في الهند فالنّاس يذهبون إلى هناك لكي يتطهروا بماء نهر الجانج كما يذهب النّاس هنا في فرنسا إلى مدينة لورديس. فهناك قصر الملك العتيق والأكواخ والموسيقى في جميع الأرجاء. لكي تنزل إلى النّهر عليك أن تهبط أربعين درجة وعلى كلّ درجةٍ يوجد شحاذٌ ومعه آلة القانون.

مرّة أخرى الشّحاذون.

ماذا تريد ؟ يوجد ملايين في كلّ مكان.

ألم يكن لك قصص حبٍ مضطربة ؟

أف.

ألم تتعلمى أوضاع الكماسوترا ؟

كم عددها، على وجه التّقريب ؟

لا أدرى، لكن من أجل ذلك لا داعى للذّهاب إلى الهند، فأيّة امرأةٍ تعرفها.

أنت تثيريننى.

اهدأ نفسًا.

نعم.

نعم، قلّدته جاكلين. نظرت إليه وضحكا كلاهما فى وقتٍ واحدٍ.

فكّر إيرنستو ألا ترغبين فىّ. فليست لدىَّ أيّة موجةٍ إذاعية، ولكن الحقيقة أنّنى لا أذيع. هائل، فى الجنوب،هذا جميلٌ للغاية -قالت جاكلين- فهناك لدىَّ منزلٌ وشاطئٌ رملى أمام البحر وصفٌ من أشجار جوز الهند.

هل تستأجرينه بالصُّدفات ؟

هناك تصنع البيوت.

أنا لا أفهم هذه اللغة.

حسنًا أيُّها الفتى كنت أسرق -قالت جاكلين ذلك بإسبانيتها المدارية -كنت أدخل المنازل وأسرق.

أنت ؟

نعم، مع أشخاص فرنسيين وجدتهم هناك. كانوا يدخِّنون الأفيون وكانوا يسيرون وسواعدهم عليها رسومات الوشم.

هناك أمريكان وألمان. كانوا يستقبلونّنى فى منازلهم، كنت أذهب إلى هناك كطالبة. وفى الليل كنت أفتح النَّوافذ لأصدقائى، وكان هؤلاء يقومون بأعمال السِّرقة. نقود وجوازات سفر ومجوهرات...، وقيثارة.

ياللخزى والعار.

لماذا ؟ إنَّ ١٥٠٠ دولار بالنِّسبة لهؤلاء الأشخاص الأثرياء لا تساوى شيئًا. كانت بمثابة ارسال برقية إلى بنكه. أمَّا بالنِّسبة لنا فقد كان مبلغًا كبيرًا.

ظلَّ إيرنستو وقتًا طويلاً فى صمت.

كنَّا أيضًا نتاجر فى الأفيون. قالت جاكلين.

نظر إليها إيرنستو مبتهجًا. فقد كانت جاكلين ماتزال شابةً. ويتذكَّر إيرنستو أنَّه رأى ذات مساءٍ فى ضواحى باريس فتاةً شابةً فى الخامسة عشرة من عمرها كانت تشبه جاكلين وذلك بقرية عمَّالية. كانت شقراء جميلة جدًا أيضًا كانت تدخِّن بتبجح وهدوء. كانت بين مجموعةٍ من المراهقين الأجلاف يرتدون سترات من الجلد، كان للشخص أنَّ يتخيَّلهم فى اليوم التَّالى وهم يرتدون الأفرول الميكانيكى وفى أيديهم كهنةٌ ملطَّخةٌ بالشَّحم. كانوا يتحدَّثون أمام ملعب للتَّزلُّج. وبالقرب جدًا، وفى جو الشِّتاء المفعم

بالشّبورة، كانت تُرى قناةً بها بعض القوارب المحمَّلة بالفحم وفى الجانب الآخر جدار مصنعٍ ما : إنَّها الضَّواحى الحزينة فى باريس. لقد فكَّر فجأةً برقةٍ فى جاكلين. لقد خرجت من هنا، ولذلك تريد الهروب منه. من عمل لمدة ثمانى ساعاتٍ فى مصنعٍ ما، من أيَّام الأحد.

سألته جاكلين فى لطفٍ فيم تفكِّر ؟

فى الطَّعام. إنَّ مصائب ورزايا الحب تفتح شهيتى دائمًا.

الا تشعرين بالجوع ؟

قالت له جاكلين : قليلاً.

قال إيرنستو : فلنرتد ملابسنا إذنْ بسرعة لأنَّ مطعم الفندق على وشك إغلاق أبوابه.

وهو كذلك. قبلت جاكلين ذلك ونهضت واقفةً.

قبل الخروج قرَّر إيرنستو الاتصال لكى يعرف عمَّا إذا كانت هناك خدمة بالمطعم ردَّت عليه سيدةٌ فى غضب. كانت السَّاعة قد تجاوزت الثَّالثة مساءً ياسيدى. أفى هذه الساعة، وفى كل حال. هل عندكم كافيار

أنهى إيرنستو المكالمة الهاتفية فى حسمٍ وكأنَّه أمير نفط.

لم يكن لديهم أيضًا. لكن يوجد سلمون مدخَّن. طلب إيرنستو أربع وجبات معتقدًا أنَّ كلَّ واحدةٍ منها

ستقدَّم فى شُحٍ مبالغٍ فيه،وطلب زجاجة خمرٍ. سألته وظفة الاستقبال هل تريد نبيذًا أو خمرًا أبيض.

التفت إيرنستو إلى جاكلين التى كانت قد ارتدت ستانها الأحمر وكانت تمشط شعرها بفرشاةٍ وقد مالت برأسها.

قالت جاكلين : أنا لا أشرب إلا الشَّمبانيا، وأنت تعرف ذلك جيدًا.

تحدَّث إيرنستو مرَّةً أخرى هاتفيًا وقد أضفى على نبرة صوته مهابةً وإجلالاً :

أرسلى لنا يامدام من فضلك زجاجة شمبانيا.

- ٤ -

أدرك إيرنستو على الفور ذلك التَّغيير المفاجئ لدى ماريا عندما عادت إلى باريس. إنَّها مختلفةٌ تمامًا. كانت بعيدةً، مراوغةً حتَّى أنَّها لم تتحدَّث له عن رحلتها إلى هولندا ولندن مع مارتا إسيجناريس. كانت عيناها شاردتين هاربتين، كما أنَّ التَّوقف ولحظات الصَّمت كانت تُجمِّد محادثتها. ماذا حدث لك ؟ سألها إيرنستو. ردَّت عليه غاضبةً، لا شيء، لا شيء. بدأ يفهم كلَّ شيء منذ الليلة التى سمعها وهى تتحدَّث مع شخصٍ يدعى بيرنارد. كانت نبرة الحديث وديَّةً وحارةً مما أثار غضبه وقلقه. لم يدر بخاطره أبدًا أنَّ ماريا مهتمةٌ برجل آخر. لكنَّه لم يستطع أنْ يقول لها شيئًا، بعد أنْ تحدَّث إليها مرارًا وتكرارًا عن الحرِّيات المتبادلة وعن العبوديات البغيضة فى الحياة الزَّوجية. لذلك فقد صمت فى البداية راضيًا فى حزن عن المكالمات اليومية لذلك الصَّديق الرَّصين والغامض والذى لم تذكر عنه ماريا كلمةً واحدةً. كانت

ماريا تتحاشى مزحات إيرنستو التى أطلقها عن معجبها المخلص: فقد كانت هذه المزحات حزينة بالنسبة لإيرنستو. ذات ليلة، استحوذ عليه التوتر بعد أنّ طال انتظاره لها حتى وقت متأخر، سألها عما إذا كانت تُحبُّ شخصًا آخر. قالت إنها ليست متيّمةً بأحد (قد وصلت لتوّها من الشارع وكانت تنظّف بالقطن زينة وجهها أمام مرآة فى الحمّام). لكن هل هناك رجلٌ آخر ؟ سألها إيرنستو، بصوت كان يتّسم بنبرة فيها جزع مليئة باللهفة والخوف. كان يبدو على وجهها الارهاق. قالت له: يا إيرنستو لقد اتفقنا أنا وأنت على أن نكون أحرارًا، وأنا لم أسألك أبدًا عمّا تفعله. هذا صحيح ياماريا. لكن لديك الآن سلوكٌ، سلوك...، سلوكٌ فاتر...، ليس، عدوانيًا لدرجة إنّنى.. أتساءل هل الأمر يستدعى أنّ نعيش معًا فى هذه الظّروف. وبمجرّد أنّ قال ذلك ندم أشدّ النّدم على أنّ قال لها ذلك. نظرت إليه ماريا بقسوة فى المرآة. قالت له : كما تحبُّ. بالفعل، لقد تغيّرت كثيرًا وكانت تبدو كما لو كانت امرأةً أخرى.

فمنذ أنّ عادت لم ترد القرب منه على الاطلاق بطريقة أو بأخرى وكانت العبارات التى يتبادلانها والتّعليقات عن الطّقس أو عن نبأ مقروء فى الصّحيفة كانت أشبه بالتى تتبادلها مع جار لها أو مع شخص يسافر إلى جوارها فى قطار أو طائرة. لذلك بعد عدّة ليال فى ذلك الجو المتوتّر، حيث استشاط إيرنستو غضبًا من تلك المكالمات الهاتفية مع بيرنارد ذلك،

وتغيبات ماريا غير المتوقَّعة، قرَّر الاتصال بأونا التى أغلقت الخط فى وجهه وبعد ذلك اتصل بها ثانيةً. واتفقا على موعد للقاء، لقد انتهزا فرصة غياب لينارد وذهب معها إلى الرِّيف. وبعد أنْ تجوَّلا فى ضواحى باريس بسيَّارة لينارد اصطحبها إلى فندق دوردان حيث كان هو وماريا من قبل. رفضت أونا الصُّعود. كانت تقول له : إنَّها لا تريد هذا بالإضافة إلى أنَّ الفندق هو المكان الذى يهرب فيه أبناء الطَّبقة المتوسِّطة مع سكرتيراتهم. قبلت فقط تناول العشاء هناك. لكن بعد تناول زجاجة خمر وبضعة كئوس كونياك صعدت معه إلى الغرفة وطلبت منه كالمعتاد أنْ يتسليا وأنْ يتصرَّف كما لو كان طفلاً رضيعًا، كانت أونا متوتِّرةً للغاية. ورفضته قالت له إنَّنى لا أشعر تجاهك بأيَّة رغبة. استيقظ فى اليوم التَّالى بإحساس من الغم والكرب. كانت أونا معتلة المزاج، وكان يكفيها أىُّ شىء، حتى ولو نسمة هواء لكى يصبح وجهها أكثر قسوةً وعنفًا تساءلت لماذا عاد ليلتقى بها. إنَّها ليست جميلةً. إنَّها جذَّابةٌ بالفعل، للحظات، لكنَّها ليست جميلةً. لعلَّه كان يفكِّر فى الفراش بينما كانت أونا نائمةً، وكانت العصافير تغرِّد خارج الفندق مع أوَّل شعاع شمس، إنَّها ليست جميلةً، لكنَّها مثيرةٌ، إنَّها ميزةٌ لم يستطع أنْ يعرف سبَّبها هل هى أرادفها العالية النحيفة أم ساقاها الطويلتان أم صدرها غير المترهِّل أو طريقة لبسها أو دلالها المستفز الذى يثير غضب النِّساء الأخريات ولدى الرِّجال رغبةً كما لو

كانت أنثى حيوان فى وقت النَّزوة أمام فحل من هذا النَّوع. كان كلُّ ذلك يختفى تمامًا وهى نائمةٌ. حاول أنْ يختبرها. كانت رموشها تهتز فجأةً برعشة تشبه رعشة الماء عندما تداعبه الرِّياح : اشتكت بشكل طفولى، وكان جسدها يتقلَّص إلى أنْ تخلَّصت رويدًا رويدًا من النَّوم كانت ماتزال عيناها مغمَّضتين، أمَّا تنفسها فلم يكن تنفس شخصٍ نائمٍ. رآها تعضُّ شفتيها ظلَّ يداعبها برقَّةٍ غريزيةٍ حتى أحسَّ بأنَّ دمه بدأ يتدفَّق بقوة فى شرايينه وكانت رغبته أشبه بحيوان جائعٍ. كانت تهمهم بصوت خفيض وقالت له: هلمَّ إلى. أحسَّ إيرنستو بالنُّفور تجاهها. فى الوقت الذى تعالت فيه أصوات الطُّيور خارج الفندق. كان إيرنستو لا يريد مجرَّد النَّظر إليها وأراد أنْ ينهى علاقته بها بشكل قاطعٍ كان فى حاجة إلى استنشاق الهواء الطلق النَّقى بكلتا رئتيه. ذهب إلى الحمَّام وهى لا تزال ترتمد يداه وساقاه مثل جواد عقب الانتهاء من مسابقةٍ فروسيةٍ. وعلى الرَّغم من ذلك النُّفور فقد رآها وهى تتدثر ببشكير وتمشِّط شعرها وهى تميل برأسها فحنَّ إليها مرَّةً أخرى.

تنزَّها ذلك المساء فى غابة رامبوليه كما تذكَّر إيرنستو. كان اليوم صافيًا وباردًا وكان بريق الأشجار بلونها الأصفر الذَّهبى العتيق فوق رأسيهما وكانت أقدامهما تطأ الأوراق المتساقطة أسفل الأشجار. كانا يسيران فى الهواء البارد. تحدَّثت له أونا عن ذلك الكاتب الفرنسى الذى كان حبيبها. كانت تتذكَّره دائمًا

وهى تتنزّه فى غابة. لقد ظهرت أونا فى آخر قصّة له والتى كانت على وشك الفوز بجائزة الجونكور. لكنّها كانت على حدّ قول أونا –قد ملت الأدب، من التّنقل دائمًا بين الكتّاب والنّقاد والأساتذة الذين يريدون أنْ يضعوا الشّخص فى كتبهم وكأنّه فراشةٌ محنّطةٌ فى فترينة. كانت تسير إلى جواره فى مواجهة الرّياح التى كانت ترفع شعرها ويداها فى جيبى معطف فاتح فى خطوات وئيدة فى نعليها طويلى الكعبين. على العكس من ذلك قالت له: أتدرى ما الذى يحظى بإعجابى ؟ أن يكون لى طفلٌ، طفلٌ ؟ طفلٌ ؟ نعم، هل يدهشك ذلك ؟ لا، ردّ عليها إيرنستو. فبعد كلّ شيء من الطبيعى فإنّ أيّة امرأة... يا أيّها السّفيه، أنت لم تفهم شيئًا أريد أنْ أقول لك أريد طفلاً منك. أحس إيرنستو أنّ شيئًا بداخله يتراجع بحذرٍ وغير واثقٍ مثل قوقعة فى صدفتها. ظلّت أونا تتكلّم. إنّها تودّ أنْ يكون لها طفل ومنزل فى ميدى به كثير من الزّهور. فى نهاية الأمر تريد أنْ تكون أمًّا لطفلٍ يحبو على الأرض وهى تنسج شرزًا إلى جانب المدفأة. أوه، ياللهول، ضحكت أونا فجأةً، وقالت أنا لا أدرى لماذا أقول كثيرًا من السّفاهات. كان إيرنستو ينظر إلى الأرض التى كانت تغطيها الأوراق الجافة دون أنْ يقول شيئًا. انه لم يفكر قط فى العيش مع أونا. منزل فى الرّيف وابنٌ، إنّ كلّ ذلك كان ممكنًا فقط مع ماريا، أمّا أونا فهى فراشة كوكتيل وشواطئ الموضة. أمّا ماريا فهى على العكس من ذلك... الآن سأفقدها. إنّ الفكرة سبّبت له ذعرًا.

كانت وهمية وغير واقعية. كان إيرنستو فى حاجة إلى ماريا. إنَّه يحبُّها، إنَّه يُحبُّها حبّاً جمّا. إنَّه الآن يكاد يفقد أكثر إنسانة أحبَّها. كانت أونا ترقبه بعينيها. قال لها إيرنستو إنَّه لا يتخيَّلها تعيش فى الرِّيف، قال ذلك لكى يقول شيئًا. قالت أونا : لقد كانت دعابةً فلا تخف. ثمَّ انفجرت فيما بعد بالسيَّارة قائلةً له ما أنت إلاَّ انانىٌّ مزهوٌّ بالرُّجولة أضاف إيرنستو : إنَّه لينينىٌّ أيضًا.

كان يوم أحد وكان الجو قد بدأ يخيِّمُ عليه الظَّلام كما يتذكَّر إيرنستو كان قلبه يخفق بسرعةٍ وهو يصعد السُّلَّم وتُشمُّ منه رائحة الشُّوربة والقرنبيط، الذى يؤدِّى إلى منزله بعد أن ترك أونا فى منزلها. كان يفكِّر فى ماريا وما سيقوله لها وضرورة إصلاح الوضع معها. لكنَّه لم يجدها. كانت الشَّقَّة خاليةً، ولافتة موقف السيَّارات قد أضيئت توّاً على الجانب الآخر من الطريق، كانت تملأ الصَّالة بضوءٍ حزينٍ. فتح الدُّولاب مدفوعًا بهاجسٍ داخلى. لا، مازالت هناك ملابس ماريا ونعالها، إنَّها لم ترحل حتى الآن. من الضَّرورى أنْ يتكلَّم معها ويشرح لها كلَّ شىء، وأنْ يلعب معها لعبًا نظيفًا، كان يفكِّر فى ذلك بعد أنْ تناول معها كأس خينيبرا فى المقهى الكائن على النَّاصية فمنه يمكن رؤية مخرج المترو حيث بالتَّأكيد ستصل من هناك. فالأمور لا يمكن أنْ تنتهى بهذا الشَّكل ما بين يوم وآخر، كان صوت بداخله يناديه بذلك، وهناك صوت آخر كان يقول له بشكل فظٍ لقد أنهى بهذا

الشّكل حياته المشتركة مع إيستيلا وكذلك ماريا فى زواجها. إنّ ماريا علاوةً على ذلك امرأةٌ رزينةٌ، كان يفكّر فيما بعد فى أنّها غير مرئية التّصرفات وهو يستمع إلى أغنية "سنذهب جميعا إلى الفردوس" فى إحدى ماكينات اللعب بالنّقود. بدأ يشعر بالحزن. طلب كأسًا آخر من الخينيبرا. وبالضّبط عندما بدأ فى تناوله رأى فى مدخل المترو بونيهًا أحمر وسترةً أزرق كحلى : إنّها ماريا. عندما مرّت أمام المقهى ضربت بلطفٍ على زجاج نظّارته. ابتسمت له ماريا عندما رأته.

يتذكّر إيرنستو أنّهما تكلّما هناك فى المقهى نفسه: لقد استمع إليها كمتهم يستمع إلى التحقيقات التى تدينه بلا مناصٍ، كان يراها وهى تجلس أمامه لأوّل مرّةٍ بمحيّا سعيد، بمحيّا سعيد على مدى أسابيع طويلة. نعم، نعم، إنّنى أيضًا أريد أنّ أتكلّم معك، قالت له ماريا وبدأت تتحدّث فى ذلك المكان الذى لم يكن ملائمًا نظرًا لارتفاع صوت الموسيقى، فضلاً عن ضوضاء عملاء المقهى يوم الأحد الذين يأتون للتّعليق على نتائج المباريات. كانت هناك مقدّمةٌ طويلة وهى تذكّره كم كانت حياتهما سعيدةً فى مايوركا، وبما أنّها كانت فكّرت فى أنّهما سيتزوّجان ذات يوم وسينجبان ابنًا، وأنّها كانت مستعدةٌ لمرافقته فى أىّ مكان. ففكرة أنّ أفقدك ذات يومٍ كانت ترعبنى، يا إيرنستو. كنت أرتعد من مجرد فكرة أنّ يحدث شىءٌ من هذا القبيل. كانت تصيبنى كوابيس مخيفة أحيانًا، كنت أراك ميّتًا،

غريقًا فى البحر، هل تتذكّر ذلك. قالت له أيضًا: لقد كنّا سعيدين اثناء أيّامنا الأولى فى باريس عندما التقينا فى مقهى جزيرة المدينة وكنّا نتجوّل فى شوارع الحى اللاتينى. وعن ذعرها عندما بدأ إيرنستو يتغيّر، وعندما بدأ يتغيب عن المنزل، أو عندما كان صامتًا وعدوانيًا، واحتضارها على مدى ليالٍ كثيرة وهى تفكّر فى أنّ إيرنستو سيتركها. لقد عانيت كثيرًا، يا إيرنستو. ففى بعض الأمسيات لم يكن بوسعى أن أظلّ فى الشّقة فخرجت أهيم على وجهى دون اتجاه معيّن كنت أقوم بجولات على غير هدى. كنت أذهب إلى بارك مونسو(*) وأجلس بين المسنّين والحمام، ودون أن أستطيع تفادى ذلك كنت أبكى فى المترو، وكان النّاس ينظرون إلىّ. فكّرت فى الانتحار. كنت أريد وسيلة نظيفة لتنفيذ ذلك، لأنّه من المرعب أنْ يلقى الشّخص بنفسه من نافذة أو أنْ يضع رأسه فى فرن غاز، ومن المروّع أيضًا أنْ يلقى الإنسان بنفسه فى نهر وأنّ يترك خلفه جثّة منتفخةً كآخر ذكرى له. عندما قرّرت قطع أوردتى، كنت يائسةً. كنت أفكّر فى أنّ ذلك سريعٌ وغير مؤلم، لكن كم كان طويلاً، كم كان صعبًا أنْ يموت الشّخص هكذا فالإنسان يقرّر ذلك، يضع الخطط، وفى اللحظة الأخيرة، على الرّغم من كلّ شىء، هناك شىءٌ داخل الإنسان يتشبث بالحياة بكل أظفاره. إنّه هكذا، ولكنّك لا تعرف، إنّك لم تمر بذلك. كنت أعتقد عند خروجى من المستشفى أنّ كلّ شىءٍ سينصلح أمره

(*) Parc Monceau، بالفرنسية فى الأصل.

بيننا. كانت الأيَّام الثَّلاثة التى قضيناها فى دوردان رائعةً، لكن يا إيرنستو إنَّنى أزعجك يا إيرنستو. لقد أدركت ذلك عند العودة عندما أرسلتنى إلى هولندا مثل طردٍ. نعم أرسلتنى إلى هولندا مع ماريا إينسيجناريس وأنت ذهبت إلى مايوركا مع خوليا. فلديك الآن عاشقات متيَّمات فى العشرين من العمر. إنَّنى لا أنتهرك، آمعن النَّظر، لعلَّ ذلك مؤشِّر على الحيوية، لا تقاطعنى ودعنى أتكلَّم. اطلب كأسًا من الخينيبرا من أجلى، فأنا أحتاج إليه أيضًا. اسمع : لقد تعرَّفت على شخصٍ فى القطار الذى أقلَّنا إلى أمستردام. لا تحزن، لقد تعرَّفت على شخصٍ يدعى بيرنارد، إنَّه فرنسىٌّ. أوه، إنَّه ليس أىَّ مفكِّرٍ، وربَّما تسخر منِّى، أو منه، إنَّه يعمل فى البورصة. إنَّه يبيع ويشترى أسهمًا. إنَّه رجلٌ فى الخمسين من عمره، مطلَّق، ولديه ثلاثة أبناء. إنَّه وحيدٌ فى الحياة. إنَّه مثلى تمامًا. لقد اهتم بى، وبما أفعله... كما أنَّه أيضًا يعجبه الرَّسم، ولديه ورشة رسمٍ يعمل بها بعض أيَّام الآحاد. إنَّه رجلٌ واثق من نفسه تمامًا، إنَّه فرنسىٌّ. أوه، لا تأخذ الأمر بهذا الشَّكل فأنت تتفوَّق عليه فى أشياء كثيرةٍ ليست لديه. لا تسخر من فضلك. إنَّ لديه حنانًا. إنَّ والدتى، والدتى المسكينة ـ أراها الآن هكذا، مثل أمِّى المسكينة ـ كانت تحلم بأميرٍ أزرق من أجلى. كانت تتخيَّله مثل رونالد كولدمان ممثِّلها المفضَّل، أو روبرت تايلور، وأميرها الأزرق كان مليونيرًا منحطًّا ومدمنًا للمشروبات الكحولية، كان يسيل لعابه مع أوَّل

كاس ويسكي. الآن أعتقد أنَّ الحب الرَّاقي الذي كان يؤمن به الشَّخص وهو في الخامسة عشرة من عمره بعد أنْ قرأ قصصًا كثيرةً لكورين تيادو، ماهو إلاَّ كذبةٌ كبيرةٌ، ماهو إلاَّ سرابٌ. إنَّه هروب مثل الماريجوانا للفتيات الشَّابات اليوم. فالشيء الواقعي ليس الحب بل العاطفة، الثِّقة والطُّمأنينة إلى شخصٍ، لا تسخر، من فضلك، ستفهم ذلك إذا تنزهت ذات مساءٍ فوق جسرٍ وأنت تفكِّرُ في... كان هناك رجلٌ يجلسُ على دكة يبكي. ولعلَّ كان من أجل ذلك، من أجل ذلك الرَّجلُ الذي كان يبكي على دكته، أنَّني لم ألق بنفسي في الماء. كان هناك أناسٍ أكثر تعاسة وبؤسًا أكثر منِّي في العالم هكذا كنت أفكِّرُ يا إيرنستو، لقد أحببتك، بمعنى أصحّ، إنَّني أحبُّك، عجبًا، لكن... لا تحزن، لأنَّك ستبكيني. لقد كنت أنت الذي أفسدت كلَّ شيء. أنت تجيد تدمير كلِّ شيءٍ، أنت تُحبُّ أشياء كثيرةً : الثَّورة، تأليف الكتب، أن تعاشرَ كلَّ النِّساء الحسناوات اللاتي يمررن إلى جوارك وفي النِّهاية... لا، لا أريد أنْ أقول لك أشياء قاسيةً أعلم أنَّني أسجِّل عليك مواقف هنا. صدِّقني، أنت ذو قوَّةٍ هائلةٍ. ستأتي أيَّام أفضل. هل تتذكَّر قصَّة كافكا تلكَ التي قرأتها لي ؟ كان أحيانًا يترنَّح في الغسق، لكنَّه لم يقع... هكذا أنت. أوه، يالي من سفيه، يالي من سفيهٍ. هل لديك كلينكس؟ إنَّ مسحوق رموشي بدأ يتساقط، ينبغي أنْ أكون بشعة المنظر.

لقد ناما سويًّا في تلك الليلة، كانا حنونين كشقيقين. كان ضوء القمر يتسلَّل عبر نافذة غرفة

النَّوم، بينما كانت تداعب رأسه، قالت له : إنَّها استأجرت شقَّةً من ثلاث غرفٍ إلى جوار حديقة مونتسوريس وقبل أسبوع ستنتقل إلى هناك مع بيرنارد. إنَّ هذا هو أفضل حلٍ للجميع. استحوذ البرد على روحه ومع ذلك استطاع أنْ ينام. لكنَّه استيقظ عند الفجر في ذعرٍ. اهدأ نفسًا، اهدأ نفسًا، هكذا فكَّر إيرنستو. وفي وقت لاحق كان يجلس في شرفة W.C أجهش بالبكاء.

أخرج الغطاء الفلِّين بصوت عالٍ. كان يمسك بالزُّجاجة بفوطة ورقٍ، صبَّ النَّادل كأسين. ثم وضع الزُّجاجة والصِّينيةَ وانصرف بعد أنْ تمنَّى لهما تناول الطَّعام "بالهناء والشِّفاء".

أنت مجنون ـ قالت له ماريا ضاحكةً عندما أصبحا وحدهما كانت تجلس أمام الطَّاولة التى أعدَّها النَّادل بجوار النَّافذة، في ظلِّ الستارة الحار التي كانت توقدها الشَّمس ـ في صحة أحبائك.

قال إيرنستو في صحَّة أحبَّائك.

تناول جرعة من الشَّمبانيا المثلَّجة، ثم بدأ يأكل السَّلمون، الذي كان طازجًا جدًا وقد قطع إلى شرائح رقيقة جدًا.

قال إيرنستو وهو يأكل بشهية مفتوحة : إنَّه لذيذ. كان ينظر إلى جاكلين التي كان فستانها الأحمر يضفي جمالاً على لون وجهها وشعرها بلون العسل. أحسَّ تجاهها بغريزة الحنان.

قال لها : إنَّنى أشعر بالارتياح معك.

وأنا أيضًا.

فهناك أيَّام فى باريس يشعر الشَّخص فيها أنَّه وحيدٌ أكثر من كلبٍ. الا يحدث لك أحيانًا الإحساس نفسه ؟

رفعت جاكلين كتفيها.

إنَّ هذا يحدث للجميع. لا أهمية لذلك.

قبل إيرنستو قائلاً : لا أهمية لذلك على الاطلاق.

هل كنت تعيشين مع مارجى ؟

حتى أمس.

شرب جرعة شمبانيا.

إذا لم يكن لديك مكانٍ تأوين إليه، بوسعك المجيء إلى شقتى.

ردَّت عليه جاكلين شكرًا. من المحتمل ذلك. فى الواقع كنت قد فكَّرت فى الذهاب إلى منزل والدتى. إنَّها تعيش فى جونفيل كوبو، ولكنى أتضايق قليلاً لأسباب خاصة.

ووالدك ؟

ظلَّت جاكلين شاردة وهى تأكل. فمنذ سنوات طويلة لم أره. تمتمت جاكلين قائلةً: كان رجلاً معقَّدًا للغاية. كان شخصًا مدمّرًا. مدمنًا للكحول. يُحبُّ لعب

القمار. كان يملُّ البقاء فى المنزل وحده، بينما كانت والدتى تعمل فى المصنع، كان يطلب أنْ أظلّ لألعب معه. وأنا كنت سعيدةً، بالطّبع، لعدم ذهابى إلى المدرسة لكن والدتى عندما كانت تعود إلى المنزل وتدرك ذلك.. كانا يتبادلان السِّباب كالمجانين.

هذا ملحوظٌ.

كان يتحتَّم علىَّ أنْ أدافع عن نفسى. هذا فعل فيه إجبار وأسيُه.

كنت أصرخ فى وجهه أحيانًا قائلةً أنت تحوِّلنى إلى كلب.

وكان يظلُّ مذهولاً ويقول : لا تقولى هذا، إنَّنى أبوك.

ضحك إيرنستو وصبَّ لنفسه كأسًا آخر من الشَّمبانيا.

هل كان إذنْ غريب الطبع.

وهل مايزال حيًا ؟

لا أعرف شيئًا عنه.

كيف حالُ تلك الشَّمبانيا.

إنَّها رائعةٌ جدًا.

ألم تأكلى شيئًا ؟

لست جائعةً جدًا ـ ظلت جاكلين تنظر شاردة إلى الكأس، وهى تضحك من جرَّاء ذكرياتها ـ إنَّنى أفضلُ

عدم الخوض فى هذا. كرَّرت ذلك بصوتٍ يبدو وكأنَّه قادم من ذكرياتها الحنونة ـ خلال خمسةَ عشر عامًا. كنَّا نعيش فى غرفة صغيرةٍ جدًا. إنَّها أصغر بكثير من هذه. إنَّها حظيرةٌ. أربعة جدران وثلاثة أشخاص، وكلُّ شخص بحيويته ونشاطه، وجنونه، وخياله. وكانت أمِّى دائمًا تعيش فى خوفٍ.

من ماذا ؟

خوف. من أنْ تفقد وظيفتها، خشية أنْ يهجرها والدى. برق شىءٌ صلبٌ فى مقلتى جاكلين.

وذات يوم قرَّرت ألاَّ أكون مثلها، وأنَّنى لن أخاف وأدركت أنَّ النَّاس يدمِّرون حياتهم فقط بدافع الخوف لقد كنت بسبَّب الخوف أقبل أمورًا لا ينبغى أنْ أقبلها تنهدَّت بعمق. وذات يومٍ اصطحبتها.

والدتك ؟

اصطحبتها، بالفعل. ذات يومٍ خرجت من المدرسة لكيلا أعود إليها أبدًا. وكنت تلميذة مجتهدةً، هل تعرف ذلك. كنت أحصل على درجاتٍ ممتازة. لكن ذات يومٍ انصرفت من المدرسة ولم أعدْ إليها أبدًا لقد قرَّرت ذلك. وصلت إلى المنزل وقلت لوالدتى: اسمعى، هيَّا بنا نرحل. المرء يتعفن هنا. كانت تنظر إلىَّ غير مصدِّقة لما أقوله لا. نعم، قلت لها "إنَّنى أعمل، وأنت أيضًا، إنَّنا نستطيع الإنفاق على أنفسنا دون حاجةٍ إليه. اجمعى أغراضك فورًا وضعيها فى طردٍ" لقد أطاعتنى. بدأت تضع أغراضها فى كرتونةٍ. كنت اعتبارًا من تلك اللحظة وكأنَّنى الأم وهى الابنة.

ماذا فعلت

لم تفعل أكثر من حماقات.

أى نوع من الحماقات ؟

إنّها أعمال وضيعة. خادمة فى مطعمٍ نباتى، ثم موظّفةٌ فى كريبيرى(*) . وأيضا بائعة فى محلٍ لبيع الخبز. لدرجة أنّنى وصلت ذات يومٍ إلى المسكن ووجدت والدتى تنتظرنى على السلّم. قالت لى ياجاكلين إنّ شخصًا ما هنا فى الدّاخل. فادركت. لقد سعدت من أجلها. كانت فى حاجة إلى شخصٍ آخر حقيقةً. "وهو كذلك يا أمّى، هائلٌ" قلت لها هائل يا أمّى. قبلت يدها وانصرفت. رحلت إلى الأبد.

كم كان عمرك ؟

خمسة عشر أو ستة عشر عامًا. لقد احسست بأنّنى حزينةٌ، هذا صحيحٌ. لكنّنى أصبحت حرّةً للغاية. تركت محل بيع الخبز، أيضًا.. وكان حينئذ عندما قمت بأوّل رحلةٍ إلى الصّحراء.

قال إيرنستو وهو يملأ كأسه : الآن أفهم.

ماهو الأمر ؟

لماذا أنت كما أنت.

ليس فى غاية الصّعوبة لكى أفهمه.

بالطّبع لا.

(*) Creperie، بالفرنسية فى الأصل.

قالت جاكلين: أحبُّ أنْ أكون حرَّةً. إنَّ أجمل شيء في العالم أن يكون الشَّخص حُرًا. عندما يبحث النَّاس عن مزيدٍ من الأمن والأمان فإنَّ ذلك لأنَّ الخوف يستحوذ عليهم. إنَّ العدو اللدود للإنسان هو الخوف. وكان دائمًا هكذا منذ بداية العالم.

إنَّني متأكِّدٌ من ذلك. ينبغي أنْ نتعلَّم كيف نصطاد النِّمر ياجاكلين.

ايُّ نمرٍ ؟

النِّمر الذي أحيانًا نسمعه جميعًا وهو يزأر. هناك البعض الذين يخرجون لصيده، والبعض الآخر يدخلون رأسهم تحت الوسادة حتى لا يسمعون زئيره.

قالت جاكلين: أنت على صوابٍ.

ياجاكلين إنَّنا مفعمون بالحكمة. ارفعي ذلك الكأس.

يالها من غصَّةٍ في أمعائه ! ياله من برد قارس في النَّفس بعد تلك الليلة، وهو يرى كيف أنَّ ماريا كانت قد بدأت الاستعدادات لكي تُعزِّل من المنزل. لقد اشترت صندوقًا معدنيًا كبيرًا ووضعت فيه كلَّ ملابسها، وألبومي صورها، وعلبة من الصَّدف حفظت فيها قلادتها وأساورها وكتبها من مجموعةٍ ماذا أعرف أنا ؟ التي كانت تشتريها بانتظام فور صدورها من مكتبة الصَّحافة الجامعية، كما لو كانت طفلة تُعدُّ نفسها للالتحاق بمدرسةٍ داخليةٍ للرَّاهبات. ساعدها

إيرنستو فى حمل كرتونتين من أسفل لكى تضع فيها ألوان الماء وكتبًا أخرى. كان إيرنستو يذهب إلى الشّارع مرتعدًا ويغصّة فى حلقه وبانطباع فى أنّ كلّ ذلك، ماهو إلاّ شىءٌ لاّ يمكن تصديقه وأنّه حلمٌ سيئٌ. أصبح عمله فى دار نشر العالم الجديد رتيبًا وحقيرًا، كان يتنزّه على ضفاف نهر السّين يائسًا لأنّه ليس لديه من يتكلّم معه. لم تفهم خوليا قلقه. كانت تقول له إنّ هذا هو أفضل شىء يمكن أنّ يحدث. فماريا وإيرنستو لايصلحان للعيش معًا. كما لم يكن الشّاعر ليناريس ذا جدوى بالنّسبة له عندما زاره إيرنستو ذات مساء. قال له إنّ النّساء فى باريس بالعشرات بصوته الوحشى وهو يصبُّ له فى كلّ خطوة قدحًا من الخمر المزز غليظ القوام.

كان ليناريس يجلس فى غرفته القذرة الشّبيهة بحظيرة خنازير وهو يرتدى سترة من جلد الماعز. كانت تبدو رثّةً. وكان ينام إلى جواره كلبٌ صغيرٌ من فصيلة الثّعالب. كان الشّاعر يقول لإيرنستو إنّ ماريا تبدو له دائمًا فتاةً من الطبقة الوسطى من ميرافلوريس أو من سان إيسيدرو، إنّها فتاةٌ مرفّهةٌ، إنّها مهذّبةٌ للغاية، لكن.. اسمع يا إيرنستو إنّها ربّما تتفاهم وتنسجم مع الفرنسى. فأبناء الطّبقة المتوسّطة يشمّون بعضهم البعض ويتعرّفون على بعضهم البعض مثل كلاب من نفس السّلالة.

خرج إيرنستو من منزل الشّاعر بشكل عابث وهو سكران ثمل من الخمر حاملاً الكلب الصّغير من

فصيلة الثّعالب الذى كانت حول رقبته قلادةً. ذهب الشّاعر إلى لندن فى تلك الليلة، ولم يكن لديه شخصٌ لكى يترك معه الكلب الذى كان يسميه .Yesوعلى الرّغم من الحبل الذى كان ملتفًا حول عنق الكلب فإنّ حمله فى المترو كان مشكلةً. كان الكلب يجرُّ إيرنستو إلى أنّ عاد إلى منزل. كان الكلب يتوقّف عند كل بسطة سلّم يشمُّ كلَّ البسط التى يجدها. دخل الكلب بسرعةٍ وألفةٍ إلى الشّقّة، كان مخطمه قريبًا من الأرض ويهزُّ ذيله ويشمشم دائمًا. رفع رجليه لكى يحيىّ ماريا التى تجنّبته خائفةً. ثم قام الكلبُ بجرِّ الحبل حتى وصل إلى وسط الصّالون. لم ير على الفور الرّجل الذى كان موجودًا هناك واقفًا، لكنَّ الرّأس الجزوعة للكلب ظلّت تشمشم فى نعلين رجالى لامعين للغاية وفى طية بنطلون رمادى. عاد الكلب ليجلس على رجليه الخلفيتين لكى يحيىّ الشّخص الموجود. حينئذ رفع إيرنستو نظره ووجد رجلاً لا يعرفه أنيقًا نظيفًا وناضجًا ذا شعر رمادى وعينين زرقاوين. قالت ماريا وهى تُعرّفه عليه إنّه بيرنارد.

كان ذلك الموقف غير مريحٍ، ظلَّ الكلب الصّغير يقدّم التّحية بصعوبةٍ، بينما كان بيرنارد ذلك الذى يتميّز بكونه رجل أعمالٍ ذا ذوق رفيعٍ، يذكر بعض التّعليقات التّافهة حول هذه السّلالة من الكلاب، وكانت ماريا قلقةً وتعلّلت بالذّهاب إلى المطبخ لاحضار قهوة. انضم إليها إيرنستو وهو يمسك بالكلب دائمًا. رأته يقترب منها ـ فأحسّت بالهدوء والارتياح. قال لها

إيرنستو بصوتٍ هامسٍ : معذرةً، لم أكن أنتظر أنْ أجدكما هنا. قالت ماريا : إنَّ برنارد جاء ليساعدنى فى حمل الكراتين. أحسَّ إيرنستو بالتَّوتر والبرود. كان فى حاجة إلى اتخاذ قرارٍ فوريٍ. قال لها إيرنستو اسمعى ياحبيبتى إنَّنى لا أريد انتظار تشريح الجثة. سأنصرف حالاً. انقلى حاجتك فى هدوء، وعندما تذهبين اتركى لى المفتاح مع السَّاعى. أجهشت ماريا بالبكاء. كانت تتمتم قائلةً يا إيرنستو، يا إيرنستو ياحبيبى وهى تُقبِّلُ يديه. إنَّ الذَّنب ذنبك فلقد أتلفت وافسدت كلَّ شيء... أحسَّ إيرنستو بغصَّةٍ فى حلقه. انظرى ياماريا... إنَّ صديقك فى انتظارٍ قهوته. كم عامًا يكبرك بيرنارد. قالت ماريا : ثلاثة وعشرون عامًا. ظلَّت ماريا تبكى.

كان الجو ليلاً. كان يسير فى الهواء البارد بمنطقة الأشجار الكثيفة الملتفة ومعه حافظة أوراق وضعها تحت إبطه بها فرشاة ومعجون أسنان وماكينة حلاقة) وكان يسحب الكلب من الحبل. كان الكلب Yes يتقدَّمه وهو يشمشم فى أقدام المارَّة وأحيانًا كان يرفع رجليه الملطَّخة بالطِّين ليحيىَّ الناس الذين لايعرفهم فكانوا يتفادونه بمزاجٍ معتلٍ. وعند كابينة التليفونات ربط الكلب من ساقيه بالحبل، وبدأ الكلب فى النُّباح بينما كان إيرنستو يتصل بخوليا. كان يسمعها بالكاد. قالت له خوليا بوسعه أنْ ينام فى شقَّتها، لكنَّها ستصل إلى الشَّقة بعد [illegible]ـاعة الثانية عشرة عند منتصف الليل لأنَّها كانت مع بيير. أىُّ بيير

سألها إيرنستو مذهولاً من جرَّاء نُباح الكلب الغاضب لم يكن يسمعها. سمع إيرنستو خوليا تصرخ بأعلى صوتها وتقول له بيير حبيبى. قال إيرنستو: أوه، معذرةً ثم وضع السَّماعة.

لم يجد فندقًا يسمح له بالنُّزول ضيفًا مع الكلب. وانتهى به الأمر إلى أنْ انتظر حتى منتصف الليل فى خمَّارةٍ فى شارع بوسى بالقرب من شقَّة خوليا. كان البرد يتسلَّل عبر الأبواب الزُّجاجية. كان هناك كثيرٌ من النَّاس والدُّخان وخارج الخمَّارة كان المطر ينهمر مشوبًا بالرِّياح فوق أماكن الخضراوات الكائنة على طول الرَّصيف والتى كانت مغطَّاة بالخيش. كان الكلب يئنُّ كلَّ لحظة وينظر إليه بثباتٍ وهو يهزُّ ذيله. أكَّد النَّادل أنَّ الكلب جائعٌ فأحضر له عظمةً، هدَّأته بالفعل. ظلَّ هناك وقتًا طويلاً يتأمَّل المطر وهو يتناول كئوس الخمر الأبيض. أحسَّ بالارهاق الكبير وكان فى حاجةٍ إلى النَّوم. تذكَّر تنفس ماريا الهادئ وهى تنام إلى جانبه، وكيف كان يعانقها حتى لا تحس بالخوف. لم يكن بوسعه أنْ يصدِّق حتى الآن أنَّها ذهبت لكى تعيش مع رجلٍ آخر.

فى منتصف الليل ذهب إلى حيث خوليا. كانت لاتزال مع بيير، رجلٌ عملاق ذو لحيةٍ، أصلع الرأس، كانت راسه لامعةً مثل كرة بلياردو. كان بيير عازف ساكسفون وكان يعزف فى خمَّارة فى شارع سان أندريه للفنون. يتذكَّر إيرنستو وجهها المذهول عندما رأياه فى صحبة الكلب، أدرك على الفور أنَّه دخيلٌ

غريبٌ، وأنَّ تلك اللحظة لم تكن مواتيةً لكى يذهب إلى هناك حيث قطع عليهما متعتهما -بمشاكله ونعليه المبلَّلين وكلبٌ صغير من فصيلة الثَّعالب. لم تستحسن خوليا أنْ يأتى الكلب ليحيِّها وهو يهزُّ ذيله ويقف على رجليه الخلفيتين، وكأنَّها عادته الأكثر ولاءً ووفاءً. قالت للكلب ابعد، ابعد، وقد قطَّبت جبينها غاضبةً، بينما كان صديقها كثيف اللحية يتأمَّل الكلب مسرورًا. قرَّر إيرنستو اصطحاب الكلب والرَّحيل.

هكذا كان الموقف ينطوى على جانب غريب، فكَّر إيرنستو فى وقت لاحق، أنْ يحمل الكلب والمطر الخفيف يتساقطُ باردًا فى شوارع مهجورة عند الفجر. كان الكلب Yes يستمتع تمامًا بهذه النُّزهة الليلية، كان ينتقل من مكانٍ إلى آخر وهو يهزُّ ذيله ويُشمشم فى كلِّ شيءٍ فى حيرةٍ حقيقية. عندما وصلا إلى جسر الفنون، ترك إيرنستو حبل الكلب، تركه يجرى بحرِّية تامةٍ، تحوَّلت حيرة الكلب إلى سعادةٍ بدأ ينبح وهو يجرى من مكانٍ إلى آخر عند الجسر. ظلَّ إيرنستو وقتًا طويلاً يتأمَّل النَّهر فى الظَّلام كان يرتعد من البرد. عند الطَّرف الآخر لـ فير جالان كان هناك رجلٌ بمفرده ومعه قيثارةٌ. يالمدينة المجانين هذه!، هكذا كانَ يفكِّرُ إيرنستو. دقَّت ساعةٌ معلنة الوقت فعاد وتذكَّر ماريا. تذكَّر تلك الليلة التى جاءا فيها معًا إلى الجسر، والليلة التى قرَّرا فيها الذَّهاب إلى مايوركا. قبلَها. دون أن يدرى كيف خطرت بباله كلمات أغنية كانت الموضة فى كولومبيا "كيف أتصرَّف اليوم

وكيف أتصرَّف غداً..." ذات يوم، إنَّه لا يدرى متى سيعود إلى وطنه. أصبحت باريس مرَّة أخرى حلمًا غامضًا، وربما ماريا أيضا. انتابته الرَّغبة فى البكاء. بكى ؛ كانت أضواء جسر نوف ترتعد أمام عينيه بعنف لكن الكلب Yes أعاده إلى واقع الجسر والسَّاعة عندما نبح.

اتصل هاتفيًا بأونا. استطاع فى النِّهاية إقناعها برعاية الكلب ثم ذهب لينام فى فندق بشارع كارميس. استيقظ فى وقت متأخِّر جدًا. كانت ذكرى ماريا مازالت تجيش فى صدره كما لو أنَّهم وضعوا فوقه شيكارة رمل. أراد الاتصال بها، لكن بالتَّفكير فى الأمر جيِّدًا لن يكون للاتصال معنى. أحسَّ بإحساس من الوهم والخيال وهو يتأمَّل غرفة الطَّالب التى كان يعيش فيها بحوض غسيل الأيدى فى ركن بها ونافذة تُطلُّ على غرف السُّطوح الصَّغيرة ذات السَّقف المائل. كان الطَّقس صحوًا فى يوم جميل بالخريف. اتصل بأونا. لم يكن يفهم ما تحدَّثت إليه بشأنه. إنَّه إنسانٌ مجنونٌ هكذا كان يقول. كان مجنونًا تمامًا. مزَّق شلتةً، فامتلأت شقَّتنا بالرِّيش. علاوة على ذلك، لنسمع فصلاً كاملاً، هل أدركت ذلك ؟ لقد تأخَّر إيرنستو فى فهم أنَّ أونا كانت تتحدَّث له عن الكلب Yes.

قالت جاكلين إنَّ مارجى ترافق الآن شخصًا ولكنها فى أعماق نفسها خائفةٌ. لقد انتزعت من الفتاة بدافع الخوف.

مِمَّ تخاف مارجي ؟

من البقاء وحدها. من الشَّيخوخة. من ألاَّ تصلها الحوالة التي يرسلها والدها إليها. أنت تعرفها ؟

أعرف أنَّه مستورد آلات زراعية في فنزويلا.

إن لديه كثيرًا من الأموال، لا تستطيع أن تتخيل ذلك. عندما يأتي هو وزوجته إلى باريس، فإنَّ مارجي تقوم بدور الفتاة البرجوازية المهذَّبة جدًا. إنَّها ترافقهما إلى فندق ليدو إلى برج أرجنت... إنَّك لن تعرفها. وهي لا تتحدَّث معها إلاَّ عن أمورٍ تافهة.

إنَّني أتخيَّل ذلك. انظر عندما ترى عن قرب أبناء الطَّبقة المتوسِّطة من أمريكا اللاتينية تنتاب الإنسان الرَّغبة في أنْ يحمل بندقيةً ويذهب إلى الجبل. وأسوأ ما في الأمر أنَّ الإنسان ينبغي عليه أن يختار بينهم وبين مأموري الشُّرطة مثل فتاة كولميناريس. هذا أمر كافٍ للعيش في المنفى الدَّائم.

ذات مرَّةٍ اقترحت على مارجي القيام برحلةٍ إلى أمريكا اللاتينية –قالت جاكلين– على طريقتي، أحمل على ظهري مخلةً، وأنام على الشَّواطئ.

إنَّها تستطيع القيام بهذه الرِّحلة معك ولكن بالحجز في فنادق انتركونتيننتال - قال إيرنستو ضاحكًا - انظري على الرَّغم من ذلك كلِّه فإنَّني أستلطف مارجي. وأعترف لك أنَّني عندما تعرَّفت عليها حظيت بإعجابي كثيرًا. كامرأةٍ أودُّ أنْ أقول.

كانت تبدو لى جذَّابة. لكن رادارى لم يخدعنى حيث أدركت على الفور أنَّها لا ترسل موجات لا أفهم.

موجات، ذبذبات. هذا يتعلّق بما يشعر به الرَّجل عندما تُهمه امرأة بوعيٍ أو بلا وعيٍ. وهذا يحدث للنِّساء أيضًا. فالرَّجل عندما لا يكون رجلاً لا تصدر عنه هذه الموجات أو الذَّبذبات وكذلك المرأة عندما* لاتكون امرأة. وأنا مع مارجى فالموجات والذَّبذبات صفر.

نظرت إلى جاكلين بامعان.

وسألته هامسةً وببطءٍ ومعى ؟ كانت قد رفعت الكأس ومسَّ شفتيها دون انْ تترك النَّظر إليه.

فى تلك اللحظة أشعر ببعض الموجات -قال إيرنستو ـ وفى مايوركا عندما تعرَّفت عليك. لكن إلى وقتٍ قريب لم تصدر عنك موجات ولا ذبذبات. ولا حتى فى حوض البانيو. ملعون يا إيرنستو ـ قالت جاكلين ومازال الكأس بالقرب من شفتيها وحدقتاها تمعنان النَّظر فى حدقتى إيرنستو.

أحسَّ إيرنستو بنوع من اللهفة.

قال إيرنستو: إنَّنى أحسُّ بموجات قويَّةٍ، قويَّة جدًا.

ترك شقته المواجهة للسكك الحديدية إلى الأبد. لم يستطع تحمل الوحدة التى خيَّمت على تلك الجدران بعد رحيل ماريا. لم تترك ماريا أىَّ أثرٍ لها،

ولا حتى نعلين قديمين، لا شيء سوى ورقة لصقتها على مرآة البانيو وفيها عنوانها الجديد ورقم هاتفها. لكنَّه لم يتصل بها. لماذا؟

ظلَّ يشعر فى كلِّ وقتٍ بتلك الغصَّة فى الحلق وذلك البرد القارس فى فم معدته. كان يشرب كثيرًا، وكان يدخِّنُ طوال الوقت، وقد فقد شهيته للطعام. كان يعانى من الأرق. كان يخرج ليلاً لكى يسير على ضفتى نهر السِّين حتى يعيده الإرهاق إلى غرفته فى فندق كارميس بركبتين ضعيفتين وقدمين يئنَّان من الألم. لقد فقد كلَّ الاهتمام بعمله. كان لا يردُّ على عشرات الرَّسائل، ويفكِّرُ فى أنَّه سيذهب إلى الهاوية وهذا عبثٌ. كان يتشاجر بكثرةٍ مع أونا، ويتصالح معها من جديد، عندما كانت تأتى إلى الفندق. لكن بعدها يظلُّ خاويًا وحزينًا فى النِّهاية، ذات صباح، عندما استيقظ بعد أنْ حلُم بأنَّ ماريا كانت تصرخ له من بعيد، اتصل بها هاتفيًا. بمجرَّد أنَّ سمع صوتها قالت له "مرحبًا" وانفجرت فى البكاء. لم تستطع أنْ تقول له شيئًا، لذلك اقترح عليها اللقاء بالقرب من الشَّقَّة حيث كانت تعيش، فى مقهى بميناء أورليانز.

تألَّم لرؤيتها بسترةٍ بيضاء وحزينةً للغاية وجدته ماريا نحيلاً هزيلاً فلمست وجهه وهى تتألَّم. أخبرته بأنَّها فى حالةٍ يرثى لها، كانت تستيقظ كلَّ ليلةٍ بكوابيس مروِّعةٍ. كانت تتردَّد على طبيب نفسانى. لاأدرك مدى شرودى معك دائمًا، قالت له ماريا ذلك وهى تنظر إليه بجدِّيةٍ بعينيها السُّوداوين الواسعتين.

قال لها إيرنستو وأنا لا أدرى أيضًا مدى شرودى معك، ضحك فى حزنٍ تفادت يده عندما أراد أنْ يمسك بها. قالت له : لقد كان الفرنسى بيرنارد حنونًا جدًا معها. إنّنى أجعل حياته جحيمًا ببكائى وكوابيسى. قال لى: إنَّ هذا أمرٌ عادى ويحدث دائمًا عندما ينفصل الإنسان عمَّن يُحبُّه وعلى أيَّة حال فإنَّك تمثلين بالنِّسبة لى آخر اتصالٍ مع وطنى، مع أهلى وناسى يالها من أفكار عميقة لسمسار بسوق الأوراق المالية، تمتم بذلك إيرنستو. انفجرت ماريا قائلة له: دع سخرياتك جانبًا. إنَّ برنارد شخصٌ طيِّبٌ... بعد ذلك بثوانٍ انهمرت دموعها على خدَّيها. فكَّر إيرنستو بأنَّه حقيقة لا جدوى من أن يراها من جديد. لماذا، حقيقة؟

فالمصيبة لا تأتى بمفردها. تذكَّر تلك العبارة الحكيمة لعمَّتيه، عندما استدعاه السَّيد كريستوفر لاجتماعٍ عاجلٍ وأبلغه عن إغلاق دار نشر العالم الجديد. ظفر كتابان فقط طُبعا الطَّبعة الثَّانية وهما بالتَّالى كانا سببًا فى استرداد التَّكاليف. لم تصبح قارة أمريكا اللاتينية موضة النَّشر ياسيد ميلو، فما يحظى بالاهتمام الآن هو فيتنام والصِّين أيضًا. كان يتحدَّث بنبرته السِّويسرية، خليط من السِّويسرية والألمانية ينطق كلَّ كلمةٍ مفخَّمة، كانت نظَّارته بشمبرها الصُّلب تتلألأ كل لحظةٍ فى وجهه. لم يكن سيعلن الإفلاس. كان يفضِّل تصفيةَ المكاتب فى هدوءٍ خلال وقت قصير والعودة إلى أدلته السِّياحية الأكثر أمانًا واستقرارًا. وبالنِّسبة لحضرتك فليس لك الحق فى أى تعويضٍ

لأنّه لا يوجد عقدٌ. لكن بامتيازٍ من المؤسَّسة بوسعك أنْ تحصل على مرتب شهرٍ إضافي ربَّما كان السويسري ينتظر احتجاجًا، أو تفاوضًا شاقًا، لكنَّه حرَّك رموشه غير مصدِّقٍ عندما قبل إيرنستو ذلك على الفور. كان مذهولاً وفي الوقت نفسه سعيدًا دعاه لتناول القهوة، وبينما كانا يتناولانها واقفين، وفي محل تبغٍ على النّاصية سأله عمًّا يفكّرُ في القيام به. قال له إيرنستو سأتفرَّغ للشّعر ياسيد كريستوفر. معذرة فإنّه يحظى بإعجابي أكثر من أعمال الجرد والميزانيات والحسابات.

نظر إليه السّويسري بفضول. كان يبدو أنّه يعتبره طائرًا نادرًا للغاية وقال له في النّهاية إن لديك سمة التراخي التي تتميز بها البلاد الحارة نظر في السّاعة من جديد، ينبغي أنْ يكون قد تبقّى له من الوقت ستون ثانيةً استغلّها لكي يفشي له سرًا هل تعرفه ؟ عندما كنت شابًا كنت شغوفًا بتأليف الأغاني، لكنّني التحقت بالعمل في البنك السّويسري.. وكان البنك السّويسري آنذاك هو واقعي الوحيد. بدأت ألغي كلّ ماليس محددًا وملموسًا قال السَّيد كريستوفر.

كان السّويسري قد اختفى في تاكسي بعد أنْ ودَّع إيرنستو بمصافحة قويةٍ وقصيرةٍ. كان إيرنستو يجلس في شرفة ذلك المقهى أمام كأسٍ ويسكي بيرنود وفكَّر كيف سيعيش بعد أنّ اختفت دار نشر العالم الجديد. كان يتحتَّم عليه أنّ يبحث عن غرفةٍ رخيصةٍ ويعود إلى التّرجمات، إلى تناول الخبز والسّجق كما كان

يفعل فى أيّام الشّدائد. مثلما كان فى العشرين من عمره. أو العودة إلى كولومبيا؟ كانت مجرّد الفكرة تُسبّبُ له قشعريرةً فى نخاعه. كان يتخيّل إلى أيّ مدى ستكون حياته حزينةً فى بوجوتا. "الآن سيحيط بك بائعو كلّ أنواع البؤس، يمكن أنْ تصنع وتبيع ثانيةً وتنسخ وتسرق"، كذا كتب له صديقٌ له. عالم البلاستيك البائس، السّلك الذّهبى، والغاب الملوّن، والمواد الغذائية التى تسدّ الرّمق : اللبان والخبز وشرائح الأناناس والببايا، والسّندويتش والمياه الغازية. ولن نتحدّث عن مريض الجذام الذى فقد أصابعه والمبتور الذّراعين والأقرع بلا شعر، والضّرير بلا عينين..." مشهدٌ يومىٌّ يريد أنْ يتحاشاه ويهرب منه بقدر الامكان الأصدقاء والأقارب الأثرياء. الشّحّاذون، وحشود من الأكواخ التى تملأ الشّوارع التى تمثّل جانبًا من الطّبيعة مثل الأكام. تذكّر إيرنستو المرح رغم سنّى عمره وهو يصطحبه لتناول الغداء ذات يوم فى نادى الفروسية. كان يقول له : "آمل ألاّ يؤنّبك أصدقاؤك اليساريون لأنّك جئت لتتغدى هنا معى". تذكّر الجو البريطانى فى النّادى ورجال الأعمال هؤلاء من ذوى الوجوه المتورّدة والشّعر الرّمادى وهم ينهضون هنا وهناك لتحية العمّ. ثمّ الاحساس بالرّخاء والرّفاهية الذى يظهر على عمّه، بحلّته الرّمادية الرّائعة، ورباط عنقه الأزرق من الحرير الطّبيعى وبها خطوط رقيقة تشبه لون النبيذ الأحمر، ويديه ذات الأظافر النّظيفة وهما تفرد طيّات فوطة السّفرة، وهو يتحدّث إليه كما

كان من الممكن أنْ يفعل ذلك والده. كان يقول له لديك ذكاء يا إيرنستو لكنَّك على مايبدو لى فاتك القطار على العكس كان يقترح عليه، كمثال، رودريجو بيداليس الذى كان قد سلك مسارًا مهمًا. لا، لم يكن الاثنان يتكلَّمان، لم يكونا يتحدَّثان اللغة نفسها. لكنَّ عمَّه كان يعرف البلاد بشكلٍ أفضل. كان يعرف كيف ينتصر، وكيف يرتقى. وكل أمور الرَّفض من جانب إيرنستو كانت تُفسَّرُ على أنَّها فشلٌ بسيطٌ ومحض. وكان ذلك هو نفس الذى يحدث لشقيقته بياتريث هكذا كان يفكِّر إيرنستو. كان يقول له : أنت ترتدى ملابس رديئة، لن تتقدَّم يا إيرنستو طالما أنَّك ترتدى سروالاً يلمع عند ركبتيك. كان فى نهاية الأمر، من السَّهل عليهما تحقيق ما يقترحانه على نفسيهما. كان ذلك من السَّهل جداً ! وكانت النتائج مضمونة وأكيدة سلفًا فكلُّ أصدقائه القدامى فى باريس، خلال فترة الدِّراسة الذين كانوا شيوعيين أو يساريين فى زمنٍ ما وكانوا يحضرون كلَّ اللقاءات السِّياسية ضد حرب الجزائر وكذلك مهرجانات الشَّباب الحاشدة كان كلٌّ منهم فى مناصب مرموقة، كانوا محامين لشركات، مصدِّرين، مديرين تنفيذيين، أعضاء فى البرلمان، وزراء أو أنَّ بعضهم قد وافته المنية بكلِّ بساطة. أو أنَّهم لقوا حتفهم لأنَّهم أرادوا أنْ ينشروا الأفكار الأولية والرومانتيكية عن الاشتراكية والثَّورة. لم يكن إيرنستو قادرًا على الاختيار كان عاجزًا عن أنَّ يكون من أبناء الطَّبقة المتوسِّطة بحق، ولكنَّه أيضًا كان

عاجزًا كلَّ العجز فى أنْ يظلَّ لا جدوى منه ومن هؤلاء الذين يروِّجون لفكرة الثورة أو يعرِّض نفسه للقتل، هناك. إنَّ حالات رفضٍ متكرِّرةً ومتتالية تركته على أعتاب الأربعين من عمره يعيش فى فندق بشارع كارميس بحقيبة وآلة كاتبة، ونعلين مستهلكين يسمحان بتسرب رطوبة الشَّوارع إلى قدميه وعلاوة على ذلك كان بلا وظيفةٍ يالها من نتيجة إيجابيةٍ لحسابات نهائيةٍ.

طلب إيرنستو كأسًا آخر من الويسكى ماركة بيرنود.

فصل صغير بين فصلين

كم كان وجهك معبّرًا وأنت تراها ترقص.

منْ، كريستينا ؟

منْ ستكون يا أيُها السّفيه. إيلينا سلفتى الغالية. إنّها ترقص التّانجو جيّدًا.

رقصة التّانجو، تلك الوقاحة ؟ يالها من طريقة فى التّحرك، فى التحرك إلى الخلف. لكن حضراتكم أيُها الرّجال، يتساقط لعابكم وأنتم تنظرون إليها. وأنت أيضًا، لقد أمعنت النّظر فى ذلك.

أنا؟

حضرتك ياسيّدى، لا تكن سفيهًا، إنّك لم ترفع عينيك عنها.

لا، أنا لا...

لقد احمرّ وجهك خجلاً لأنّنى أصبت كبد الحقيقة إنّ إيلينا تحظى بإعجابك. أليس ذلك بحقيقي ؟

حسنًا، إنَّها تبدو لى جميلةً للغاية.

تبدو لى جميلة للغاية يالك من منافق ! إنَّ لون وجهك يتبدَّل عندما تراها، لقد أمعنت النَّظر فى ذلك لا تقل تُرَّهات، إنَّها متزوِّجةٌ.

وماذا يعنى ذلك ؟ إنَّ ذلك لا يهمها. إنَّها فتاةٌ حرَّةٌ، تربَّت فى باريس.

إنَّها حرَّةٌ فى أىِّ شكلٍ ؟

لا تكن ساذجًا.

حسنًا، نعم، أتخيَّل ذلك.

أعتقد أنَّك تعرف كثيرًا من الأمور رغم حداثة سنِّك.

إنَّنى أعتقد، على العكس من ذلك، أنَّه تنقصنى أمورٌ كثيرةٌ كى أتعلَّمها.

إذن ستبحث عن شخص لكى يعلِّمك...

عجبًا كريستينا.

أرأيت؟ كيف أنَّك احمرَّ وجهك مرَّة أخرى.

ياإلهى، ينبغى أنْ أكون سفيهة للغاية، لكن صب لى جرعةً أخرى دون أنْ يراك عمُّك. فهو يراقبنى طوال الوقت.

بالماء ؟

نعم، قليلاً من الماء. هذا جيِّدٌ. احك لى شيئًا، هل لك خطيبةٌ ؟

لا، ياكريستينا.

ألم يكن لك خطيبة أبدًا ؟

لا.

يالك من شخص غريب هل تقضى طوال الوقت محبوسًا فى غرفتك. أحيانًا لدى رغبةٌ فى..

فى ماذا ؟

آى، يالك من سيئ الظنّ ! رغبة فى أنْ أعرف ماذا تقرأ.

ليس هناك شيءٌ غامضٌ، اقرأ قصصًا، أشعارًا.

قصصًا محرمة، بالتأكيد.

ماهى القصصُ المحرمة فى رأيك ؟

سأتخلى عن الاجابة فبهذا السؤال أفحمتنى.

اسمعينى أيّن تعرّف شقيقك على إيلينا ؟

الا ترى ؟ إنّك لا تفعل شيئًا سوى التّفكير فيها.

إنّه الفضول ببساطة.

تعرّف عليها فى باريس، وأعتقد أنّ هذا سيحزنه.

لماذا ؟

لا تجعلنى أتكلم إنّنى فى غاية الغيظ والحنق. لكنّه مسكينٌ، فكلُّ بوجوتا ستطلق عليه لقب فيدريكو القواد اقترب سأفصح لك عن سرٍّ.

إنَّنى لا أسمع.

يا أيُّها السَّفيه ! أقول لك هيَّا بنا إلى الطَّابق العلوى.

الطَّابق العلوى ؟

نعم، يارجل لنرى ماذا تفعل إيلينا.

ربَّما تكون فى الحمَّام.

كأنَّنى لا أعرفها... انظر، اصعد على أطراف أصابعك وانتظرنى فوق، فى البهو، دون أنْ تشعل الضَّوء.

أنا...

اصعد، لا تكن سفيهًا.

حسنًا.

أيْن أنت ؟

هنا.

صه، صه.. لا تحدث جلبةً. تعال.

أنا لا أرى شيئًا.

صه فقد يسمعانا.

لكن الحمَّام هنا.

صه ولا تتكلَّم. صه سأفتح النَّافذة وبوسعهما أن يريانا : أنظر إليهما.

أين.

هنا، فى الصَّالون، فى النَّافذة ياسفيه. ولا حتى خطر على بالهما إسدال السِّتارة.

من هما ؟

إنَّهما إيلينا وتشينشى. ألا تراهما؟

إنَّهما يقبِّل أحدهما الآخر.

انظر أين توجد يده.

إنَّنى لا أرى.

صهٍ، صهٍ. انظر... ياالهما من شخصين فاجرين!

إذا استمرينا ننظر إلى ذلك سيطردوننا من الكنيسة.

ياللرُّعب. هل لديك خوف ؟

لا، لكن.

أنت ترتعد يا أيُّها السَّفيه.

إنَّه مجرَّد تقلص عضلى.

سيكون تقصلاً عضليًا من الغيرة. هاهنا ترى متيَّمتك إيلينا وتسلياتها. لكن هيَّا بنا. إذا صعد أحد إلى هنا ورآنا ماذا يستطيع أنّ يتخيَّل وماذا قال لك إدواردو عندما خرج ؟

قال لى فقط : إنَّ لديه اجتماعًا وسيصل متأخِّرًا. وألاَّ ننتظره على الغداء.

إنَّه اجتماع، وكيف لا. هل قال لك أيَّن ؟

في بافاريا، أعتقد.

أفي تمام السّاعة التّاسعة ليلاً ؟ بالتّأكيد! وأنا مثل السّفيهة، بمجرّد أنْ سمعت الجرس، بدأت أمص نعناعًا لكيلا يلاحظ عليَّ شيئًا. اقترب، سأنفخ في عينيك.

تنفخين في ماذا ؟

في عينيك. أتعرف، أيُّ رائحة لي ؟

رائحة نعناع... وأيضًا ويسكي.

لقد رأيت ذلك في وجهي يا أيُّها السّفيه. فلنستغل الاجتماع. أعطني الزّجاجة التي أخفيتها في تلك الخزانة. نعم، هنا في إناء المشروبات الرّوحية أحضر لي سطلاً من الثّلج وكأسًا. هل تريد كأسًا ؟

إنّني لا أحبُّ الويسكي.

ينبغي عليك أنْ تتعلّم تناول الويسكي و.... وأشياء أخرى كثيرة. عجبًا إذا سمعني أحدٌ سيعتقد أنّني أقوم بإفساد الأحداث أو القصّر. قل لي، هل كانت تلك المرأة في المكتب عندما خرجت ؟

أيّة امرأة ؟

المرأة الهندية ذات الشّعر المصبوغ، إيستيلا.

هل تعجبك أيضًا ؟

إلى حد ما.

آي إنّه لأمرٌ رهيبٌ. إنّها سوقيةٌ لكن جسدها ممتازٌ و... وعندما تجلس ترتفع تنورتها إلى هنا.

وتحاول أن تتجاهلنى كلّما اتصلت بالهاتف. تقول لى: "الدكتور مشغولٌ" إنّها وقحةٌ. لكن النّساء من هذا النّوع لا أدرى لماذا يعجبن الرّجال.

ليس جميع الرّجال.

جميع الرّجال، نعم ياسيّدى.

بالنّسبة لى ـ على سبيل المثال ـ لا.

آهه لا، حضرتك رجل حالة فريدة. تعجبك.. كيف تقول ذلك ؟ النّساء الجميلات المتفرنجات مثل إيلينا.

إنّها شيلية.

لكنّها يابنى متمرّسةٌ للغاية. متمرّسةٌ بشكلٍ مبالغٍ فيه. لقد تعلّمت كثيرًا من الحيل فى باريس.

أيّة حيل ؟

حيل. ألم تسمع الحديث أبدًا عن جميل الحيل التى تجيدها الفرنسيات ؟

لا، ماهى ؟

تحلُّ بالسّذاجة... هذه على سبيل المثال.

الأصبع فى الفم؟

ليس بالتحديد الأصبع... ياللهول إنّنى أقول فظاعاتٍ. إنّنى سكرانةٌ ثملةٌ. هل أخجلتك ؟

قليلاً.

بالتأكيد لا. فعلى الرغم من الأشياء القذرة التى نُطالعها ينبغى أنْ تعرف أشياءً كثيرةً... نظريًا، ينقصك الممارسة العملية. أليس كذلك. على عكس عمك.

عمى ؟

إننى لا أفترى عليه. إنه خبيرٌ. والآن ينبغى أنْ يكون فى ذروة الممارسة. ألا تعتقد ذلك ؟

قال إنهم ينتظرونه فى بافاريا.

بالتأكيد... أو فى مكان سرى بمتراسٍ خلف الباب. إنه اجتماع فقط بين اثنين. إننى أعرفه جيدًا حتى لو كنت سفيهةً. هل تحفظ لى سرًا ؟ بالطبع.

لكن اقترب.

هنا لن يسمعنا أحدٌ.

هنا حتى الجدران لها أذنٌ.

ماهو السرُّ ؟

لقد قاطعتنى. انظر، صب لى كأسًا آخر. لكن بصوتٍ هامسٍ، إننى سكرانةٌ ثملةٌ.

بالماء ؟

قليلاً من الماء. هكذا عمًّا كنا نتحدث ؟ كنت ستحكين لى سرًا.

آهه، نعم. كان سرًا ليلة زفافى. ياللهول، ماهى الأشياء التى أحكيها لك.

ماذا حدث ؟

يالك من فضولي... رغم أنَّ وجهك يبدو عليه السَّذاجة، ومع ذلك ستموت حتى تعرف ذلك، أليس هذا صحيحًا ؟

لا، ببساطة... هل تزوَّجت في ميامي؟

نعم، لكن أوَّل ليلة زفاف لم تكن هناك، بل... ألا تخمِّن أين ؟

ولا فكرة.

في موقف سيَّارات في نيويورك.

كيف حدث ذلك في موقف سيَّارات ؟

نعم ياسيِّدي، في موقف سيَّارات مظلم.

كيف كنت ساذجة ! إنَّ عمَّك يعرف كلَّ شيء فهو محنَّك في تلك الأمور. لم أكن أدري كنه الموضوع... إلى أنْ حدث بالفعل.. حسنًا ذلك. داخل السَّيَّارة.

هل داخل السَّيَّارة.

على المقاعد الخلفية. لقد أصابني عمك بالجنون، ياله من خبير محنَّك. عجبًا لماذا أقصُّ عليك هذه الأشياء ! ينبغي أن أكون سكرانةً ثملةً للغاية. وغدًا بالتَّأكيد سأكون نادمةً، لا أدري كيف سأراك غدًا في حجرة السُّفرة.

إنَّهم السُّوقة. طوفان من البشر من ذوي الوجوه الخلاسية المولَّدة، من ذوي الملابس القذرة، والألوان

غير المتناسقة أىّ الألوان المتنافرة، إنَّها الجماهير المألوفة من أحياء الجنوب، من بيرسيبيرانشيا، من سان بيكتورينو، من ميدان السّوق، من الكانتينات، من سائقى الحافلات، من ملاعب الزّرنب(*) كانوا يملأون صالة مسرح البلدية وممرّاته والسّلالم والفناء، وكانوا يطلُّون فى جماعات كبيرة من المقصورة بأصوات مدوّية يردّدون الكوبليه فى إيقاعٍ متناغمٍ ومتوحشٍ يصمّ الآذان.

نعم الكوبليه لجايتان، لا للآخر ! نعم لجايتان، لا للآخر !

كانت فكرة المجىء هذه الليلة فكرة بيداليس. كان كاميلو أحد رفاق الدّراسة قد رافقنا. أمّا إيسبيتيا فهو الآن يحمل شارةً حمراء، كان إيسبيتيا يصعب التّعرُّف عليه، كان يصدر الأوامر والتعليمات عند باب المسرح. استطاع أنّ يوفر لنا أماكن فى المقصورة المحجوزة لفرقة كوماندوزلاس كروثيس. لكن قامت الجماهير الغفيرة بتجاوز كل أعمال الرّقابة واندست فى المقصورة بالقوة. لقد داسوا علينا وعصرونا وكنا نتنفّس فى هذا الجو المتوتّر الذى تطغى عليه رائحة سائقى وميكانيكا الحافلات، استطعنا أنا وبيداليس وكاميلو الحفاظ على توازننا بالكاد.

نعم، لا للآخر !

(*) وهى لعبة من ألعاب القمار تُلعب بالقرميد تشبه إلى حدٍ كبيرٍ لعبة السّيجة فى مصر(المترجم) .

كانت بعض الأيدى تطالب بالهدوء. فاحتضرت الصيحات والهتافات. ارتفع صوتٌ صارمٌ فوق صوت الحشود الغفيرة المتوترة التى ظلت صامتةً للحظة. قال إيرنستو إذا أصريت بوسعى أنْ أرى جايتان : كان قصيرًا قويًا يرتدى حُلَّةً سوداء مخططة، كان واقفًا أمام مكبر صوت على خشبة المسرح المترية والتى تغمرها الأضواء. وكانت إلى جواره طاولةً صغيرةً عليها حافظة أوراق خضراء ودورقًا به ماء، وكوبًا. كان يجلس فى نهاية المسرح تحت الأعلام الحمراء وقد تعامدت عصيها، وقد وضع هؤلاء القُبَّعات بتواضع فوق ركبهم، كان مظهرهم يدل على أنهم حذاءون، مدرسون ورؤساء أحياء، كانوا حوالى عشرين رجلاً يستمعون إليه فى مهابةٍ ووقار أسفل الأضواء التى تأتى من السقف، كان شعر جايتان يلمع وكذلك عرق وجهه، كان وجهه هنديًا، وذقنه نشطةً وكان ذا شفتين غليظتين وحزينتين.

(كانوا يطلقون عليه لقبى الهندى والزّنجى، كان أقارب كريستينا يجلسون على الطّاولات الفاخرة وكذلك الفتيان الذين كانوا يأتون إلى المدرسة وفى أيديهم مفاتيح سيّاراتهم، كانوا يتحدّثون عمّا حدث فى نادى كونترى(*) يوم الأحد الماضى وكذلك يتحدثون عن جياد المسابقات ومباريات الصّولجان والمزارع فى المناطق والأراضى الحارة.)

والآن يأتون إلى هنا ويريدون تقديم مرشّح ثالث للرّئاسة من لاعبى الصّولجان...

(*) Country، بالفرنسية فى الأصل.

عمّت لكنة إيسبيتيا السّاخرة وكذلك بائعو اليانصيب وسائقو السيّارات الأجرة. ثم غزت الصّالة ضحكاتٌ مدويّةٌ... وأنا أسأل : لماذا لاعب صولجان، لماذا يجب أنْ يكون الرّئيس القادم لاعب صولجان وليس إليسير جايتان ؟

رفع جايتان صوته وأجاب. إنّه سيقول لماذا لأنّه يعرف السّبّب (وهنا ارتفع صوته، لم يكن صوتًا ساخرًا بل غاضبًا وقد هزّ قبضة يده إلى جوار الميكروفون، وكذلك عروقه الغاضبة فى حلقه) لأنّ جايتان هو ابن الشّعب، ابنٌ متواضعٌ من أبناء الشّعب، وابن الشّعب لايمكن أنْ يكون فى هذا البلد رئيسًا للجمهورية، لأنّ السّلطة امتياز من امتيازات الطّبقة، لأنّ السّلطة ثروة إنّها منطقة صيد خاصة بالأقلية الثرية !

اختفى الصّوت وسط تصفيق بالاجماع دوّى تحت قبة المسرح، وقف النّاس فى الصّالة وقبضات أيديهم تُلوّح بالقُبّعات فى المقصورة والآن تجمّع غضبٌ جامحٌ ثم ساده التّنظيم والتّنغيم يردّد الكوبليه الصّاخب :

نعم لجايتان، لا للآخر ! نعم لجايتان، لا للآخر !

وعندما انتهى كلّ شيء قال بيداليس إنّ هذه الوجبة لن يقترب منها أحدٌ.

قال كاميلو الآن أدرك لماذا.

سرنا وسط الجماهير الغفيرة التى كانت تهتف وتعجز عن الانتشار والتّفرق، ثم توجّهت إلى الطّريق السّابع من جانب بميدان سيمون بوليفار. كانت الليلة

قارسة البرودة. وكانت تتلألأ فى الميدان مصابيح الأعمدة حزينة وصفراء.

لنذهب لشراء صحيفة "الوقت" هيا بنا لنشترى صحيفة الوقت تركى لا ! لا للتركى أبدًا !

سأل كاميلو والآن أيَّن البرنامج بيبدرا ؟

إنَّه فتىً أطول منَّا، يكثر النَّمش فى وجهه، إنه هادئٌ ودائمًا ذا بريق باسم فى عينيه الخضراوين بيبدرا هيًّا بنا إلى الوقت قال بيداليس : كانوا يكسرون لهم الزُّجاج كلَّ يوم جمعة وكلَّ يوم اثنين يركبونه من جديد فليسقط حكم القلَّة !

دوَّت الصَّيحة قريبًا جدًّا.

هذه الصَّيحة من أجلنا، قال بيداليس. بسبَّب رباط العنق الذى تضعه ياكاميلو.

إنَّه رباط عنق أسود.

ليس هذا مهمًا.

هل شكلى من القلَّة ؟

بالطبع نعم. والحلة التى ترتديها معذرة لارتدائى إيَّاها. إنَّهم سيضربوننا.

خلع كاميلو رباط العنق خفيةً ووضعه فى جيبه.

قال لبيداليس : الآن هل هدأت نفسًا ؟ وإنْ أردت أيضًا سأكون سوقيًا. حتَّى لو فعلت ذلك فإنَّ سمَّات القلَّة لن تفارقك. يا أيُّها الطِّفل المرفَّه.

يا إيرنستو وأنت الآن قد أتيت ؟

لا، أقول أنا. لكنّني أعرف الجو العام. فلدى بيداليس صداقاتٌ طيّبةٌ في لاس كروثيس.

ضحك بيداليس.

عاهرات وفاجرات، أليس كذلك ؟

لقد كنت شاهدًا على جهوده لكي يصل إلى القرية، هذا ما أقوله.

قال بيداليس: إنّها جهودٌ كلّفتني مرض السّيلان.

قال كاميلو باللهول. لا أعتقد أنّه من الضّروري الوصول إلى مثل هذه الأمور.

كان الثّلاثة يسيرون بسرعة بين الحشود الغفيرة. كنّا نرى عبر ساحة الكتدرائية الجماهير التي كانت تشبه كتلةً سوداء متناسقة تتجمع في الشّارع الملكي متوجّهةً إلى صحيفة الوقت) لقد أشعل شخص شعلةً.

فليسقط حكم القلّة !

فليسقط ! هكذا كان يهتف بيداليس.

قال كاميلو : إنّ الإغريق يُسمّون ذلك ديماجوجية.

مات بيداليس على نفسه من الضّحك.

أيًا كانت الظّروف اهتفا بشيء قال لهما بيداليس فيما بعد سيسحلوننا فهذه ليست نزهةً في الرّيف.

سأل كاميلو وهل أيضًا سينبغي علينا أنّ نقذف مقر صحيفة الوقت بالحجارة.

حسنًا ليس هذا بالضَّبط، قال بيداليس، إنَّ شقيقى يعمل هناك.

حقًا أبدًا لم.. لم أستطع تصديق ذلك. ألا تعرف حقًا كيف أنَّ امرأةً ؟ (بصوتها الأجش والهامس فى الظَّلام كان نفسها قريبًا جدًا، رائحتها ويسكى)، لا... انتظر أيُّها السَّفيه لا تشعل الضَّوء. أعطنى يدك إنَّنى مجنونةٌ ولكن... أعطنى يدك. إنَّ طريقة تنفسها كانت غريبةً جدًا) المس هنا. إلى أعلى قليلاً هنا.

شىء يشبه العظمة أليس كذلك ؟

ياسفيه ليس عظمةً ليس عظمةً. إنَّه شىءٌ حسَّاسٌ المسه بلطف وحنان. هكذا، هكذا. كان الصَّوت متقطِّعًا وبه صفير غاضبٌ.) ألم تعاشر امرأةً قط ؟

لا

دع نفسك لى.

ياكريستينا ينتابنى الخوف.

لا تكن سفيهًا.

قد يأتى أحدٌ.

لن يأتى أحدٌ. إنَّنا وحدنا، الخادمات نائمات. دعنى سنبدأ بالقبلات وشهد الرُّضاب.

ياكريستينا

لا تقل شيئًا ودع نفسك لى، دع نفسك لى.

كريستينا

إنّك رجلٌ. أنت رجلٌ الآن. أوَدّ التّأكد من ذلك. سأشعل الضّوء.

(كانت تتنفّس بسرعةٍ، كان تنفسها أشبه بالنّحيب)

تعال، تعال.

إلى أين ؟

يا أيّها السّفيه إلى الفراش.

(إنّها مجنونةٌ، ياإلهى، إنّها مجنونةٌ)

كن هادئًا ولا تسرع، فالكلاب هى التى تُسرع فى هذا الأمر.

(ياإلهى، إنّها مجنونةٌ، إنّها مجنونةٌ)

جاء العم وقال لنجل شقيقه اصعد إلى الطّابق العلوى وصبِّح على كريستينا.

ليس مجديًا يا عمّى إنّها لا تريد أنْ ترى أحدًا.

اصعد على أية حال.

صعدت إلى الطّابق الثّانى. كان باب غرفة نوم كريستينا مغلقًا. يبدو أنّنى كنت أسمع دقات قلبى. طرقت الباب، لكن لم يرد أحد. حرّكت مقبض الباب.

كانت هناك ظلالٌ. رائحة سجائر، وماء كولونيا.

كانت كريستينا فى الفراش تدخّنُ. عندما رأتنى غطّت صدرها بالبطّانية بإيماءة غاضبة. كان شعرها يتدلّى حرًا طليقًا، كان وجهها بلا زينةٍ شاحبًا جدًا.

صباح الخير يا كريستينا.

كان صوتها باردًا فاترًا.

صباح الخير.

كانت تدخّن ببطء، وتنظر أمامها بثباتٍ. الآن لم تكن تشبه ماورين أوهارا بل جون جراوفورد.

كانت وجنتاها صلبتين وحاجباها عدوانيين. كانت نظرتها بطيئةً، التفتت نحوي. كانت مقلتاها لهما بريقٌ وحشيّ.

من فضلك اتركني، قالت لي بصوتٍ باردٍ وحادٍ.

سأله العمُّ : ماذا قالت له كريستينا ؟

قال له إيرنستو : لا شيء ياعمّي.

أخذنا السّائق إلى وسط المدينة في الشّوارع المشمسة لحديقة الـ (؟؟؟؟؟؟؟؟) . كان وجه العمّ يبدو حزينًا.

ظهرت أسفل عينيه الحيويتين السعيدتين تجاعيدٌ واضحةٌ من القلق.

أنا لا أدري ماذا حدث لكريستينا يا ابن شقيقي. إنّها غريبةٌ جداً. منذ وقت أحبّت الشّرب والحفلات.

أمّا الآن فلا تفعل شيئًا سوى الصّلاة. إنّها تريد تكريس وقتها للخلوات الرّوحية وإهداء ملابسها للفقراء وأمور جنونٍ أخرى من هذا القبيل.

هل قالت ذلك ؟

نعم. كما أنَّها تشعر بالنُّفور تجاهك. كانت هى التى أصرَّت على أنْ تعيش معنا والآن.. مارأيك إذا عدت لتعيش مع عمَّتيك ؟

فى بيتنا ؟

لا، فى بوجوتا. سأحضرهما من بيتنا لأنَّ المنطقة الحارة أضرَّت بصحة العمَّة أميليا.

حسنًا ياعمِّى.

أمَّا الآن.. فإنَّ فونسكيتا سكرتيرى لديه غرفة خالية بالقرب من منزله. لعلك تعيش هناك على راحتك.

إنَّها غرفة مستقلةٌ، فوق مستودع للحافلات جيدة الاضاءة سأشترى لك راديو حتى لا تشعر بأنَّك وحيدٌ.

حسنًا ياعمى. متى أنتقل ؟

لعلَّ ذلك من الأفضل اليوم ياابن شقيقى. فالجو العام متوتِّرٌ فى المنزل. فكريستينا لا ينبغى أنْ يعيرها الإنسان اهتمامًا كبيرًا. فبعد خمسة عشر يومًا ستكون قد تغيَّرت وستحبُّك كثيرًا. وستبكى لأنك رحلت عن المنزل. إنَّنى أعرفها.

ظلَّ العمُّ لبرهة صامتًا ينظر من نافذة السيَّارة.

ياللنسوة من أمرٍ جادٍ، ياابن أخى.

الفصل الرابع

- ١ -

عادت أيَّام الشّدائد كما يتذكَّر إيرنستو. الخبز والسُّجق والقهوة والمكرونة الإسباجتى التى كان يعدُّها بنفسه للغداء. ولزيادة الطّين بلة فإن البرد قادمٌ. كان الضَّباب يتزايد فى الليل، وكان الحىُّ الذى يَعيشُ فيه قريبًا من بيجال حزينًا تكثر به الحانات الرَّديئة وكذلك العاهرات عند كل النَّواصى. لم يكن يروق لأونا أن تأتى، وبمجرد أن تدخل كانت تتفحَّصُ بازدراء ذلك الشَّخص الذى يفترش مرتبة على الأرض وإلى جواره أكوام من الكتب فى كلِّ مكان. وعلى الرَّغم من كونه يساريًا متطرّفًا فإنَّه كان ينظر إلى الفقر بالفزع نفسه الذى تنظر به فتاةٌ ثريةٌ إلى قروح متسوِّلٍ أو شحَّاذ. وفى كثيرٍ من الأحيان بعد أنْ تدخِّن سيجارةً وتقوم بجولة قلقة فى الشّقَّة تنصرف بحجة أنَّ لديها ارتباطًا عاجلاً.

ترك إيرنستو رؤية ماريا، لكن من حين لآخر، وعلى فترات متباعدة كان يتصل بها هاتفيًا. كان صوتها

يتّسم بالعدوية. حكت له أنّها تشعر بأنها مكتئبةُ، وأنها تُصاب بالدّوار والغثيان، وأنّ بيرنارد كان قلقًا عليها للغاية، وقد رافقها إلى أحسن الأخصّائيين. كان إيرنستو يضع السّمّاعة كلّ مرّةٍ بنوع من الاخباط الحزين ويقول هذه هى المرّة الأخيرة التى أتّصل فيها بماريا. لكنه لم يستطع نسيانها. وعندما عاد للاتصال بها، بعد اسبوع، أدرك أنّ ماريا كانت تنتظر مكالمته بلهفة مثل لهفته تمامًا. أهلاً، هل أنت إيرنستو ؟ كان صوت ماريا يرتعد دائمًا.

نفدت نقوده ولم يبق له سوى مائه فرنك فى جيبه، فى اليوم الذى التقى فيه بقنصلية كولومبيا مع رودريجو بيداليس، صديقه القديم، الذى كان يمرّ بفرنسا مرورًا عابرًا فى طريقه لحضور مؤتمرٍ فى جنيف. كانا على وشك ألاّ يعرف أحدهما الآخر. لقد تغيّر بيداليس كثيرًا منذ آخر مرّةٍ رآها إيرنستو فيها. فالمحامى الشّاب واليقظ الذى كان فى سنوات الستّينيات يدافع عن المساجين السّياسيين، وينظم الجمعيات الزّراعية، وكان هو نفسه ذات ليلة قد التقى فى هافانا مع فيدل كاسترو، أصبح شخصًا ذا شعرٍ رمادى، كان يتدثّر بمعطف ذا لون داكنٍ ياقته من القطيفة. ومن زميل الدّراسة القديم الذى كان يرافقه هو وكاميلو للاستماع إلى خطبة جايتان، لم يبق منه سوى البريق السّاخر والسّريع لمقلتيه.

خرج لتوّه من مكتب السّفير، وكان السّفير رجلاً قصير القامة، شاحب الوجه نظيفا بشكل لا مثيلٍ له

قام بمرافقة بيداليس حتى الباب وقد خاطبه بلقب عضو مجلس الشيوخ عندما التقى به إيرنستو. غمر وجه بيداليس ذهولٌ وفرحٌ سارٌ. أهلا يا أيُّها الصُّعلوك وقد فتح له ذراعيه. كان يبدو عطوفًا بصدق. وقد سَعِدَ إيرنستو لرؤيته أيَّما سعادة، لذلك كان بيداليس أحد أصدقائه القليلين في طفولته. ربت كلٌّ منهما على ظهر الآخر عدَّة مرَّات. قال بيداليس للسَّفير ألا تعرف إيرنستو ميلو. مدَّ السَّفير يده في خجلٍ وبشكلٍ مهذَّب، أمَّا إيرنستو فقد أخذ انطباعًا فوريًا من أنَّ السَّفير كان يتفحَّص معطفه بتقزز، بنظرة شزراء، معطفه القديم وتلفيحته المتهالكة. كان ردُّ فعله فوريًا. إنَّ مظهرك مظهر أحد رجال حكم القلَّة الذي يبعث على الاشمئزاز قال ذلك بصوت عالٍ لبيداليس. من أين اشتريت معطف القمص هذا ؟ دوَّت قهقهة بيداليس كان ما يزال يحتفظ بالفكاهة والمرح دائمًا. ظلَّ السَّفير بين الاثنين قلقًا وشاحبًا ووقورًا. إنَّنا صديقان قديمان شرح بيداليس ذلك للسَّفير، وتوجَّه إلى إيرنستو قائلاً : الجميع يسألون عنك بما أنَّ لك أصدقاءً في الحكومة، ينبغي عليك هجر السِّريَّة. رفض بيداليس دعوة من السَّفير بكل لباقة ومهارةٍ في تلك الليلة وخرج إلى الشَّارع مع إيرنستو. إنَّني أفضِّلُ أنَّ أزور معك مناطق العاهرات على أنَّ أتحدَّث عن السِّياسة مع قوطيٍ إغريقي كلداني قال ذلك بيداليس وهو يمسك بذراع إيرنستو وهما يسيران في شارع الإليزية. كان الجو باردًا ورماديًا مشبَّعًا بالمطر. وهناك

ثلاثة حرّاس جمهوريين فوق رءوسهم قبعات ذهبية اللون ويحمل كلٌّ منهم سيفًا في يده، كانوا يسيرون بشكلٍ منتظمٍ في الشّارع. كان بيداليس قد سَمن كثيرًا. وأسفل الأنف البارز كانت الذّقن تستند على لغد رجل ينعم بالرّخاء. كان بيداليس يرمق إيرنستو يقول ذلك، إنّني أغبطك. ما هي الطّريقة لتحقيق ذلك؟ ردَّ عليه إيرنستو قائلاً لكي يظلَّ الشّخص فقيرًا. صدرت عن بيداليس إيماءة تشككٍ وريبة. إنَّ هذا لم يخدمني في شيءٍ. إنّني أُضيّع نقودي ويزداد وزني. كانت الحملة الانتخابية الأخيرة إفلاسًا، تنهّد بيداليس. إلى أيّن تذهب ؟ سأدعوك على الغداء، لكن خذني إلى مكانٍ مسلٍّ وبوهيمي. فأنا زرت باريس فقط عندما كنّا نذهب إلى تلك المهرجانات الشّبابية. أتتذكّر ذلك ؟ ردَّ عليه إيرنستو قائلاً : لقد ذهبت إلى مهرجانٍ واحد، مهرجان موسكو. تذكّر أنَّ الشّيوعي كنت أنت. ضحك بيداليس يا رجل إنَّ كلَّ شخصٍ ليبراليٍ بدأ حياته السّياسية مع الشّيوعيين. والقوطيون مع القساوية.

اصطحبه في نهاية المطاف إلى كلوسيري دي ليلاس. جلس معه وأمامهما كأس ويسكي، بدأ على بيداليس الارتياح في هذا الجو قليل الإضاءة بالخمّارة والتي كانت حوائطها تكسوها ملصقات للإعلان عن إقامة معارضٍ وعروض لأعمالٍ مسرحية تكفّل إيرنستو بأنْ يشرح له كيف أنَّ هذا المكان أصبح شهيرًا في حقبة العشرينيات، كان على منصّة البيع

لوحةً نحاسيةً باسم هيمنجواي. سمع بيداليس الشّرح شاردًا. أما عيناه الجاحظتان فقد كانتا يقظتين ترمقان أرداف ومفاتن الفتاة التى كانت تبيع السّجاير. إنّه بالفعل مكانٌ بوهيمى لأشخاص مثلك. قال له إيرنستو: لا، إنّه مكانٌ غالٍ جدًا. أحسٌ فى تلك اللحظة بنظرةٍ سريعةٍ وذكية من بيداليس كانت تبدو وكأنّها تفحص بإمعان ياقة قميصه المستهلكة وياقة السُترة البالية. قال له بيداليس: من ناحية أنا أغبطك. قال ذلك بحكمةٍ تأمّلية، ذكّره ذلك بديباجات ومقدّمات عمّه إدواردو عندما يريد الدّخول فى محادثة صعبةٍ. إنّ باريس هراءٌ عجيبٌ هائلٌ. إذا رأيت ذلك فى بوجوتا والإنسان محاط بالسّحالى. لكن من ناحيةٍ أخرى... وحينئذ أصبح تعبيره غامضًا، شبه حزينٍ. هزّ رأسه. لكى يقوم الإنسان بهراءاتٍ ليس هناك أفضل من وطن الإنسان تنهّد بيداليس. إنّنى مقتنع بذلك توقّف قليلاً، كان التّوقف خاصًا بمكتشف يرقب عما إذا كان شيءٌ مريبٌ يتحرّك بين الأدغال. تجرّع جرعةً من الويسكى، وقد برق فى إسورتى قميصه طاقم زراير ذهبى وهو يضع الكأس. قال يا إيرنستو لقد ارتكبنا كثيرًا من الأخطاء فى حياتنا. إنّها كثيرةٌ ولن نستطيع الاستمرار فى ارتكابها، فالزّمن يطاردنا. مرّر يده على شعره. لقد أصبحنا شيوخًا... فكلاوديا كريمتى الكبرى تدرس هندسة معمارية فى لوس أنديز أمّا فيدل إيرنستو الصغير يريد دراسة الاقتصاد. ربّما أرسله إلى هارفارد.

وابنى بالتَّبنى ؟ سأل إيرنستو وهو يتذكَّر الطِّفل الذى قام بتعميده كاميلو تورِّيس بنفسه فى مستشفى الولادة كان يُسمَّى فيدل على اسم فيدل كاسترو و... كان يُسمَّى إيرنستو تيمنًا بالمناضل البوليفى تشى جيفارا، أليس كذلك ؟ هذا بالفعل، ابتسم بيداليس. قال إيرنستو حسنًا بقى شىءٌ من تلك الفترة. احمرَّ وجه بيداليس قليلاً. إنَّ كلاوديا من أنصار الزَّعيم الصِّينى ماو، ونظر إلى إيرنستو بوجهٍ بشوشٍ. إنَّ ما ينقصهما كثيرٌ لكي يتعلَّماه.... أمَّا الآن فقد كان بيداليس يتأمَّل وهو جادٌّ للغاية مكعَّبات الثلج فى كأسه. إنه موضوع تخطيط وتكتيك. عندما يكون الشَّخص شابًا يا إيرنستو فإنَّه يتصدَّى لكل شىءٍ بكامل قواه. وكل ما يجنيه هو الخسران وفقدان التوازن. قال إيرنستو بلطف: أو يلقى حتفه، وهذه هى الحماقة الكبرى. لاذ كلاهما بالصَّمت، حيث مرَّ طيف كاميلو بينهما هزَّ بيداليس رأسه بصعوبةٍ وقال : الشَّخص ليست له إلاَّ حياةٌ واحدة فقط.

بعد ذلك بقليل كان يتحدَّث له عن السِّياسة الكولومبية. فاليسار فى البلاد الآن هو طفحٌ جلدى أو حصبة محضة. فالشَّخص إذا حلق ذقنه أو اشترى نعلين فهو عميلٌ باع نفسه ورجعى... كلهم الآن من حاقدى المقاهى. إنَّ التحريض الاجتماعى الخالص والبسيط لن يجدى فى شىءٍ، اللهم إلا تهيئة الجو الملائم لحدوث إنقلابٍ عسكرى. كان إيرنستو يشعر بالقلق. قال إيرنستو بصوتٍ عالٍ : على أية حال لن

يتغيَّر شيء في كولومبيا. أوه لن يتغيَّر شيءٌ فورًا، هكذا اعترف بيداليس.

ذلك ما تعرفه أنت وأنا. على الأقل طالما أنَّ الجبهة مستمرةٌ لكن بعد ذلك... سيأتي تورباي، أولوبيث قال إيرنستو. قال بيداليس : لوبيث بشيءٍ من التَّفخيم... ؟ أوما إيرنستو. إذن سيكون لدينا في مجلس النواب مجموعةٌ مهمةٌ، قوة حاسمة داخل الحزب الليبرالي وسنكون قد تخلصنا من مرحلة كوننا مجرد رفاق... أدرك إيرنستو أنَّ بيداليس يتكلم بصيغة الجمع مع أنَّ الأنسب هو أن يتحدَّث بضمير المتكلِّم. لكنه لم يرد الجدل مع بيداليس. قال إيرنستو رافعًا كأسه حسنًا فلنشرب نخب مستقبلك الباهر. ستصل إلى أعلى المناصب إذا لم يخنك الكبد. حدثني عن ذلك فأنا أعاني من بداية قرحة. ضحك بيداليس. كان ينبغي عليَّ أنْ أشرب لبنًا، لكن... لنتناول كأسًا آخر. واطلب لي علبة سجاير مارلبورو.

كانت الفتاةُ ذات القامة الفارعة إحدى معارفه. كانت تسمَّى هيلين كان قد تعرَّف عليها في منزل الشَّاعر ليناريس. كانت ممثِّلة من الدَّرجة الثانية. تعيش في شارع جوت دي أور. ذات ليلة رافقها إلى منزلها لأنَّها كان ينتابها الخوف من أنْ تسير وحدها في تلك الشَّوارع التي كانت تبدو وكأنَّها شوارع القصبة في الجزائر العاصمة. كان العربُ يرتدون ثيابًا طويلةً ويسيرون بسرعة وصامتين مثل قطط ويعبرون مفارق الطُّرق. كانت هيلين قد حكت له أنها

تعمل بصفة مؤقتة فى كلوسيرى دى ليلاس. كانت تعمل مقابل الاكرامية أو البقشيش فقط، كان ذلك كثيرًا خاصة عندما ينهمر المطر. وكان الناسُ يرتدون معاطف المطر. تعرّفت عليه فى الحال. إنّ هطول المطر ليس أمرًا سيئًا ردّت عليه عندما لاحظ إيرنستو أنّ المطر يتساقط. تبادلا بعض الكلمات عن الشّاعر ليناريس. عندما انصرفت أتبعها بيداليس بنظرة متمعنة فاحصة. عجبًا، يالها من فتاة رائعة، تعجّبُ بيداليسُ. عندما حكى له بأنهّا فتاةٌ مهتمةٌ بالمسرح، انتاب بيداليس تعبير يتسّم بالذّهول. أهكذا الأمر ؟ لقد قالوا لى إنّ هنا فى باريس السّقاءون أنفسهم يحدثون الناس عن الفلسفة.

أصرّ بيداليس أثناء الغداء على أنّ يحدّثه إيرنستو عن خططه ولقد دُهش عندما أخبره بأنّه ليست لدية أيّةُ خطّة. تمتم بيداليس فجأة قائلاً: أنا لاأدرى ما الذى تفعله هنا. احتسى الخمر بجرعات بطيئة. تناولا لحمًا طريًا محمّرًا أوصى بها رئيس الخدم بالمطعم لهما. كان بيداليس يتحدّث : إنّ الأمور تغيّرت كثيرًا فى كولومبيا. هل تعرف؟ تغيّرت كثيرًا. فالبلاد تحتاج إلى أناسٍ جددٍ، لقد احترق السّياسيون القدامى: فى أيّة لحظة ستستأنف الانتخابات فى كوبا، وحرب العصابات، كما تعرف، أصبحت تاريخًا ماضيًا. لأوّل مرّة تتاحُ الفرصة لجيلنا للوصول إلى السُلطة. لم يأت الدّور حتى الآن لنا لكى نركب القطار. هل يبدو لك من العقل أنّ نترك القطار يمر

دون أنْ نـركبه؟ رمقه بيداليس بعينيه الزّرقاوين الجاحظتين. كان يتحدّث مثل عمّه إدواردو ولكن دون أنْ يهينه. اسمع يا رودريجو قال له إيرنستو بلطف ـ أعتقد أنَّ هذا القطار ليس القطار نفسه الذى نُفكّر فى اللحاق به عندما... كنّا شبابًا. اشتدّت قسمات وجه بيداليس إلى حدٍ ما. إنّه القطار نفسه، يا إيرنستو، لكنّه يسير ويبطء. وفيما بين السّير ببطء وعدم الذّهاب إلى أىّ مكان... صمت بيداليس ونظر صوب المنطقة الكثيفة الأشجار والمتشابكة الأغصان المعتمة والتى كانت ترى من خلال زجاج المطعم. كرّر بيداليس عبارته قائلاً إنَّ الإنسان يحيا مرّةً واحدةً وقرن ذلك بتنهيدة. حسنًا، قال بيداليس: طالما أننى لن أستطيع إقناعك فلنحاول أن نتسلّى قليلاً هذه الليلة. أليس لديك صديقتان قديمتان هنا ؟ أنا أدعوك.

اصطحبه إيرنستو إلى كرازى هورس(*) اندهش بيداليس من المكان وعلى وجه الخصوص من الفتيات المتألقّات وهنَّ يخلعن ثيابهن فى ظلّ أضواء حوض السّمك ببطءٍ وتؤدة وكأنَّ الشّخص يراهُنّ فى منامه. أصيب باحباطٍ كبيرٍ لأنهّن بعد انتهائهن من العرض لم يأتين ليجلسن إلى جوار العملاء. لكى لا يصاب بخيبة أملٍ اصطحبه إيرنستو إلى بيجال فى سيّارة أجرة. بعد أنْ طافا بالشوّارع المكتظّة بالبوابين وحرّاس العقارات والعاهرات المرهقات، دخلا حانة شبه ظلماء تُسمى "الفرس الأبيض" أُعجب بيداليس بامرأة، ذات

(*) CRAZY Horse بالإنجليزية فى الأصل وتعنى الحصان المجنون.

ثديين كبيرين وقد صبغت شعرها باللون الأصفر وذات عينين سوداوين وكانت تونسيةً وقد أصر على أنْ يتحدّث معها بالفرنسية وإنْ كان لا يعرف سوى بعض الكلمات، وكان يحاول في كلّ خطوةٍ الاقتراب منها بطريقة شبقية، وكانت المرأة تمنعه بضربات يد لطيفة وضحكات وهي تتعجّب " ما هذا "بإيماءة من ينتهر طفلاً صغيراً. كان يملأ كأسه بالشّمبانيا. أمّا إيرنستو فقد كان كالسّائح الذي يجردونه من ريشة بشكلٍ بائسٍ. لكنّ بيداليس كان يبدو متحمّساً. وقال: إنه كان بحاجة إلى سهرة حمراء كهذه منذ وقتٍ طويلٍ. وكان الشّيء الوحيد الذي يثير قلقه، حيث قال لإيرنستو: إنّه يريد التّأكد من أنّ المرأة خاليةٌ من الأمراض التناسلية المعدية. طمأنه إيرنستو. لم يكن إيرنستو يريد أنْ تطول الليلة، إلاّ إذا اصطحب فتاةً من فتيات الهوى. كان يغلب عليه النّعاس، لكنّه لم يكن بوسعه أنْ يترك بيداليس وحده في ذلك المكان ومعه حزمةٌ من الدّولارات في جيبه. لهذا انتظر حتى فرغ من تناول الزّجاجة في جزءٍ وبعد ذلك ساعده في الاتفاق مع الفتاة على المقابل المادي.

تركه في تاكسي مع التّونسية، وتوجّه إلى غرفته سيراً على الأقدام حيث كانت قريبةً. كان الجو مطيراً وشعر إيرنستو بالاكتئاب. لم يبق معه سوى مائة فرنك من رأس ماله وكان الماء يتسلّل إلى نعليه.

قالت له جاكلين انتظر في صمت، وكان في تلك اللحظة كمن مدّ له يده لكي يأخذه على أطراف

أصابعه إلى منطقة محرَّمة، غير مشروعة، وكان إيرنستو يتبعها وهو يحترق من اللهفة والاشتياق. رآها تخرج من حقيبة يدها إناءً، وبعد ذلك تذكرة مترو، كانت هناك مهابةٌ شعائرية فى إخراج وسكب المسحوق فوق تذكرة المترو، وكيف شكلت كومةً صغيرةً ثم قامت بعد ذلك، بمساعدة تذكرة أخرى فى تقسيمها إلى صفوف متوازية رفيعة كالدُّود. كانت تمسك بتلك التَّذكرة برقة وكأنها تُمسك بعلبة مجوهرات بها ماسٌ، شرحت له كيف ينبغى عليه تناوله. قامت هى بتنفيذ التَّجربة وشمَّت الصَّفين الأوَّلين من ذلك المسحوق الأبيض، قبل أنْ تُقدِّم له التذكُّرة.

أشعر بشيء ما.

إذن هيا

جلس على الفراش وتناول شمبانيا بجرعات بطيئة، فى سلوك من التَّرقب السَّعيد. أحسَّ بأنَّ جانبى أنفه كانا يرتعدان قليلاً وأنَّ عينيه الصَّفراوين كان لهما بريقٌ قوىٌّ.

قالت: إنَّ الكوكايين يقطع الرَّغبة الجسدية أنا أحس بك قال إيرنستو: إنَّنى لا أعتقد أنَّنى سأفقد تلك الرَّغبة. رمقته جاكلين بالضَّحك.

هل أنت متأكِّدٌ ؟

متأكِّدٌ.

وضعت جاكلين كأس الشَّمبانيا فارغًا على البساط وتركت نفسها تهوى على الفراش وقد

أغمضت عينيها. أحسّ إيرنستو بأنّ حلقه قد أغلق رغبته الجسدية. ثم بعد ذلك اقترب منها وداعبها ومسّ شفتيها.

سمعها تتمتم قائلةً: يا أيُّها الطِّفل.

جلس إلى جوارها وتبادلا النَّظرات والمداعبات في هدوء منقطع النَّظير كان إيرنستو يشتاط غضبا بسبب آلامٍ فم المعدة طوال الوقت، ومن ركبتيه المرتعدتين ومن البرد القارس في الشّتاء، كان يخترق ثيابه وكأنُّها من الورق. كان يُفكّر في أنّه في مأزق لامخرج له. كان في حاجةٍ ماسةٍ إلى العمل، فكلُّ ما حصل عليه حتى اللحظة ترجمتين مقابل سعرٍ زهيد. كان يبدو له من المحزن جدًا أنْ يستيقظ في الشُّقَّةٌ الصُّغيرة الجديدة التي استأجرها بين بيجال وبوتي والتي يُطلُّ منها على أسطح منازل باريس. ذلك البحر من الإردواز كثير القباب، تحت سماءٍ رمادية، كلُّ هذا كان يجعله يشعر بالوحدة والهجر، الإحساسُ نفسه الذي يُسبِّبه المحيط لغريق. كان دائمًا ينتظر أونا. كانت أونا لا تأتي أحيانًا. كانت تشتكي دائمًا من أنّه سفيهٌ استأجر شقّةً صغيرة بلا هاتفٍ وبلا مكان للجلوس فيه. كانت ترفض تمامًا مجالسته في ذلك المكان . كانت تقول إنَّني لا أشعر بالارتياح. وذات يوم داعبها. فما كان منها إلاَّ أنّ وجهت له صفعةً ونزلت على السلّم تنتحب.

وقد تسبَّبت الصَّفعة في جرحه في وجنته من جراء حافة خاتم كانت تضعه في يدها. نزف الجرح

دمًا كثيرا. قال لنفسه كم أصبحت وضيعًا وهو ينظر إلى وجهه الجريح فى مرآة الحمَّام. كان غاضبًا من نفسه. سأرحل، سأرحل من هذه المدينة القذرة، واقسم انَّ يتم ذلك سريعًا. سأرحل إلى الأبد. لكن فى تلك اللحظة رنَّ جرس الباب. كانت أونا مرةً أخرى. نظرت إليه خائفة مذعورةً. لم يكن لديه متسعٌ من الوقت لكى ينظِّف الدَّم فى وجهه.

لقد أدهش إيرنستو أنَّ يعرف أنَّ ليناردو كان قد بدأ حملةً فى فنزويلا وأنَّه كان سيذهب فى تلك الأيَّام، وكان يدعو الأرجنتينى إستراداا أويوس كثيرًا إلى منزله ويتركه مع أونا وحدهما. استاء إيرنستو وقال : إنَّ كلَّ ذلك يبدو له أمرٌ يبعث على التَّقزز: قالت أونا أوه لا تقلق إنَّنى دائما التى تُقرِّر مع من تخرج. فكِّر جيدًا فى أنَّ لدينا مكانًا نستطيع أنَّ نلتقى فيه. وبالفعل عندما سافر ليناردو دعت إيرنستو على العشاء فى شقَّتها. وجدها على غير العادة ترتدى ملابس سهرة، كانت ترتدى فستانًا ضيقًا للغاية لكنه يترك ظهرها عاريًا. لقد جهزَّت كلَّ شيء من أجل عشاء خاص جدًا : شموع، زجاجة شمبانيا وبعض الاسطوانات الحزينة من البرازيل. كانت أونا تضحك وتقول إنَّ هذه حفلة عرس يا أيُّها الشَّهم الشَّجاع البوجوتى (نسبة إلى بوجوتا عاصمة كولومبيا). بعد تلك الأسابيع القاسية الباردة، ومن الجوع المستمر، من السَّير فى الشَّوارع وممرَّات المترو بحثًا عن أعمال غير ممكنة كما فى الأيَّام الأولى لوصوله إلى باريس،

كان جميلاً ولطيفًا أنْ يجد نفسه فى تلك الشُّقَّة الدَّافئة. كان يثيره دائما عندما يكون إلى جوار أونا فى الضَّوءِ الخافت، وبالقرب من المدفأة ويستمع إلى أغنية برازيلية فى جهاز الإستريو، وكذلك عندما كان يرى احتكاك الفستان الحرير الذى كانت ترتديه أونا وطريقتها فى وضع ساق على أخرى وكذلك كيفية ضحكها. كانت لديه الرَّغبة فى تلك الليلة فى أنْ ينسى كلَّ شيء، وقد تحقَّق له ذلك إلى أنْ رنَّ جرس الباب توقَّع كلاهما أنَّ القادم هو لينارد. لكن لم يكن هو، بالطَّبع بل كان الأرجنتينى إسترادا أويوس. بدا مبتسمًا يرتدى حلَّةً رمادية أنيقة للغاية بها خطوط. انتابته الدَّهشة عندما رأى إيرنستو هناك. عجبًا، لقد دعوتك لتناول العشاء هذه الليلة، هل نسيت؟ قال ذلك لأونا. ضحكت أونا، يالى من سفيهة لقد نسيت ذلك تمامًا استطاع الأرجنتينى إخفاء خيبة أمله لقد جئت هذه الليلة ولدى الرَّغبة فى أنْ أفتنك. قالت أونا و.. ما الذى يمنعك ؟ بشكل مستفز، وقد قدَّمت له كأسًا من الويسكى. أنا، بالطَّبع، قال ذلك إيرنستو.

لم يكن أمام أونا بدٌّ من أنْ تضع طبقًا آخر على المائدة كانت تلك السَّهرة على ضوء الشُّموع الخافت للأفراد الثلاثة يتبادلون النَّظرات كما يتذكَّر إيرنستو. كانت مثل مشهد فى مسرحية رديئة كان إسترادا يتحدَّث وكأنَّه رجل محنَّك ذو خبرة، حيث جعل موضوع المحادثة موضوعًا يستطيع أن يصول ويجول فيه على هواه. كان يتحدَّث عن بوينوس أيرس وعن

أصدقاء مشتركين وعن موظفى اليونسكو الذين كانوا يترددون عليه، بينما ظلّ إيرنستو متوتّرًا، وهو غاضبٌ فى نفسه. أدرك أنّ الأرجنتينى ليست لديه النّية فى الرّحيل، كان من الواضح أنّه بدأ تجربة فى قوة التحمّل وقرّر إيرنستو قبول التّحدى. وبما أنّ الأمر هكذا فقد صبّ لنفسه كأسًا كبيرًا من الكونياك بعد أنْ تناول القهوة. أخذ سيجارًا كوبيًا. وأشعله، وبينما كان يلقى بُسحب الدّخان الكثيفة فى اتجاه إسترادا، انطلق إيرنستو فى الحديث عن السّينما، بمناسبة الفيلم الأخير لبيرتولتشى، الذى لم يره إسترادا. تحدّث فيما بعد عن الأغانى الشّعبية فى كولومبيا، عن كوبا عن الثلاثة نمور المكتئبين لكابريرا إينفانتى، وهى قصّة حاول الأرجنتينى الطّعن فيها لأسباب سياسية، هذا الاعتراض تفاداه إيرنستو فى هدوءٍ قائلاً : إنّه يفضّلُ قصّاصًا جيّدًا على ثورى صالونات متخطّيًا بذلك بكلّ تلقائيةٍ بينى مورية والثّلاثى ماتا موروس ودانييل سانتوس والجوافة وزهرة الآلام والمانجو والقشدة والسّبوتة وهى فواكه معروفة لأونا تقريبًا ولكنّ ابن بوينوس أيرس يجهلها تمامًا. وتحت هذا الطّوفان الشّفوى المشبّع بدخان السّيجارة الكثيف، بدأت عينا إسترادا تفقد ثباتها وحيويتها، كما أنّ كتمة أنفه قد طالت بدرجةٍ حزينة. كان يتنحنح بعصبية. عجبًا ! أىّ منوّمٍ وضعته فى الكونياك ؟ سأل إسترادا أونا فجأةً، كانت متوتّرةً وقد استغلّت الظّروف لكى تقترح عليهما القيام بجولةٍ. لم يقوموا بجولة

واحـدة حـول الجبَّانـة بل خـمس جولات حـول جبَّانـة مونتبارناسى التى كانت قريبةً. كانت أونا تمشى بين الاثنين بفستانها العبثى الطَّويل وسترةٍ من الجلد وكأنَّها تتوجَّه إلى حفلة فى الأوبرا. كان إستُرادا يلقى بتعليقات تافهة عن النُّجوم. كانت أونا هى التى أصابها الإرهاق فى النِّهاية. قالت : إنَّنى مرهقةٌ جدًا. أعتقد أنَّنى سأترككما. تركاها عند باب المبنى وقد ودَّع الآخران أحدهما الآخر بكلِّ فتورٍ.

لقد انتابت أونا نوبةٌ من الضَّحك عندما رأت إيرنستو أمامها بعد ثوان على عتبة الباب. كان يساعدها فى إنزال بعض الوسائد من المخزَّن عندما رنَّ الجرس. قال لها إيرنستو لا تفتحى، إنَّه إستُرادا بالتَّأكيد. نظرت من العين السِّحرية وعادت تمشى على أطراف أصابعها. نعم، إنَّه نيمستور إستُرادا قالت ينبغى علىَّ أنْ أفتح له بإيماءة صبرٍ لا مناص منها، لم يكن صوتها أعلى من الهمس. أوه، لا تفعلى ذلك فالسَّاعة الثالثة فجرًا، إنَّنى منهك القوى. قالت أونا أنا مضطرةٌ لذلك. قال إيرنستو حسنا بصورةٍ غاضبةٍ بكل طمأنينة يمكن أنْ يُسبِّبها نصف زجاجة كونياك تناولها فى تلك الليلة. قال لها لقد أردت ذلك وأراد أن يخلع سرواله. كان إيرنستو قد نقَّص وزنه كثيرًا فى تلك الأيَّام. ولذلك عندما فكَّ الحزام سقط السُّروال فوق نعليه. كان يرتدى لباسا أحمر اللون مما أصاب أونا بالهلع، وقالت أمرٌ لا يصدَّق. غطَّ نفسك متوسِّلةً إليه. غطِّ نفسك الحُت عليه من جديد، فى بادئ نوبة

غضب. رفض ذلك بإيماءة برأسه. بدأ إستررادا في تلك اللحظة في إرسال صفير قصير أشبه بتغريد عصفور كناري، في الوقت الذي كان يطرق الباب فيه بلطف. لم يكن أمام أونا بدٌّ من الاعتذار له لأنها لن تستطيع أنْ تفتح له الباب فالنعاس يستحوذ عليها. قال لها عجبًا، لا تقومي بدور راهبة الدير التي حبست نفسها لأعمال العبادة. قالت له أونا يائسةً لن استطيع، حينئذ أتى إيرنستو لمساعدتها بكلّ الطمأنينة التي يُسبّبها الكونياك. كان يسير بصعوبة كبيرة من جرّاء السّروال الذي يقيد عقبيه، اقترب من الباب وتحدّث بصوت هامس وقال يا رجل إنّها يغلب عليها النّوم. خيمٌ صمتٌ فجائيٌّ، وهو أمرٌ يمكن أنْ يُفسَّرَ بشلل هول المفاجأة، وكانت أونا تستمع إليه مذعورةً، وقبل أنْ تسترجع قواها كانا يسمعان خطوات إستررادا أويوس المتثاقلة وهو ينزل على السُّلّم. ضمّت أونا قبضة يدها كي لا تصفعه. كان تعبيرها تعبير كراهية. قالت له : وأيضًا أنت سترحل الآن. أنت أيضًا هل سمعت ؟ كان إيرنستو يفكّر قائلاً ياإلهي بعد أنْ أفاق تمامًا من الكونياك الذي تناوله وقال متى تعلّقت بتلك الحيّة ؟ بدأت أونا تنتحبُ. إنّه لم يكن يعرف شيئًا عن علاقتنا، أيّ شيء. ياله من مسكين، قال إيرنستو في أيّة لحظة أمسكت أونا من على رف قاطعًا للورق كانت تُلوّح به قريبًا جدًا من وجهه. كان تعبيرها إجراميًا في الواقع. سترحل أو سأغرس هذا فيك ! نظر إليها هادئًا .يالها من طريقة

عجيبة للموت. قال لها أيّتها الشّقراء اطعنى حبيبك وكأنّه يقرأ عنوانًا صحفيًا. ألقت قاطع الورق على الأرض وارتمت على الأريكة بالصّالون تنتحب باكيةً. كانت تقول أكره الرّجال. إنّنى أكرههم، إنّنى أكرههم، فكلّهم سواء.

كان إيرنستو يشعر بالارتياح والدّم يتدفق فى شرايينه بانسياب، القلب يخفق فى هدوء. وجاكلين تدخّن إلى جواره. كان هناك طنين لبعض الذّباب النّاعس فى شمس النّافذة .كان طنين الذّباب عند النّافذة، وجدّته تحيك الملابس على ماكينتها السّينجر التى تعمل بالبدّال، وكانت شمس المساء تغمر الغرفة : كانت هذه إحدى الذّكريات الهادئة التى بقيت فى ذاكرته عن الطّفولة.

تذكّر الآن تلك الضّيعة فى بوجوتا التى كانت حينذاك فى الضّواحى حيث كان يعيش مع والده ووالدته. كان يرى بجلاء غرفة جدّته. كان بها سريرٌ معدنىٌّ كبيرٌ وكمودينو عليه ساعة منبّه يملأ الغرفة بدقات رنّانة. والشّمس قد احمرّت فى المساء كانت حظائر الخيول فى السّافانا تُضيئها السّحب الحمراء عند الغسق التى كانت تقطعها الحواجز التّرابية وأشجار الكافور الباسقة، كانت هذه السّحب الحمراء تضىء البرك، تغمرها خيوط الشّبورة البطيئة، باللون البنفسجى، كان هناك نقيق الضّفادع بعيدًا أحيانًا، وكان القطار يطلق صفّارته، قطار يقترب من بوجوتا.

إنه يتذكّر حظائر الخيول، والقطارات وجدّته التى كانت تحيك الملابس تحت النّافذة وكذلك والدته فى آخر يوم رآهما فيه، فى يوم سبت وقت الزّوال، وكيف أنّ والده رفعه من مرفقيه فى الحديقة وكيف كان خدّه خشنا عندما كان يقبّله، وتُشَمُّ منه رائحة ماء الكولونيا، ووالدته فى نافذة السيّارة وهى ترسل له بقبلة بطرف القفاز الأبيض. لقد رأى السيّارة السّوداء وهى تسير فى الشّارع بهدوء، كانت الشّمسُ مشرقةً، يراها وهى تدخل على النّاصية أمام الحديقة الصّغيرة ذات الأعمدة العالية والضّيقة التى كان يعيش فيها الرّئيس أولايا إيريرو. لم يعد يرى والديه أبدًا بعد ذلك.

كم كان حزينًا منزل العمّتين حيث اصطحباه فيما بعد. لقد انقبض قلبه ومازال ينقبض حتىّ عند مجرّد التّفكير فى تلك الغرف التى تلتهمها الرّطوبة ويستحوذ عليها الظّلام وصورة للسّيد المسيح أمام مصباح زيت فى مكان ما وحوض بانيو وضع فوق أربعة قوائم من البرونز. كان يتسرب منه الماء بمجرد أنْ تنزع السّدّادة المطاطية. كانت الأجراس تدقّ باستمرار، كم كان حزينًا، كيف كان يشعر بالخوف دائمًا، وبالبرد دائمًا يبحث عن حماية الجدّة، كانت تبكى دائما وهى تنام فى فراشها، تغطّى ساقيها ببطانية. فكّر قائلاً : كان هذا عجيبا حقًا. إنّ النّاس الذين كنت أحتاج إليهم وافتهم المنيةُ. اختفوا من هذه الدُّنيا. ولم يستطع إيرنستو أنّ يتفادى أنّ بداخله

يتيمًا محرومًا استمر يبحث عن هؤلاء الرّاحلين. عندما كان طفلاً يفكر فى الجنَّة لم يكن بوسعه أنْ يتخيَّلها مثلما هى عليه فى صور كتاب التَّاريخ المقدَّس، بالملائكة وطائفة السَّارفين من الملائكة، بل كان يتخيَّلها كما فى شرفة محلأت كلُّ شىءٍ على ما يرام فى مكان كان يذهب إليه برفقة والده ووالدته وجدَّته وشقيقته لتناول المحشوات والفطائر أيَّام الآحاد. كلهم سيكونون هناك يتخيَّلون ذلك المشهد السَّماوى القديم : جدَّته وهى تخرج الدَّبوس الذى كانت تثبِّت به قبَّعتها ووالده المسرور والمرح دائمًا، ووالدته بقبعتها المستديرة، وفتاةً من عصر الشَّارلستون. وستكون ماريا هناك أيضًا سعيدة لكونها وسط أناسٍ طيِّبين يفسحون لها مكانًا لكى تشعر بالطمأنينة ولئلاً تخاف

فكَّر قائلاً يالها من فكرةٍ جميلة عاد فجأة إلى واقع الغرفة ذات الذُّباب الذى يطنُّ عند النَّافذة وجاكلين تدخِّن هادئة إلى جواره.

سمعته يقول: ولو لمرة واحدة ينبغى أن تلزم الصمت قال لها : كنت أفكِّر فى الجنَّة فى النَّاس الذين أودّ أنْ أراهم هناك.

تفكر فى ماريا ؟

وبالنسبة له فقد أحسَّ فجأة ببرودة فى القلب.

هل عرفتها ؟

أطفأت جاكلين السِّيجارة ببطءٍ شديد دون أنْ تنظر إليه.

قالت: أنا وخوليا اصطحبناها إلى المستشفى.

أنت ؟

لم أتخيَّل ذلك مطلقًا.

نعم، ردَّت جاكلين، دون أنْ تنظر إليه حدث هذا بالصدفة، وكنت مع خوليا عندما قامت ماريا بهذا التعارف.

اكتشف إيرنستو زجاجة الخينيبرا قريبة منه صبَّ قيراطين فى الكأس، دون أنْ يمزجها بماء الصُّودا. حرقت الجرعة حلقه. هكذا كانت جاكلين تعرف. كان لديه إحساسٌ غريبٌ من الاستياء، نوعٌ من الغثيان. لم يرد على الأطلاق معرفة مزيد من التَّفاصيل. لذلك، ربَّما لم يكتب إلى خوليا فى طنجة أبدًا. لقد ابتعد أيضًا عن النَّاس بما فى ذلك الذين كان قد تعرَّف إليهم عن النَّاس وهو يعيش مع ماريا، لم يفلح فى تفسير السَّبَّب. لقد كنت أنا الذى استدعيت رجال الاطفاء.

رجال الاطفاء ؟

إنَّهم أكثر فعالية من بوليس النَّجدة.

- ٢ -

استغرب إيرنستو أنْ يرن جرس هاتف ماريا مرارًا وتكرارًا ولم يرد أحدٌ. اعترفت له ماريا في النِّهاية بالسَّبب : لقد فصلت الهاتف عندما كانت مكتئبةً، كانت تنام بالمنوِّم ليس أثناء الليل بل أيضًا خلال النَّهار. كان ذلك مقلقًا بالنِّسبة له فقرَّر رؤيتها. تواعدا في حديقة مونتسوريس ذات مساء. يتذكَّر إيرنستو أنَّ رياحًا باردةً كانت تهبُّ، وكانت الحديقة يغمرها ضوء الشِّتاء عند الغسق. لقد أذهله شحوب ماريا، ووهنها، ومدى حزن عينيها. كان يسير بالقرب منها ولم تعترض على أنْ يضع ذراعه على كتفيها. كانت تبدو له أنَّها بلا حمايةٍ أو رعايةٍ. تحدَّثت له بلا حماس عن زواجها القادم من بيرنارد، في الأعياد حيث قام ابن عمٍ له بتقديم الإجراءات لتسوية طلاق في المكسيك أو فنزويلا. لقد اشترى الفرنسي شقَّةً كبيرةً جدًّا لكي ينتقلوا إليها في شارع ماين. كانت ماريا تقضي كلَّ وقتها مع مهندسي الدِّيكور والنَّجَّارين

وتختار البسط والستّائر والفسيفساء للحمّام. اصطحبها بيرنارد لكى تتعرّف على والدته، كانت امرأةً مسنّةً جدًا، قال لها : إنّ والدته تعيش بجوار إتريتا(*) فى عقار فسيح محاطٌ بأشجار الصنّوبر. كانت العجوز مهولةً، إنّها حقًّا شمطاء قبيحة المنظر. لم تفعل شيئًا سوى النّظر إلى ماريا بلا ثقة بينما كانوا يتناولون الشّاى، وكأنّها كانت تشك فى أنّها ستتزوج نجلها بيرنارد من أجل ماله. عاد بيرنارد كما حكت ماريا لإيرنستو مكتئبًا جدًا بعد تلك المقابلة. كانت والدته تعتقد أنّه لا يمكن أنْ يكون سعيدًا مع فتاة شابة ومن بلاد نائية. كان إيرنستو يستمع إليها وهى تحكى بينما كانا يتنزّهان فى الطّرق التى تكسوها الشّبورة الشّتوية فى حديقة مونتسوريس، انفجر إيرنستو وصاح قائلاً إنّ صديقك الفرنسى أبلهٌ حقيقىٌ. التفكير فى أنّه قريبًا سيبلغ السّتين من عمره (صححت له ماريا سيبلغ الثّالثة والخمسين من عمره) ومازال فى حاجة لكى يطلب موافقة والدته لكى يتزوّج! إنّنى لم أصدّق ذلك أبدًا على الرّغم من البذخ الذى يعيش فيه كنت أعتقد أنّه مهيبٌ جليلٌ. بدأت ذقن ماريا ترتعد.

انفجرت ماريا فى البكاء. وقالت إنك لا تفعل شيئًا سوى السّخرية والاستهزاء به. إنّ بيربارد على صواب لأنّ الحديث معك يؤذينى جدًا.

(*) Etretat، بالفرنسية فى الأصل.

تركها من جديد عند منزلها، وكان يرتعد ويستحوذ عليه الحزن، وعاد إلى المترو سيرًا على الأقدام فى المنطقة الكثيفة الأشجار منطقة جوردان. كانت أونا تُقيم حفلةً فى منزلها تلك الليلة. بما أنّ لينارد غائب، كانت أونا تنظّم حفلات كثيرةً وتدعو إليها أصدقاءها وصديقاتها ومعظمهم فرنسيون. كان مقلقًا بالنّسبة لإيرنستو أنْ يظهر أمام الآخرين على أنّه صاحب المنزل. لكن ذلك لم يذهل صديقات أونا أبدًا. فكان من الطبيعى جدًا فى غياب لينارد أنْ يحلّ أحد محله بما فى ذلك البيت أيضًا. كنّ يقلن إنّ أونا مجنونةٌ. كان يجمع بينهن مشاركة نسائية. كنّ يحكين فيما بينهنّ كلّ أسرارهن الخاصة، لذلك عرف إيرنستو من أونا من منهن باردةٌ ومن غير ذلك طبقًا لتصنيفها الذّاتى. بالنّسبة للرّجال الذين كانوا يحضرون هذه الحفلات، كان معظمهم ناضجين ومتزوجين وأساتذةُ فى الجامعات، وكان من الواضح أنّهم يحاولون التقرب إلى أونا بتشجيع منها من جرّاء دلالها الدّائم واستفزازاتها المستمرة. كانت تفعل كلّ شيء حتى لا يفقد هؤلاء الرّجال الأمل فى الاقتراب منها. لاحظ إيرنستو النّظرة الحاقدة من جانبهم جميعًا عندما كانوا يرونه أمامهم. كانوا يبدون أنّهم من أنصار الأرجنتينى إستراد أويوس الذى ظلّ لوقت طويل الخليل الرّسمى لأونا.

أمّا أونا فمن جانبها أصبحت غيورة أكثر من ذى قبل. لم تكن تقبل على الاطلاق أنْ يتحدّث إيرنستو

مع فتاة على انفراد لمدة خمس دقائق. كانت تنظر له على الفور بنظرة وحشية حيث يوجد.

وكانت بأىّ عذر تقترب منه وتقول له : هامسة فى أذنيه : كفى، كفى بصوت مفعم بالغضب. كانت ترتدى ملابس بشكل غريب. والليلة التى دعتها فيها خوليا لقضاء عيد الميلاد معها، أصرتْ أنْ تأتى أونا مع إيرنستو وهى ترتدى بيجامة شفافة من قماش اللميه الفضىّ اشترتها من فوبور سانت أونور(*) كما أنَّها طلت رموشها أيضًا باللون الفضىّ. كانت تبدو وكأنَّها نجمة صالة موسيقى. عندما دخلت أونا التفتت الأنظار إليها مذهولة قبل أنْ يتساءلن فيما بينهنّ. كانت أونا فى غير مكانها فى ذلك الجو البوهيمى الصَّاخب بين طلاب وفنانين إسبان. وأناس من أمريكا اللاتينية.

لقد أعجبه الشَّاعر ليناريس أنْ يرى إيرنستو فى دور الزَّوج الأمير. قال له بين ضحكات مدوِّية : كان ينبغى عليك المجىء بحُلَّة من القطيفة. كانت أونا - لحسن الحظّ - تتكلَّم فى ركن مع المطرب باكو إيباتيث، صديق ليناردو الحميم. جاءت خوليا من المطبخ تحمل دورقًا من الخمر وبعض الكئوس، وقد ذهلت عندما وصلت إلى الصَّالون ورأت أونا. يالها من امرأة تعجَّبت خوليا إنَّها دائمًا تكشف عن ثدييها. إنَّها ستصيب المسكين باكو - على الأقل - بالأرق. كانت هناك لدى الباب وقد تدلَّت خصلة شعر على وجهها،

(*) Faubourg Saint – Honore ، بالفرنسية فى الأصل.

كانت أونا تغمرها الحيوية والفكاهة. هل يمكن أنْ يخمِّن الشَّخص أنَّها ستكون مع الزَّمن امرأةً واثقة من نفسها وقويَّةً، امرأةً إسبانية لديها أولاد كثيرون. قالت خوليا لإيرنستو عندما رأته إلى جوار الشَّاعر ليناريس يا أيُّها اليتيم إنَّ هذه المرأة تغار عليك. تعال معى لكى أعرِّفك على صديقة.

كانت الفتاة تدعى مينينا، ذات شعر أسود كثيف وعينين سوداوين وبرَّاقتين، كانت فنزويلية الجنسية، لكن إيرنستو لم يكن لديه متسعٌ من الوقت لكى يتفحَّصها، لأنَّ زوجها الشَّاب كان يقف إلى جوارها، كان رجلاً ذا شعرٍ أصفر تعرَّف عليه على الفور وصاح قائلاً: فرانك! نهض الآخر بحيوية على الطَّاولة وحيَّاه ثم ربت على ظهره عدَّة مرَّات. هذا مستحيلٌ، هذا مستحيل! إنَّ فرانك فنزويلى كان قد تعرَّف عليه منذ عشر سنوات مضت. كان حينذاك شابًا قد تجاوز العشرين عامًا بقليلٍ، وقد وصل إلى بارَّانكيا مريضًا بالقرحات فى المعدة وبلا أوراق هويةٍ بعد أنّ عبر الحدود فى جواخيرا وهرب من الشُّرطة الفنزويلية. نادى سالجيرا على إيرنستو الذى جاء من بوجوتا لكى يجده على سريرٍ معدنى فى لوكاندة سيئة للغاية، ذلك الشَّاب النَّحيف ذا اللحية التى عمرها بضعة أيَّام مذعورًا بسبب قرحات المعدة، كان زعيمًا لجبهة التحرير الوطنية الفنزويلية وأحد زعماء حرب العصابات بالمدن. كانت صحته ضعيفة من جرَّاء التُّوترات على مدى ثلاثة أعوامٍ من الكفاح المسلَّح. قال

فرانك إنَّ هذه المزحة فجرَّت له أمعاءه. كان يمكن أن يكتشف فى أيَّة لحظة. وذلك عندما داهم رجال الشُّرطة الفنزويلية منزله، استطاع الهروب من مخرج الخدم ولكونه مريضًا فإنَّ رفاقه فى الكفاح عارضوا انضمامه إلى محاربى سلسلة جبال فالكون وأشاروا عليه بالهروب من كولومبيا وأنَّ يتصل بجيش التَّحرير الوطنى الكولومبى وأنَّ يسافر إلى كوبا لإجراء عملية جراحية قبل الانضمام من جديد إلى الكفاح المسلَّح. ساعده إيرنستو حيث أمدَّه بالملابس وقليلاً من المال وجواز سفر كولومبى، تمَّ استخراجه باسم طالب بالجامعة الحرَّة كان شبيهًا له. كانت فترة الكرنفال وقد استغرقت عملية الحصول على جواز سفر وتأشيرة دخول المكسيك وقتًا ما. لحسن الحظ بينما كانت تُسمع فى الشَّوارع موسيقى القرب وضجيج النَّاس كان سالجيرا يُغنِّى ليلاً فى فندق البرادو وكان إيرنستو يقضى ساعات طويلة فى تلك الغرفة الحارة باللوكاندة يستمع إلى الفنزويلى وهو يحكى أحداثًا لايمكن تصديقها عن الكفاح المسلَّح فى كاراكاس. فى النِّهاية ركَّبوه ذات صباح فى طائرة تابعة لشركة بان أمريكان بعد أنَّ درسوا احتمالات متنوِّعة فى حالة اكتشاف الشُّرطة لفرانك الذى كان يخفى آلام قرحاته ويرتدى ملابس مثل سائح يغادر البلاد بعد انتهاء أجازته، ودَّعهم من أعلى سلَّم الطَّائرة. لم يعرفوا شيئًا عنه أبدًا بعد ذلك.

كان هناك فى تلك الحفلة بعد عشر سنوات، كان ثملاً إلى حدٍ ما، وقام بتعريف إيرنستو على الفتاة

مينينا وأخرى أكبر منها سنًا، كانت ظريفة وذات قسمات فظَّة تُدعى كلارا. كانت زوجة فرانك. قال لهما فرانك باسمًا إنَّ هذا خنزيرٌ. لم يكن إيرنستو قد سمع هذه الكلمة من قبل. فسأل هل هى من قبيل الصُّدفة مرض معدٍ. ردَّت كلارا قائلةً : بالطَّبع بينما أطلق الآخرون قهقهاتهم. كانت مينينا تشرح له أنَّهم يطلقون اسم الخنزير على أهل الإنديز، فى تلك الأثناء دخلت أونا المطبخ. دُهشت الفتاتان وفرانك عندما رأوا ظهرها عاريًا والفستان ذا اللون الفضِّى يحدِّد ردفيها بدقَّة. كانت تسير بخطى قصيرة، كأنَّها عارضة أزياء لبيتٍ شهيرٍ، بنعليها الفضِّيين العاليين، اقتربت أونا من الثَّلاجة وأخرجت من مبرِّدها سطلاً من الثَّلج. رسم بوضوح النُّور الدَّاخلى للثَّلاجة شكل ساقيها مما أثار الرَّغبة لدى فرانك.

خرجت أونا من جديد وفى يدها سطل الثَّلج وبين أسنانها قطعةٌ من الثَّلج وقد حيَّت مينينا بنظرة سريعةٍ وقالت لها "أهلاً" ببرود. غمرت رائحة عطرٍ المطبخ ماهذا الذى رأيناه؟ قالت كلارا. إنَّها دميةً واجهة محلٍ، تعجَّب فرانك. كانت خوليا مشغولة بما تُعدُّه فى الفرن. قالت : ليست دميةً بل عذاب هذا الرَّجل المسيحى المسكين إيرنستو. نظرت إليه مينينا غير مصدِّقة. هل هذا صحيحٌ ؟ نعم، أجاب إيرنستو متوتِّرًا. آى، يافتى قالت مينينا مذهولة بصراحة ما الذى تستطيع أنْ تفعله مع تلك المرأة ؟ قال فرانك : يضعها فوق البانيو. فكَّر إيرنستو لبرهةٍ. فوق البانيو

وضع غير مريح اهتزَّ فرانك من الضَّحك وقال يا أيُّها الخنزير إنَّ تلك المرأة ستقضى عليك. صب لى قليلاً من الرُّوم.

كان إيرنستو يرتعد. اكتشف ذلك عندما رفع الكأس من جديد لكى يتناول جرعةً أخرى من مشروب الخينيبرا.

لم أعرف ذلك إلاَّ بعد أنْ عدت مرَّةً أخرى إلى باريس ـ قال إيرنستو ـ ذهبت لأبحث عنها دون أنْ أدرى..

لقد رأى ذلك الجناح بالقرب من الهسيا: دقَّ الجرس الذى يغطيه الصَّدأ عندما دفعت الباب الحديدى، كانت الحديقة ذابلةً وباردةً والمنزل أيضًا الذى كان مشيَّدًا بالدَّاخل. تذكَّر ارتعاد ساقيه وهو يعبر المرج الأخضر صوب الرُّواق ذى السَّلالم المرتفعة ونباح كلبٍ داخل المنزل البهى الفاخر. فكَّر قائلاً: إنَّهم الآن لديهم منزلٌ وكلبٌ. وكانت مفاجأته عندما وجد بديلاً من ماريا تلك المرأة التى لا يعرفها تفتح له الباب، امرأة طويلة القامة وشابة ذات قسمات صعبة وعنقٍ طويل جدًا جدًا وشامة غريبة بين حاجبيها وبينما كانت تهدئ الكلب بيدها، كانت تحاول أنْ تسمع إيرنستو من خلال النُّباح فهل انتابه ذلك الإحساس حينئذ بسبب ما ظهر على وجهها؟ انتابه سأمٌ بعد ذلك عندما رأى النَّعلين اللامعين ينزلان على السَّلم المكسو بالبساط ووجد وشاح فيلق الشَّرف على ياقة

السُّترة ووجه بيرنارد متميزًا ومكفهرًا مما جعله يصعد إلى مكتبته فى الطَّابق الثَّانى. جلس على مقعد كبير. كان ضوء النَّجفة يضىء وجهه لكن عينيه كانتا فى الظَّلام. كان يتحدَّث مع طبيب أعطى تشخيصًا خطيرًا وقال له : إنها شديدة الهُزال.

كانت ماريا نحيفة جدا وتبدو حزينةً، ونظيفةً وقورةً بصورة تقليدية وكأنها موظف من وزارة الخارجية يقدِّم عزاءً حكوميًا. كانت أشجار الحديقة تُرى من النَّافذة بلا أوراق، فى ذلك الجو الشِّتوى البارد. إيرنستو لم يكن يريد الإستماع أكثر من ذلك، كان يعانى من برد مفاجئ فى معدته ورغبة فى القىء. سأله بيرنارد هل أنت بخير؟ قال ذلك باعتناء طبيب. لقد رآه برنارد يشحب وجهه وأصرَّ على أنّ يقدِّم له كأسًا من الكونياك، رفض إيرنستو ونهض واقفًا. كان يخشى أنّ يستفرغ على البساط. لذلك نزل على السُّلم مرتعدًا أمام النَّظرة القاسية والحزينة للفتاة التى كانت فى فناء المنزل والنُّباح الغاضب للكلب، وبعد ذلك بقليل وجد نفسه يسير فى شارع ماين ومازالت لديه الرَّغبة فى القىء وبتلك الرَّعشة فى يديه وركبتيه، يبحث عن مقهىً.

لم يكن حينذاك عندما اغرورقت عيناه بالدُّموع، ولا عندما دخل الحمَّام واحتبس فيه، أو عندما تناول بسرعة على منصة البيع زجاجة بيرير(*) ولا عندما جلس فى ميدان شارع ماين حيث كان هناك مهرجان

(*) Perrer، بالفرنسية فى الأصل.

بسيّارات كهربائية وأماكن للرّماية، بل بعد ذلك عندما رأى نعليه ممزّقين وملطّخين بالطّين مثل صعلوك أو رجل عاطل من هؤلاء الذين يجلسون فى الحدائق لكى يقضوا وقت الفراغ، وتذكّر فترة عودتهما (هو وماريا) من مايوركا. اغرورقت عيناه حينئذ بالدّموع وانتابه ضيق فى صدره وكأنّه كان يصعب عليه التّنفس. وبكى، كان يجفّف دموعه فى كُمّ المعطف المستهلك. لكن الدّموع ظلّت تنهمر من عينيه. لكنّه لم يقل شيئًا عن ذلك لمينينا عندما عاد إلى تلك الغرفة فى شارع ديبارت كانت تنتظره وهى تتحدّث مع فتاة فنزويلية. كانتا تتحدّثان عن ليل الشّتاء الذى جعل الشرفة مظلمة، بينما كان إيرنستو يشعر بالاختناق، من نقصان الهواء، كان يشعر بالحاجة إلى السّير فى الشّوارع.

كان يسير طوال الوقت فى المنطقة ذات الأشجار الكثيفة المتشابكة الأغصان فى مونتبارناس، كان يذهب إلى نهر السّين، يتأمل النّهر وأبراج المدينة، دائمًا وهو يشعر بالاختناق أو ضيق التّنفس وهو يقول لنفسه ينبغى الأّ يفكّر بعد ذلك فى ماريا، إنّ ماريا قصة أوقات أخرى مثل أونا التى اختفت أيضًا (كانت تعيش فى ريودى جانيرو أو فى ساوباولو بعد أنْ تزوّجت إسترادا اوبوس) وإنْ كانت أونا ماهى إلا فصلٌ فى حياته، أمّا ماريا فلا، لا، ماريا لا.

كانت جاكلين تتحدّث إليه.

وكانت ماريا تعانى من نوبات كثيرة. كانت خوليا تعرف ذلك وكانت تزورها. على حدٍّ قولها ـ من أجلك،

لأنَّك طلبت منها ذلك، هل يزعجك أنْ أحكى لك ذلك ؟

قال إيرنستو : لا.

(على أيَّة حالٍ، كانت ماريا فى الغرفة من جديد.)

لقد أصبحتا صديقتين حميمتين.

إنَّه لأمرٌ عجيبٌ، فقد كانت كل منهما تكره الأخرى.

نعم، لقد حكت لى خوليا ذلك. لكن بعد أنْ رحلت كانتا تلتقيان باستمرارٍ. كنت فى الهند وماريا تعانى من نوبات الدُّوار أو الغثيان.

بدأ إيرنستو يتردَّد على فرانك وزوجته كلارا ومينينا وكذلك على مجموعة الفنزويلين الذين كانوا ينضمون إليهم كلَّ يومٍ فى مقهى يدعى براسيرى مورفى(*) بالقرب من ميدان أوديون ـ لقد شارك الجميع باستثناء مينينا فى الكفاح المسلَّح منذ سنوات مضت. وكان كثيرٌ منهم يعيشون فى باريس بأوراقٍ مزوَّرةٍ.

كان فرانك يحدثه عن حياته قبل وبعد الانضمام إلى حرب العصابات، وكيف تعرَّف على كلارا وأسباب

(*) Braserie Morvin، بالفرنسية فى الأصل.

مجيئها إلى باريس. لقد جاءا من بلدهما إلى باريس لأسباب تشبه أسباب قدومه إليها (أسباب قدوم إيرنستو لباريس). كان عضوًا بالشّبيبة الشّيوعية، هجر دراسة الحقوق لكى ينضم إلى القوات المسلّحة للتحرير الوطنى. كان يتميّز بالمهارة فى تجهيز وإعداد الأعمال الشّجاعة فى المدينة، أصبح بسرعة كبيرة أحد الكوادر المهمة فى حرب العصابات بالمدينة، إلى أنْ أصابه المرض واكتشفت الشّرطة أمره، اضطر للهروب إلى كولومبيا، ثم بعد ذلك إلى كوبا بجواز السّفر الذى قدّمه له إيرنستو. عندما استرد عافيته رجع سرًّا إلى فنزويلا لكى ينضم من جديد إلى الكفاح المسلّح. لكنّه فى الواقع لم يكن قد اكتمل شفاؤه لم يكن جهازه العصبى يتحمّل ضغط تلك العمليات اليومية والنداءات اليائسة لشن الهجمات (هجمات، أعمال سطو، إطلاق النيران من المدافع الرّشاشة من داخل السّيّارات على حرّاس وجنود كانوا عند باب الثّكنة العسكرية).

وظهرت قرحات معدته من جديد، ودخل باسم مستعار الطوارئ فى أحد المستشفيات. هناك تعرّف على كلارا التى كان زوجها أو خطيبها مقدّمًا فى القوات المسلّحة للتحرير الوطنى، كان قد لقى حتفه بعد أسبوع من تلقيه سبع رصاصات من رجال الشّرطة الفنزويلية. كانت كلارا هى التى منعتهم من الاستمرار فى إطلاق النيران عليه وهو ملقى على الأرض، ظهرت كلارا دون أنْ تصدر عنها أيّة صرخة

ودون أنْ تبكي وأمرتهم على غير المتوقَّع هادئةً ورابطة الجأش قائلةً لهم : كفى ساعدوني على حمله. انبهر رجال الشُّرطة من هدوء وطمأنينة تلك الفتاة وامتثلوا لأمرها.

كان بوسع إيرنستو أنْ يتخيَّل علاقة الشَّفقة أوَّلاً، ثم الأخوية والغرامية فيما بعد التي نشأت بين خطيبة ذلك المقدَّم (أو أرملته فيما بعد) الذي كان يحتضر خلف حاجز وبين محارب آخر أشقر كان متحمِّسًا ووحيدًا في جناح بالمستشفى نفسه بقي على قيد الحياة بعد التهاب في الغشاء البريتوني نتيجة القرحات المائة التي فُتحت. كان بوسع إيرنستو أنْ يتخيَّل تلك الصَّالة المشتركة في المستشفى، بذلك الضَّوء الخافت وحزن وكآبة كاراكاس وقت الظَّهيرة وتسرب بعض الحشرات وهي تدخل عبر النَّوافذ فالفتاة عندما لقي زوجها نحبه، ولُف جسده في ملاءات وحمل إلى جبَّانة في كاراكاس ودُفن في مقبرة تحت صياح حزين لتلك الحشرات، عادت كلارا إلى المستشفى بالصُّحف والمجلاَّت وربَّما ببعض ثمار التُّفاح اشترتها من الشَّارع لكي ترافق المحارب الآخر الذي كان بمفرده لا يزال على قيد الحياة، ذلك المحارب ذو اللحية الشَّقراء. لم يكن من الصَّعب إدراك أنَّها تحمَّلت مسئولية نقاهته، وأنَّها كانت تعرف أنَّه وحيدٌ وليس لديه من يرعاه فاصطحبته إلى منزلها وعاشت معه وأحبَّته. فكلاهما قد ناضل بطريقة أو بأخرى في تلك الحرب ـ التي لا يمكن أنْ نطلق عليها

اسمًا غير ذلك ـ كان ينبغى عليهما مواجهة العودة المريرة إلى الحياة الطّبيعية واليومية، بعد أنّ أمر الحزب الشّيوعى الذى كانا ينتميان إليه بالانسحاب مقتنعًا بأنّ الكفاح المتمرد كان مصيره الكارثة، وأنّ حكومةً جديدةً ستصدر عفوًا.

لذلك فإنّ فرانك قائد حرب العصابات بالمدينة والاستراتيجى السّرّى لعمليات تناقلتها وكالات الأنباء فى العالم كلّه، كان ينبغى عليه أنّ يقبل وظيفة بائع موسوعات بالأجل، يسير فى الحرّ الشّديد وضجيج الشّوارع يحمل كتالوجات تحت إبطه ويتوقف أحيانًا بالحقائب لكى يخفّف بكوب لبن حرقان قرحاته المعوية. كان يطلق عليها أعمالاً لسد الرّمق.

كان يشرح بأنّ بلاده لم يكن يحكمها متحرّرون أو محافظون مثل كولومبيا، بل كان يحكمها المال. كان المال يفرض سلطانه وسطوته. فمن يكسب أكثر له قسطٌ أوفر من السّلطة ربّما كان ذلك مبدأ رأسماليًا يصلح فى كلّ مكان، لكنّه كان يُطبّق بشكلٍ تعسفى فى فنزويلا، كان ذلك يُحسّ فى كلّ لحظة، وكان يحكم جميع العلاقات ويفسّر تلك السّرعة المحمومة للمهاجرين والمتسلقين وكبار المموّلين أو رجال الصّناعة، والذين كان قاسمهم المشترك الأعظم بصفة عامة هو تجاهل مبالغ فيه لكل شىء بعيدًا عن مصلحتهم الذّاتية، أو اليخوت أو مسابقات الخيول التى كانت هواياتهم فى أيام الآحاد هذا إلى جانب وقاحة صارخة أمام مرءوسيهم. كان المال هو أداة السّلطة، كما كان عليه فى الماضى، فى فنزويلا

الريفية فى عصر أجداده، كان المال هو سلاح القادة أو الزعماء تحدث له فرانك عن صعوبة الاندماج فى هذا العالم ـ لقد كان يحلم بثورة فنزويلية كعملية فورية لا رجعة فيها ـ فقد رفض أنْ يعمل بوابًا على سبيل المثال –فى مؤسسة صحفية ومجلات كان فيها شعراء وصحفيون وكتاب ونقاد يعملون تحت إمرة مدير جهم فظ وجاهل، كانت هيئته تدل على انه صاحب خمارة أو مراكبى فى نهر دائمًا يبدو فخورًا بجواهره من الماس وسياراته المكيفة، بعاشقاته ومحظياته الصارخات، كان ذا نفوذ واضح لكنه عاجز تمامًا عن قراءة كتاب أو أن يكتب شيئًا أكثر من توقيعه أسفل شيك أو أمر دفع. وإزاء هذا العالم المتغطرس لرجال الأعمال، كان فرانك يقول، كان المفكرون والفنانون يلوذون ببوهيمية وهمية يبحثون منذ وقت الغداء عن حانة مظلمة فى تلك المدينة المتسلقة ذات الشمس شديدة الحرارة التى يكثر بها الصلب فى كل مكان لكى يسكروا ويدخنوا الماريجوانا ويتحدثوا عن الكتب التى لم يكتبوها أو عن الكتاب الوحيد الذين كتبوه ويتبادلون الدعابات مع نساء عاهرات كن يضاجعن هذا وذاك.

كما تحدث إليه أيضًا فرانك عن أنَّ الغالبية من رفاق الكفاح كانوا قد هجروا الحزب الشيوعى لتأسيس أحزاب التحرك إلى الاشتراكية والمعروفة بالأحرف الأولى للمسمَّى M.A.S لكنه ينقصه المغزى الروحى بعد أنْ عرض حياته للخطر ليلة تلو الأخرى

لسنوات طويلة لكي يتحمَّل صبر النَّملة كناشط شرعي، إمَّا بزيارة الرِّبى أو بتوزيع المنشورات. أمَّا كلارا فقد كانت تعمل في شركة .IBM (*) كانت تعاني من شظف الحياة، أو من ذلك المصير، بدأ فرانك يتناول المشروبات الكحولية والرُّوحية على الرَّغم من تحذيرات طبية (إذا لم تحافظ على نفسك لن يبقى لك في هذه الدُّنيا إلاَّ عامٌ واحدٌ). كان فرانك يردُّ على ذلك بقوله إذا لم يبق لي إلاَّ القليل في هذه الحياة الدُّنيا فمن الأفضل أنّ أعيشها على أكمل وجه. لقد انتشله من هذا الوضع قائدٌ سابق ومحاربٌ صديقه، أوسبالدو. كان قائدًا أو مجرَّد رفيق من المجموعة المناصرة لدوجلاس برابو التي قبل أنْ تعتزل الكفاح المسلَّح نهائيًا قامت بسطوٍ على فرع لبنكٍ في ميناء لاكروث (مجرَّد معاش الاعتزال. هكذا كان تعليق القائد الجديد للشركة الفنزويلية)، قدَّم أوسبالدو النُّقود لكلارا وفرانك لكي يأتيا إلى باريس معه إلى جانب محاربين آخرين.

وهناك كانوا يعيشون وكانوا يلتقون كلَّ يومٍ في مقهى براسيري مورفين. وقع أوسبالدو، وصديق فرانك وزعيم كلِّ المجموعة، موقعًا حسنًا من إيرنستو كان أوسبالدو نحيفًا، مترويًّا ذا وجه ذكي لثعلب تحت قُصَّة لشعر مجعد أو مفلفل بها بعض الشُّعيرات البيضاء، لم يكن يُعرف على الاطلاق متى يتحدَّث جادًا ومتى يتحدَّث مازحًا. كان يتحدَّث عن الأب

(*) IBM ماركة السيارات الشهيرة.

ماركس وعن الأب جرامسكى، ولم يكن يشير أبدًا إلى الدّيموقراطيات الشّعبية فى الشّرق بل إلى البيروقراطيات الشّعبية. كان يقول جادًا للغاية ينبغى أنّ ننطلق من مبدأ أنّ الافتراءات المشينة للصّحافة البرجوازية الاشتراكية صادقةٌ. وكان يقول أيضًا: إنّنا نعرف سجون الرّأسمالية : لم يبق لنا سوى معرفة سجون الاشتراكية: من تلك لن نخرج أبدًا، وأنّ الأمل الوحيد لدى الفرد منا هو أنّ يردوا له اعتباره بعد وفاته. كان يظهر معه دائمًا شابٌ أشقر، طويل القامة، ذو أخلاق مرنة، وتظهر عليه القداسة فى النّظرة، كان يسمّى كاتيرى ثيسبيديس. كان ذا صوت متأنٍ تغلب عليه لكنة أهل كاراكاس ذات التّنغيمات الحزينة الشّكاءة، حكى لإيرنستو كيف أنّ شقيقه التوأم لقى حتفه فى عملية روتينية. كان الأمر يتعلق بإطلاق أعيرة نارية من مدفعٍ رشّاش على زجاج شركة نفط هى شركة(*) التى تمّ افتتاحها مؤخّرًا. كانت مجرّد عملية اعتداء، لكنّهم لسوء طالعهم فوجئوا بدورية لاسلكى. عندما كان شقيقه يجرى إلى جواره صوب السّيّارة التى كانت تنتظرهما، سقط شقيقه نتيجة رصاصة فى ظهره. كان فرانك يشارك فى العملية، ومنعه من أنّ يحمل شقيقه. صرخ فيه فرانك قائلاً له وهو يجرّه من ذراعه سيقتلوننا جميعًا، ندم الكاتيرى لأنّ بعد هذا كله كانت العملية لا جدوى منها : لقى شقيقه حتفه فى اليوم التّالى ودُفن، ورأى من على بعد كيف أنّهم قاموا بتركيب زجاجٍ جديد فى نافذة المبنى.

(*) Créole Petroleum Company، بالإنجليزية فى الأصل.

عندما انتبه أوسبالدو (لم يكن ذلك صعبًا، بالتأكيد، نظرًا لحالة نعلى إيرنستو والشهية التى كان يلتهم بها السندويتش وكيف تناول كيسًا من البطاطس المقلية) إلى الوضع الاقتصادى لإيرنستو، فعل شيئًا مذهلاً : ذات ليلة وهم يتناولون الجعة عند منصة مقهى مورفين، وضع أوسبالدو لإيرنستو فى جيبه ظرف بريد جوى به نقود. عدها إيرنستو بعد ذلك: كانت ألف وخمسمائة دولار. إنها ليست نقودى ولكنها جزء من نزع ملكية هكذا قال له أوسبالدو، دون أن يُرى أى أثر لذلك على وجهه. لم يقل له إيرنستو شيئًا على الفور. ظل يتناول الجعة وبعد بضع دقائق تكلم إيرنستو. قال لهم : إنكم مجانين تمامًا. كان الفنزويليون يعجبون دائمًا أهل بارانكيا. أذهله أن يفكر أحيانًا فى أنه لو وُلد فى تلك البلد لكان وضعه مختلفًا تمامًا، اللهم إلا إذا لقى حتفه مثل شقيق كاتيرى وآخرين كثيرين. كان الكفاح المسلح فى فنزويلا قد تبلور بشكل أفضل ولم يكن كما فى كولومبيا : عبارة عن مغامرة لبعض الطلاب المغرر بهم وبعض الفلاحين المنعزلين دون أية مساندة سياسية لقد خسر الفنزويليون الحرب ولكنهم بدأوا مراجعة نقدية أمينة لتلك المرحلة والتى تُوجت بتشكيل حزب التحرك إلى الاشتراكية. لقد تم استرداد المحاربين لنمط آخر من الكفاح، طويلاً بلا شك ولكن على أسس قوية متماسكة. (لقد اطلع على مقالات واضحة جلية لتيودورو بيتكوف) ظلت عناصر قليلة تقاوم. بمن فى

ذلك هؤلاء الأصدقاء الموجودون فى باريس كانوا يدركون أنّ وضعهم عارضٌ. كانوا ينتظرون الاندماج فى المجتمع الفرنسى بمجرّد إيجاد حل لوضعهم القانونى، الذى كان ممكنًا.

كان الجميع يقلقهم الوضع فى شيلى. كانوا من انصار الوحدة الشّعبية، لكنّهم كانت تساورهم الشّكوك بشأن سياستها. كانت هناك انشقاقات ونزاعات بين صفوف اليسار بينما كان اليمين يتحد ويتآلف. إنّنى لا أثق فى الاختصارات ومدلولاتها، قال أوسبالدو، وهو يمرّر إصبعًا على شاربه، وخاصة تلك الاختصارات الخاصة بالحركات والجماعات التى كانت تستند عليها حكومة الليندى. كان يطعن فى المفاهيم العمالية الدّقيقة للأحزاب الماركسية الكلاسيكية وكذلك النزعة الطّليعية للحركة الدّاخلية الوطنية. إنّهم يصيحون كثيرًا، يخيفون الطّبقات المتوسّطة. إنّهم يؤمّمون شركات قوام عمالها ثلاثون عاملاً. مزيدٌ من التّحريض وقليلٌ من التّنظيم، كل هذا، ستراه، سيهوى وسينهار. إنّنى أعتقد أنّ خبرتنا يمكن أنّ تخدمهم، ربّما ينتهى بنا الأمر أنّ نكون هناك جميعًا. هل ستأتى معنا إلى شيلى ؟ سأله أوسبالدو نصف جاد، نصف مازح ذات ليلة. فبعد كلّ ذلك أنت لا تفعل شيئًا فى باريس. ضحك إيرنستو، لكنّه ظلّ مضطربًا فى الواقع ينتابنى إحساسٌ أحيانًا مثل إحساس المشاهد الذى يظلّ بالمسرح عقب انتهاء العرض.

إنَّ مينينا التى كان يراها بكثرة، كانت تسأله دائمًا عن أونا بنبرة كان بها مزيجٌ من السُّخرية والغضَب على حدِّ تفكيره ماذا ترى فى تلك المرأة ؟ إنَّها مبتزةٌ للرِّجال من عصر جدَّتى، هكذا كانت تقول له. أحيانًا كان ينظر إلى فيها بإمعانٍ دون أنْ يعير اهتمامًا لما كانت تتحدَّث عنه. سألته ذات يوم وهو شارد الذِّهن ماذا بك ؟ ردَّت عليه مينينا، أفكار سيئة، ظنونٌ، كانت تبتسم بهدوءٍ دون أن ترفع عينيها تجاهه. ضحكت فيما بعد من اللبس والغموض الذى سبَّبته له. في الواقع لم يكن يعرف إيرنستو ماذا يفعل مع مينينا. كان يشكُّ فى أنَّها صديقة أوسبالدو. لكن كلارا بدَّدت شكوكه ذات ليلة. قالت له : إنَّ مينينا لا تنتمى لأحد. والرِّجال بالنِّسبة لها مثل الشيكولاتة. إذا أعجبتها قطعة شيكولاتة أكلتها ولا تعير للموضوع أيَّة أهمية. وعندما تصاب بعسر هضم تأخذ نوعًا آخر.

كانت حفلةٌ فى منزل الشَّاعر ليناريس كافية لكى يختفى قلقه تجاه مينينا تمامًا. كان الشَّاعر يعيش الآن مع فتاة يهودية فى شقَّةٍ ذات مستويين، فسيحة جدًا بشارع الجنرال ليمون. انتهت تلك الحفلة بتناول كثيرٍ من الرُّوم كما يقول الفنزويليون. انتهت إلى فوضى مطلقة، كان كلُّ قرينين يتهامسان ويتداعبان فى ركنٍ من أركان المنزل. اختفى أوسبالدو سرًا مع خوليا. جلس ليناريس إلى جوار مينينا وكان يتحدَّث إليها بطريقة خاصة جدًا حيث وضع يده الكبيرة فوق ركبتها. وعندما أراد ليناريس تقبيلها أبعدته بالشدِّ

والجذب والضّحكات، بينما كان الكلب ياس(*) الذى ينتمى لفصيلة الثّعالب ينبح بحماس.

شرحت مينينا لإيرنستو عندما تمكّنت من التّخلص من الشّاعر، وجلست إلى جواره. كانت عيناها تبرقان بصورةٍ غريبةٍ، وكان الدّم يشرق فى وجهها برقّة. مرّر يده فوق وجهها، ولم يدر فى أىّ ساعة كانا يتبادلان القُبلات. كان يشعر بالاتصال المتعطّش إلى لسانها. قالت له فجأةً : تعال. نهض واقفًا من فوق الأريكة حيث كانا يجلسان أخذته من يده، واصطحبته إلى السُّلّم الضيّق الذى كان مزدحمًا إلى غرفة كبيرةٍ فى الطّابق الثّانى. كانت الغرفة مظلمةً. وفوق سرير كبير كان يشغل معظم الحجرة، كان بها كثيرٌ من الأشخاص يدخّنون الماريجوانا من بينهم كلارا.

ظلّ صامتًا من هول المفاجأة، قائلاً عجبًا، عجبًا، إنّنى أصبحت عجوزًا إعتقدت أنَّ...

كانت كلارا على صوابٍ إنّها ترى أنّ الحب مثل علبة بونبون يراها الشّخص بنهمٍ وشراهة. كانت غريزةً محضة وفضول المروءة. أحسّ كلاهما بالسّعادة. سألها إيرنستو عن عمرها ؟ فقالت له واحد وعشرون عامًا ردّت عليه والماء يتساقط من فمها. وطلبت الشّامبو لكى تغسل شعرها.

عندما خرجا أطلق فرانك بعض الدّعابات الصّاخبة لم تعره مينينا اهتمامًا. نزلت على السُّلّم

(*) Yes، بالإنجليزية فى الأصل وتعنى نعم.

وتوجهت إلى المطبخ وأكلت جبنًا وبسكويتًا. كانت تشعر بالجوع.

كانت هي التي اقترحت عليه البقاء في شقته. كان شعرها الرطب يتدلى على وجهها وكانت تشبه تاج الوردة التي تفتحت حديثًا، خرجا إلى الشارع بحثًا عن سيارة أجرة. كان الوقت متأخرًا جدًا. وبدا له من الغريب التجوال في سيارة بالمدينة وهي إلى جواره، كانت باريس تلك وقت الفجر خالية، وهناك أضواء النيون في الهواء البارد المشبع بالشبورة.

كانت مينينا قد نامت على كتفه . فكر للحظة أنه من الأفضل أن يصطحبها إلى مكان بعيد جدًا. إلى شيلي، لم لا سألها بمزاح .

لقد أذهلته تلك الورقة المطوية مرتين والمثبتة على بابه بدبابيس مكتب . فكر مذعورًا أن تكون من أونا .

كان يخشى مقابلتها. قرأ الورقة . وخلال بضع ثوان لم يفهم شيئًا. كانت تقول ببساطة اتصل بي هاتفيًا لأمر عاجل جدًا، وكانت موقعة من بيرنارد. انقبض قلبه فكر في ماريا.

- ٣ -

غثيان ؟

أهكذا يقال بالإسبانية ؟ قالت جاكلين. إذنْ، نعم، كانت ماريا تعانى من غثيان، فجأةً كانت تسير ثم فقدت توازنها. كانت حالتها سيئةً جدًا. كانت تتحدثُ دائمًا عنك. ذات مساءٍ كانت تعبر ميدان مويرت ثمَّ أجهشت بالبكاء.

هل هو ميدان مويرت ؟

يبدو أنكما كنتما تتواعدان هناك عندما وصلتما إلى باريس.

بالتأكيد.

فعلت خوليا كلَّ مافى وسعها لمساعدتها. كانت تقول لها ينبغى أنْ تنساك، إنَّك كنت فى شيلى، ومن المحتمل الأَّ تعود إلى باريس أبدًا.

هل تعتقدين أنَّ هذه طريقة لمساعدتها ؟

نظرت إليه جاكلين :

هل عدت إلى باريس من أجل ماريا؟

تأخَّر إيرنستو فى الرّدّ.

من المحتمل. فى الواقع خرجت فى طائرةٍ مليئة بالمعزولين الذين جاءوا إلى فرنسا. لم أر فى بوجوتا شيئًا سوى المطار.

ألا تدرى حقيقةً أنَّ ماريا...؟

لا.

لم يقل لك أحدٌ ذلك ؟

من الذى كان بوسعه أن يقول لى ذلك ؟ أصدقائى فى شيلى، إنَّ معظمهم فنزويليون، لايعرفونها. كانت جاكلين تنظر إلى دخان السِّيجارة، الذى كان يتصاعد من يده. تحدَّثت بصوتٍ هامسٍ.

هل عرفت كيف حدث كلُّ ذلك ؟

لا، لم يخبرنى بيرنارد بالتَّفصيل. أو أنَّنى لم أترك له سعةً من الوقت لكى يخبرنى بكلِّ التَّفاصيل.

إنَّ هذا الشَّخص سفيهٌ.

تمامًا.

إنَّه ابن الطَّبقة المتوسِّطة الكلاسيكى الفرنسى، الذى يقيس كلَّ شىءٍ بالمال. كانت ماريا سعيدةً معه لأنَّه اشترى شقَّةً وأثاثًا. لم يكن يفهم نوبات اكتئابها، وعندما كانت تنتابها كان يتصل بخوليا وكان يقول لها: إنَّها تناولت بومبون.

هكذا كان بيرنارد يطلق على الأقراص المنوّمة.
كانت خوليا تأتي وتسقي ماريا فناجين قهوة أو تستدعي طبيبًا، وتتحدّث معها حتى تخرجها من أزمتها. وهل تعرف شيئًا عجيبًا ؟ عندما كانت ماريا تحت تأثير الأقراص، كانت ترى بيرنارد وكأنه نوع من الأخطبوط. كانت ترى شخصًا يعتصر، يختنق. لم تستطع رؤيته.

كان بيرنارد كالنّحال. وكانت الأم قبيحة المنظر.

كانت خوليا تقول لي إنّ بيرنارد كان أكثر استبدادًا بمرور الوقت. كان يهدّد ماريا بأنّه سيودعها مصحة للاستجمام. كانت ماريا تحاول أنْ تفعل كلّ مايريده، أنْ تتصرّف كربة منزل برجوازية كاملةً وتستقبل أصدقاءه، وكان كلّ شيء على مايرام، على أكمل وجه إلى أنّ أُصيبت ماريا بأزمة أخرى. كان بيرنارد يذهب آنذاك إلى منزل والدته تاركًا ماريا بمفردها. وفي آخر مرّة اضطر على سبيل الاحتياط لأخذ الأقراص المنوّمة معه وكذلك لإخفاء كل الأغراض البتّارة في المنزل. نسي بيرنارد فرن الغاز.

هل كان الغاز...؟

نعم.

احكي لي.

لماذا ؟ الأمر لا يستحق.

من الأفضل الآن معرفة ذلك. احكي ياجاكلين.

إنَّ بيرنارد ذلك الذى فتح له الباب فى صمت لم يكن يشبه فى شىء بيرنارد الذى كان قد تعرَّف عليه من قبل.

كان هناك سوادٌ كبيرٌ أسفل عينيه، ولم يحلق لحيته منذ يومين فكانت تغطى خدَّيه مما أضفى عليه مظهرًا من الإرهاق المزعج. كان يرتدى قميصًا من الصُّوف وصديريًا قد زرَّره بشكلٍ سيئ. كان يتحدَّث بصوتٍ خفيض. وقد اصطحبه إلى صالون مفروش بالبُسط وقطع أثاث حديثة وستائر سميكة النَّسيج كانت تتسرب من خلال خيوط ضوء الصَّباح الأولى، شرح لإيرنستو أنَّ ماريا كانت تعانى من أزمة اكتئاب خطيرة. منذ ثلاثة أيَّام لم تأكل شيئًا، كانت تتناول أقراصًا كثيرة من الباربيتوريك ومهدئات لكى تنام، وبالتَّأكيد كانت تقول أشياء غريبة تحت تأثير تلك المخدِّرات : إنَّنى لا أريد البقاء على قيد الحياة، لاأريد أنْ أراه بعد ذلك. كانت تقول إنَّنى أشبه والدتها، لا أدرى لماذا. كانت تنادى عليك وهى نائمة وعندما كنت أظهر فى الغرفة كانت تكيل لى السِّباب.

كان وجه بيرنارد قلقًا متوتِّرًا، وكانت لحيته ترتعد. وعيناه حمراوين مثل سكران ثمِلٍ ظلَّ نائمًا فى بارٍ واستيقظ فجأةً. لم أنم منذ يومين تمتم بيرنارد. كان على وشك أن يسقط على الأرض. لماذا لم تأخذها إلى مستشفى ؟

سأله إيرنستو. لم ترد ماريا، هكذا أجاب بيرنارد. كانت تقول إنَّنى أريد أنْ أتركها مع المجانين. كانت مختلةً تمامًا.

عاد إيرنستو ليسأله مرَّةً أخرى وماذا قال المحلل النَّفسى ؟ أوه لا أحد فى مثل هذه الحالات يمكن أنْ يساعد كثيرًا... لا أحد هكذا ردَّ بيرنارد. أخذ إيرنستو انطباعًا بأنَّ الرَّجل سيجهش بالبكاء بين لحظة وأخرى. قال له إيرنستو: حسنًا. كانت قد اتخذتَ قرارًا. اذهب لتنام فى مكانٍ آخر. فأنت فى حاجةٍ إلى الرَّاحة . اتركنى هاهنا وسأرعاها. هل لديك مكان تنام فيه ؟ لدى بالفعل : غرفة خادمة فى الطَّابق الأخير بالمبنى نفسه. نعم، ثمَّ سنتحدَّث فيما بعد. وافق بيرنارد بسلاسةٍ وهدوء. قال : ربَّما يكون ذلك أفضل. طلب منه أنْ أوقظه فى حالة وجود أيَّة مشكلة، وسلَّمه علبتى فاليوم وأخرى إينمينوكتال. إنَّنى أعطيها ذلك كلَّ ساعتين وإذا لم أفعل ذلك، فهذا أمرٌ خطيرٌ فقد تقدم على ارتكاب عملٍ جنونى.

عندما انصرف بيرنارد، خيَّم الصَّمتُ على إيرنستو فى تلك الشَّقة الفسيحة والفاخرة. كانت هناك ساعةٌ ثقيلةٌ من البرونز فوق رفِّ المدفأة قديمة جدًا. كان الأثاث ينمُّ عن ذوق رفيعٍ، وكانت هناك أوانٍ زجاجيةٍ فوق الطَّاولات. فكَّر إيرنستو فى أنَّه يستحيل عليه مطلقًا أنْ يوفِّر لماريا مثل ذلك. كان مكانًا هادئًا، يختلف تمامًا عن شقَّته البائسة بمرتبةٍ على الأرض، التى ينبغى أنْ تكون مينينا نائمةً عليها فى تلك اللحظة. يالها من أمور غريبة تحدث لى، هكذا فكَّر إيرنستو وهو يتوجَّه إلى غرفة النَّوم حيث توجد ماريا. كانت الغرفة مظلمةً تمامًا، وكانت رائحتها تنمُّ عن

غرفة مغلقة، وبها رائحة السجائر. أخذ الانطباع فى أنَّه عاش تلك اللحظة. كان السَّرير قد وضع أسفل نافذة. وكان الظَّلام يهيمن على الغرفة تمامًا بشكل يستحيل معه أنْ يرى ماريا، لكنَّها بدت له أنَّها نائمةً. جلس فى صمت على حافة السَّرير. رأى رأسها بالكاد على الوسادة كانت تتنفَّس بعمق. فجأة وهى تتحرَّك قالت شيئًا بالفرنسية أنا عطشانة كانت تقول ذلك بغموض، كان صوتها مضطربًا مثل شخص ثمل. أحضر لها كوبًا من الماء، رفضته ماريا بإيماءة. همست باللغة الإسبانية قائلة: أريد أنْ أموت. مرَّر يده على وجهها مداعبًا إيَّاها. تعرفت عليه بشىء ما، من رائحته. تمتمت قائلة: إيرنستو كان فى صوتها دهشةً. نعم أنا أجابها إيرنستو، وقد استغرقت في النَّوم مرَّةً أخرى، كان صوتها ينُمُّ عن الإرهاق، كانت فى حالة بين النَّوم واليقظة بين الشُّعور واللاشعور، قالت له ابق معى، ثم إلى جوارى. خلع إيرنستو نعليه ومعطفه وفرد نفسه فى السَّرير إلى جوارها منهك القوى أيضًا. أحسَّ أنَّها التفتت إليه وعانقته. سمعها تتمتم قائلة : انا أحبك. أغمض إيرنستو عينيه، وهجر تمامًا ذلك الإحساس، لكن يدى ماريا كانت تعانقه وتحميه، وكانت سخونة جسدها إلى جوار جسده يشبه تمامًا وضعهما فى مايوركا. كم كنَّا سعيدين هناك، كان يحس بتنفس ماريا التى بدأت تشعر بالهدوء، استعادت الطُّفلة الأمان والطمأنينة فى حلم به سحبٌ هادئة وحقول بها زهور بعد أهوال كابوسٍ رهيب.

عندما استيقظ انتابه الإحساس بأنَّ الوقت متأخر. كان ضوء الشَّمس يبدو أنَّه يتوهَّج خلف السَّتائر السَّميكة بالنَّافذة. ظلت ماريا نائمةً، لكن بشكلٍ كانت تبدو طبيعيةً وهادئةً. نهض إيرنستو بلا ضجيج محاولاً ألاَّ يوقظها، توجَّه إلى الحمَّام. كان الحمَّام فاخرًا يغطى أرضيته وجدرانه سيراميك كحلى ناعم. عندما نظر فى المرآة وجد أنَّ منظره مروِّع. قرر أنْ يحلق ذقنه. بدا له مسلِّيا أنْ يفعل ذلك بماكينة وصابون ذقن بيرنارد. وبعد أنْ وضع على ذقنه كولونيا بعد الحلاقة من ماركة ممتازة، أحدثت له حرقانًا لطيفًا فى وجهه، أحسَّ بأنَّه أفضل بكثير عن ذى قبل. كان جائعًا. كان ينبغى عليه إجبار ماريا على تناول الطَّعام وخاصة قهوة مضبوطة. توجَّه إلى المطبخ الذى كان جيِّد الاضاءة ونظيفًا وكان مكسوًا أيضًا بسيراميك لامع برَّاق فى جدرانه. شوى قطعة لحم طازجة فى طاسة، كان قد وجدها فى الثَّلاجة، بعد ذلك قطَّعها إلى شرائح، وقام بتسخين ماء فى الفرن الآخر لإعداد القهوة. بعد ذلك قطَّع الطَّماطم إلى شرائح. وضع كلَّ ذلك فى طبقين، وأعدَّ القهوة، ثم ذهب إلى الغرفة وهو يحمل صينيةً وضعها فوق طاولة. حرك السَّتائر لكى يدخل ضوء الشَّمس بقوة. وكانت أشجار حديقة مونتسوريوس بلا أوراق تُرى عبر النَّافذة، وكذلك السَّماء صافية جدًا. فتَّحت ماريا عينيها توًا. دعكتهما قليلاً من جرَّاء الضَّوء، ثمَّ نظرت إلى إيرنستو تغمرها الدَّهشة، وكأنَّها فى تلك اللحظة

فقط انتبهت إلى وجوده هناك. صاحت قائلة : إيرنستو !

أصرّت على أنْ تغسل وجهها وتزيّن حاجبيها وترتدى روبًا قبل أنْ تجلس لتتناول الطّعام معه فى ضوء المطبخ. كانت تريد أنْ تعرف كيف ولماذا جاء إلى هناك. عندما علمت بأنّها نامت ثلاثة أيّام هزّت رأسها فى إيماءة عدم تصديق لذلك. قال لها: أنت مجنونةٌ، بطريقة جادة وواثقة ممّا جعلها تضحك. أكّد إيرنستو قائلاً : أنت مجنونةٌ تمامًا. تحدّث لها عن بيرنارد كما يتذكّر. قالت له : إنّه لا يعرف ماذا يحدث لها، ولكن كانت تراه شبيهًا بوالدتها. اهتم إيرنستو بها كثيرًا. كانت عيناه قلقتين تراقبها طوال الوقت، ينبغى أن أهتم بك، كانت هذه هى عبارته المفضّلة. كان يقرّر ما ينبغى علىّ أنْ أتناوله وما لا ينبغى، هل ينبغى أنْ أراك أم لا، كان يضطرنى إلى تناول الفيتامينات... وأنا أقبل، أقبل دائمًا كما كنت طفلةً وكانت أمى تصدر لى الأوامر، لدرجة أنّنى أحسست بالإرهاق، وفقدان شهية رهيب. ليست لدى رغبة فى النّهوض من الفراش. كنت أريد النّوم، النّوم وألاّ أستيقظ مرّةً أخرى. إنّنى أتناول الأقراص بغية الرّاحة، لكنّنى عندما أستيقظ كنت أشعر بأنّنى أكثر إرهاقًا، والحاجة دائمًا إلى الرّحيل، وألاّ أفكّر فى ذلك. عندما أتناول أقراص إنمينكوتال أبدأ بعد فترةٍ أرى الشّىء الواحد مزدوجًا، وينعقد لسانى وتصدر عنّى هراءات لا أتذكّرها بعد ذلك. يالك من مسكين يابيرنارد.

لاذت بالصّمت وضوء الشّمس المشرق يغمر وجهها الشّاحب. قال لها إيرنستو: كلى ثم نتحدّث فيما بعد. أطاعته، لكن بعد برهة. كانت تتكلّم من جديد. إنّ مايحدث لى معك أمرٌ غريبٌ ياإيرنستو. إنّه فى غاية الغرابة. عندما أفكّر فيك، عندما أمرّ بأماكن كنّا فيها معًا، على سبيل المثال ميدان موبرت، أبكى، لاأستطيع تفادى ذلك. كان بيرنارد يقول إنّ هذا شىءٌ عارضٌ، وأنّ ذلك أمرٌ طبيعىٌ فى الأيّام الأولى، لكن لا، لم يكن ذلك صحيحًا. إنّنى فى حاجةٍ ملحةٍ إليك، لكنّنى أفكّر فى الوقت نفسه فى طيبةِ بيرنارد، وفى المعاناة التى كنت أقاسى منها وأنا أعيش معك، وفى لحظات أقول إنّنى أكرهك لكونك طائشًا وغير مسئول، وأنّه ينبغى علىّ أنْ أكون سعيدة للغاية لأنّنى وجدت شخصًا مثل بيرنارد. ماهذه المشكلة. إنّها ورطةٌ قديمةٌ، ياماريا. إنّها مشكلةٌ قديمةٌ جدًا، وأنا ذات يوم تحدثْت إليك عنها : الحرية مقابل... هل تتذكّرين ؟ فى النّهاية. إنّ هذا المسكين بيرنارد لم ينم منذ يومين أو ثلاثة أيّام. إنّ أسهمه فى سوق الأوراق المالية فى الحضيض. اغرورقت عينا ماريا بالدّموع. لا تمزح معه. أيْن هو ؟ هناك فى الطّابق العلوى نائمٌ... نظر إليها جادًا للغاية.. ياماريا إذا كنت تريدينه، أنادى عليه. لكن إذا لم يكن الأمر كذلك، وإذا كان هو مستبدٌ بالنّسبة لك... ياماريا إنّنى مازلت أُحبُك، أنت تعرفين. داعبت ماريا يده. قالت له : وأنا أيضًا، وهى تنظر إليه فى لطفٍ. لكن... أوه، لا أدرى ماذا حدث لى

ينبغى أنْ أكون مجنونةً لكى... هل رأيت ماهذه الشّقة الفسيحة. إنّ بيرنارد يريد أنّ يكتبها باسمى. ياله من مسكين، إنَّنى أجمله يعانى كثيرًا. إنَّه إنسانٌ طيّبٌ. وأنت أيضًا يا إيرنستو. أنا لست مثله قال إيرنستو. لكنَّها لم تسمعه. كانت ماريا تبدو شاردةً. لو أنّى أستطيع... هل يزعجك أنْ تنادى عليه ؟ أحسّ إيرنستو ببرد فى المعدة، تغيّرت قسمات وجهه وقد لاحظت ماريا ذلك. عادت لتقول له إنَّنى أحبُّك وهى تداعب يده. إنَّنى أحبُّك وأنت تعرف ذلك.

وجده إيرنستو مضطجعًا على خيش بائس فى حجرة مشيَّدة بالأحجار فى الطَّابق السَّادس يغطُّ فى نوم عميق. كان وضعًا حزينًا لسمسار بسوق الأوراق المالية، هكذا فكَّر إيرنستو وهو يوقظه. لم تكن التَّدفئة تعمل جيدًا، لأنَّه كان يغطّى نفسه حتَّى ذقنه بمعطفه. تأخَّرت عيناه فى التعرُّف عليه. نهض مرَّةً واحدةً مذعورًا. هدَّأه إيرنستو قائلاً : إنَّ ماريا على مايرام. لقد تركتها تأكل فى المطبخ. هل تأكل ؟ كان وجه بيرنارد تستحوذ عليه الدَّهشة. قال له إيرنستو دعنى أوجِّه لك نصيحةً بينما كان ينظر إلى بيرنارد وهو يضم نعليه. لا تقدِّم لها كثيرًا من الرِّعاية، لأنَّها لديها أعراض اختناق. اختناق ؟ كرَّر الكلمة بيرنارد دون أنْ يفهم شيئًا. قال بيرنارد : إنَّنى فقط أريد أنّ تكون سعيدةً. قال له إيرنستو: إنَّ والدتها أيضًا كانت تريد الشَّىء نفسه لها. وإذا لم تأت ماريا من قرطاجنَّة لألقت بنفسها من فوق قلعة... قال بيرنارد أنا لا أفهم

شيئًا. قال إيرنستو : إنَّ ماريا قدّيسةٌ ضعيفةٌ. ولكنَّه لم يشرح لبيرنارد شيئًا. عندما نزلا إلى الشُّقة، كان يفكّرُ : إنَّ الخوف لديها شديدٌ وسيظلُّ شديدًا دائمًا.

ندم لأنَّه لم يودِّع ماريا قبل ذلك لأنَّه اضطر لحضور ذلك المشهد من مسرحية هزلية رخيصة لأنَّ بيرنارد قال لها : ياعزيزتى الصغيرة بينما كان يداعب رأسها، كانت ماريا تبكى على كتفه. أراد أنْ يظلَّ معهما ليتناولا القهوة. قال إيرنستو لا أستطيع، لاأستطيع، لدىَّ موعدٌ، وعند الخروج إلى الهواء البارد فى حديقة مونتسوريس كانت لديه الرغبة لكى يوجِّه لنفسه ركلة فى مؤخرته بسبب تبلل عينيه بالدموع وتلك الغصَّة فى حلقه. عجبًا لم يبق لى إلاَّ أن أصبح راهبة للبر والإحسان.

أشارت جاكلين بعد أنْ تذكَّرت بأنَّ الوقت كان فى الصَّيف. فى ذلك المساء كان الحرُّ شديدًا. كُنت فى منزل خوليا مع أصدقاء آخرين، عندما اتصل بها بيرنارد لكى يقول لها إنَّه خارج باريس، وقد ترك ماريا وجدها فى حالة اكتئاب. وكان يريد أنْ تأخذ خوليا لماريا شيئًا من الطَّعام. كانت ماريا وحدها منذ ثلاثة أيَّام.

ثلاثة أيَّام ؟

نعم، ثلاثة أيَّام. كنَّا جميعًا نعانى من الحرِّ والخمر، ولم يكن لدينا أنا وخوليا رغبة فى التَّحرك من هناك لكى نركب المترو ونتجه إلى الناحية الأخرى

من باريس. لكنك تعرف طبيعة خوليا. لعنت بيرنارد، لعنت ماريا وكذلك أنت يا إيرنستو، ولكنّها في نهاية الأمر وضعت إناء نيسكافيه، وقليلاً من الجبن والبسكويت وشمّامة وطلبت منّي أن أرافقها. وقالت لأصدقائها إنّنا سنعود بسرعة.

إنّ أوّل ما شعرنا به عند وصولنا إلى السلّم كانت رائحة الغاز. لولا أنّه كان فصل الصّيف لأدرك الجيران في الوقت المناسب. لكنّهم كانوا في أجازاتهم. إنّني لم أتردّد لحظةً واحدةً. قلت لخوليا ابحثي عن الحارسة وسوف أتصل برجال الإطفاء لأنّهم أكثر جدوى من رجال الشّرطة في مثل هذه الحالات. إنّ لديهم دائمًا أكسجين وجميع الأدوات لكسر باب في لحظات. هكذا اتصلت بهم هاتفيًا من مقهىً على النّاصية، قالت لهم "بسرعة" إنّ الأمر يتعلّق "ب انتحار بالغاز". وبمجرّد خروجها من المقهى وانضمامها إلى خوليا التي لم تستطع العثور على الحارسة، سمعنا من على بعد سرينة رجال الإطفاء، ثم رأينا السيّارة تدخل على النّاصية وبعد ذلك بلحظة توقّفت أمام المبنى، ثم رأينا جميع هؤلاء الأشخاص الذين يرتدون السّترات الجلدية والقبّعات الفضّية وهم يقفزون فوق الرّصيف ومعهم المعاول والعدّة الأخرى. كان النّقيب يتقدّمهم، كان رجلاً عملاقًا ذا شارب أحمر، ورجل آخر كان يحمل فوق ظهره أنبوبة أكسجين وفي يده قناع أسود سألونا إلى أين ينبغي أنّ نتوجّه. إلى الطّابق الثّالث أجبناهم، وتقريبًا أزاحونا بدفعة، وكأنّنا بعد الإجابة

عليهم كنَّا عائقًا أمامهم. مرَّ الجميع على السُّلَّم وكأنَّهم إعصارٌ مائيٌ يصعدون درجات السُّلَّم وكأنَّهم يسقطونها بوقع نعالهم الطَّويلة. وعند مرورهم كانوا يفتحون نوافذ بسطات السُّلَّم ويسبُّون الفضوليين الذين كانوا يطلُّون من أبوابهم. عندما وصلوا إلى الطَّابق الثَّالث، تقدَّم اثنان منهم بعتلات وعدَّةٍ أخرى من الحديد وفى أقل من ثانيتين كسروا القفل وفتحوا الباب على مصراعيه.

كانت رائحة الغاز مخيفةً بالدَّاخل. توجَّه رجال الإطفاء بسرعة إلى النَّوافذ وفتحوها. وأوَّل شيء رأيته فى الصَّالون كان عصفورها الكنارى ميِّتًا فى قفصه. وقد أصبح ريشه أبيض. دخلت خوليا بسرعة، ربَّما أسرع من رجال الاطفاء أنفسهم، إلى غرفة النَّوم. دخلت معها. كان السَّرير بلا ترتيب والسَّجادة مليئة بأعقاب السَّجائر لكن لم يكن أحدٌ هناك. ولا فى الحمَّام، وعندما تذكَّرنا الرَّائحة توجَّهنا إلى المطبخ، كان هناك رجل إطفاء منعنا من الدَّخول، دفعناه فسقط على الأرض وسط رجال إطفاء آخرين انحنوا عليها. رأينا ماريا. كانت عاريةً. كانت رأسها تستند على وسادة، إلى جوار فرن الغاز. كانت عيناها تبدوان سوداوين وعلى فمها لعابٌ أخضر. قال إيرنستو : لا تحك لى أكثر منذ ذلك.

معذرة ـ قالت له جاكلين ـ إذا كنت تشعر بأنك لست على مايرام اسكر.

هل كانت ميِّتةً ؟

- لا، ماتت فى المستشفى. عند الفجر. وصل بيرنارد فى منتصف الليل. كان يقول دائمًا إنَّها مجنونةٌ ويكرِّر ذلك طوال الوقت. كان يرتعد. كان الرَّجل يريد أنْ يرسل لك برقية على سفارة كولومبيا فى شيلى، لكن خوليا انتهرته انتهارًا شديدًا.

تناول إيرنستو جرعة كبيرة من الخينيبرا، وقد بذل جهدًا كبيرًا كيلا يفكِّر فى شىء، حتى لا يحسُّ بأىِّ شىءٍ آخر أكثر من طعم الخينيبرا والنَّسيم العليل. ظلَّ ينظر بإمعان فى ضوء الشَّمس الذى يغمر السِّتارة. كان الضَّوء ذهبيًا يميل إلى الاحمرار، وكانت طيور السُّنونو أو الخطَّاف تحلِّق فى الخارج.

كانت جاكلين تداعب يد إيرنستو.

لماذا فعلت ذلك ؟

تأخَّر إيرنستو فى الإجابة.

تمتم إيرنستو قائلاً لا أدرى. إنَّنى فى الأعماق، أعتقد أنَّنى لم أستطع معرفتها أبدًا.

بدأ ذلك يتكرَّر بسرعةٍ لدرجة الإرهاق. كانت أونا تريد أنْ تعرف أيْن ومع من قضى الليلة. كانت تسأله : هل اخترت ؟ أخبرنى، أريد معرفة ذلك الآن توًا. كانا يجلسان فى شرفة دونية [1] كانت ترتدى فستانًا ضيِّقًا موديل فودج[2] وعقدًا متعدد الطَّبقات. قالت له

(١) Doné، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Vogue، بالفرنسية فى الأصل.

أجبنى. كان منهكًا مرهقًا تمامًا من تلك المشاهد التى كانت تتكرَّر فى الأوقات الأخيرة مرارًا وتكرارًا.

لقد فعلت بالضبط مثلما فعلت أنت. قال ذلك فى النِّهاية. ربتت على وجهه ثم نهضت واقفة بفظاظة عند الطاولة. نظر جميع زبائن المقهى إليهما بمن فى ذلك عازف الكمان الذى داعب التُّراب جسده وملابسه وكان يعزف مارًا بين الطَّاولات مقطوعة «كم أنا وحيدٌ». فكلُّ شىء مع أونا كان ينتهى بفضيحة، كانت مغرمةً بالمواقفٍ الهائلة الفاضحة، هكذا فكَّر إيرنستو أيضًا وهو ينهض واقفًا. رآها تعبر أمام زجاج المقهى غاضبةً، ويديها فى جيبى معطفها بينما ساقها نعلاها الطويلان إلى المترو. لم يحاول اللحاق بها. كان يسير فى منطقة مونتبارناس الكثيفة الأشجار يستحوذ عليه الإحساس بالإرهاق الشَّديد، والاستياء، كان يفكِّر فى أنَّه لن يستطيع أنْ يتحمَّل المزيد من ذلك.

اندهش فرانك عندما رأى إيرنستو يدخل شقَّته بذلك المزاج المعتل. وبلا أيَّة ديباجة أو مقدِّمة سأل الفنزويلى بمجرَّد أن جلس أمامه ومعه كأس البيرة فى يده، سأله ماذا كانوا يفعلون هناك جميعًا. انطلق فرانك فى الضَّحك وهو يضطجع على أريكة بين وسادات ملوَّنة، وشعر لحيته الأصفر التى لم يحلقها منذ ثلاثة أيَّام يبرق فى وجهه، نظر لبرهةٍ عبر النَّافذة إلى الأفق الذى تكسوه الشَّبورة وقبَّة الضَّريح ترتفع فى نهايته. التفت إليه فرانك وقال له : ياخنزير

إنّنا لا نفعل شيئًا هنا لكى أكون صريحًا معك. فكلارا وأنا نتعلّم الفرنسية فى شركة اليانثا... وأتابع أيضًا بعض الدّورات الدّراسية فى التّصوير، ومن حين لآخر أجنى الفشل. لا شىء ذا قيمة، ظلّ إيرنستو يتأمّله بهاتين العينين الباسمتين كعينى قط، بعينيه الفاتحتين مثل الشّعر ينمو فى لحيته. ما الذى يدور فى خلدك ياخنزير أخبرنى به. تأخّر إيرنستو فى الإجابة. ورغمًا عنه كان صوته خفيضًا هامسًا كأنّه يفشى سرًا. إنّ باريس يا رجل أصبحت بالنّسبة لى مقزّزة. تحدّث أوسفالدو لى عن شيلى... كان فرانك يبدو فضوليًا. هل ستفكّر جادًا فى الأمر ؟ ظلّ إيرنستو صامتًا. نعم لكنّنى أريد التحدّث معك بصراحة، وبدأ يقول. لقد تركت منذ فترة الإيمان بالطّفل مسيح براغ وفى معجزات الاشتراكية. إنّنى أبحث عن حل شخصى. لعلنا جميعًا نبحث عن حلول شخصية. إنّ باريس أصبحت عفنةً بالنّسبة لى. إنّنى كقطعة فلّين تطفو فوق الماء تسبح مع التّيار. أحيانًا أفكّر فى تلك التى كان الشّخص يرى فيها أنّ الثّورة هنا قريبةٌ جدًا... وكون الشّخص مع النّاس الذين ينتظرون أو يناضلون من أجل الهدف نفسه غيّر وجهات النّظر. إنّنى أتذكّر فلاّحى سوماباث أو فلاحى الكينديو، هناك فى كولومبيا. كانوا يرون مجيئنا بأمل كبير. كنا نجلس إلى جوار موقد على الأرض، وفى أيدينا فنجان من الشّوربة، هؤلاء النّاس الذين كوّنوا حرب العصابات، الذين عانوا الامرّين فى فترة سابقة، كانت تعرف أنّه

آجلاً أم عاجلاً سيعود الجيش بطائراته المروحية. وعقداته... كانوا يقتلونهم كالكلاب فى منازلهم، وكان هؤلاء على استعداد لكل شىء، كانوا ينتظرون فقط الحصول على بعض الأسلحة. كان الشّخص يعيش مع أمور واقعية. كان نصيرًا ومؤيّدًا من ذلك تمامًا، هنا فى بوجوتا ينتظرنى منصب محرر نصوص إعلانات وبعض الحفلات... فهم فرانك. إنّنى أفهم ذلك جيدًا. أنا لا أريد أنْ ينتهى الأمر بى فى كاراكاس أيضًا إلى بيع سيّارات لشركة جنرال موتورز. أو أظلّ فى باريس أطأ روث الكلاب.

لقد تحدثّا مع أوسبالدو الذى استمع لهما دون أنْ يقول شيئًا، كانوا يقفون أمام منصّة البيع فى مقهى مورفين والذّقن غارقة فى تلفيحة صوف ملّطخة بالزّيتون ودون أنْ تترك ظهور ردّ فعل على جانب وجهه كثعلب ماكر. بما أنّه معتادٌ على الكفاح السّرّى، كان أوسبالدو يلوذ بحبٍّ السّرّية. كنت كلّ خطوة يخطوها تتمّ فى سرّية وبدقة وحذر. كان الموضوع فى حيز التّنفيذ، هكذا قال لهم بشكلٍ تشفيرى رمزى. إنّنى سأخبركم وفى لقاءاته التى عقدها مع ذلك الصّحفى صديق سلفادور اللّيندى، الكلب أوليباريس، عرفوا عنها القليل فيما بعد من مهنينا، وكذلك اتصالاته برجال التّنظيمات الثّورية. كان إيرنستو يفضّل أنْ يتمّ حسم ذلك الموضوع بسرعة. كان معتادًا على العمل بالدّوافع المفاجئة، واثقًا بدرجة أكبر فى غريزته على التّفكير الطويل. كان قد قرّر ألاّ يرى أونا

بعد ذلك وأنْ ينسى حتى ماريا، خاصةً وأنَّه كان سيتزوَّج، وأنْ ينسى أيضًا كلَّ مايتعلَّق بحياته فى باريس حتى ذلك الحين، ولم يكن يرى وسيلة أفضل لذلك سوى الإسراع فى رحيله منها. فكلُّ التَّغييرات المهمة فى حياته وعودته إلى أوروبا تمَّت بهذا الشَّكل السَّريع وشبه المجنون، إنَّه لم يكن يعرف طريقة أخرى لتدبير أموره سوى تلك.

كانت مينينا على استعداد أيضًا للذَّهاب إلى شيلى. كانت فتاةً من نوع خاصٍ جدًّا. لم تكن قد شاركت فى عملية سطوٍ أو عمل حربيٍ، لكنَّها جاءت مع فرانك وكلارا لأنَّها كانت صديقةً حميمةً لكلارا، وكانت تشعر بأنَّها ضائعة إلى حدٍ ما فى كاراكاس. كانت قد انضمت إلى الحزب، عندما هجر والدها والدتها وشقيقاتها وتركهن بدون سنت واحد وكان مديرًا لمصنع مياه غازية. اضطرت الأم للعمل فى محل لبيع الأجهزة الكهربائيَّة المنزلية، وفى بعض أعياد الميلاد كانت تطوف فى قطاعٍ تجارىٍ فى كاراكاس وسبانا جراندى وهى تتكر فى حجر ماركة "إيفريدى" كانت طبيعة مينينا تجذبه كلَّما تعرَّف عليها أكثر. كانت كلارا على صوابٍ عندما شبَّهت ذلك بأنَّه مثل تناول قطعة شيكولاتة. وكانت تقول دائمًا : إنَّ الذى لاتطيقه هو أنْ يُتيِّموا بها، ولسوء طالعى كان ذلك يحدث دائمًا. فمنذ أنْ يبدأ شخصٌ فى النَّظر إلىَّ بطريقةٍ ما ويمسك يدىَّ ويسألنى متى سنلتقى من جديدٍ، كان ينتابنى نوعٌ من الاستياء، من الاختناق.

وكنت لا أراه بعد ذلك أبدًا. واستنادًا إلى كلارا التي عاشت معها في كاراكاس فإنَّ الرِّجال نادرًا ما يتحمَّلون أنْ يتم إخلاء طرفهم بهذا الشَّكل الحاسم أو النِّهائي. أحدهم كان شابًا طويل القامة ووسيم، كان يهوى مسابقات الدَّراجات البخارية ويحب السَّيَّارات الرياضية والأسلحة النَّارية أطلق عيارًا ناريًا على يده وقد حبس نفسه في الحمَّام بعد أنْ كان على وشك قتلها. وآخر كان شاعرًا، أمسك بركبتيها وظلَّ يبكي. وقائدٌ معروف في القوات المسلَّحة للتَّحرير الوطني عرض نفسه لمخاطر مجنونة لكي يقترب منها. كانت لمينينا قصص غرامية ثريَّة جدًا، ومدهشة رغم أنَّ عمرها لم يتجاوز واحدًا وعشرين عامًا. كانت تقول أحيانًا : إنَّ الرِّجال كالأطفال الصِّغار. فبمجرَّد أنْ تنظر لهم الفتاة بإمعان، يبدأون في التَّوتر. وهنا يصبحون كالعصافير الصَّغيرة. سألها إيرنستو وأنا أيضًا؟ وأيضًا أنت ماذا تعتقد أنت ؟ الفارق الوحيد أنَّك وقعت في أسري رغمًا عنك. لقد اغتصبتك تقريبًا، وإلا لما كنا حتى الآن نتحدَّث معًا.

استطاع إيرنستو بفضل مينينا أنْ يظلَّ ثابتًا في اقتراحه بألا يرى أونا مرَّةً أخرى. لكن أونا لم تتأخَّر في أنْ أرسلت إليه برقية تخبره فيها بأنَّها تحتاج إلى رؤيته. تواعدا في بنك ثم ذهبا بعد ذلك إلى حانة صغيرة في شارع القدِّيسة أنَّا، كانت حانة مظلمةً وبها تمثالٌ لأبولو في نافذة وكانت جدران الحانة مكسوةً بقماش اللأميه الفضِّي. كان مكانًا

للمنحرفين والشّواذ. قبلت أونا تناول كوكتيل من الرّوم الأبيض اقترحه عليها بائع الحانة. قالت لإيرنستو اقترب وسأقول ذلك فى أذنيك.

قابلها بعد يومين أو ثلاثة أيّام أمام بابه وهى تبكى. لم يكن إيرنستو يعرف لماذا تبكى أونا، أجلسها على الكرسى الوحيد فى شقّته ووضع فى يدها فنجانًا من الشّاى السّاخن. قالت له إنّنى مجنونةٌ بصوت متقطع بسبب التّنهيدات، كانت تبلّل الدّموع وجهها مثل طفلة تبكى لأن دميتها كُسرت. إنّنى مجنونةٌ تمامًا. أنا لا أدرى ماذا يحدث لى. وفى النّهاية وبين جرعة شاى وأخرى قالت له إنّ لينارد رجع ذلك المساء من كاراكاس. وقد ذهبت إلى مطار أورلى لاستقباله. لقد رأيته من بعيد يا إيرنستو مع باقى الرّكاب الذين كانوا يمرّون بالتّفتيش الجمركى، كان يشير إلى ويبتسم لى، كان متأثّرًا، أمّا أنا فكنت، على العكس من ذلك، مثل قطعة من الثّلج، كنت غاضبة متشنجةً متوتّرةً، كنت على وشك أنْ أمزّق يدى بأظافرى.

إنّ ما أحسّ به إيرنستو فى تلك اللحظة هو نفس الإرهاق الذى شعر به عندما تشاجرا فى مقهى دونيه قال لها لأوّل مرّةٍ : إنّها ينبغى عليها أنْ تهجر لينارد وتكون بالغةً ناضجةً. فهناك فرق بين الأب ويين... كان ردّ فعلها غاضبًا. وقالت له : وأنت ؟ أنت وماريا... عمّا تتحدّث ؟ إنّكم جميعًا سواء. وفكّر إنّنى لكى أجىء لأراك تركت المسكين رو... إنّنى لا أطيقك أكثر من ذلك. انصرفت وأغلقت الباب بقوةٍ تركها إيرنستو

❦

ترحل. هذه المرَّة حقيقةً، هكذا فكَّر وهو ينظر من النَّافذة إلى الأسطح الثَّابتة لباريس وقد شردت نظرته فى الأفق. إنَّه الإرهاق.

بعد خمسة عشر يومًا كان إيرنستو فى المطار ومعه حقيبةٌ صغيرةٌ هى كل متاعه.

- ٤ -

ذلك الأحد قبيل السفر كان قد تواعد مع بينياس وبعد ذلك مع ماريا كان ذلك فى فصل الربيع ومن خلال شرفة مقهى ديوكس ماجوتس حيث كان ينتظر بينياس، كان الهواء عليلاً تغمره رائحة القسطل المشوى، كان وجه إيرنستو مشرقًا فى الضوء. كان من القسوة بمكان أنْ يرحل عن باريس هكذا كان يفكر فى تلك اللحظة بالضبط. كان أوسبالدو صامتًا وفعالاً، ظهر قبل ذلك ببضعة أيام فى مقهى مورفين ووضع على الطاولة مثل ورق الكوتشينة نصف دستة من التذاكر إلى شيلى من بينها تذكرته. كان أقسى شيء هو أنْ يقول ذلك لماريا. اضطر إلى تكرار ذلك مرتين فى الهاتف، ظلت ماريا لبضع ثوانٍ دون أنْ تستطيع النطق بشيء إنها الدهشة، إنه الرعب أو الحزن الذى انتزع صوتها أمّا أونا فقد اقتصر على كتابة بعض السطور لها. اكتشف أنَّ الاستعدادات للسفر سريعةً ومحدودةً، وأهدى كتبه للشاعر ليناريس وطلب من

خوليا الاحتفاظ برسائله وأنّ تضع له حلّته القديمة المستهلكة وأربعة قمصان تالفين ومخطوطات كتابه الذى لم يكمله، تضع كلّ ذلك فى الحقيبة. وفى آخر لحظة تذكّر بينياس، الذى كان ينتظره فى مقهى ديوكس ماجوتس.

رأى بعد وقت قليل السّيّارة الجاجوار بلون الفراولة تقف أمام كنيسة سان جيرمان دى برس فى النّاحية الأخرى من الشّارع. دارت بينهما دردشة قصيرة. كان لدى بينياس مقابلة فيما بعد فى فندق ريتز مع مونيكا بيتى وأصدقاء آخرين لها جاءوا من إيطاليا. كان مظهره يدلّ على أنّه على ما يرام صحيًا. تحدّث عن مشروعاته، وعن معرض لأعماله السّابقة كان ينظّمه فى متحف الفن الحديث بنيويورك. كان يريد أنّ يعيش هناك. كانت مدينة عفنة، قال له بينياس، إنّها مدينة خطيرة (ففى رحلته الأخيرة قام زنجيان مخدّران بتمرير ورقة مشتعلة بالقرب من وجهه) لكنّها مدينة هائلة على الاطلاق. إنّ انحطاط وتدهور الرّأسمالية يا أستاذ مستفزّة أكثر من سقوط الإمبرطورية الرّومانية. إنّ عالم المبالغين فى الزّى الذين يحيطون ببيناس ترك فيه آثارًا فاضحة مثل شعر فتاة شقراء بلاتينية على ياقة سترة حلّة تشريفاته الرّسمية. قال له : إنّ سفره إلى شيلى هائل. لابد أنّ تكون حاسة الشّم لدى الإنسان قويّة لكى يعرف عندما تبدأ الجبن فى التّعفن يا أستاذ. عندما استمع إلى مثل تلك الآراء والاعتبارات من جانب

بينياس، فكَّر إيرنستو فى أنَّ بينياس كان بعيدًا جدًا عن مشاكله لكى يستطيع مشاركته إيَّاها. لم يستطع مقارنة عقلية لبينياس الآن، فهو يعيش فى المنفى وفى ذروة مجده، وبينياس النَّحيف الفقير والمثابر الذى كان شقيقًا له فى أوقات أخرى بعيدةً. لم يكن إيرنستو يشعر بأيَّة ضغينة ولا حسدٍ أو حقد، لكن كان يفكِّر دون إيضاح فى اليتم، الانطباع الحزين نفسه الذى يشعر به الإنسان عندما ينطفئ قبس أو جذوة فى غرفةٍ يغزوه البرد القارس. كان من المستحيل أنْ يشرح ذلك لبينياس نفسه. إنَّه لن يفهم، أو إنَّه كان سيردُّ عليه بأحد ردوده السَّفيهة الأصيلة. فالآن انتبه أصدقاؤه القدامى لهذا البعد وتلك المسافة حول بينياس. أمَّا الآخرون الذين تقرَّبوا للرَّسَّام الشَّهير وحضروا الاحتفالات الرَّائعة التى صورتها الصُّحف والمجلات فإنَّهم يشعرون بأنَّهم سعداء لمزحاته وآرائه الجريئة وكلماته البذيئة، ولديهم انطباعٌ بأنَّهم أمام رجلٍ حنون وبسيط. فعندما يتحقَّق له جوٌّ من الاستلطاف كان بينياس ينتابه الإرهاق والملل السَّريع جدًا. كان إرهاقه يُرى فقط فى عينيه لأنَّ كلماته كانت تخرج شبه آلية وتظل تشعُّ حنانًا ودفئًا وفكاهةً. هكذا يحدث الآن عندما يتحدَّث عن باريس، كان يقول عنها إنَّها مدينة ينبغى المجىء إليها جبرًا، لكن لا يجب أنْ يظلَّ فيها الإنسان وقتًا طويلاً.

لقد انصرف بينياس (فى تلك السيَّارة الجاجوار بلون الفراولة بعد أن عبرت الميدان) بعد ربع ساعة.

كان إيرنستو مرّةً أخرى وحده فى شرفة المقهى يغمر ضوء النّهار كلّه عينيه، لكن بإحساسٍ حزين فى صدره لم يستطع كأس آخر من كامبارى[1] أنْ يبعده أو يبدّده. كم كأسًا من الـ كمبارى تناولا قبل التّوجه إلى بلاَس سانت ميشيل [2] لكى يقابل ماريا ؟ رُبّما يكون عددًا كافيًا لتبديد ذلك الشعوْر الحزين رويدًا رويدًا ولكى يستمتع بصخب وتغريد العصافير ومناظر المقاهى وشرفاتها المليئة بالنُّزلاء. فأوّلاً وأخيرًا لايوجد شيء لا رجعة فيه إلاّ الموت، هكذا كان يفكِّر إيرنستو. كان بوسع ماريا أنْ تلتقى به فى أىّ مكان. فطالما أننا أحياء، قال إيرنستو فجأة، وهو يستنشق ذلك الهواء الغليل بشذا الزُّهور، فإنّه لا شىء، لا شىء افتقدناه. لا شىء، ياللهول، فمظلات الحرّ (الشّماسى) المتعدّدة الألوان فى ميدان القديس أندريه للمفنون وتحليق الحمام جعلاه يتساءل لماذا ترك نفسه أسيرًا لتلك المواقف الحزينة المكفهرة جدًا، إنّ باريس مدينةٌ عجيبةٌ، كانت الحياة فيها تبدأ من جديد دائمًا شجّعه هذا التّفكير. لحسن طالعه عندما رأى ماريا من بعيد وهى تلقى للحمام بفتات الخبز، اقترب منها دون حزن، بروحٍ سعيدة. كانت ماريا ترتدى فستانًا أزرق فاتحًا، كان يوحى بأنّها فتاةٌ إنجليزيةٌ من العصر الفيكتورى (نسبةً إلى عصر الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا) لم يرها ترتدى بهذا الشّكل أبدًا. يتذكّر أنّه

---

(١) Campari، بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Place Saint – Michel، بالفرنسية فى الأصل.

قبّلها، ووضع يده على خصرها، وناداها بحبيبتى دون أىّ وقار، وقد ابتسمت له ماريا سعيدةً، وكانت عيناها سوداوين يغمرهما بريق، ونغزتا خدّيها يؤلّفان ذلك الجو العام على غرار أندريه هيبورن الذى رآته لأوّل مرّة. كانت ماريا أيضًا على استعداد فيما يبدو لئلاّ يتسرّب لها أىّ حزن وألاّ تترك هذا اللقاء يضيع سدىً، وبدلً من أنّ يكلّمها عن سفره، تحدّث لها عن ذلك الرّبيع الرّائع.

طافا بال كويه دي سونت (1) عدّة مرّات كما فعلاه عندما جاءا إلى باريس قادمين من مايوركا. استندا على حاجز جسر نيق (2) لكى ينظرا إلى السيّاح الكثيرين الذين كانوا يتنزّهون فى النّهر: نزلا السّلالم المؤدية إلى فيرجالان جلسا عند حافة الجزيرة فى ظل شجرة صفصاف وهما يضعان أقدامهما فى الماء. كانت السّماء صافيةً ولا يوجد أيّة غيوم أمامهما أو حتى على الجسور ومبانى متحف اللوفر. حكت له ماريا أنّ زوجها بوسادا وافته المنية. لم يهمها ذلك كما قالت له. كما لو كان غريبًا. كانت تتذكّره مثل كابوس بعيد. إذنْ أنت الآن أرملة ؟ ردت عليه قائلة: بالفعل أنا أرملة. عبرت بوجهه علامات القلق. قالت له يا إيرنستو فجأة : سأتزوج. اتصل بيرنارد بوالدتى... هل طلب يدك ؟ ضحك إيرنستو. عجيبة إنّ بيرنارد رجلٌ شهمٌ من فرساى. قبل أنّ

(1) Quai de Conti، بالفرنسية فى الأصل.

(2) Neuf، بالفرنسية فى الأصل.

تجتج ماريا وضع يده على ركبتها. ياحبيبى لندع الحديث عن ذلك. هل تريد ؟ اليوم لا.

أمسك كلٌ منهما بيد الآخر وطافا بجميع محلأت الزٌهور والعصافير بجزيرة المدينة. توقٌفا أمام رجلٍ عجوزٍ جداً كان يقوم بإخراج أقفاص عصافير الكنارى من عربة نصف نقل زرقاء. كان من حين لآخر يصيب الحمامات التى كانت تُحلّق قريبًا من السٌيارة يتذكٌر إيرنستو أنٌه اشترى لها عصفور كنارى. عصفور كنارى كانت ماريا ترعاه بعناية فائقة وتقترب من قفصه حيث كانت تُحلّق عيناها السوداوان الواسعتان. أهداها إيٌاه مع قفصه الذٌهبى وكان على شكل قُبٌة. اتفق على أنْ يُسمٌى عصفور الكنارى (اسم مناضل بوليفيا تشى جيفارا) أمٌا عصفور الكنارى فيدل الذى كان لديهما فقد وافته المنية نتيجة تسريبات غاز. كانت ماريا لاتزال تعتقد أنٌ عصافير الكنارى تجلب الحظٌ. يبدو أنٌها كانت تأخذ الخزعبلات مأخذ الجدٌ، لأنٌها فيما بعد رفضت دخول كنيسة نوتردام. لم يكن ذلك بسببٌ العصفور كما شرحت ذلك. لأنٌ امرأةً من الغجر كانت قد قالت لها: إنٌها إذا دخلت كنيسة نوتردام سترحل عن باريس. لذلك دخل إيرنستو بمفرده. كان يريد أن يرى كنيسة نوتردام لآخر مرٌة. كانت الكنيسة مكتظٌةً بالنٌاس الذين كانوا يحضرون شعائر دينيةً. كان صوت الجوقة تحت القبٌة الكبيرة بالكنيسة يردٌد "سبحان الله". رائحة تلك البخور والأصوات الرٌنانة فى الكاتدرائية أعادت إيرنستو إلى ذكريات بعيدةٍ ترجع

إلى أيَّام المدرسة الدَّاخلية. أحسَّ بأنَّه حزين. كيف كنت أودُّ أداء الصَّلاة، هكذا فكَّر إيرنستو، أتمنَّى أن أؤمن بالله، بالحبِّ، بالطَّيبة، بالإخاء... كل هذه الحكايات. تُذكِّر إيرنستو كلمات السَّيد المسيح، وأنَّه كان يصلِّي بحماس عندما كان طفلاً. عندما خرج من الكنيسة، اهتز جسده أن يرى طيف ماريا في وضوح نور المساء بحلَّتها الزَّرقاء الرَّقيقة وفي يدها القفص بالعصفور في النَّاحية الأخرى من الشَّارع.

هكذا سيتذكَّرها دائمًا كما فكَّر في ذلك الوقت. هكذا كان الطَّيف الأثيري، شبه الطَّيفي، في الضَّوء المضاد، في الجوِّ البديع من ذلك المساء الرَّبيعي. يتذكَّر إيرنستو أنَّهما ظلاَّ يتنزَّهان. كانا قد توقفا على جسر شانج (١) يجذبهما صوت الطُّبول القادمُ من أسفل. كان هناك بعض الزُّنوج يرقصون على ضفاف النَّهر. جلسا على المقهى وبعد ذلك عندما نهضا من الطَّاولة، بدأ الضَّوء يأخذ درجة لون الغسق، وجلسا قلقين، بدأ الاثنان يحسَّان بالقلق، كان كلاهما يشعر بغصَّة في حلقه وثلج في معدته وأحشائه. دخلا شارع جي لو كوان(٢) الذي كانت الشَّمس تسطع في أعلى منازله، أمَّا الباقي فقد كانت تهيمن عليه ظلال الضَّوء الأزرق. أضيئت بعض الأنوار في النَّوافذ. ثمَّ جاءت من بعض الأفنية موسيقى عربيةٌ صاخبةٌ. قال إيرنستو في النِّهاية ـ لم نتكلَّم. كنت أودُّ أن أقول لك إذا في

(١) Change، بالفرنسية في الأصل.

(٢) Git-le Coeun ، بالفرنسية في الأصل.

يوم ما.. لا، من فضلك، ردّت عليه بحيوية، لا لو تكلّمت هكذا ستجعلني أبكي. رافقني إلى المترو.

توقّفا في شارع بونشي أمام محل للحلويات. سألها هل هي جائعةٌ نفت ماريا برأسها، لكنّه فهم أنّها كانت تحاول أنْ تكبح دموعها. هكذا دخل المحل وأحضر لها قطعة حلوى بالشّيكولاتة. وضعت القفص على الأرض، أكلت قطعة الحلوى بشهية. عندما التقت نظرتاهما حاولت الابتسام له. ابتسم لها أيضًا، أو حاول القيام بذلك، لكن الحزن كان ينبغي أن يخرج من مسامه، لأنّها ظلّت تنظر إليه بشكل غريب فاغرورقت عيناها بالدّموع ثم انهمرت على خدّيها. عانقها إيرنستو. نظر إليهما النّاس الذين كانوا يمرّون في الشّارع. وضعت وجهها في تجويف كتفه وأخذت تبكي، بينما كان العصفور الكناري يرفرف في القفص عند قدميها. طلبت منه منديلاً. قالت له : يشتد غضبي لأنّني أحبك حبًا جمًا وبدأت تُجفّف دموعها. لكنها بدأت تمتلئ مرّةً أخرى بالدّموع. حينئذ شعر إيرنستو بأنّ الغصّة التي كانت في حلقه تضغط عليه وكأنّها حبلٌ. قالت له وقد أمسكت بذراعه بقوة. لحسن الحظ كان هناك على بعد بضع خطوات موقف لسيّارات الأجرة. فتح باب أوّل سيّارة منها ودفعها إلى دخلها. ثم أعطاها القفص. سمع صوته غريبًا، صوتًا مبحوحًا، هامسًا جدًا يقول لها : ياماريا ليحدث ما يحدث سأكون دائمًا هناك في انتظارك.. أدرك أنّه لن يستطيع أنْ يضيف أيّة كلمة بعد ذلك فأغلق باب

السّيارة الأجرة بقوّةٍ. أطلّ من النّافذة للباب الآخر وأشار على السّائق بعنوان ماريا. تحركت السّيّارة، ورآها لآخر مرّةٍ، رأى وجهها وعينيها مفعمتين بالدّموع.

كان يشعر بالخواء فى داخله وكانت ركبتاه ترتعدان. لم يكن يريد أنّ يرى أحدًا. فلا أحد يستطيع أنْ يفهم ماكان يحدث له. اقتصر على الاتصال بخوليا هاتفيًا. قال لها : لن أراك إنّنى حزينٌ. لكن من أخ إلى شقيقته أريد وعدًا منك، أودّ أنّ ترعى ماريا وتهتمى بها، أن تتصلى بها وتخبرينى بكلّ مايحدث لها. سأكتب لك. لم تصدر عن خوليا آية مزحة. لأوّل مرّةٍ لم تقل خوليا شيئًا فظيعًا. سمعها تقول : وهو كذلك بصوت جاد. ياشقيقتى إنّى أحبّك، لكنّنى لا أريد أنْ أراك لأنّ مواقف الوداع تجعلنى استفرغ. قالت خوليا وأنا أيضًا. لكن لا تكترث، لا تقلق، فالعالم كالمنديل، إنّه منديلٌ صغيرٌ.

– حسنًا انتهى كلّ شيء. بالنّسبة لأونا فلن يراها، ولماذا ؟ لم يبق له سوى أنْ يقضى الليلة بأيّة طريقة، التجوال على غير هدى عند الغسق فى سان جيرمان دى برس ويتناول كأسًا فى أىّ مكان. يالذلك الجو، مازال يتذكره حتى الآن، يالذلك الجو البديع ! مازال النّور يملأ الأرجاء على الرّغم من أنّ الشّمس قد غابت، وبدأت النّجوم تسطع وتتلألأ. كان الجو فى أوديون جو حفلات وأفراحٍ. كان هناك شابٌ يعزف على قيثارته فى مقهىً. وبعد ذلك بقليلٍ كان هناك

الرَّجل الذى يبصق نارًا وينتقل من مكان إلى آخر، كان نصفه العلوى عاريًا، وفى يده زجاجةٌ، وسط حلقة من الفضوليين. باريس ستظلُّ دائمًا باريس، ينبغى على الإنسان أنْ يكون أجنبيًا لكى يعرف كنه هذه المدينة، لكى يحملها الإنسان دائمًا كأنَّها شوكةٌ فى داخله، لكى يحبُّها ويعشقها. دخل إيرنستو مقهى وطلب كأس بيرنود. كان يحتاج إلى شىءٍ قوى. رأى وجهه فى مرآة الحانة. رجلاً ناضجًا وحزينًا. تذكَّر دون أنْ يدرى لماذا، الفترة التى كانت تنتظر فيها ماريا وصوله فى الشقَّة المجاورة للسكَّة الجديدة، وعاد يشعر بغصَّة فى حلقه، والبرد الشَّديد فى معدته. سأبكى، ولا أستطيع. فالرِّجال لا يبكون، حتى لو كانت أحشاؤهم فى يدهم. ياللغباوة !

وفى فندق كارميس حيث كان يعيش بعد ... ن سلَّم شقَّته، وجد ورقةً من أونا. "مرَّرت هنا. حكت لى خوليا أنك سترحل. إنَّنى فى حاجة إلى رؤياك أونا" جلس على دكَّة عامة فى بلاس موبير(*) بالقرب من الفندق، كان يرقب النَّاس الذين يمرُّون عليه. عندما أحسَّ بوجود أحدٍ خلفه. كانت أونا. ظلَّت واقفةً دون حراك وقد وضعت يديها فى جيبى معطف المطر. قال لها بشكلٍ غير لائق : أهلاً. كانت أونا غاضبة كطفلة. هل حقًا أنَّك سترحل ؟ سألته. قال لها نعم. ردَّت عليه قائلةً : إنَّ هذا كلَّ ما أودُّ معرفته، قالت ذلك فى غلظة وتوجَّهت إلى المترو. تركها تذهب دون أنْ ينادى عليها.

(*) Place Maubert، بالفرنسية فى الأصل.

يالها من شخصية فذّة...، فكّر بمزاجٍ معتل. ظلّ هادئًا للغاية يستنشق هواء الليل كان هناك رجلٌ عجوزٌ يتنزّه مع كلبه في الميدان يالها من حيل يخترعها النّاس للتّغلب على الوحدة، هكذا فكّر إيرنستو. فغدًا في السّاعة نفسها سأكون طائرًا فوق المحيط الأطلسي.. وربّما فوق جبال الإنديز كلّ هذا سيكون بعيدًا جدًا. نهض من فوق الدكّة. عندما كان يسير في شارع كارميس تجاه فندقه سمع أنّهم ينادون عليه من خلفه كانت أونا مرّةً أخرى. قالت له معذرةً، إنّني سفيهةً. هل تريد تناول العشاء معي ؟ أنا أدعوك.

قالت له : لقد قرّرت ألا أوجه لك انتهارات بعد أنْ جلسا أمام طاولة في مطعم بالينكي، مطعم ارجنتيني. إنّني أريد أنْ أعرف فقط لماذا قرّرت ذلك دون أنْ تقول لي شيئًا. أوه، لم يكن موضوعًا صعبًا جدًا لكي يُفهم، ردّ عليها إيرنستو. لم أكن أفعل شيئًا في باريس. كانت حياتي كلها بؤس وكانت علاقتنا ستنتهي بين يوم وآخر، بجريمةٍ عاطفية. أنت مخنوقةً وأنا في السّجن. أو العكس. ضحكت أونا. يالظّرفك يا أيُها الشّهم البوجوتي(*) هل تشرب ؟ قال إيرنستو: وهو كذلك. بينما كانا يتناولان الخمر أخذت تعدّد مناقبه ومميّزاته كحبيبٍ لا شيء فيك سيئ، إنّك صعلوك يقبل جيدًا بعض القبح. قال لها هذا سيكون شاهد قبري. لا شيءً إضافيٌ : بعض القبح أحيانًا ظريفٌ. رجلٌ يزهو بالرّجولة، يزهو بالرّجولة جدًا.

(*) (نسبة إلى بوجوتا عاصمة كولومبيا).

على الصّعيد السّياسى ليس واضحًا، إنّك المفكّر الأصيل، البرجوازى الصّغير. ماذا بعد ذلك؟ سأل إيرنستو مهتمًا. قالت أونا لا شىء غير ذلك ؟ آهه، نعم، مع بعض الأخطاء. سأل إيرنستو على سبيل المثال. وماذا بعد ذلك ؟ قالت أونا لا شىء أكثر من ذلك. سوى أنّنى.. لن أستطيع المرور أبدًا بشارع الشهيد البرت. لن أذهب إليه أبدًا. إنّه يحمل لى ذكريات وأنا أكره الذّكريات كما أنّ شارع هيرونديل محرّمٌ على أيضًا.. وقرية فى الـ ميدى(*) . اشرب فإنّنا سنسكر هذه الليلة... إنّ هذه الكلمة تُعجبنى جدًا.

شىءٌ غريبٌ : كانت أونا هى التى قرّرت الصّعود إلى غرفته فى الفندق، ثمّ رافقها إلى منزلها فى سيّارة أجرة. نزلت أونا بسرعة من السّيّارة برقت عيناها بشكل غريب وقالت له وداعًا ببساطة. وعندما بدأت السّيّارة فى التّحرك من جديد، رآها تعود ركضًا. قالت له عبر نافذة السّيارة : أسمع أليس لديك صورةٌ لك ؟ فلدىّ ألبوم صور لكل أحبائى وأنت لابد أن تكون موجودًا فيه، هذا ليس عملاً نبيلاً لقد كنت الوحيد الذى... كنت على استعداد لكى أكون شابًا. أضافت متسرّعةً إذا لم يكن لديك يمكن أن تأخذها فى وقت آخر. لم لا ؟ قبل إيرنستو. لكن إذا كان الأمر يتعلّق بذكرى، هنا سيبقى لك شارع الشّهيد البرت. قالت أونا له : يا أيّها السّفيه.

(*) Midi ، بالفرنسية فى الأصل.

كان التّاكسى الذى استدعاه له البوّاب تقوده امرأةٌ. كان هناك رجال يكنسون ميدان موبرت. كان يبدو له دريًا من الوهم أنْ يرحل عن باريس. كان فرانك وكلارا ومينينا ينتظرونه فى منطقة راسبيل الكثيفة الأشجار وفى أيديهم شُنطٌ من قماش قلاع المراكب. وعندما كانوا يتحدّثون، كان يخرج من فمهم بخارٌ أزرق لأنَّ الجو كان مايزال باردًا إلى حد ما. لكنَّ اليوم كان صافيًا. عندما عبرت السيّارة الأجرة جسر ماريا، رأوا عبر الشّبورة الخفيفة التى كانت تسبح فوق النّهر كيف أنَّ الشّمس كانت تشرق وتضىء أبراج كاتدرائية نوتردام. كانت باخرةٌ تبحر فى النّهر تحمل رمالاً. وكانت هناك أشجارٌ خضراء جدًا تطلُّ بأوراقها الكثيفة على ضفّتيه. كان فرانك يهمهم قلقًا. وضع يده على ذقنه بينما كانت عيناه الواسعتان الفاتحتان كقطٍ يرقب فى الشّبورة المضيئة أحجار كاتدرائية نوتردام. إنَّ ما سأقوله لك ما هو إلاَّ تفاهةٌ برجوازيةٌ قال فى النّهاية : يالها من مدينةٍ جميلة. لا تزعجنى !

فصل صغير بين فصلين

ليلة سبت .

رأيت أنا وبيداليس وكاميلو فيلم" البيت الأبيض" لإنجريد بيرجمان وهمفري بوجارت. في غسق تشامبينيرو البارد والمطير، حيث توجد بعض أضواء النِّيون.

ما زالت تسبح في الجو المحيط موسيقى حزينة لأغنية " طبقًا لمرور السِّنين " قامت إنجريد بيرجمان بوداع بوجارت إلى الأبد بوجهٍ جميل ومتأثِّر حزين.

كم كانت جميلةً

قال كاميلو: إنَّها جميلةٌ بالفعل.

قال بيداليس إنَّ رومانسيتكما تبدو لي ببساطة مقزِّزة. اقرأ لفرويد.

نظر إليه كاميلو بمزاج رزين.

هل هي شهوانية مكبوتة ؟

بالضبط. إنني عندما أكون رومانسيًا سأذهب إلى حيث توجد فتيات الهوى.

وسينتهي كلُّ شيء بالبنسلين.

قال بيداليس ضاحكًا: لا توجد معارك بلا ضحايا. حسنًا، ماذا تقولان. هل سنتناول كأسًا من البيرة؟

ذهبنا إلى مقهى كالداس حيث نذهب دائمًا ليالي السَّبت في ذلك الجو الأسري المعتاد والجو الحزين لنور النِّيون والدُّخان.

وجد بيداليس صديقين لشقيقه، كانا طالبي طب. قاما بدعوتنا للجلوس على طاولتها المليئة بالزجاجات الفارغة ماركة بفاريا.

كان الشَّخصان شبه سكرانين. على ما يبدو كانا قد تعرَّفا على بيداليس في بيت من بيوت الهوى في وسط المدينة. مزحا معه. ظلَّلت أنا وكاميلو صامتين بعيدين عن المحادثة ومزاح وضحكات بيداليس وصديقيه، كان بيداليس يرقب المكان بعينيه الخضراوين الجادتين للغاية والصَّامتتين وفي ضوء مصابيح النيون الملطخة بالذُّباب كانت تدوِّي الضَّحكات. في الدَّاخل وبصالة مجاورة كانت تسمع أصوات اصطدام كرات البلياردو. كانت النَّادلة امرأةً معتلة المزاج، كانت تتفادى أيدي السُّكارى عندما تمرُّ بين الطَّاولات.

ما زلت أفكّر فى الفيلم. كان وجه إنجريد بيرجمان جميلاً وحزينا فى الأضواء الخافتة لذلك الملهى وهى تستمع إلى أغنية" طبقًا لمرور السّنين" الدّار البيضاء " باريس. عالم قديمٌ، حيث يوجد أناسٌ يلتقون، يتحابون، ثم ينفصلون.

كنت أتناول البيرة الفاترة بجرعات صغيرةٍ وقد استحوذ علىَّ حزنٌ متزايدٌ. سأرحل بعيداً عن هنا ذات يومٍ. ليس لدى سوى حياة واحدة وينبغى أنْ أستفيد منها...

... أحاطت بى فراشات الطُّبوع الكبيرة، مثل العنكبوت فراشات الطُّبوع التى لم ينقصها سوى الحصول على الجنسية ينبغى أنْ نستخدم الآن عوازل طبّية بركانية.

كان بيداليس وصديقاه يقهقهون فى آنٍ وكان كاميلو يرقبهم من بعيد.

أعتقد أنَّنى سأنصرف، أعلن كاميلو ذلك، فجأةً ووقف على قدميه

قال إيرنستو وأنا أيضًا.

قال لهما بيداليس فجأةً وهو مستاءٌ: ابقيا هنا.

أو أنهم سينتهرناكما فى المنزل عندما تصلان فى وقتٍ متأخّرٍ

ثمَّ التفت إلى صديقيه:

إنَّ هذين لا يدخِّنان ولا يشربان لا يصاحبان سيدات إنَّهما سفيهان.

قال أحد طالبي الطّب: سينتهي بهم الأمر أن يذهبوا إلى حيث توجد بلانكا. إنّه أكبر بيت لفتيات الهوى فى الوطن.

تركناهم يضحكون.

كان ينتظرنا في الخارج هواء بارد مشوب ببعض المطر الخفيف.كان هناك أناسٌ قليلون فى الشّارع. وكانت الأرصفة المبلّلة بالمطر تستقبل فى حزن بعض انعكاسات ضوء الإعلانات المضيئة.

رأينا من بعيد فى الطّريق الثالث عشر أنوار ترام كان يسير ببطءٍ. رفع كاميلو ياقة المعطف لكى يحمى نفسه من البرد.

إنّ رودريجو كما يلاحظ لديه الرّغبة فى سهرة حمراء

نعم، أقول ذلك. سينتهى به الأمر فى الذّهاب إلى حيث فتيات الهوى.

هل ذهبت معه ؟

ذات مرةٍ كنت معه فى شارع لاس كروثيس وبصراحة بدا لى كلٌ ذلك أمرًا مقززًا. لم يكن بوسعى فعل أىّ شىءٍ

قال كاميلو : لا أفهم ذلك.

توجّهنا إلى محطة التّرام.

قال كاميلو: سأذهب إلى وسط البلد. وأنت ؟

إنّنى أعيش بالقرب من لاسايى

هل مع بعض الأعمام ؟ أخبرنى رودريجو.

لا، أعيش وحدى

وحدك ؟

نعم، يا رجل.

كان كاميلو يسير إلى جوارى، ثم لاذ بالصّمت.

هل تريد أنّ تأكل شيئًا ؟ بعيدًا عن هنا ينبغى أنّ يكون هناك محلٌ مفتوحٌ

يا كاميلو، ليس معى كثيرٌ من النّقود.

سأدعوك

كانت تمطر رذاذًا خفيفًا وحزينًا، فى ميدان شابينيرو

وجدنا محلاً مفتوحًا. طلبنا كاكاو وخبز.

سألنى كامليو عمًا أفكر فى التّخصص الذى سأدرسه.

لا أدرى، يا رجل. يقترح علىّ بيداليس أنّ أدرس الحقوق وعمّى يقترح علىّ دراسة الكيمياء الصّناعية. لكنّنى... عجبًا يا كاميلو، أريد شيئًا آخر. أريد السّفر والتّأليف، معرفة أناس آخرين حسنًا أريد شيئًا مختلفًا عن السّكر كلّ يوم سبتٍ فى مقهى كالداس مثل بيداليس.

ذلك ما أفهمه جيدًا.

إنّنى لا أؤمن بالعالم الآخر. بالنّسبة لى لا توجد سوى هذه الحياة الدُّنيا، ولا أريد أنْ أضيّعها بين الطّريق السّابع والثّالث عشر. وأعتقد أنّ الحياة إذا لم يكن لها مغزىً فى نفسها لابد من إضفاء مغزىً عليها.

أحقًا أنت لا تؤمن بالله ؟

لا عندما بدأ الزّنجى موسكيرا، فى المدرسة فى مادته للدّفاع عن الدّين المسيحى محاولاً إثبات ما لايمكن إثباته بدأت تتسرّب لى شكوكٌ جادةٌ

إنّ أىّ شخص ستساوره شكوكٌ عندما يستمع إليه هل تعرف شيئًا ؟ إنّنى أعتقد إذا لم يكن الرّبُّ موجودًا فإنّ السّيد المسيح على صواب. إنّ النّاس يعانون. إنّهم يعانون كثيرًا انظر حولك.. فحبُّ الآخرين هو أفضل شعور لدى الإنسان (ابتسم فجأة) ، فلا يسمعنا رودوريجو. كان الزّنجى موسكيرا على حق عندما قال له إنّنى لا أفكر فى شىءٍ اللهم إلاّ فى جسدى من الحزام إلى أسفل.

هبّت الرّياح، أسمعها فى الخارج وهى تهزّ أغصان الأشجار. فغرفتى توجد فى جزءٍ من السّقيفة فوق موقفى حافلات حيث تقف الحافلات المدرسية. وأمام نافذتها الوحيدة يوجد فناء واسعٌ جدًا به أشجار الكريز الباسقة، كان الفناء مظلمًا جدًا فى الليل. كانت أوراق الأشجار تحركها الرّياح فكان حفيفها يشبه خرير فى الماء الجاري. كان زجاج النّافذة يهتز. كنت وحدى، كالعادة، فى غرفتى. أقرأ، أستمع إلى الرّاديو.

قال لى عمّى إنَّ كريستينا تسأل عنك كثيرًا، إنّها تستغرب أنّك لم تأت لرؤيتنا أبدًا

كنت أريد الذّهاب بعيدًا جدًا. إلى أستراليا، إلى بحار الجنوب.إنّنى أفكّر فى فيلم رأيته أمس تحت عنوان " شارع الدّرفيل الأخضر "

أعيش هنا يومًا وهناك يومًا آخر، عدم الاستقرار فى مكان واحدٍ رجل صامت طيبٌ، يهيم على وجه الأرض: تريونى باور فى" على حافة السّلاح الأبيض "

يا ابن أخى: إنَّ كريستينا تريد أنْ تراك. لماذا لم تأت يوم الأحد، كنّا فى انتظارك.

لقد عادت إلى معاقرة المسكرات من جديد.

كانت هناك أصواتٌ فى الفناء تحت نافذتي، صوت رجلٍ، وصوت آخر لا مراة تقول : انتظر سأصعد أنا هل هو صوت كريستينا ؟ بدأ قلبى ينبض بسرعة. كانت هناك خطواتٌ قصيرةٌ وسريعةٌ، وكان وقع كعوبٍ على السلّم يقترب. نهضت فى الفراش. كانوا يطرقون الباب. أدارت مقبض الباب، وكانت تبتسم وهى ترتدي معطفًا من الجلد، إنّها كريستينا.

هل ما زلت مستيقظًا ؟

كنت أرتعد، كاد قلبى يلفظه فمي. جلست كريستينا على الفراش تبتسم دائمًا وتنظر إلى بعينيها الفاتحتين والبرّاقتين واللتين كانتا تبدوان وكأنّهما يرسلان شررًا كان جانبا أنفها يرتمدان قليلاً، كما

يحدث لها دائما بعد الشُّرب ومن خلال المعطف المفتوح قليلاً كان جسدها النَّحيف والنَّابض بين حفيف الملابس الحريرية. وكانت تضع سلسلة فى جيدها لها حلقةٌ صغيرة تتحَّرك مع إيقاع تنفسها رفعت يدها ذات الأساور الرَّنانة وداعبت شعري.

كان صوتها خفيضًا، هامسًا :

يا أيُّها البغيض. لماذا لم تعد إلى المنزل ؟

كانت شفتاها رقيقتين جدًا، تبدوان وكأنَّهما ترتعدان وهى تبتسم ظلَّت عيناها تنظر إلىَّ بثبات وإمعان، كانت عيناها مستفزَّتين. رفعت يدى، مازال قلبى ينبض بقوَّةٍ، وبإصبعٍ مرتعدٍ لمست شفتيها.

عضت كريستينا أصبعى بلطفٍ. كنت أحِسُّ بلمس لسانها الهادئ واللطيف فى أُنملة أصبعى.

نهضت وهى تضحك.

إنَّ عمَّك تحت ينتظرنا. إنَّه يريد أنْ تأتى إلى المنزل. فاليوم عيد ميلادى

اقتربت من النَّافذة

ثلاثون عامًا، يا للهول. إنَّني الآن عجوز !

نزلت السُّلم خلفها، وأنا أرتعد. وفى الظَّلام الدَّامس يبرز المعطف الفاتح الذى يرتديه عمِّى.

أهلاً يا شاب. هل ستأتي معنا ؟

الجو باردٌ. عبرنا الفناء صوب أنوار الشَّارع.

اشترى العمّ سيّارة أخرى، سيّارة بويك بلون الكريز، كانت إطاراتها بيضاء ورائحتها بالدّاخل تنمّ عن كونها جديدةً جلست كريستينا فى المقعد الخلفى بين عمى وبينى.

كان صوتها ذا رنين بارد وهى تتوجّه إلى السّائق قائله:

يا رودريجيث هل أنت مستيقظٌ؟

نعم، يا سيدتى.

إذا كنت بالفعل مستيقظًا، كان يجب عليك أنْ تنزل وتفتح الباب.

حاضر، يا سيدتى

لا تنس أنّك الآن لا تقود سيّارة أجرة.

حاضر، يا سيدتي.

بدأ مطرٌ خفيفٌ يتساقط. ومن خلال التّحرك الرّتيب للمساحات رأت أضواء شارع كاراكاس تغزو السيّارة

كنت أحسّ فى خدى" بشيء أملس مثل الرّيش، معطف كريستينا الجلد وشذا عطرها.

هل كنت نائمًا ؟

لا يا عمّى، كنت أقرأ.

ماذا كنت تقرأ ؟

قصةً

- قالت كريستينا لقد فكَّرت فى أنّه أخرس

- أنا ؟

- نعم، يا سفيه ـ التفت إلى عمّه ـ منذ أنْ رأيتك لم أفتح فمي.

كنت أحسُّ باحتكاك ركبة كريستينا الهادئ والبطيء والذى لا شكَّ فيه، فى ركبتي.

يقول إيرنستو منذ بضعة أيَّام رافقت كاميلو إلى كنيسة لاس أجواس، لكى يستخرج شهادة تعميدها. بدا لى وكأنه يريد الزَّواج لكنَّنى لم أعلِّق بشيء من قبيل الرَّصانة. أنت تعرف أنَّنى كنت خطيبًا لنجله مونتالبو. فى الحقيقة أدركت الآن فقط أنَّه كان يحتاج لشهادة التَّعميد لكى يلتحق بالدَّير.

لقد واعدنى فى يوم الجمعة الماضى فى مقهى" هابى" فى مدينة سانتا فيه. لم يساورنى أدنى شك ولا حتى عندما رأيت معه حقيبة سفر. كان أمرًا غامضًا. طلب منِّى أنّ أرافقها إلى محطة السَّافانا. وعندما وصلنا إلى شارع 15قال لى إنه سيستقل القطار إلى تشيكينكيرا حيث قرَّر الالتحاق بدير " رهبانية الدُّومينيكان " كمن يقول سأقضى أسبوعًا فى السَّاحل.

سألته هل أخبرت والدتك بذلك؟ قال له: "لقد تركت لها رسالةً "حينئذ حاولت أنّ أشرح له أنَّ هذا قرارٌ متسرِّعٌ جدًا وينبغي عليه أنّ يفكر فيه مرَّتين، وأنّ يستشير فيه أسرته. ما هذا! كان فى حالة مذهلة

من النّشوة الصّوفية. أخرج استشهادات من العهد الجديد (الإنجيل) :

إنَّ السّيد المسيح والحواريين هجروا أسرهم وممتلكاتهم. قلت له : إنّني لن أتدخّل فيما يقوله الإنجيل. لذلك يقول جميع استشهاداته، بينما كنت أحمل له حقيبته في شارع ١٥ علىٰ فكرة كانت الحقيبة ثقيلةً جدّاً.

حسنًا كنّا نتناول كأسًا من النّبيذ الأحمر في المحطّة حتى يتحرّك القطار، في تلك اللحظة ظهرت إيسابيل ريستريو أم كاميلو. عثرت توّاً على الرّسالة فاستقلّت سيّارة أجرة وجاءت إلى المحطّة. ما هذه الفضيحة التي أقدمت عليها. إنّك تبدو مجنونًا. أمسكت كاميلو من يده وأخذته بالقوة جراً، كانت تكيل السّباب للقساوسة كانت تقول إنّهم سيسلبوننى نجلى كاميلو، احمرّ وجه كاميلو المسكين خجلاً وبكى. كان الموقف مأساويًا وفكاهيًا لأنَّ النّاس تجمّعت حولنا، وقال بعضهم إنَّ الشّاب يريد الزّواج سرّاً. لم أكن أدرى ماذا أفعل فى كل هذا. كانت إيزابيل تفكّر فى أنّنى كنت شريكا فى كلّ هذا الموضوع. وأنا لا أؤمن بشىء! ما حدث هو أنَّ الأم أدخلت كاميلو فى سيّارة أجرة، وظللت أنا كالسّفيه عند باب المحطة.

والآن لا أدرى ماذا سيحدث. فكاميلو محبوسٌ كما تحبس فتاةٌ حتى لا تهرب مع خطيبها، لا أكثر ولا أقل. لا أدرى من منهما سيفوز ببغيته لأنَّ كليهما عنيدٌ.

فكاميلو تصرفاته المجنونة يريد أنّ يكون قسيسًا تخيّل ذلك يا له من أمرٍ غير منطقيٍ.

بدأ المطر يتساقط فى الشّارع. كانت أصوات الرّعد المدوّية تسمع فى كلّ أنحاء مونسيّرات

كان كاميلو يسير إلى جانبنا.

إذنْ، يا رجل، ماذا قرّرت.

كلّ شيءٍ جاهز الآن قال كاميلو.

وظلّ يسير فى صمتٍ، وقد وضع يديه فى معطفه الرّيفى، كانت عيناه الخضراوان حزينتين شاردتين.

لقد مرّ أقسى شيءٍ بالأمس. تحدّثت مع تريزا .

تريزا ؟

خطيبتى وهى تعرف أنّنى سألتحق بالدّير.

كان المطعم فى الطّابق الثّانى فى مبنى فاوكس، كانت له نوافذ كبيرة تطلّ عل شارع خيمينيث من ناحية وعلى شارع ٧ من ناحية أخرى. كانت النّادلات تضعن كوفيات ومرايل زرقاء، كنّ يتحركن بسرعة بين الطّاولات التى كان يجلس عليها موظفو المكاتب. كانت موسيقى البوليرو الشعبية التى يغنّيها رابيل مملةً، غامضةً ومتكرّرة تسمع وسط ضجيج الأصوات والأطباق. كانت طاولتنا بجوار نافذة. وفى الضّوء القذر وتوقعات بسقوط المطر فى منتصف اليوم كنا فى الطّريق السّابع والنّاس يسيرون فيه ذهابًا وإيابًا. كانت هناك مجموعة من النّاسيدرسون على باب مقهى

موليـنو. كانت النّظرة من الطّابق الثّانى، وزحام الشّارع يبدو كمسكن النّمل : كانت الجماهير الفقيرة بحللها وقبّعاتها القاتمة تنتقل بسرعةٍ من جانبٍ إلى آخر وكان النّاس يقفون أحيانًا لكى يسمحوا بمرور الترام .

رفع بيداليس عينيه من فوق طبقه مذهولاً.

ما ذلك ؟

كانت واضحةً، قاطعةً، على فترات زمنيةٍ متساويةٍ، لقد سمعنا ثلاث انفجارات فى الشّارع.

أعتقد أنها طوربيدات أقول ذلك مفكّرًا فى البمب الذى يضعه بعض المتحذلقين على قضبان التّرام.

لكن الطّابق السّفلى انتاب النّاس الهلع: جرى النّاس مذعورين تجاه الرّصيف المقابل.

قال بيداليس: إنّها طلقةٌ.

كانت بياتريث شقيقتى جالسةً إلى جوار النّافذة، وضعت جبينها على الزّجاج لكى تنظر إلى أسفل تجاه الرّصيف الكائن أسفل المبنى.

التفتت بوجهٍ لا تُعرف ملامحه من الحزن.

لقد قتلوا توًا هنا رجلاً، كانت تمتم خائفةً، كانت ذقنها وجانبا أنفها يرتعدون، وفى عينيها علامات الفزع.

إنَّه رجل بمعطف أسود. إنَّه يرقد على الرَّصيف تحشرج صوتها تمامًا وأجهشت في البكاء.

نهضنا أنا وبيداليس بجوار الطَّاولة أفسحنا طريقا بين النَّاس، وفوطةٌ في اليد، اقتربنا من النَّافذة وسألنا ماذا حدث، خرجنا من المبنى، نزلنا على السلَّم الضيق للمبنى ركضًا صوب الطَّابق السُّفلى، إلى البرد القارس والضُّوء الخافت، هنا، على بعد خطوات قليلة من المدخل، يُوجد الطَّريق السَّابع.

قابلنا في الشَّارع أربعة من رجال الشُّرطة كانوا يسيرون ويمسكون برجلٍ أطلق النيران. كان قصيرًا شاحبًا رثَّ الملبس، كانت ذقنه بلا حلاقة منذ يومين، كان مستسلما لرجال الشُّرطة كأنَّه شخصٌ يسير في نومه، وكان أفراد الشُّرطة يبدون خائفين، من خلال دوَّامة من الدَّهشة والغموض.

كان المقتول أو الجريح على الرَّصيف، على بعد بضعة أمتار :عبارة عن جثمان داكنٍ ينحني عليه بعض الأشخاص، كانوا أفرادًا قليلين.

وصلنا ركضًا، حاولنا أنْ ننظر من فوق الآخرين، لم نر شيئا، جلسنا القرفصاء استطعنا أنْ ندخل رأسينا من بين السِّيقان والمرافق لكي نرى الرَّجل الذى يرقد على الرَّصيف رأيت نعليه لا معين جيدًا، والمعطف الأسود المتواضع الذى كان يرتديه.

عندما تمكنت من رؤية وجهه من بين رءوس الذين ينحنون عليه، تجمد الدَّم في معدتي، ارتعدت

فرائصى، كما نبض لى وريد بشكلٍ غاضبٍ فى الحلق إنّه جايتان.

لم يكن يتحرك و كان مستلقيًا على ظهره فى وضعٍ هادئٍ لا مناص منه، كانت رأسه كثيفة الشعر وقد مُشّط إلى الخلف، فوق تراب الرّصيف، واليدان ساكنتان فوق قماش المعطف الأسود، والساقان مفرودتان ومتباعدتان قليلاً. وكانت عيناه مفتوحتين إلى حد ما، أعتقد أنّ رموشه تحركّت قليلاً، ولكن حدقتيه كانتا ساكنتين وبرّاقتين كما لو كانتا من الزّجاج، كاد نور الشّارع يتجمّد. كان انفه كبيرًا وقويًا، ظلّ فمه مغلقًا، بإيماءِ شبه مؤلمة، كما لو كان فى تلك اللحظة يرقب بوصلة حياته بازدراءٍ حزين ولا نهائى، وقد سال خيط رفيع من الدّم القاتم فوق الرّصيف المترب من رأسه صوب نعال الذين يتجمعون حوله بالهول والفزع نفسيهما.

جئت امرأةٌ من الرّيف وقد بلّلت منديلها بدم جايتان.

كانت تنتحب بصوت مبحوحٍ هامسٍ وقالت : يا أيُّها الأوغاد لقد قتلتموه.

لم يقل الآخرون شيئًا : لقد كانوا متجمّدين من الذُهول كنت أنظر إلى برج سان فرانسيسكو السّاعة تشير إلى الواحدة وخمس دقائق مساءً كانت الواحدة وخمس دقائق يوم ٩ إبريل ١٩٨٤.

نهضنا أنا وبيداليس. كان بيداليس شاحب الوجه وأنا أيضًا، أعتقد ذلك. كنت أشعر فى داخلى بإحساس من الخوار.

قال بيداليس : ستكون هنا فضيحةٌ كبيرةٌ.

يبدو أنّنا كنّا نسبح فى جوٍ تخيم عليه الشّبورة أثناء حلم. كان كلُّ شيءٍ غير واقعيٍ : النّاس يتوافدون من كلِّ مكان، حائرين ويلتبس عليهم الأمر. كانت السّتائر المعدنية للمحلات والمقاهى قد تم فردها، والرّجل الذى ألقى بنظرةٍ على الجثمان المسجّى على الأرض أطلق هتافًا.. يحيا الحزب الليبرالى، توقّفت السّيارة الأجرة الملكية السّوداء وعليها وشاح أحمر على جانبها، أمام مبنى أجستين نييتو حيث يرقد جثمان جايتان، الجسد والمعطف المتواضع الذى كان يرتديه تمّ رفعه وقد رؤى الوجه جاداً وحزينًا من جديد والشّعر الكثيف غير المشّط والعينان مازالتا مفتوحتين كانتا على ما يبدو تنظران دون أنّ ترياه أو ربّما كانت تتلقى آخر شعاع من النّور فيما سيكون بعد ذلك ظلامٌ وصمت نهائيان سماء إبريل الحزينة، وفى النّهاية، كان كلُّ شيءٍ صاخبًا وسريعًا، ولم يكن من الممكن الابتعاد عن ذلك الإحساس بشيءٍ لم يرَ بل كان فى الحلم، ابتعدت السّيّارة الأجرة بالمحتضر وأصدقائه فى الشّارع الملكى، فى الطّريق المعاكس.

اصطحبوه إلى المستشفى المركزى.

هل ما يزال حيًا ؟

نعم، رأيت أنّه يحرّك عينيه

من الممكن أنّ ينقذوه.

إذا مـات، لم ينـقص سـوى الـبـنـزين لإحراق كلّ شىء.

إنّ الرّجل الذى أطلق عليه النّار موجودٌ هنا... هنا فى محل غرناطة للعقاقير.

هنا ستتفجرٌ فضيحةٌ كبيرةٌ. فجأة تذكّرت شقيقتى التى كانت تنتظرنا سنذهب إلى بياتريث، قلت لبيداليس

كان كلّ النّاس فى المطعم مضطربين، كانوا واقفين بجوار النّافذة. كانت عينا وأنف بياتريث محتقنين وهى لا تزال ترتعد.

رأينا وجهه من هنا وهم يضعونه فى السّيارة الأجرة. كانت إيماءتها حزينةً جدًا.

ثم أجهشت بالبكاء من جديد.

يا بياتريث هيًا بنا إلى منزل العمّتين.

قرّر بيداليس مرافقتهما. كان المنزل الذى نعيش فيه الآن مع عمّتينا قريبًا جدًا من وسط المدينة، وكان بالامكان أنّ نذهب سيرًا على الأقدام، لكن فى هذه المرّة قرّرنا ركوب أحد التّرامات المغلق ذى الشّريط الأخضر الذى يذهب إلى شارع 15. ينبغى أنّ يكون الرُكاب قد لاحظوا اضطراب الشّارع عبر النّوافذ لأنّه بمجرّد أنّ ركبنا ورأوا وجه بياتريث المضطرب الباكى سألونا ماذا حدث.

لقد قتلوا جايتان توًا !

إنّ هذا مستحيلٌ !

دوّر السّائق الذي سمعنى السّنجة الأمامية فجأةً ففرمل التّرام بسرعة وأحدث دويًا هائلاً. خلع قبعته الزّرقاء وألقى بها على الأرض بعنف.

ونزل تاركًا ترامه.

بدأنا نسير فى شارع ١٥ إلى أسفل. كان أمام الـ سيجلو(*) رجل يلوّحُ بقبضته ويكيل السّباب لحكم القلّة والمحافظين والحكومة. كان النّاس ينظرون إليه كما لو كان مجنونًا لم يكونوا على علم بالنّبأ حتى الآن.

عندما وصلنا إلى المنزل، أخبرتنا عمتنا روساريو بأنّ جايتان قضى نحبه توًا فى المستشفى المركزى. سمعت ذلك فى الإذاعة.

كان هناك مطرٌ خفيفٌ، وبريق شمسٍ لحظىّ وصياح وألسنة دخّانٍ بعيدة، وزمرات من النّاس يفدون من كلّ مكانٍ مثل طوفان مياه عاتية غاضبة سرنا بسرعةٍ بعد أنْ تركنا بياتريث فى المنزل، شعرنا أنا وبيداليس بضجيج التّمرد ينمو ويتزايد.

وفى اتجاه الشّارع إلى أعلى أذهلنا منظر ميدان القدّيس فيكتورينو المضطرب، وبه مبنىً مشتعلٌ فى آخره، ومن خلال ضوء شمس مشبّع بالرّطوبة من جرّاء المطر، كانت عربات النّقل والعربات القلّابةُ مكتظّةً بالنّاس يمسكون بالسّنج والأعلام الحمراء التى ترفرف وتسير فى كلّ الاتجاهات.

(*) EL Siglo، بالفرنسية فى الأصل.

قاموا بالاعتداء على محلات الحدايد فى الميدان من خلال باب حديدى قاموا بفسخه، حيث فتحوا به قوسًا، رأينا رجالاً بعناقيد من السبّح فى أيديهم.

كان الرّجل الذى اقترب منّا ماسح أحذية

تسلّحا يا أخوىّ، أعطى لبيداليس سنجةً ولى منشارًا، كان كلاهما جديدين وحدُّهما برّاقين لامعين، وعلى يديهما ورقة التكيت.

قبلناها أنا وبيداليس فى حيرةٍ

بصق الرّجل.

ينقصنا حديد من هذا النّوع لكى نقطع الرّقاب

كانت الجموع الغفيرة التى قابلناها فى شاع خيمينيث تتقدّم بسرعةٍ صوب الطّريق السّابع، كانوا قادمين من التّلال والجبال ومن الأحياء الشّعبية، حشود غفيرة رثّة الثّياب جاءت للانتقام مسلّحةً بالعصىّ والسّنج، إنّهم أنصار جايتان القدامى الذين كانوا يرتعدون عندما يخطب فيهم فى المسارح والميادين، كانوا يجرون فى شوارع وسط المدينة مثل حممٍ بركانية لبركانٍ هادرٍ كان هناك رجلا شرطة سلسان خائفان بلا كابٍ، وكان على طرف بندقيتهما شعار أحمر يسيران وسط الجموع الحاشدة، فانضما إلى التّمرد.

وكان بين الجموع التى ترتدى ملابس رثّة رجلٌ يمسك بمسدّسٍ عند صدره.

كـان الأمـر هـائلاً، فـفـى وسـط صـديـقـين كـانـا يحاولان التسرية عنه ويقدمان لـه مشروبًا كحوليًا، كان هناك زنجيٌ يبكى بشدةٍ ويغطىَ وجهه بيديه. يبدو أنّه كان يسبح بين الجموع الغفيرة مثل قشرةٍ فى ماء نهرٍ.

وفى الجهة العليا من الشّارع كان هناك ترامان يحترقان، ودخانٌ كثيفٌ يتصاعد من نوافذ مبنىً، مبنى وزارة الدّاخلية. وعلى الرّغم من اشتعال النّيران كان ما يزال هناك رجال بالمبنى يلقون فى الشّارع عبر شرفةٍ حفنات من الأوراق والمقاعد وأرشيفًا حديديًا كانت الجموع الحاشدة تدمّره فى غضب جامح. كان الرّصيف مبلّلاً من المطر ومليئًا بالأنقاض. كانت رائحة الدّخان والأخشاب المحترقة قويةً نفّاذةً.

توقف بيداليس مذهولاً :

إيسبيتيا !

كنت على وشك الاّ أعرف بوّاب مسرح لاس كروثيس كان شعره غير ممشّط، وكان يغطى أنفه وعينيه الحمراوين بمنديل من جرّاء الدّموع والدّخان، كان يسحق بكعب نعله زراير آلة كاتبة كما لو كانت حشرات العنكبوت السّامة.

فالآن يوجد بعض الذين يؤيدون حكم القلّة وبعض القوط(*) معلّقون فى الأعمدة بميدان بوليفار،

(*) (إشارة إلى الإسبان).

صاح علينا وقد رفع المنديل من عينيه وأنفه إذا لم تصدقاني، اذهبا لرؤيتهم قال بيداليس : إنَّ أهم شيءٍ هو قصر الرئاسة ماذا حدث هناك ؟

لكن إيسبيتيا لم يسمعه

فلنحرق كلَّ شيءٍ، فليذهبوا إلى الجحيم، حتى أنا شخصيًا أريد أنْ أحرق نفسي.

هل أنت تبكي أم أنَّه الدُّخان ؟

كانت عيناه بها دموع.

بعد أنْ مات الزَّعيم لن ينتظر الشَّعب شيئًا، يقول إيسبيتيا، واستمر يدوس الآلة الكاتبة بنعليه.

قلت لبيداليس فيما بعد إنَّه مجنونٌ، ثم ابتعدنا.

إنَّه سكرانٌ ثملٌ، ألم تنتبه لذلك ؟

هيًا بنا إلى القصر ! إلى القصر !

فى الطَّريق السَّابع الذى يغلى بالنَّاس، كانت تلك الصَّيحة تدوِّى فى جميع الأرجاء. لقد أشرقت الشَّمس الآن، وكانت السَّنج تتلألأ، أمام محل لبيع السَّجائر كان قد دُمِّر زجاجه، كانت بعض زجاجات المشروبات الرُّوحية المكسورة يتدفَّق سائلها على الرَّصيف فى المكان الذى أُغتيل فيه جايتان كانت هناك امرأتان تجلسان على ركبتيهما وتُحاولان إشعال شمعةٍ.

إلى القصر !

توجّهت الجماهير الغفيرة في اتجاه ميدان سيمون بوليفار، تتقدّم عبر المنازل القديمة ذات المظلات العريضة في الشّارع الملكي. وفي العمق كانت السّماء قاتمةً من جرّاء دُخّان الحرائق.

كان بيداليس يستند على السّنجة كما لو كانت مظلةً واقيةً للمطر، كان بيداليس ذا مظهرٍ فكاهي.

أكّد بأنّ الحكومة ستسقط.

قلت له: إنّ أسوأ شيء هو أنّه ليس هناك بديل لجايتان.

كانت هناك صفوف من الجنود، يحتشدون وكأنهم تماثيل، يحرسون قصر الاتصالات. كان سلوكهم سلميًا.

هتفت لهم الجماهير.

قلت لبيداليس: من العجيب أنّ الجيش لم يتدخّل.

لا يستطيع التّدخل وإلا أصبحت مجزرةً. هذا علاوة على أنّ جايتان كان لديه من يتعاطف معه من قادة الجيش

هكذا يعتقد الشّعب.

فجأةً، بالقرب من ميدان سيمون بوليفار، سمعت طلقاتُ بندقيةٍ. تراجعت الجماهير الغفيرة، وبدأ البعضُ يركضون.

ماذا يحدث؟ سألنا رجلاً رأيناه قادماً يجرى فى اتجاهٍ معاكسٍ لاتجاهنا وقد توقّف قريبًا منّا مضطربًا للغاية.

هناك بعض المتحذلقين أطلقوا النيران فى الميدان بالقرب من القصر. فأردوا بعض القتلى.

وماذا عن الدُّخان ؟ هل القصر أم الكابيتول الوطنى ؟

هل حقًا أنَّ بعض الإسبان معلَّقون في الأعمدة ؟

هذا ما يقولونه.

تبادل بيداليس معى النَّظرات.

لقد قلت لك إنَّ كارثة كبيرة ستحدث هنا.

كانت هناك مجموعة طلقاتٍ أخرى قد أطلقت بالقرب منا، ممّا جعلنا نتقهقر صوبَ شارع ١٢.

كانت الجماهير الحاشدة تشهر سنجها وتهتف أسفل شرفات المسرح الجديد، حيث كان بعض الرِّجال يحاولون إلقاء الخطب الحماسية فيهم. لكن الضَّجيج كان يمنع الجماهير الغفيرة من الاستماع إليهم.

ظهر فجأةً فى الشُّرفة زعيمٌ ليبراليٌ رأينا صورته كثيرًا فى الصَّحيفة : داريو إيتشانديا. ارتفعت السَّواعد إلى جواره تطالب بالصَّمت، لكنَّ الصَّيحات خنقت صوته. كنا نسمع أنَّه يطالب بالهدوء والسَّكينة والطمأنينة.

كان بيداليس يهزُّ رأسه متشكّكا :

إنَّ هؤلاء النَّاس لا يصلحون لكى يكونوا على رأس تمردٍ شعبىٍ.

وعلى النَّاصية كانت هناك مجموعة أخرى التفّت حول شخصية ترتدى حُلَّةً رمادية فاتحة وقُبّعةً.

يا زعيم كُن قائدا للشّعب.

من هو ؟ سألت بيداليس.

ردَّ رجلٌ يحمل على كتفه بندقية صيدٍ. كان مع جايتان عندما اغتالوه.

حاولنا الاستماع إلى ما يقوله :

... هيًا بنا إلى القصر لنطلب من أوسبينا التَّنازل عن الحكم. ينبغى عليه أنْ يرحل. إنَّ هذا الوضع لن يستطيع أنْ يسيطر عليه

وعلى بعد بضعة أمتار من هنا كان بعض الزّعماء الماركسيين يحاولون التّحدث إلى الجماهير الحاشدة من شرفة المسرح الملكى.

صاح أحدهم إنَّ الحل هو مجلس ثورىٍ للحكومة. مجلسٌ ثورىٌ.

لكن لم يسمعهم أحدٌ

قلت لبيداليس يا للفوضى.

وجدنا بعد ذلك طالب حقوق، لقبه روبيو، كان يأتى ببعض الأنباء.

قال لقد استولوا على إذاعتين

هل الحكومة ؟

لا الشّعب، وكذلك الفرقة الخامسة للشُّرطة.

لا تفشر.

كلمة شرف، لقد سمعت ذلك فى الإذاعة. وكتيبةٌ من المدَّرعات قادمةٌ من أوساكين لكى تستولى على القصر، الذى تدافع عنه كتيبة حرس الرِّئاسة. إنَّ الجيش مع الثَّورة.

وبعد ذلك بدقائق رأينا بالفعل دبَّابتين خفيفتين تتقدمان تجاه ميدان سيمون بوليفار بسرعة كبيرة. استطاع بعض الرِّجال الصُّعود فوقهما كانوا يلوِّحون بالأعلام الحمراء والسّنج وبعض الزُّجاجات.

مرَّت إلى جوارنا الدَّبابات بضجيج كبير ووسط هتافات.

قال بيداليس: لا يوجد شكٌ فى أنَّ الحكومة ستسقط هيَّا بنا إلى المنزل لنسمع الإذاعة. إنَّ أمى يمينيةٌ، يا للخوف الذى يستحوذ عليها.

أبعدت السيِّدة لويسا والدة بيداليس نظرها عن الجورب الذى كانت تُرقِّعه. وخلف نظَّارتها عيناها الزُّرقاوان الساحرتان كانتا تبرقان فى ضوء المصباح.

كانت تتحدث بصوتٍ عالٍ مثل الصُّمّ :

قال هل أفتح الرَّاديو ؟ لماذا ؟ لكى أسمع سكارى يقولون هراءات؟ لا يا بُنى، شكرًا.

كان قدماها فى خف من الصُّوف، وشعرها أبيض، وجيدها مستقيمٌ، كانت تبدو ملكةً تُشعُّ سفاهات.

كرَّرت عبارتها قائلةً: إنَّهم سكارى. وعلاوة على ذلك شيوعيون. حتى لا يترك بعضهم الآخر لكى يتكلَّم.

- يا ماما إنَّ الأمر عبارة عن ثورةٍ.

تركت الأم الحياكة.

إنَّها ثورةٌ.

كان ردُّ فعل السَّيدة لويسا قويًّا.

ثورة، هه، هه، ها. لا تضحكنى. إنَّك سفيهٌ يا رودريجو متى رأى الناس ثورة قام بها السُّكارى ؟

إن السَّكارى لا يفعلون شيئًا سوى السُّكر وبعد ذلك ينامون فى أىِّ مكانٍ.

كان بيداليس مسرورًا وتبادل النَّظرات معى. ينبغى أنّ تهمك آخر الأنباء يا والدتى. يبدو أن أوسبينا بيريث معلَّق فى عمودٍ بميدان سيمون بوليفار

منْ ؟

الرَّئيس.

صدرت عنها إيماءة عدم تصديق.

إنَّنى سيِّدةٌ مسنَّةٌ لكى أسمع حكايات سفيهةً جدًّا.

إذنْ هذا ما يقوله النَّاس.

لا يوجد أيُّ هندي من هؤلاء لديه القدرة على أنْ يمسَّ شعرةٍ واحدة من الدُّكتور أوسبينا. إنَّه رجل يبعث على الاحترام. على العكس فإنَّ جايتان... حسنًا عليه الرَّحمة ذلك المسكين.

كانت تنظر إلينا بعين الشَّفقة :

في جدِّية، ما رأيكم في ذلك الرَّجل؟ كان المسكين خلاسيًا مولَّدًا. كان يضع أستكًا في شعره، وينتعل نعلين صفراوين. كانت طريقته في الكلام بشعةً. وكلُّ ما فعله تحريض وإثارة الرِّعاع والسُّوقة. وها هم ترونهم سكارى يسرقون ويحرقون وهذا هو الشَّيء الوحيد الذي يجيدون القيَام به إذا ظلُّوا أحرارًا طلقاء. هذا إلى جانب إنجاب أبناء طائشين غير مسئولين. عجبًا لا يحق لهم أنْ يفعلوا ذلك. فكلُّ واحدٍ في مكانه المناسب إذا وصل جايتان للسُّلطة سيكون بمثابة ترك شئون منزلٍ محترمٍ وقورٍ في أيدي الخادمات.

ألم أقل لك. قال لي بيداليس. إنَّها ساكنة الكهوف لم تسمع الأم العجوز. إنها تحاول اختباري.

وأنت يا بني هل تسير مع هؤلاء النَّاس. سألتني والدتي.

أيضا "يا سيدة لويسا.

بالطَّبع يا والدتي، أكَّد بيداليس رأيته اليوم وهو يسطو على محلات الحدايد. أخذ منشارًا.

يا رجل طالما أنك حكيت لها ذلك، تحدَّث لها عن السَّنجة التي أخذتها عنوةً من ماسح الأحذية.

كانت نظارة السيدة العجوز تنطلق منها ومضات برقٍ من الدهشة.

أيُّ منشار، وأيَّة سنجة ؟

الموجود هنا إلى جوار الباب، كنت لن تعرفى نجلك يا سيدة لويسا. كان يسير فى الطَّريق السَّابع شاهرًا سنجته إلى أعلى كانت مجرَّد رؤيته تخيف الإنسان.

كاد بيداليس أنْ يقع من الضَّحك.

لكنَّ السَّيدة لويسا كانت فضوليةً.

أكانت سنجةٌ مسروقةٌ ؟

قال بيداليس : سنجةٌ منزوعة الملكية.

تعجَّبت العجوز قائلةً: هذا أمرٌ جميل ! هذا ما كان ينقص الأسرة : لصٌّ.

(هزَّت رأسها) عجبًا، يا لحظك يا إيزابيل بليستريو. أصبح نجلها كاميلو قسيسًا لو كان معكما لأصبح سفَّاحًا. لتناول المشروبات الكحولية فى لاس كروثيس ولصا على المحلات.

احمرَّ وجه بيداليس من الضَّحك.

يا ماما من فضلك. دعينا نفتح المذياع. لابد أنْ تعرف ما الذى يحدث الآن.

قالت العجوز : على جثَّتى.

سقط المطر وكان الهواء مشبَّعًا بالدُّخان، وكان الليل ذا لونٍ بنفسجيٍ. قد توهَّج بسبب نور الحرائق.

تُسمع طلقات من بعيد.

لا تُرى سيّارات فى الشّوارع

تسللت أشباحٌ رثّة الملابس بطول الأسوار وهى تحمل صناديق نتيجة عمليات السّلب والنّهب.

مرّت مجموعةٌ تحمل ثلاجةً بمشّقةٍ، وباحترامٍ بالغٍ وكأنّها تحمل تابوتًا.

مرّت امرأة ريفية تضع على رأسها إيشاربًا تحمل مذياعًا ضخمًا.

قال لى بيداليس أُنظر كيف أنّ السّماء صافيةٌ. إنّ وسط بوجوتا يحترق. عجبًا لم يحدث من قبل أنّ يتسبّب قتل شخص فى تلك الأهوال الكثيرة فى هذا البلد.

كانت العمّتان أميليا وروساريو تجلسان، مثل كلّ ليلة، حول المذياع، لكن بدلاً من الاستماع إلى مسلسلات إذاعية كانتا تستمعان إلى موسيقى كلاسيكية. كانت جميع الإذاعات تبث بالاشتراك مع الإذاعة الوطنية. فى انتظار بيان الحكومة بين لحظةٍ وأخرى.

سأل بيداليس: من أيّة حكومةٍ ؟

إنّهما لا يعرفان.

جاءت بياثريث من منزل الجارة بأنباءٍ جديدةٍ طازجةٍ استولى الجيش على الإذاعات بما فى ذلك إذاعة غرناطة الجديدة التى توجد فى نهاية شارعنا.

كان الزُّعماء الليبراليون يلتقون فى القصر مع الرئيس أوسبينا بيريث. إنَّ المدرَّعات التى رأيناها فى الطَّريق السَّابع لم تكن للاستيلاء على القصر بل للدِّفاع عنه. عندما وصلت إلى هناك استدارت وأطلقت النِّيران على الجموع الحاشدة. سقط كثيرٌ من القتلى. ومستشفى بومبيليو مارتينيث الكائن فى شارعنا أيضًا، لا تستطيع استقبال مزيدٍ من الجرحى.

يستحيل الخروج إلى الشَّارع؛ فالجنود يطلقون النِّيران فورًا على كلِّ من يتحرَّك لذلك ظلَّ بيداليس فى المنزل، لكنه وأنا وبياتريث لم نستطع النَّوم كنَّا نترقَّب أنباء الإذاعة، وكنا نسمع فى ذعرٍ تام طلقات الأعيرة النَّارية. تناولنا القهوة وانتظرنا.

إنَّها مذبحةٌ فلا أحدٌ يطلق النِّيران عليهم.

عندما بدأ النَّهار يشقشق، أطللنا على الاستراحة بحذرٍ. منذ فترةٍ من الوقت لم تسمع طلقات النِّيران.

كانت السَّماء تمطر وما زال الضَّوء خافتًا تُهيمن عليه الشَّبورة كان الشَّارع هادئًا ومبلَّلاً، وقد فاجأنا طيفان أحدهما أسود والآخر أبيض كانا يتحرَّكان وكأنَّهما شبحان صوب طردين فى الشَّارع، كان الطَّردان عبارة عن جثَّتين أما الطَّيفان فكانا قسيسًا وممرِّضةً. لقد أحصينا اثنتي عشرة جثَّة كان بعضها على الرَّصيف والبعض الآخر على الأسفلت، كان بعضها على ظهره والبعض الآخر على بطنه وكانت أيدى الجثث تمسك صدورها أو أمعاءها بشدَّةٍ كان

أصحابها بؤساء لا يجدون من يرعاهم وقد ظلُّوا فى المطر بالشَّارع. كانت ملابسهم مبلَّلةً بالماء.

كان القسيس يتحرَّك ببطءٍ بين الجثث، يتوقَّف إلى جوار كلِّ جثة، يدعو لها وقد ضمَّ يديه ثم يباركها. كانت الممرِّضة قصيرة القامة تتبع القسيس فى سلاسة.

ثم انصرفا بعد ذلك.

كنا نسمع ضحكات الجنود خلف أجولة الرَّمل. كان بعضهم واقفًا ويتقاذفون البرتقال فيما بينهم.

جاءت سيارة نقل عسكرية وحملت القتلى كان الجنود يضعون منديلاً على وجوههم، كانوا يرفعون الجثث ويلقون بها فى السَّيارة وكأنها أجولة بطاطس.

قتلوا رجلاً آخر فى الثَّامنة صباحًا.

إنَّه سكران ظهر فجأةً على النَّاصية ومعه سنجةً فى يده وعلمًا أحمر فى يده الأخرى. يبدو أنَّه ظلَّ نائمًا أمام باب مبنىً ما والآن يبدو مذهولاً، مترنِّحا دون اتجاه، وما زال مفعمًا بالمشروبات الكحولية.

عندما سمع صرخات الجنود، وجَّه نظراته إلى ذلك الاتجاه.

رفع العلم عاليًا وهتف للحزب الليبرالى.

ثم توجَّه بلا حكمة أو تروٍّ صوب الإذاعة، إلى أجولة الرَّمل وإلى الجنود الواقفين خلفها، وهو يترنَّح ويلوِّح بعلمه.

قال لهم: أطلقوا النِّيران. أطلقوا النِّيران، فلقد قتلوا الزَّعيم الآن ويوسعكم أنْ تفعلوا ذلك معى أيضًا. إنَّ هذا لا يهمنى على الاطلاق !

وباليد نفسها التى يحمل بها العلم، فتح معطفه لكى يعْرض صدره للجنود

كرَّر عبارته أطلقوا النيران بصوت سكرانٍ

كانت امرأةٌ عبر نافذة تصيح له بشىءٍ : علَّه يرجع وألاَّ يكون مجنونًا.

نظر إليها الرَّجل حائرًا، وفى اللحظة نفسها سمعنا صراخ بياتريث والطلقة النَّارية.

سقط الرَّجل جالسًا. ظلَّ يلوِّح بعلمه وهو على الأرض ويكيل السِّباب للجنود.

أردته قتيلاً رصاصةٌ أخرى.

سمعنا توًا فى الإذاعة أنَّه تمَّ التَّوصل إلى اتفاق وُصِف بأنَّه وطنىّ : سيشارك وزراء ليبراليون فى حكومة الرَّئيس أوسبينا بيريث. كان وزير الحكومة داريو إيتشانديا.

ارتعدت يدا بيداليس وهو يتناول القهوة. ويبدو أنَّ أنفه قد انتصب فى وجهه، وكانت عيناه حمراوين من قلَّة النَّوم.

يا لها من مهزلةٍ! صاح. توصَّل الليبراليون والمحافظون إلى اتفاقٍ فى القصر بينما يقتل الجنود أفراد الشَّعب فى الشَّوارع. اتحدت الطبقة البرجوازية،

إنَّها خائفةٌ. لقد اكتشفت توًا أنَّها تعيش على فوهة بركان.

إنَّنى أشارككم الرَّأى. الآن لكن يكون أىُّ شىءٍ كما كان من قبل. كانت هناك أنقاض وحديد مموَّجٌ وأحجارٌ متفحِّمةٌ، قطع أثاث التهمتها النِّيران، زجاج وأجزاء من الجدران ما زالت قائمةً بصورةٍ مؤقَّتةٍ يرثى لها: كان وسط العاصمة بوجوتا يشبه صور المدن الأوروبية بعد عملية قصفٍ منظمةٍ.

كنا نسير فوق أنقاضٍ وأيدينا مرفوعة، مذعنين لأوامر الجنود. مازال هناك بعض القنَّاصين على السُّطوح، وكان الجنود متوتِّرين.

حكى لى عن زيارته للجبَّانة قبل ساعتين. هناك رجالٌ كثيرون سيضطرون إلى إحراقهم. كم رأيت ؟

كانوا كثيرين جدًا على الأرض فى جميع الطُّرقات. هل تعرف من الذى قتلوه ؟

منْ؟

إيسبيتيا.

إيسبيتيا البوَّاب

هو بعينه.

هذا مستحيلٌ.

لقد تعرَّفت على الجثَّة. هكذا بسرعة. كان لديه طلقةٌ فى العنق أعطيت اسمه لكى يتحقَّقوا من هويته.

لابد وأنْ تكون له أسرة.

كان يسير إلى جوارى، ودائما أيدينا مرفوعة، يصَفق بيداليس على الأرض.

بعد أنْ قتل جايتان فإنَّ اتفاق المحافظين والليبراليين ما هو إلاَّ ملهاةٌ هزليةٌ. ممَّا سيجعلنى اذهب إلى الجامعة الآن، وسأنتسب إلى الحزب الشيُوعى.

عجبًا لقد كنت مفقودًا. ماذا فعلت ؟

كنت أقضى أمسيات فى المكتبة الوطنية.

ماذا كنت تفعل ؟

لن تصدِّق ذلك، كنت أقرأ أشعارًا

أشعارًا ؟

أشعارٌ بالفعل.

إنَّك ضائعٌ. أشعار من ؟ لـ خوليو فلوريث؟ لم يصل الأمر لهذا الحد. لـ بودلير لـ ريمبو هل تعرف أنَّنى سأذهب إلى باريس ؟

هل جديًّا ؟

نعم، يا رجل. كما يقول المؤرِّخون الاجتماعيون، إنَّنى فى حاجة لاستئناف هواء آخر. إنَّ هواء بوجوتا كانت له رائحةٌ راسخةٌ لدى دائمًا ولا أدرى لماذا، رائحة الجنازات والموتى رُبمًّا يكون ذلك بسبَّب عمتَّى المسكينتين. إنهما لا يتحدَّثان إلاَّ عن الموتى طول

الوقت تتحدثان عن موت قريتهما، وأنَّ قريتهما ماتت أيضًا بالنِّسبة لهما.

فى مكان صغير. اكتشفت فى الواقع، نظامًا لكى أعيش بقليلٍ من المال فى باريس: أقوم باستبدال جزءٍ من دولارات حصَّتى كطالبٍ وأبيعها فى السُّوق السَّوداء. إنَّ كثيرين يفعلون ذلك.

وماذا تفكِّر فى دراسته ؟

ربَّما الفلسفة والآداب.

فلسفة وآداب ؟

لقد كانت تعبيرات وجهك مثل عمِّى تمامًا عندما أخبرته بذلك.

فالآن يريد أنْ أدرس إدارة أعمال.

إذن بفلسفتك ستموت جوعًا.

لقد قال لى عمِّى الكلام نفسه.

حسنًا، إلى هنا التَّشابه بينى وبين عمِّك. إنَّه من أنصار حكومة القلَّة وأنا شيوعىٌّ

هل انضممت بالفعل ؟

إلى الشَّبيبة الشَّيوعية. إنَّنى أسافر كثيرًا فى أرجاء بيوتا. إنَّنا ننظم جماعات للدِّفاع الرِّيفى. لقد بدأت الشُّرطة تقتل أناسًا فى المنطقة.

فى كلِّ مكان.

هل رأيت ما حدث فى سانتنـديـر وبوياكا؟ قرى كاملة خاليةٌ من الشُّرطة. كانوا عرضةً للقتل كلَّ يوم. لقد قلت لك ذلك. لقد أيقظهم جايتان، كان أهالى القرى يقتلونهم بالحديد والنَّار.

نعم، بالحديد والنَّار.

إذنْ أنت تذهب فى وقتٍ مناسبٍ. فالجو هنا قاتمٌ جدًّا.

إنَّ للحياة ظروفها الغريبة. أنت شيوعىٌّ. وكاميلو قسيسٌ.

وأنت ماذا ؟ هل ستكون شاعرًا ؟

دعك من المزحات.

متى عنَّت لك فكرة...؟

فكرة ذهابى؟ وأنا أقرأ كافكا. هل تعرف قصَّته تلك التى عنوانها الرَّحيل ؟ إنَّنى أعرفها من الذَّاكرة: "وعلى مسافة سمعت نفير البوق فسألت الخادم ماذا يعنى ذلك. لم يكن يعرف شيئًا ولم يسمع شيئًا. استوقفنى عند الباب وسألنى: إلى أيَّن يذهب السَّيد ؟

لا أدرى، قلت له. فقط سأرحل عن هنا، سأرحل عن هنا لا شىء أكثر من ذلك إنَّها الطريقة الوحيدة لكى أُحقِّق هدفى "

إنَّك ضائعٌ تمامًا.

الفصل الخامس

- ١ -

كنا قد خرجنا للقيام بجولة في المدينة التي اقتصرت على منطقة صغيرة : بعض الشوارع حول الكاتدرائية ومباني السوق العام. كانت طيور الزيز تحلق في سماء وردية وقت الغسق. وضع ذراعه فوق كتفي جاكلين. كان في حاجة ملحة للاقتراب منها والإحساس بأنها إلى جواره. كان عليها أن تدرك ذلك، وقد كيف خطواته، بصفة غريزية، مع خطواتها فكانا يتماسان في سيرهما. كان لا يزال يتذكر ماريا، كان فى ذهنه يتحدث معها يقول لها معذرة يا ماريا، معذرة إنني عدت إلى باريس مع هذه الفتاة، فالهواء عليل هنا بالقرب من الكاتدرائية. بالأمس حيث تحلق العصافير وأنا ما زلت هنا فى هذه الأرض. لا يوجد شيء آخر في هذا الصدد. معذرة لكننى لا أريد على الإطلاق أن أعيش فى جو الحزن والموت ولا فى الشيخوخة، ولا فى الحكمة والعقل. إننى أكره الاستسلام والحزن والموت والخوف، كل هذه الأمور

التي تكتسي بالملابس السّوداء التي كنت أستنشقها وأنا طفلٌ. كانت وجوه الرّب والقديسين ملطّخةٌ بالدّماء. فليس لدى سوى هذه الحياة، هذه اللحظة، هذا النُّور الجميل، هذه الفتاة التي ستحمل على ظهرها غداً مخلاةً. أمسك جاكلين بقوة من خصرها وجذبها تجاهه وقبّل عنقها. لقد أدركت قيمة ذلك هكذا فكّر إيرنستو، فهي تعرف الأمر جيّدًا. ولا ينبغي أنْ أحاول إجبارها أو احتباسها لأنّها فتاةٌ حرّةٌ ولا ينتابها خوفٌ. وذات يوم سيقتلونها فى إحدى الُّطرق، أو سيحبسونها بين أربعة جدران لكونها تشترى أو تبيع الكوكايين أو تزاول السّرقة، لكن على أيّة حال كانت جاكلين تعيش بالطريقة الوحيدة الممكنة، دون أنْ تتشبّث بشيء، أو تخاف من شيء.

قال لها إيرنستو إنّنى أشعر بالارتياح معك

قالت له جاكلين: وأنا أيضًا.

كانت مارجى فى سهرة حمراء مع جريتا جاربو دى تشاينا بايتا ينبغى أنْ يكون القطُّ ذو العينين الزّرقاوين مشاركًا فيها. قالت له جاكلين ضاحكة إنّه يُسمّى فيكتور.

هنيئًا لهما. ولفيكتور أيضًا. إنّني فى حاجة إلى تناول مشروب بارد، وربّما أتناول شمّامةً. إنّ الليلة القادمة لطيفةٌ. انظرى كم هو جميلٌ الضّوء فى الميدان. هل تريد كأسًا من النّبيذ الأبيض ؟ هناك توجد حانةٌ.

قالت جاكلين :

أنا، أنت تعرف جيداً أنى لا أشرب إلاَّ الشمبانيا.
يا لك من دمارٍ. فلندخل إذنْ.

عندما أخرج الغطاء من الفلّين كان الرّجال الذين يجلسون على منصّة البيع يشربون قد أطلقوا تعجباتهم ومزحاتهم، وكان على صاحب الحانة أن يقوم بأدوار بطوليةٍ مع الزّجاجة حتّى لا ينسكب زبد الشّمبانيا. ملأ الكأسين. كانا جالسين أمام الميدان، وعلى الجانب الآخر كانت الكاتدرائية. كانت السّماء تكتسى باللون البنفسجى مرَّةً أخرى.

قال الرَّجل الذى كان يجلس على الطّاولة المجاورة : عيد سعيد وسألته جاكلين هل تريد كأسًا؟

شكرًا يا آنسة ردَّ عليها الرَّجل الذى كان مظهره ريفيًا معاقرًا للكحول. هذا سيجعلنا سعداء.

قال إيرنستو. تعال تناول كأسًا صغيرًا.

قال الرَّجل وهو يقرِّب كأسه خاويًا طالما أنَّكما تصرَّان. كان فى الأربعين من عمره، وكانت يداه كبيرتين وحمراوين، وكانت أظافره بها سوادٌ فى أطرافها ـ قال لهما وهو يرفع كأسه: فى صحتكما.

شرب جرعة شمبانيا.

أنا اسمى إيرنستو.

قال إيرنستو وأنا أيضًا.

هزَّ الرجل رأسه مندهشًا.

هذا مستحيلٌ ـ قال وهو يَمدُّ يده ليصافح يد إيرنستو من أيْن أنت ؟ هل أنت مصريٌّ؟

من بلدٍ لا تعرفها. من كولومبيا، أمريكا الجنوبية.

قال الرَّجل: بالطَّبع أعرفها. إنَّ تعدادها خمس وعشرون مليون نسمه وعاصمتها بوجوتا. أهم المدن ميداين وكالى وبرَّانكيا.

كان ينطق هذه الأسماء بتؤدةٍ وبلكنةٍ فرنسيةٍ كان يلاحظ أنَّه شرب كثيراً.

سأله إيرنستو مذهولاً. هل كنت هناك ؟ نفى الرَّجل برأسه.

إنَّنى لم أتحرَّك من هذا المكان أبدًا اللهم إلاَّ عندما كنت فى الخدمة العسكرية. شرب جرعة أخرى من الشَّمبانيا. ثم نظَّف شفتيه بظهر يده. قال لهما تريَّثا... وأخرج من جيب أفاروله أجندةً كبيرةً غلافها ملَّطخٌ بالزَّيوت والدُّهون وقد حزَّمها بأستك. تصفَّحها بسرعةٍ. كانت مليئة بالخرائط. هل انتبهتما ؟ لدىَّ العالم فى جيبى. دون الحاجة إلى أنْ يكون اسمى كيسينجر. قالت جاكلين ضاحكةً : أنت خبيرٌ فى الجغرافيا. فأنت أكثر درايةً من كسينجر. فكيسينجر فى الحقيقة إمعةٌ قال الآخر : أحسنت انحنى تجاه إيرنستو. كانت رائحتة بغيضةً تنمُّ عن أنَّه شرب خمرًا زهيد الثَّمن. وقال له: إنَّ علم وطنك أصفر وأزرق وأحمر

أليس صحيحًا؟(*)

بلى.

(*) Pas VRAI، بالفرنسية فى الأصل.

هل تعرف لماذا ؟

ليست لديَّ أدنى فكرة. بسبب فتاة كان يحبها بوليفار كانت شقراء قال السَّكرانُ وكانت فتاةً حسناء. وقال لها بوليفار : سيكون علم بلادى أصفر مثل شعرك، أزرق مثل عينيك وأحمر مثل خدَّيك. هكذا كان الأمر. كان بوليفار محبًا للنِّساء. يا للقذارة –قال إيرنستو وهو يلتفت إلى جاكلين التى كانت تتابع المحادثة المسلِّية. إنَّه ليس جغرافيًا فقط بل مؤرِّخًا رغم كونه فرنسيًا... عندما أتذكَّر ذات مرَّةٍ أنَّ إيفيس مونتان سألنى عما إذا كانت كاراكاس فى بيرو.

التفت إلى الرَّجل.

فيم تعمل ؟

هزَّ الرَّجلُ كتفيه

قال لديَّ سيَّارة نقل.

- ٢ -

أكلا فى لوكاندة قديمة، على أضواء شموع، عند عودتهما للفندق، كانا يسيران فى شارعٍ ضيق وقديمٍ يسمعان وقع أقدامهما. لم يريا أحداً. كانت المدينة تبدو نائمةً خلف الستائر المغلقة. كانا يسيران على غير هدى يمسك كلٌّ منهما بيد الآخر.

يا لرائحة الهواء الزكية هنا. قالت جاكلين أريد قليلاً من الشمبانيا. كانت الحقول هنا، فى الآخر، خلف ذلك والإعلان الأخضر هناك تنتهى المنازل وتبدأ المروج. إننا قريبان جداً من غابة رامبوليه.

كان الضوء الأخضر فى سقيفة إلى جوار موقف سياراتٍ مهجورٍ.

وقفت جاكلين وإيرنستو لكى يتأملا الاعلانات أو اللافتات. كان هناك شابٌ يجلس إلى جوار المدخل، كان ذا شعر طويل، وكان يستنشق الهواء العليل.

كانت دورسينما القرى متشابهة فى جميع الأنحاء.

قال إيرنستو بمزاحٍ وهو ينظر إلى تلك الاعلانات التى كانت تزيّن الفناء القبيح. كانت الاعلانات التى تعلن عن الأفلام مكتوبة بخط اليد وقد تّم تثبيتها بمسامير فى لوحة الاعلانات. أدْهشه أن رأى عنوان فيلم "الدنيا تمطر فوق سانتياجو" عجبًا إنّه فيلم عن سقوط سلفادور الليندى.

سألته جاكلين هل تريد مشاهدته ؟

أوه، لا، فالوقت متأخّرٌ

سألت جاكلين الشّاب هل بدأ منذ وقت طويل؟

قال إنّه على وشك الانتهاء. بعد ذلك هناك مناظرة رآهما وهو يغلب عليه النّعاس. إذا أردتما الدّخول....

لستما فى حاجة إلى أنْ تدفعا شيئًا.

نظر إيرنستو وجاكلين كلٌّ منهما إلى الآخر.

قالت جاكلين لماذا لا ندخل ؟

كانت هناك مقاعد كثيرة خاليةٌ بالدّاخل. كانت الشّاشة تضيء بأضواء مفاجئة ودوّى القنابل له صدىً كبيرٍ فى الصّالة الصّغيرة المظلمة. ظهر طيف رجل على رأسه قُبّعه واقية ومدفع رشّاش فى يده، ينبغى أنْ يمثّل سلفادور الليندى.

همس إيرنستو إلى جاكلين قائلاً لها: إنه يُصوِّر الاستيلاء على قصر لامونيدا (العملة). تركته الفتاةُ يضع رأسه على كتفها. لم يكن من الصَّعب عليه أنْ يتابع تلك المشاهد الأخيرة. على سلالم قصر الرِّئاسة، سقط الليندى وأصدقاؤه بالبطيء عندما أصابتهم طلقات الرشَّاشات. عندما أضيئت الأنوار، دوَّت بعض التَّصفيات كانت بها صفوف من المقاعد ومصباحان فى السَّقف نهض رجلٌ شابٌ ذو لحيةٍ من مقعده وتوجَّه إلى الجمهور.

كما قلت لكم قبل بدء عرض الفيلم، إنَّه فيلمٌ تاريخيٌ أعده أناسٌ كانوا شاهدين على الأحداث وأحيانًا أبطالها، هذا الفيلم تمَّ بإسهامٍ من السُّلطات البلغارية. كانت نواياها تتركَّز على الصَّعيد السِّياسى بالطَّبع، ولكن أيضًا على الصَّعيد الإنسانى

كان إيرنستو يستمع بمزاحٍ إلى المداخلات الخجولة للمشاركين. كان بعضهم شبابًا يساريًا والبعض تجارًا أصابهم الملل لم يفهموا ذلك الخطب الجلل لكلٍّ هذا الصَّخب. سأل أحدهم لماذا كان سلفادور الليندى يضع واقيًا على رأسه.

همست له جاكلين قائلة: كان ينبغى عليك أنْ تكون هناك على المنصَّة.

لا يا امرأة كفى عواطف اليوم.

خرجا فى هدوء تاركين اثنين من المشاركين فى نقاش حارٍ ومتحمِّس عن نقاط ضعف الدِّيموقراطية الاجتماعية.

ومن ملاءمة أو عدم ملاءمة العنف الثّوري

كانا يسيران في طريقهما إلى الفندق في الظلام الخفيف الذي كانت تغلب عليه رائحة الحقول ونقيق الضفادع.

كان الفيلم مليئا بالعبارات الرّنانة ـ قال إيرنستور وكانت نهايته جديرة بأنْ تكون نهاية أوبرا صينية، لقد قاوم الليندي ببطولةٍ حتى النّهاية، لكنه لم يمت بطريقةٍ بليغةٍ لائقة.

قالت جاكلين: بالتّأكيد. إنّ العبارات الرّنانة تجعلها تستفرغ. لهذا السّبب أمقت لحظات الوداع. دائما كنت أنتقل من مكان إلى آخر دون أنْ أقول شيئًا لأحدٍ.

ففي الضّوء الخافت لمصابيح غرفة النّوم بالفندق كان الفراش يرى لطيفًا بالملاءات والوسائد النّظيفة جدًا.

تأخّرت جاكلين وقتًا طويلاً في الحمّام. أمّا إيرنستو فقد اضطجع بعد أنْ فتح المذياع منتظرًا إيّاها. كانت به موسيقى جاز لطيفة.

خرجت من الحمّام وفي يدها سيجارة ماريجوانا وقد جمعت شعرها بدبّوس.

- ٣ -

استيقظ إيرنستو توًا.

قال لها يبدو أننا كنا نحلم

قالت جاكلين ضاحكة: لم يكن بالتّحديد حلما. كانت الغرفة قد غمرها الضّوء والسّماء تُرى من النّافذة المفتوحة، كانت زرقاء، بلا غيوم ترى فوق أسطح المنازل والمباني بالمدينة والحقول البعيدة.

سمعا دقات جرس من بعيد

قال إيرنستو يا للهدوء

إنّه يوم أحد.

كان بلا شك من المنتظر أنْ يكون يومًا حارًا جدًا. كان إيرنستو يغلب عليه النّعاس حتى الآن،ظلّ شاردًا يستمع إلى الضّجيج القادم من بعيد : صوت درّاجة بخارية، صياح أطفال فى الحديقة. كان يفكّر فى أيّام الأحد عندما كان بالمدرسة الدّاخلية، وكانت جدّته تأتى بعد القدّاس لتراه.

تمتم إيرنستو قائلاً: إنَّ أيام الآحاد متشابهة فى جميع الأماكن.

قالت جاكلين: نعم

كانت نبرة صوتها تنمُّ عن ملل، وقد لاحظ إيرنستو ذلك.

هل تريدين العودة إلى باريس

أفضل ذلك، ألا ترغب فى هذا ؟

على العكس

هل أستطيع البقاء فى شقَّتك؟ ألنْ يسبِّب ذلك مشاكل لك ؟

على الاطلاق. إنَّنى أعيش وحدى.

إنَّ فكرة أنْ تظلَّ لبعض الوقت لتعيش معه سبَّب له إحساسًا لطيفًا. كان مريحًا أنْ يتخيَّلها وهى تستيقظ إلى جواره، حسناء بتلك الرَّائحة الزَّكية لحقول زهرة اللافاندا، كان يفكِّرُ فى ذلك أثناء العودة، بينما كانا يسيران بالسيَّارة فى الطَّريق السَّريع تجاه باريس فى الضَّوء القوى لظهيرة يوم فى الصَّيف.

كانت جاكلين صامتةً

أنت حزينةٌ يا امرأة، ماذا حدث لك ؟

قالت جاكلين ليس شيئًا ذا بال، أو إنَّنى فى باريس أكون هكذا. إنَّنى أريد الذّهاب إلى أىِّ شاطئ، على ساحل البحر. لكننى لا أريد الذهاب إلى السَّاحل الأزرق. إلى ساحل جزر الأزور.

إلى طنجة ؟

طنجة، المغرب أبعد من ذلك بكثير.

أحسَّ إيرنستو ببرد فى فم المعدة

وما الذى يستوقفك ؟

النُّقود.

نعم.

إنَّنى أريد الحصول على عملٍ لبضعة أيَّام. أحتاج فقط إلى ما هو ضرورى للسفر.

ألاحظ ذلك

بدأت تشعر بقلق كان إيرنستو يعرفه جيِّدًا. فكَّر بهدوء. إنَّها تريد الذَّهاب وحدها. هذا أمرٌ طبيعىٌّ. إنَّها تفكِّر فقط فى الرَّحيل، ابتسمت وهى تنظر عبر الزُّجاج جانبًا من الطَّريق السَّريع وكانت قباب وأبراج باريس تظهر فى الأفق فى ضوء ظهر اليوم. فكَّر قائلاً دعى الفراشات تطير. دعيها ولا تحاولى الإمساك بها.

هل أنت فى حاجة إلى نقود كثيرةٍ ؟

أحتاج إلى ألف فرنك، خمسمائة على الأقل للذهاب، على الأقل للذَّهاب ألا ترى ؟

سأقرضك هذا المبلغ.

أحسَّ بأنَّ نظرتها عادت إليه هادئة.

إنَّنى لن أستطيع أنْ أسدِّدها لك أبدًا.

ليس مهمًا.

هل تستطيع أنْ تفعل ذلك بلا مشاكل ؟

أوه بالنّسبة لمشاكل النّقود سأظلُّ أعانى منها طوال حياتى يا جاكلين. أحيانا كبيرة وأحيانا أخرى صغيرة. إنَّ الحجم هو الشّىء الوحيد الذى يتغيَّر.

أدرك أنَّها ما تزال تنظر إليه.

سمعها تقول : أقترح عليك أمرًا.

أخبرينى به.

تعال معى.

إلى أيْن؟

إلى أىِّ مكانٍ.

هل إلى طنجة، إلى المغرب، إلى الصّحراء ؟

إلى موريتانيا وأبعد من ذلك. لِمَ لا ؟ أنت وحدك... أنت ليس لديك شىء يربطك بهنا، وبالتالى سوف أحس بالسعادة معك.

أحسَّ إيرنستو بأنَّ قلبه ينقبض، لكنَّه ضحك وكانت عيناه تركّزان فى الطّريق دائمًا.

قال لها إنَّ سنّى كبيرٌ. سأكمل الخامسة والأربعين فى إبريل القادم.

وماذا يعنى ذلك ؟

يا أيها المستبد. إنَّ الثّور الكبير يشعر بالارتياح بزهرة لوتس جميلة. لكن الثّور الكبير عجوز وزهرة اللوتس شابةٌ جدًا.

إنَّ الثور الكبير العجوز لم يتعلَّم النَّوم في الحقول وعلى الشَّواطيء يلتحف بالنَّجوم. إنَّ الثَّور الكبير العجوز يعيش مثل الوجوه الشَّاحبة. إنَّه يعرف فقط نجوم الفنادق.

هائل، دعك من الحديث مثل طرزان.

كانا يدخلان باريس عبر جسر أورليانز.

طلبت جاكلين التَّوقف عند شقَّة مارجي لكي تأخذ ملابسها، انتظرها إيرنستو داخل السَّيَّارة في الوقت الذي صعدت فيه إلى الشَّقَّة. رآها تظهر بعد ربع ساعة وهي تحضر مخلاةً على ظهرها. لقد ارتدت بنطلون جينز أزرق وبلوزةً.

قالت له إنَّ صديقتك كانت مع مارجي في الفراش. قالت ذلك بعد أنْ وضعت المخلاة على المقعد الخلفي.

عجبًا إنَّها بذلك ستهجر خطيبًا آخر قبل الزَّواج.

سألتني عنك فأخبرتها بأنَّني ألقيت بنفسي في نهر السِّين. من الغضب يا جاكلين. ألا تشعري بالجوع

التفتت تجاهه، جادَّةً للغاية.

يا إيرنستو إذا استطعت أنْ تُعيرني تلك النُّقود...؟

أريد الرَّحيل عن باريس هذا المساء.

انظري لدى الآن ثلاثمائة فرنك فقط وورقة فئة عشرين دولار، أحتفظ بها دائما في محفظتي... إنَّها

بمثابة تعويذة مقدَّسة. لكن لو أعطيتك إيَّاها، ستظلُّ تجلب لي الحظَّ السَّعيد.

هذا كاف أو أقَّل. إنَّه كاف للوصول... إلى آخر العالم ضحك إيرنستو. أحقيقة تشعرين بالجوع ؟ بوسعنا أنْ نشتري فواكه وسلطة من محل مووف(*) وستتبقَّى نقودٌ.

وهو كذلك.

بعد شراء شمَّامة ونصف رطل خوخ، وخسَّة وزجاجة خمرٍ تناولا طعام الغداء في شقَّته بشارع يعقوب إلى جوار نافذة،وهما يرقبان ذهاب وإياب الحمام في فناء تغمره الشَّمس.

ثم بعد ذلك اصطحبها إلى ميناء أورليانز، حيث يبدأ الطَّريق السَّريع المؤدي إلى الجنوب. كان هناك شبانٌ يحملون مخاليهم على ظهورهم، يحملون لافتات تجاه السَّيارات بأسماء ليون وأورليانز ومارسيليا.

كانت حسناء شقراء بتلك البلوزة المفتوحة... إنَّها شركٌ يا جاكلين. أي شخصٍ سيأخذك.

إنَّني أعرف ذلك. ابتسمت جاكلين

لقد توقَّفنا أمام إشارة مرور إلى جوار الرَّصيف حيث كان الشباب الذين يستوقفون السَّيَّارات لكي تحملهم إلى المكان الذي يقصدونه

نظرت إليه جاكلين بعينيها الواسعتين الصفراوين وهي جادَّة.

(*) Muff، بالفرنسية في الأصل.

وقالت بصوتٍ خفيضٍ

لماذا لا تأتى معى ؟

حاول إيرنستو التَّبسُّم. كانت لديه غصَّةٌ فى حلقة عندما يموت الثُّور الكبير العجوز ويولد من جديد سيجعل زهرة اللوتس جميلةً جدًا. سيسير فى الطُّرق. إنَّه يعرف الآن. لكن الوقت متأخِّرٌ إلى حدٍ ما، لقد ضُيِّع دون جدوى.

يا أيُّها الغبي. قالت جاكلين وهى تفتح باب السَّيارة. قبَّل كلٌ منهما الآخر. نزلت جاكلين وعندئذ لفَّ جهة اليسار تمكَّن من رؤيتها، لآخر مرةٍ وهى تضع مخلتها على ظهرها.

ابتعد إيرنستو دون أنْ يدرى فى أىِّ اتجاه سيسير.

أكتوبر ١٩٧٨

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالفينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى» رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «اسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيتّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستِّلُو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بيربيارويبا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديفاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديفاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيفين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موربيل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيال بناك»
رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غدًا.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية..
جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم
فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ أن نُصبح أغرابًا.. للكاتبة الإنجليزية «لويز
دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا
بيلي».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

٨٣ ـ بيتر كامينتسند.. للكاتب الألمانى «هِرْمَن
هيسّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

٨٤ ـ بيت السيد بيسواس.. للكاتب من ترينداد «ف.
س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

٨٥ ـ مدريد الأصيلة.. للكاتب الإسبانى «كارلوس
أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

٨٦ ـ لافينيا.. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى
ليجوين».. رواية «جائزة ديمون نايت التذكارية
الكبرى».

٨٧ ـ أشجار متحجرة.. للكاتبة المكسيكية «أمبارو
دابيلا».. قصص.. جائزة بيربيارووبيا.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

هى سنوات الخمسينيات فى أمريكا اللاتينية خلال فترة الاضطرابات الكبرى، حيث كان شباب أمريكا اللاتينية مضطرًا إلى الهروب خارج بلاده. ولكن عيونه كانت متوجهة دائمًا إلى بلاده للبحث عن الحرية السياسية للوصول إلى حياة أفضل. وقد تحقق لهم ذلك على الأقل أثناء العقود الثلاثة الأخيرة التى شهدت انعتاق معظم بلدان أمريكا اللاتينية من أسر الدكتاتورية التى تمثل العقبة الأولى أمام نمو الشعوب وتطورها.

فى رواية "سنوات الهروب" سيكون الهرب إلى باريس التى ستدور على أرضها أحداث الرواية وستنتشر فيها الكثير من أفكار أبطالها / شباب أمريكا اللاتينية وفورات ثوراتهم وأحلامهم لتحقيق العودة إلى وطن حر.

الروائى: بيلينيو أبوليو ميندوثا، كاتب كولومبى.
الجائزة: جائزة بلازا إى خانيس عام ١٩٧٩.





ISBN# 9789774217067



الهيئة المصرية العامة للكتاب